الخطابة وإعداد الخطيب

الأستاذ الدكتور

عبد الجليل عبده شلبي

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية سابقاً

مصر العربية

للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب

القاهرة

الطبعـة الثالثـة
١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م

مصر العربية للنشر والتوزيع
صندوق بريد : ٥٧٤٠ هليوبوليس غرب



فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ...

من أدب القرآن الكريم

- الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ٠
- اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ٠
- أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ٠
- ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ٠
- آلر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ٠
- قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٠
- تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ٠
- وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ، فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف من أن يكذبون ٠



من أدب النبـــوة

★ أوتيت جـــوامع الكـلم ٠

★ أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ٠

★ ان من البيـان لسحرا ٠



مقدمـــــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه ·

منهج البحث

وبعد ·· فهذه بحوث فى قواعد الخطابة وأصـولها ، ونماذج مختلفة فيها ، وأطراف من تاريخها وتطـورها ، كتبتها لطلاب الدعوة الاسلامية ودعاة المسلمين ، وقدمت فيها ما يمكن أن يكون مددا لهم فى مواقفهم الخطابيـــة المختلفة ، وما يمكن أن يوجههم الى المزيد من قراءة التاريخ الاسلامى ، ويفتح أذهانهم على التفكـير فى أحـــداثه ، ويدفعهم الى الاستكثار من معلوماتهم الأدبية عن حيـاة المسلمين الأوائل ، وخصوصا عن حياة الزهاد والعباد ، وما كان لهم من مواقف مشكورة صلبة أمام الحكام ملوكا كانوا أم ولاة أم تابعين ·

الخطابة فى كليـات الدعوة

وقد كان من حسنات الجامعة الأزهرية أن أنشأت كليات للدعوة الاسلامية يتخصص أبناؤها لدرس التاريخ الاسلامى ودرس أصول الدين الاسلامى وجوانب من تشريعه ونظمه، ثم يدربون على تبليغ هذه الرسالة بطرق التبليغ المختلفة ، وكان فى كليات أصول الدين فرع أيضا للدعوة الاسلامية يدرس مثل هذه الدراسة بطريقة موجزة نظرا لمشاركـــة المواد الأخرى مواد الدعوة فى الزمن المقرر لها ، وقـــد اقتضى تطور الدراسة والعناية بهذه الأقسام ، أن يخصص المنهج زمنا معينا لدرس الخطابة والتدرب عليها ، لأنها المادة التى يعتمد عليها الداعية فى بلاغ دعوته ، وأسندته الى كلية أصول الدين بالمنصورة أن أقوم بتدريس هـــذه

المادة ، فوضعت هذه المذكرات عسى أن يجد الطلاب فيها ما يساعدهم على القيام بهذه المهمة الشاقة ·

مكانة الداعية ومقدرته

رأيت فى كثير من المواقف وكثير من البلدان ـ وخصوصا فى صعيد مصر وفى السودان ـ أن الواعظ مرجع للناس فى مختلف شئونهم · ففى مجالس الصلح بين القبائل المتعادية المتقاتلة ، وفى حفلات الامـلاك الكبيرة ، وفى المناسبات العامة ، وفى المجتمعات الكبرى ، يدعى الواعظ ليسمع الناس منه حديثا مناسبا ، وبعض الوعاظ بسبب اجادته الخطابة ، وحسن ملاءمته بين خطبته والموقف الذى تلقى فيه ، يكبر فى أنظار الناس وينال مكانة يقدمونه بها على حكامهم ، بل ويضطر الحاكم للحصول على رضا الناس عنه وطاعتهم اياه فى رضى وانابة ، أن يستعين بالواعظ، واذا قدم على جمع أو دخل سرادقا كبيرا قـدم الواعظ أمامه ومشى هو خلفه ، وبهذا يكبر الحاكم أيضا فى نفوس محكوميه ، ورأيت وعاظا وأئمة مساجد ودعاة للاسـلام يتبوأون من قلوب الناس مكانة عظيمة لا يزاحمهم فيهـا الحكام ذوو القوة ولا الأقارب الأدنون ذوو الوشائج القوية والصلات العاطفية ، ومرجع ذلك كله الى اجادة هـؤلاء الدعاة خطبهم ومقدرتهم على التأثير فى نفوس سامعيهم·

وأذكر مع الأسف أنى شاهدت آخرين عاشوا وماتوا ولم يكونوا شيئا مذكورا ، لا فى خطابتهم ولا فى مكانتهم ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه سبحانه له فى خلقه شئون ·

ما ينجح به الخطيب

كنت الاحظ دائما ـ وذلك امر لا يحتاج الى ملاحظة عميقة ـ أن نجاح الخطيب وفشله يرجع الى أمـرين رئيسيين : جودة المعلومات التى يقدمها أو ضحالتها ، وحسن القـائه أو ضعفه ، فالخطيب المطلع الذى يمد الجمهـور بمعلومات جديدة غير الذى يكرر معلومات يعرفها السامعون ، والذى

يلقى خطبته بطريقة فنية ، معبرة موحية ، غير الذى يسرد المعلومات سردا · لهذا عنيت فى هذا الحديث أن أمد الواعظ أو الخطيب بقدرمن المعلومات الأساسية العامة، وأرشده الى ما ينبغى أن يعمله لتظل معلوماته حية متجددة ، كما عنيت بشرح طريقة القاء الخطبة ، وكيف تكون ذات وقـــع فى نفوس سامعيها ، وأكثر من هذا أنى أرشدت الى طـــريق تأليف الخطبة وما ينبغى أن يتجنبه الخطيب من عبــارات واتجاهات ، وما ينبغى أن يسلكه فى تفكيره وتعبيره مما يخلصه من المآزق التى تواجهه وينجيه من نقد الناقدين ، وفى كل ذلك ذكرت الأمثلة العديدة من خطب منشـــأة أو منقولة ، ثم عرضت جانبا من تاريخ الخطـــابة فى الأدب اليونانى والرومانى والعربى ، ووقفت وقفة أطــول لــدى العصر الأموى ، ولكنى لم أغفل العصور الأخرى ، ذلك أن خطب العصر الأموى أغرز وأقوى ، وليس الغـــرض من الكتاب هو تاريخ الأدب الخطابى ، وانما الغرض الأساسى هو امداد الخطيب بما يتدرب به ويزيد معلوماته ·

وفى الحديث عن الأحزاب السياسية فى صدر الاســلام تحدثت عن كل حزب نبذة تاريخية يتضح بها منهج خطبائه وخطبــه ·

وأسأل الله تعالى أن ينفع بعملى هذا ، وأن يتقبله بقبول حسن منه وأن يمنحنى من فضله ورحمته بعض ثواب منــه ورضا ومغفرة ، وهو سبحانه وليى وحسبى ، عليه توكلت واليــه أنيب ·

مـــا هى الخطـــابة

تعريف الخطبة

عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض كثيرا ، ولكن منها ما ليس جامعــا لكل أنــواع الخطــابة وجزئياتها ، ومنها ما ليس مانعا من دخول أشياء أخرى معها مثل الوصايا والدروس والاعلانات وهكذا · وأوضح وأدق ما عرفت به الخطابة أنها هى: «فن مخاطبةالجماهير بطريقة القائية تشتمل على الاقناع والاستمالة » ·

هذا التعريف ـ كما ترى ـ يقوم على عناصر معينة هى :

قيود هامة

١ ـ أن يكون الحديث مخاطبة لجمهور من الناس ، فاذا كان الشخص يتحدث الى فرد أو اثنين، فانه عادة لا يحتاج الى لهجة خطابية ، ويكفيه أن يشرح المعنى أو الفكرة التى يريدها فى صوت هادىء وطريقة مألوفة فى كل الأحاديث، فهذا ليس خطبة ·

٢ ـ أن يكون بطريقة القائية ، وهذا يعنى جهارة الصوت وتكييفه باختلاف نبراته وتجسيم المعانى التى تتضمنهـــا الخطبة ، وابداءالتأثر بها · ومن مكملات هذه الطريقـة أن تصحبها اشارات باليد أو بغير اليد ، كما يبدى الخطيب انفعالاته بما يقول ، فكل ذلك يثـير الســامعين ويوجــه عواطفهم نحوه ويجعلهم أكثر استجابة لرأيه ·

٣ ـ أن يكون الحديث مقنعا بحيث يشـــتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التى يدعو اليها الحديث ، فاذا خلت الخطبة من هذه الأدلة فانها لا تزيد على أن تكــون ابداء رأى ، وهى تكون فاشلة لأنها لا تؤدى الى الغــرض الذى قيلت من أجله ، والخطيب الناجح يشرح الأدلة التى يسوقها شرحا وافيا يكثر فيه المترادفات ويعيد بعض الجمل ويلح على تركيز معان خاصة وجزئيات وأمثـــلة توضح الفكرة وتثبتها فى أذهان سامعيه ·

٤ ـ أن يتوافر فى الخطبة عنصر الاستمالة ـ وهذا يعنى توجيه عواطف السامعين واستجابتهم للرأى الذى تدعو اليه الخطبة ، لأن السامع قد يقتنع بفكرة ما ، ولكن لا يعنيه أن ينفذها أو أن تتحقق من غيره فلا يسعى لتحقيقها ، هذا العنصر من أهم عناصر الخطبة لأنه هو الذى يحقق الغرض المطلوب منها ، فاللصوص والوشاة والنمامون وفاقدوا الأمانة فى أعمالهم وغيرهم من منحرفى السلوك يدركون فساد أعمالهم وسوءها ولكنهم مع ذلك يمارسونها ، بل أكثر من ذلك ـ وهذا يرجع لأسباب نفسية ـ أن الشخص الكذاب قد يشرح أضرار الكذب وسوء نتيجته بأكثر مما يتحدث الواعظ والمربى ، وكذلك يتحدث اللصوص عن أضرار السرقات،والمهملون عنأضرار الاهمال ٠٠ وهكذا٠٠ وكل ذلك يوضح أن الاقناع وحده لا يكفى لنجاح الخطبة ، بل لا بد من جذب السامعين لاشباع الفكرة ، واستمالة عواطفهم نحوها ، حتى يتبع اقتناعهم عمل بما أقتنعوا به٠ والالقاء ذو أثر كبير فى استمالة السامعين ٠

فمن الخطباء من يكون فاتر الالقاء ضعيف التاثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباء ، ومنهم من يأتى بأدلة أقل أو أضعف ولكنه يثير عواطف السامعين ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرته ويحاول كل واحد منهم أن يعمل على تحقيق شىء منها بقدر طاقته ٠

أثر الاستمالة

قد يدعو خطيب ما أبناء قريته الى انشاء مدرسة لتعليم ناشئيهم ، فيبين لهم مزايا هذه المدرسة وما يعود على أبنائهم من فوائدها فيسمعونه ويشكرونه ثم لا يعملون أى شىء لانشائها ، لا يطالبون أولى الأمر بها ، ولا يتبرعون لها فتموت الفكرة مع اقتناعهم جميعا بفوائدها ، وربما تحدث آخر فى الموضوع نفسه فاذا الناس مندفعون لتحقيق دعوته ، هذا يكتب طلبا لبناء المدرسة ، وهذا يبحث عن

أرض صالحة لها ، وهذا يبدأ قائمة التبرع لها وهكذا ، وإذن فقد نجحت الخطبة وآتت ثمرتها ٠ ولا يرجع نجاحها الى الاقناع بل الى الاستمالة ٠

قد يكون هناك موضوع لا يدخله عنصر الاستمالة أصلا ، وقف متحدث فى جمهور يشرح نظرية علمية . مثل تكـوين الطيفمن ألوان سبعة ،أو كيفية حدوثالتمثيل الكلوروفيللى فى النبات ، أو كيف يصرع التيار الكهربى . أو ما أشـبه ذلك من النظريات ٠٠ فليس فى حـديثه ما يحتـاج الى استمالة وان كان مشـتملا على اقنـاع واضح وحسن استدلال ، فهذا غير داخل فى تعريف الخطبـة ، وعمـل المدرسين من هذا النوع ، يأتون بحقائق مجهولة لتلاميذهم فيلفتون أذهانهم نحوها ويقيمون الأدلة على صحتها ولكن عملهم ليس داخلا فى اطار الخطابة ولا يشمله تعريفها ٠

وبالعكس من ذلك أعمال القصاص ، يروى الواحد منهم أحاديث نادرة لأشخاص حقيقيين أو وهميين ، فيصور بها حسن العاقبة لأعمال الخير ، وسوء المصير لأعمال الشر، وينفعل السامعون بهذا النوع من الوعظ ويتأثر به سلوكهم ولكن هذا العمل لا يسمى خطبة أيضا من ناحية لأنه ينقصه عامل الاقناع الكلامى ٠ وان كان مقنعا بما فيه من أحداث، ومن ناحية أخرى أنه ليس القاء خطابيا ، بل هو حـديث وعظـات ٠

ومن ذلك أيضا الوصايا الطويلة والحكم القصيرة التى يقدمها الحكماء والمجربون لأبنائهم ، وأصحابهم ، وكتب الأدب العربى تحفل بهذا النوع من الكلام . هذه لا تسمى خطبة لأنها تفقد كل أو معظم أركان الخطبة ، ولكن دارسى الخطابة يذكرون الوصايا والمحاورات والأجوبة ٠٠ تبعا للخطابة ، لأنها شيء مكمل لها وان لم تسـتوف أركان الخطبة ولا ينطبق عليها تعريفها ٠

ست نثرا فنيـــا

الخطابة نوع من النثر ، وبهذا التعريف الذى سـبق تختلف عن الكتابة وعن النثر الفنى ، اذ لا شرط هنـاك لوجود الاقناع أو الاستمالة ، وقد تكون الكتابة وصـفا لمنظر ما ، أو صفة لحالة نفسية للكاتب ، أو حديثا عن شىء رآه فلا يشملها تعريف الخطبة ولكن الخطابة قــد تحتوى عبــارات كثــيرة من النثر الفنى فيهــــــا جمــــال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق ، وقــد يرفع هذا قيمة الخطبة ويجعلها أشد تأثيرا ، لكن الخطبة فى جملتها ليست نثرا فنيا يقوم على تجــويد العبارات والتأنق فى الأساليب ، وغالبا لا يتفق هــذا مع الاقناع والاســتمالة ٠

فرق بينها بين الشعر

والخطبة تختلف عن الشعر ، لا يرجع هذا الاختلاف الى أن الشعر موزون مقفى والخطبة ليست كذلك فقط ،بل يرجع فوق هذا وأهم منه ، الى أن الخطبة تتناول المسائل الجادة الواقعية ، وتقوم على الحقائق الملموسة ٠ بينما يقــوم الشعر أساسا على الخيال والعاطفة ، فاذا تناول أمـرا واقعيا تناوله من جانب العاطفة أيضا ، ولهذا قـد يحلى الخطيب خطبته بشىء من الشعر لاثارة سامعيه وايقــاظ عواطفهم ، كما قد يستعمل أسلوبا شعريا يقوم أيضا على الخيال والعاطفة ، ولكن قوام الخطبة وكيانها يقــوم على الاقناع والاستمالة ٠

هب أن خطيبا وشاعرا قاما يرثيان عظيمــا من الناس فماذا يقول كل منهما ؟ ٠

مثال لهما

أما الشاعر فانه يعمد الى استجاشة عــواطف الناس بأسلوب تشيع فيه الرقة الموسيقية ، ويعرض صــورا من حياته ومواقفه المشرفة ، وما له من ميزات وفضائل ،ولكن

كلامه فى هذا أدنى الى الاشارة والتلميح ، كأنه مجرد تذكرة للناس ، وربما انتقده فى رأى أو أبدى معارضته فيه ، وذلك أيضا يكون على سبيل العرض السريع الموجز ولا بد فى كل ذلك من الجوانب الخيالية التى تثير عاطفة السامعين ، وتشعرهم بقدر الميت ومكانته على الرغم مما يذكر من نقده ومخالفته فى بعض الآراء والمواقف ٠

وأما الخطيب فهو بين حالتين ٠ قد يذكر شيئا من تاريخ الفقيد وتكوينه العلمى أو السياسى ، وميوله وطباعه ، ثم ينتهى الى آثاره ومزاياه ، وما خسر الناس بموته من انقطاع أعماله وآثاره ، وفى هذه الحالة يسمى كلامه تأبينا وليس خطبة ، لأنه مجرد سرد أخبار وتاريخ ، وليس ثمت اقناع ولا استمالة لمبدأ ما ، فهو خارج عن نطاق الخطابة وتسميته خطبة عمل مجازى ، وقد يضيف الى ما سبق أن المبادىء التى كان يعمل لها ذات أهمية فى حياة قومه وأنهم لا بد أن يتابعوها ويعملوا على بقائها فيكون حديثه خطبة لأنها حينئذ اشتملت على الاقناع باحياء مبادئه والاستمالة لمتابعتها ٠

وسنوضح هذا أكثر عند ذكر الأسلوب الخطابى ولكنا نقدم من الأمثلة ما يزيد الأمر وضوحا ٠

تمثيل للفرق بين منهج الخطيب ومنهج الشاعر

لما مات الامام الشيخ محمد عبده كان الذين يريدون تأبينه ورثاءه كثيرين جدا ، ولكن اللجنة المختصة اختارت أربعة من أصدقائه يتحدث كل واحد منهم عن جانب من جوانب حياته ، واختارت حفنى ناصف وحافظ ابراهيم تلميذه وصديقه ليلقى كل منهما مرثية شعرية ٠

كان قاسم أمين أحد الأربعة المتحدثين وقد اختار أو اختير له أن يتحدث عن أخلاق الشيخ وفضائله وامامته ٠ وجاء فى كلمته :

« ·· ان كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح، والكمال المطلق لا يوجد فى هذا العالم ،ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها ، فتنمو زهـــرة الجمال فيها نموا عجيبا ، وتتكاثر فروعها وتمتد طــولا وعرضا ولا تترك محلا لسواها فيضعف ويــذبل كل نبات خبيث بجانبها ··

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس امامنا العزيز ، نفس خلقت على أحسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صار مثلا فى الجمال يجب أن نضعه دائما أمامنا لنعلم منه مقدار ما يصل الجهد فى العمل عند رجل اقترب من سن الستين· ونتعلم منها أيضا مبلغ ارتقاء الخلق فى انسان أجهد نفسه وهذبها ورباها حتى أرسلها الى أقصى ما تصل اليه نفس بشرية من الجمال والكمال ·

كان للامام الذى فرض على نفسه اصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون ، وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه فيقتصروا على التمسك بمــا وجدوا عليه آباءهم من قبل ، وعلى جانب هــذا الجيش يحرض على الطعن عليه الحاسدون الذين يتألمون اذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم الا اذا أنزلوه من مكانه ووضعوه فى مستوى واحد معهم ، وفى مقدمة هــذا الجيش ــ كقواد له ــ أرباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتى الرياح ·

انه يجب علينا أن نضع يدنا على بناء الاصلاح الذى وضع الامام أساسه ونحافظ عليه وندافع عنــه ان أمكننا حتى نتركه الى ذريتنا كميراث تنتفع منه وتزيد عليه ثم تتركه الى من يأتى بعدها ، وهكذا ينمو الاصلاح فينا كلما مرت الأيام والأجيال كما هو الحال عند الأمم الحية » ·

هذه الخطبة طويلة تزيد على خمس صفحات ، وهى تعتبر خطبة لأنها اتخذت من سيرة الامام وأعماله وسيلة لمبادىء دعت اليها وبرهنت على ضرورتها · أى أنها اشتملت على عنصرى الاقناع والاستمالة ·

واشترك حافظ ابراهيم مع قاسم أمين فى بعض العناصر التى تكونت منها خطبته ، ومن قصيدة حافظ :

تباركت هذا الدين دين محمـــد   أيترك فى الدنيـا بغـير حمـاة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى   ولانت قنـــاة الدين للغمـزات
زرعت لنـا زرعا فأخـرج شطأه   وبنت ولـمـا نجتن الثمـرات (١)
فواها لـه ألا يصـيب موفقـــا   يشارفه والأرض غـير موات (٢)
مددنا الى « الأعلام » بعدك راحنا   فردت الى أعطافنـا صـفرات (٣)
وجالت بنـا تبغى سـواك عيوننا   فعــدن وآثــرن العمى شرقات
وآذوك فى ذات الاله وأنكـــروا   جهـادك حتى سـودوا الصـفحات
رأيت الأذى فى جانب الله لــذة   ورحت ولم تومم لــه بشــكاة
لقد كنت فيهم كوكبـا فى غيـاهب   ومعــرفة فى أنفس نكـــرات

وجاء فى مرثية حفنى ناصف :

للمسلمين إليـك أكبر حاجــــة   فاذا قضيت فمـا قضوا أوطـارا
من ذا يناضــل عن شريعة أحمـد   ويذود عن أكنافهـــا الاخطـارا
ويصــون دين الله من شـبه العدا   ويرد غــــارة من به يتمــارى
ويذكـر العلمــاء الا يغمضـوا   عمـا اقتضاه زمانهم أبصارا (٤)
ويظل بالاصــلاح مغـرى كلمـا   وجـد السبيل الى صــلاح سـارا
حتى كأن عليــه عهــدا للعــلا   أو يصلح الأخـلاق والأفكـــارا
إن كان غيرنـا مصلح يقـوى على   ذا العبء أوسـعنا لك الأعــذارا
لا خــير بعد محمد فى العيش إن   كانت نفوس الخالفين صغارا (٥)

---

(١) أخرج الزرع شطأه : ظهرت له فراخ من حوله · وهذا يعنى نموه وازدهاره ·
(٢) يشارفه : يراقبه ويحميه ·
(٣) يريد بالأعلام رجال الأزهر ·
(٤) يريد ألا يغضوا أبصارهم عن تطورات الزمن ·
(٥) يريد بالخالفين الخلفاء بعده ·

والعناصر البارزة فى كلام هؤلاء الثلاثة هى أن الامام كان شغوفا بالاصلاح وأنه لاقى فى سبيل دعـــوته ايذاء وعداوات وأنه لا يوجد بعده من يسد فراغه ويتابع منهجه الاصلاحى ٠

وتعبير الشاعرين يختلف عن تعبير قاسم أمين ، فقـد اتسع له المجال النثرى فملأ حديثه بالتحليل والتعليل ٠ لماذا كان له أعداء ، ولماذا كان هو مصرا على الاســتمرار فى الاصلاح ٠ ولكن أنظر الفرق بين قوله :

« كان للامام الذى فرض على نفســـه اصـــلاح أمتـه خصوم ٠٠ الخ » ٠

وقول حافظ :

وآذوك فى ذات الإله وأنكـــروا جهادك حتى ســـودوا الصـفحات
لقد كنت فيهم كوكبـا فى غيـاهب ومعـــرفة فى أنفس نكـــرات

نجده ألم بما قاله قاسم ولكن فى اشارة فقط ودون تحليل وتعليل ٠ وكلام ناصف لا يختلف عن هذا فهو يتساءل عمن سيقوم بعد الامام بالاصلاحات الكثيرة التى كان يقوم بها٠ ويعدد جوانب هذا الاصلاح ، ثم يختم حديثه بعبارة يائسة٠ كما قال حافظ أنهم اذا مدوا أيديهم للأعلام عـادت اليهم خاوية ، ولم يشأ قاسم أمين أن يجرح مشاعر الآخرين بمثل هذا لأنه ينشد استمرار حركة الاصلاح ويدعوهم لمتابعتها٠

ومن هذا نرى أن لدى الخطيب فرصة التوضيح والشرح لأنه يخاطب العقول ويحاول اقناعها ، أما الشاعر فانه يثير مشاعر الناس نحو أمر قد يكونون عرفوه من قبل ٠

ومـوقف آخـــر :

نعرض هنا موقفا آخر شبيها بما تقدم نريد منه فقط أن نوضح الفرق بين التعبير الشعرى والتعبير النثرى خطابة أو كتابة ٠

كان المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى من كبار الكتاب ومشهوريهم فى الجيل الماضى ، وكان من ميزاته الكتابية أنه تخلص من قيود السجع والحلية اللفظية ، فكان يسجع فى غير تكلف ويوازن بين جمله ويجعل لها فواصل بقـدر ما يتاح له ذلك ، فكانت كتابته عذبة جميلة ، وكان الناشئون والمعلمون جميعا يكلفون بها ٠

وكانت نظرته الى المجتمع المصرى نظرة حزينة باكية ، وكتب كثيرا فى نقده ، وجمع مقالاته فى كتاب كبير سماه « النظرات » ٠ كما أخرج بضع قصص فى كتاب آخر سماه « العبرات » وترجمت له بعض قصص غربية كانت كلهـا مآسى أيضا ٠

وتحدث الكثيرون عنه غداة وفاته كتابة وخطبا كما رثاه شعراء زمنه وأشاروا الى هذا المسلك فى كتابته ، وجاء فى كتابة المرحوم العقاد عنه هذه العبارات :

« لقد كان المنفلوطى أحد أولئك الأدباء القـلائل الذين أدخلوا « المعنى والقصد » فى الانشاء العربى بعد أن ذهب منه كل معنى ، وضل به الكاتبون عن كل قصد » ٠

« مزية المنفلوطى فى هذا الدور التافه الهزيل أنه برىء من تلك التفاهة ، ومشى بقدميه على النهج الجديد الذى أدخل فيه المعنى والقصد » ٠

« قرأت فى بعض ما رثى به المنفلوطى أنه « كاتب النفس الانسانية » ، ٠

« ولست أرى فى كل ما وصف به ٠٠ صفة هى أبعد من الحقيقة وأدل على الجهل بالنفس من هذه الصفة » ٠

أرى أن غزارة الدموع شىء والاحساس بمصائب النفس الانسانية شىء آخر ٠

« أنظر الى أبطال المنفلوطى فى قصصه ومقالاته ، فكيف تراه يعطف عليهم ويرثى لآلام نفوسهم وأشجان ضمائرهم؟»

ما ظنك بقلب لا يستدر العطف على المصاب حتى يجمع عليه بين ضنك الفاقه وتبريح السقم ، ويأس الحب ، ووحشة العزلة ، وذلك اليتم ، وسائر ما يحيط بأشتا تالمعذبين فى الأرض من صنوف الشقاء وضروب الهوان والحرمان ؟ وما ظنك بعين لا تجود بالدمع على السكير أو المقامـر أو المنكوب حتى يخرجه من الدنيا شريدا مسلوبا ، أبا لأيتـام يتضورون من الجوع ، وزوجا لأيم تتبلغ بثمن العفاف ؟(١)

والعقاد يشير بهـذا الى قصص المنفلوطى فى كتـــاب « العبرات » وهو نقد صادق ، لأن المنفلوطى لم يكن ذا ثقافة فلسفية ولا نظرة فاحصة دقيقة فكانت قصصه ساذجـة ، تجمع على البائس أنواعا شتى من البؤس ، ثم يرد معظم البؤس وأشده الى الفقر وقلما التفت الى حالته النفسية(٢)

وفى رثاء شوقى للمنفلوطى تعرض لهذه الأفكار فقال عن أسلوبه :

تتخيـل المنظـوم فى منثـــوره	فتراه تحت روائـــع الأســجاع
لم يجحد الفصحى ولم يهجم على	اسـلوبها او يــزر بالأوضـــاع
لكن جرى والعصر فى مضمارهـا	طلقـا فأحــرز غاية الإبــــداع

وهو يشير بهذا الى أن أسلوب المنفلوطى يحوى سجعا رائعا كالشعر وأنه اذ تخلى عن طريقة الأقدمين حافظ على العربية الفصيحة ، وجارى العصر متفوق ، ولا يحتمل هذا الأسلوب الشعرى اطالة لشرح وعمق التحليل على نحو ما جاء عند العقاد ٠

---

(١) انظر هذا المقال كاملا فى كتاب : مراجعات ٠ ص ١٥٥ ٠

(٢) العقاد يشير الى قصة اليتيم . أول قصة فى كتاب العبرات وبعض القصص الأخرى فيه ٠

وفى نقد طريقته فى تصوير الناس بائسين حـــزانى يعانون الفقر ، يقول شوقى :

يا مرسل «النظرات» فى الدنيا على	ما كان من ضجر وضـــيق ذراع
ومسلسل « العبرات » تجرى رقـة	للعـــالم الشـــاكى من الاوجـاع
من شوه الدنيـــا اليك فلم تجـد	بالملك غـير معذبين جيــــــاع
أبكل عين فيــه أو وجــه تـرى	لمحـات دمـع أو رســوم دمــاع
ما هكذا الدنيـــا ولكن نقـــله	دمـــع القـــرير وعبرة الملتـاع

فهو ـ كما ترى ـ يصف ضيق نظرته وقصورها ، فلم ير الجانب السعيد البهيج ، ولكن رأى فقط الجانب المعذب الباكى ، والسعادة والشقاء أمور تتاور الناس فيشـقون يوما ويسعدون آخر ، وليسوا كما وصفهم أشـقياء على طول ما يعيشون · وقد ربط سعادة الناس وشقاءهم بالغنى والفقر ، وليس المال مقياسا للسعادة ، بل كثيرا ما يسعد الفقير ويشقى الغنى ·

يقـول شـوقى :

لا البؤس بالفقراء خص ولا الغنى	غـــير الحيـاة اهن قــدر مشـاع
ما زال بالكوخ الوضـــيع بواعث	منهـا (١) وبالقصر الرفيـع رواع
بالفقـــر حيـات يسيبهـــا بـــه	حاوى القضاء ، وبالقصور افـــاع
ولرب بؤس فى الحيـــاة مقنـــع	أربى على بؤس بغـــير قنــــاع

فهذه الأبيات تشير الى ما شرحه العقاد من جهـــل المنفلوطى بالنفس الانسانية ، واذا رجعت الى مقال العقاد تجده تحليلا نفسيا دقيقا لا يمكن أن يصاغ شعرا ·

---

(١) من غير الحياة ·

وأيضا هذا الأسلوب البديع الرفيع من شعر شوقى لا يمكن أن يكون خطبة ·· لكل من الفنين اذن مقام ولكل منهما تعبير ·

واذا استعار الخطيب أسلوب الشاعر وطريقة تعبيره باءت خطبته بالفشل خصوصا اذا ملأها بجوانب الخيال، فأسلوب الشعر بما فيه من وزن وقافية يثير المشاعر ويبعث فى نفوس السامعين شيئا من الحماس ولكنه حماس ليس ناتجا عن اقتناع · بعبارة أخرى الشعر للوجدان والخطبة للعقل ولكل تعبير خاص ·

وقد يستعين الخطيب على استمالة سامعيه باصطناع الأسلوب الشعرى فى جملة أو جملتين ، كما يستشهد ببيت أو بيتين ، ولكنه لا يستطيع أن يعتمد عليه طويلا ، فاذا كان مقام الخطبة مقام تكريم أو رثاء فيجب أن تكون بعيدة عن جوانب الخيال الشعرى معتمدة على ما للشخص المتحدث عنه من مآثر وأعمال ، وسرد ما له من مواقف ذات أثر فى حياة أمته كما رأينا فى حديث قاسم أمين السابق ، وليحذر الخطباء فى هذه المواقف من تهويل الشعراء الخيالى البحت فانه لا يقبل فى الخطبة ولا يتبعه الا صغار الخطباء · وأنظر هذه الأمثلة :

قال بشارة الخورى فى رثاء سعد زغلول :

نعى النعاة سعدا فروعنا أن المقطم قد مادت رواسيه
ومر بالهرمين النيل مضطرما كأنه الجمر فى أحشاء واديه

وقال محمود غنيم فى رثاء سعد أيضا :

ناع نعى سعدا فطاش صوابى وحسبت هذا اليوم يوم حسابى
وسألت هل وقفت بنا الأفلاك أم دارت منكسة على الأعقاب
وعجبت كيف أطل قرص الشمس من أفق السماء ونجم سعد خابى

قال شوقى :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها   وانثنى الشرق عليها بكاها
ليتنى فى الركب لما أفلت   يوشع ، همت فنادى فثناها
انظروا تلقوا عليها شفقا   من جراحات الضحايا ودماها
وتروا بين يديها عبرة   من شهيد يقطر الورد شذاها

وقال حافظ ابراهيم :

إيه يا ليل هل شهدت المصابا   كيف ينصب فى النفوس انصبابا ؟
قد يا ليل من سوادك ثوبا   للدرارى وللضحى جلبابا
وانع للنيرات سعدا فسعد   كان أمضى فى الأرض منها شهابا

وهذه كلها مقدمات لقصائد واضحة المعانى وكلها خيال لا يصلح منه شىء للخطابة ·

الأسلوب الخطابى

الخطابة والكتابة

كما يختلف أسلوب الخطبة وتعبيراتها عن أسلوب الشعر وطريقته يختلف أيضا عن أسلوب الكتابة الفنية وكتابة المقالات · فالكتابة الفنية تجنح الى جمال العبارات ، وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية ويدخلها أيضا شىء من خيال الشعر · وكتابة المقالات تعتمد على توضيح المعنى ولكنها غالبا تميل الى الايجاز · ولا يجمل بالكاتب أن يكثر من تكرار العبارات والمترادفات · وفى وسع القارىء أن يقرأ الجملة مرتين أو أكثر حتى يتعمق المعنى الذى يراد منها · وهذه فرصة لا تتاح لسامع الخطبة لهذا تعتمد الخطبة على التوضيح والابانة ، وقد يكرر الخطيب بعض الجمل · أو يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، أو يذكر فى الجملة الواحدة كلمتين مترادفتين · كل ذلك مع مراعاة الأناة وقواعد الالقاء ، لهذا كان للأسلوب الخطابى سمات خاصة نجملها فيما يلى :

الوضوح

١ ـ وضوح العبارات وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذى يهدف اليه مفهوما للسامعين · ولهـــذا لا يستعمل الخطيب كلمات لغوية غامضة · ولا تعبيرات مجازية بعيدة المعنى · ويختلف موقف الخطيب باختلاف سامعيه · فهو حين يخطب فى طلاب جامعة أو أوساط مثقفــة يستطيع أن يستعمل العبارات البليغة والمجازات البلاغية · وليس الأمر كذلك حين يقف بين مجموعة من عامـــة الناس ، وخطيب المسجد يستمع اليه أخلاط من الناس منهم المثقف العميــق ومنهم الساذج قليل الثقافة أو عديمها · ومنهم من هو بين بين ، وهؤلاء تختلف درجاتهم العقلية والثقافية · وهذا فى الواقع يلقى على خطيب المسجد مشقة كبيرة ، اذ هو مسئول أن يفهم كل سامعيه بمختلف درجاتهم العقلية والثقافية ، ولكن يجب أن تلاحظ أن العامة وناشئة المتعلمين يفهمــون المعانى الاجمالية رغم أن بعض الجمــل والعبارات تخفى عليهم · ومن هنا كان التكرار والالحاح على المعنى الواحد بعبارات مختلفة له أهميته ، فمن خفيت عليه جملة بينتهــا الأخرى ، ولا بأس أن يستعمل الخطيب بعض الجمل العامية لتوضيح غرضه على ألا يكثر من ايرادها ·

حتى تستعمل العامية

وبعض الخطباء يجعل خطبته كلها باللغة العامية ، وهذا خطأ كبير · فاللغة الفصحى لها جمالها وتأثيرها حتى على العامة ، واستعمال العامية الخالصة أو الاكثار منها يفقد الخطبة هـــذا التأثير ، ثم ان بين المستمعين مثقفين ، لا يستريحون لهذا الأسلوب ، بل يؤذى شعورهم · وكما أن الخطيب يعلم سامعيه دينا وعلما هو أيضا يعلمهم اللغــة والتعبير ، ويستفيد ناشئو الطلبة كثيرا من خطباء المساجد والخطبة الجيدة تجذبهم الى سماعها · واللغة العاميــة كثيرا ما تنفرهم ·

قصر الجمل

٢ ـ تعتمد الخطبة على الجمل القصيرة ، وعدم الفصل

البعيد بين أجزائها . فاذا ذكر المتكلم مبتدأ ، ثم أردفه بجملة أو عدة جمل معترضة ، ثم جاء بعد ذلك بخبر المبتدأ فان هذا قد يخفى على السامع ، وأولى أن يجعل كل جملة مستقلة بنفسها . كذلك الجمل الطويلة التى تكثر فيها المتعلقات من مفعول به ومفعول له ومفعول مطلق وظروف ومجرورات . مما يشق فهمه عادة ويشتت الأذهان ، وهذا مما يضعف تركيب الجملة ، ولكنها فى حال الكتابة يمكن أن تستعاد وتفحص على مهل أما فى حال الخطابة فقد تمر بدون فهم وتذهب فائدتها نهائيا .

الاستفهام والتعجب

٣ ـ فى مقامات التهويل والاثارة يحسن استعمال صيغ الاستفهام وصيغ التعجب لأنها تؤدى فى هذه المقامات مالا تؤديه الجمل الخبرية ، والاستفهام الانكارى يكاد يكون حجة مسلما بها . فضلا عما فيه من جبه واثارة ، ولكن لا ينبغى أن يكثر الخطيب من كل هذه الصيغ اكثارا مسئما ، وانما تستعمل فى الوقت المناسب ، وبحيث لا تفقد تأثيرها .

القصة فى الخطبة

٤ ـ قد يستعين الخطيب بعرض قصة أو حدث تاريخى للاستشهاد به على ما يقول ، وهذا مفيد وناجح فى أكثر أحيانه . ولكن يفسده طول القصة أو الاكثار من ذكرها . فهذا يجعل الخطبة درسا . والدرس عادة للتفهيم وليس للاستمالة ، والقصة التى تورد فى الخطبة يراد منها الاستمالة ويكفى فيها قص حدث أو واقعة قصيرة تأييدا لما جاء فى الخطبة .

ومن الخطباء من يخصص خطبته لشرح غزوة من غزوات الرسول ﷺ أو الحديث عن صحابى من الصحابة ـ بلال أو صهيب أو سلمان الفارسى أو غيرهم ـ وهذا يجعل الخطبة درسا . قد تكون ذات فائدة ولكنها ليست خطبة على أى حال .

لهذا يجمل بالخطيب أن يقتصر من أحداث التاريخ أو السيرة على ما يستخلص منه العبرة والعظة وأن يجعل له درسا قبل الخطبة أو بعدها ، يشرح فيه ما يريد من أحكام الشريعة أو أحداث التاريخ ٠

طع الخطبة للدواعى

وقد يعرض للخطيب أن يرى شيئا لا يرضاه ، شخصا يتخطى رقاب المصلين ، أو آخر يقف لتنفل أثناء الخطبة ، أو ثالثا يكلم صاحبه ، وفى هذه الحالة يقطع الخطيب خطبته لينبه على هذا الحكم الشرعى بايجاز ، ثم يعود لخطبته ٠ وهذا التنبيه ليس خطبة لكنه اذا صحبه انفعال واستدلال ودعوة كان خطبة لاستيفائه شرطى الاقناع والاستمالة ٠

أمثلة الاختلاف الا سلوب

٥ ــ تختلف ألفاظ الخطبة وعباراتها بحسب المقام الذى تقال فيه ، فخطب التهديد والوعيد ، وخطب الحرب واخضاع المتمردين تمتاز بقوة العبارة وفخامة التعبير واستعمال الكلمات الشديدة الغليظة ، كما تجد ذلك فى معظم خطب الحجاج بين أهل العراق ٠ وقد جاء فى خطبته الأولى :

٠٠ « انى والله ما يقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد فررت عن بصيرة وفتشت عن تجربة ، ان أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم أعوادها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ورقدتم فى مراقد الضلال ، أما والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ٠٠٠ الخ » ٠

ومع هذه الجمل القوية استعمل أيضا رجزا وشعرا من هذا القبيل منه :

قد شمرت عن ساقها فشدوا ... وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عرد ... مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد (١)

---

(١) ستأتى الخطبة كاملة فى ترجمة الحجاج ٠

أما فى حال السلم والهدوء التى لا تعدو الخطبة فيها أن تكون نصيحة فلا داعى لهذه الشدة ويكفى استعمال الألفاظ المألوفة والرقيقة ، وأنت تجد هذا فى أسلوب القرآن حيث كانت السور التى نزلت بمكة تخاطب قوما معاندين أشداء وكانت التى نزلت بالمدينة تخاطب قوما طائعين مستعدين لتنفيذ ما يلقى عليهم فاختلف أسلوب كل منهما بحسب مقاماته ٠

أمثلة من القرآن

فانظر الى قوله تعالى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ٠ لقد جئتم شيئا اذا ٠ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا ، أن دعوا للرحمن ولدا ٠ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » وقوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون » ٠ فنجد فى الأولى تهويلا عظيما وشدة استنكار ، ونجد فى الثانية مجرد أمر ٠ وانظر أيضا قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » وقوله تعالى فى السورة نفسها ٠٠ « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » ٠

فنجد فى الآية الأولى عددا من التشديدات ، أمر بالجلد مائة مرة وعدم الرأفة وربط ذلك بالايمان بالله ، والأمر بشهود العذاب أمام طائفة من المؤمنين ، أما الآية الثانية فهى مجرد نصيحة تبين أن بها خيرا للمؤمنين ٠٠

متى تطول أو تقصر

٦ ــ تختلف الخطب أيضا طولا وقصرا بحسب مقاماتها فالخطبة التى تقال لاطفاء شغب على الوالى لعمله أمرا لم يرضه قومه ، تكون قصيرة مقتصرة على أهم أغراضها ، وتستعمل مع ذلك الأسلوب القوى وتجمع بين التحذير

والتبشير · تهدد المتمردين ، وتبشر الطائعين على نحو ما يفعل القرآن · وتجد مثلا جيدا لهذا فى خطبة أبى جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم الخراسانى وكان أبو مسلم قائدا ورئيس فرقة كبيرة وهو من مفوضى العرش الأموى وخافه أبو جعفر فقتله · ولكى يهدىء أنصاره الغاضبين لقتله خطبهم خطبة جاء فيها :

خطبة أبى جعفر

« أيها الناس ·· لا تخرجوا من أنس الطاعة الى وحشة المعصية ، ولا تبطنوا غش الأئمة فانه ما أضمر أحد لامامه سوءا الا أظهره الله عليه ،لاظهار دينه واعلاء كلمته : انه من نازعناعروة هذا القميص جعلناه جزرا لخبىهذا الغمد·

وان أبا مسلم قد بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من غدر بنا فقد أهدر دمه ، ثم غدر بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على الناس لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من اقامة الحق عليه » ·

الخطبة موجزة حتى لا تفتح مجالا للمناقشة ، وقائمة على منطق ، فقد جعل نفسه القائم على الدين ، وان من خرج عليه استحق أن يقتل لخيانته خليفة يقوم على دين الله وأن الله أطلعه على ما دبر له لأنه موال لربه ، وأردف ذلك بتهديد سامعيه ، أن من يخرج عليه فسيقتل بلا هوادة ·· من نازعنا عروة هذا القميص ، أى من بادرنا بأدنى شغب جعلناه جزرا لخبى هذا الغمد ، يعنى تمزيقه بالسيف وذبحه ـ ثم ألبس عمله ثوب العدالة التى لا تحابى أحدا مهما كانت قرابته · فهناك عهد أخذه أبو مسلم على الرعية كلها وهو واحد منها ، وقد أخل بهذا العهد ـ مع أنه من أولياء الخليفة ، لكن رعاية حقه انما هى للصداقة الشخصية ، أما اقامة الحد عليه بقتله فهى رعاية لحق الله وحق الله مقدم على حق الصداقة ·

فأخذ على القوم أقطارهم بهذا المنطق ، ثم رمى بينهم

رأس أبى مسلم مع بدر الذهب فتهافتوا على جمع الذهب ثم انصرفوا يقولون بعنا قائدنا وعدنا بثمنه ٠

اما الخطب التى تتعرض لشرح منهج اصلاحى او لشرح مبادىء قانونية فانها تطول وتمتد حسبما يقتضى الأمر ، وهذا كثيرا ما تجده فى الخطب البرلمانية . وكذلك الأمر فى خطب المحامين لأنها قد تتعرض لدفع تهم متعددة واقامة براهين عديدة أيضا ، فيدعو ذلك لاطالتها ، وقد تكون القضية هينة سهلة فلا تحتاج الى الاستدلال القانونى ٠

رأى ابن المقفع

وللعرب السابقين من ذوى العلم والدراية بوقع الكلام ومواقعه مالا يستغنى عنه الخطيب المحدث،واذا استعرضنا أقوالهم وآراءهم بوجه عام نجد أنهم أكثر ميلا الى الايجاز مالم يكن ثم سبب خاص يستدعى طولا ، وقد قال عبد الله ابن المقفع ٠ «الايجاز هو البلاغة فأما الخطب بين السماطين وفى اصلاح ذات البين، فالاكثار فى غير خطل (١) والاطالة فى غير املال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ٠» وسئل عما يكون اذا مل السامع الاطالة التى قال هو انها حق ذلك الموقف ؟ فقال «اذا أعطيت كل مقام حقه٠ وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فانه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شىء لا تناله » (٢) ٠

وقيل « لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك » ٠

---

(١) الخطل : المنطق الفاسد ، ويقال خطل يخطل ـ كعلم ـ وأخطل فى كلامه اذا أفحش ٠

(٢) البيان والتبين ١/١١٦ ، وانظر فى هذا ص ١١٢ وما بعدها وعيون الاخبار ٢/١٧١

أى عمرو ابن عبيد

وسئل عمرو بن عبيد (١) أيضا عن البلاغـة فقـال : « انك ان أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المؤنة على السامعين ، وتزيين المعانى فى قلوب المريدين · بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عنـد الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغـل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت من الله كثير الثواب » ·

وقال شبيب بن شيبة (٢) : فان ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الاطالة فقدم أحكام البلوغ فى طلب السلامـة من الخطل ، قبل التقدم فى أحكام البلوغ فى شرف التجويد ، واياك أن تعدل بالسلامة شيئا فان قليلا كافيا خير من كثير غير شاف ·

وهذه الآراء والنصائح كلها قريب بعضـها من بعض وهى فى جملتها لا تخرج عن نطاق القواعد التى ذكرنا ·

عوامـل نجـاح الخطبـة

يختلف الخطباء اختلافا واسعا فى مقدرتهم الخطابية وهذا أمر طبيعى فى الخطابة وغيرها ، ان لكـل مقدرته وكفايته الخاصة ، ولكن كثيرا ما تجد شخصا قليل الميزات الكلامية يؤثر فى سامعيه ويفيدهم أكثر ممن هو أكثر مقدرة

---

(١) من كبار المعتزلة ، رمن الزهاد ، توفى سـنة ١٤٤ ، رثـاه الخليفة المنصور ، ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سـواه · انظر تاريخ بغداد ٦٦٥٢ ·

(٢) شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الاهام ، تميمى قريع لخالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم ، وكلاهما من أعلام الخطابة ، وكان بينهما منافسة ومحاسدة ، وكان يقال : لولا أنهما أحـكم بنى تميم لتباينا تباين الاسد والنمر · وقال عنه خالـد : ليس له صديق فى السر ، ولا عدو فى العلانية ·

وأفصح لسانا ، ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة نجمل أهمها فيما يلى :

١ ـ اختيـار الموضوع :

أثر اختيار الموضوع

فهناك موضوعات تمس حياة الناس وحاضرهم وهـم لذلك يهتمون بها ويتشوقون الى سماعها وشرح جزئياتها بينما هناك موضوعات أخرى أصبحت بعيدة عن خواطرهم ولا يعنيهم أن يسمعوا عنها شرحا ولا تفصيلا : وقد يثـور الخطيب وينفعل فى شرح موضوع ما ، ومستمعوه يودون أن يفرغ من كلامه ، وهم أثناء خطابته لا يتابعونه ولا يعنيهم أن يفهموا عنه أو لا يفهموا ٠

اذا تحدث خطيب مسجد عن موقف الاسـلام من الرق وحكمه وآثاره وتحدث خطيب آخر عن ضرورة تنفيذ الحدود الاسلامية وما يترتب عليه من آثار فى مجتمعنا تجد الناس يستمعون الى الأول كمن يعرض شيئا من التاريخ البعيد، بينما يصغون الى الثانى كمن يطب لأمراضهم ٠ ويرتفـع بمستوى حياتهم ، وهو لهذا لديه ما يثيرهم به ويستميلهم اليه ٠ واختيار موضوع الخطبة من الأمور الهامة والشاقة اذ ليس كل موضوع يهم الناس يمكن أن يتعرض له الخطيب ولكن الخطيب الماهر اللبق يمكن أن يواجه الموضوع الخطر أو المحظور من جوانب خلفية تثير الناس وتجعلهم من تلقاء أنفسهم يصلون الحديث بالأمر الذى يعانونه ٠

أمثلة تحتذى

عندما كانت مصر تحت الحكم الانجليزى كان هنـاك موضوعات من حياتنا السياسية لا يجوز التعرض اليهـا لا فى الصحافة ولا فى الخطب حتى المعلمين كانوا يخشون الخوض فيها ، ولكن الرمزية والاشارات التاريخية كانت تعمل عملها فى هذا المجال ٠ فكان الحديث عن المعذبين فى العهد السرى للدعوة الاسلامية ، ومـا كان يحتـال به

معاونوهم ـ يكاد يكون شرحا لموقف الأمة من الانجليز ، كذلك عن الحكومات الاسلامية ومعارضيها ، الأمويون مثلا فى صف والخوارج والعلويون والزبيريون وأتباع الأشعث والأعاجم كل أولئك فى صف آخر ، وكان استعراض موقفهم جميعا والمحاولات التى تبذل من كلا الجانبين مما يكاد يكون حديثا صريحا عن حياة المصريين يثير مشاعرهم ويمدهم بالمعلومات ·

وخطيب المسجد على أى حال يجب أن يكون لــه تركيز على أمرين :

ما يهتم به الخطيب

أن يتناول حديثه سلوك الأفراد وما يجب أن يتخلق به كل شخص فى عمله الخاص وعلاقاته بالناس طبقا لقواعــد الشريعة الاسلامية فهو مرشد ومعلم ، وهو يدرك أثر الأعمال الفردية فى حيــاة المجتمعات فاذا استطاع أن يترك أثرا لدعوته فى بعض الأفراد فان كل واحد منهم سيترك بدوره أثرا فيمن يخالفونه ويسلم هذا الى الأمر الثانى وهو أن يمد سامعيه بمعلومات بحيث يخرج المستمع وقــد زادت معلوماته شيئا جديدا وهذه المعلومات ليست فى الواقــع الا حججا للمبدأ الذى دعا اليه ، وهذه المعلومات أو هذه الحجج هى التى تجعل معانى الخطبــة ومبادئها أبقى فى ذهن السامعين ، أما الخطبة التى تقوم على الاثارة وحدها فقد تنجح فى استجابة وقتية ولكنها تنسى سريعا ولا يبقى لها أثر فعال فى نفوس السامعين ·

مهمة الخطيب الأولى هى أن يبث حماسا فى نفــوس مستمعيه وأن يجعل كل واحد منهم أداة فعــالة تعمل على تحقيق المبدأ الذى دعا اليه ، واشاعته بين الناس ·

ولا يقتصر هذا على خطيب المسجد ، بل هو أمر عــام يشمل خطباء السياسة والدين وكل مصلح اجتماعى ، وهذا الأمر ملموس فى الجمعيات والأحزاب ، شباب كل حزب وكل

جمعية يدعون لمبدئهم ويودون لو استوعب الناس جميعا ، وهذا يرجع الى مبدأ الاقناع والاستمالة معا وعليه ظلت بعض الجمعيات والأحزاب حية بعد حلها وتشتيت أتباعها ٠

٢ ـ وحـــدة الموضـوع :

يجب أن يكون لكل خطبة موضوع معين ، ويجب على كل خطيب من خطباء المساجد خصوصا أن يسأل نفسه قبل الذهاب لخطبته ما الذى يريد أن يدعو الناس اليه، وأن يسألها بعد فراغه منها ما الذى استفاده السامعون من خطبته ٠

ووحدة الموضوع تعنى أن يدور حديث الخطيب حول فكرة معينة أو مبدأ خاص يمهد له أولا ثم يشرحه ثم يظـل يقيم الأدلة عليه ويستكثر من البراهين العقليـة والتاريخية ، وأدلة القرآن والسنة ، حتى يكون واضحا جليا فى عقـول المستمعين ثم يظل باقيا فى قلوبهم وأذهانهم ، انه بهذا يعمق الفكرة ويجعل كل سامع قادرا على أن يزيد أدلتها وحججها وأن يدافع عنها اذا دعاه الأمر الى ذلك ٠

أما الخطبة التى تتناول عددا من الموضوعات فانها تكون ضحلة غير عميقة ، والحديث عن المبدأ الثانى ينسى ما قيل عن الأول كما ينسى الثالث ما قيل عن الثانى ، وهكذا تنتهى الخطبة بأفكار باهتة تكون قليلة ثم تنسى سريعا ٠ ونجـد تنبيها على ذلك فى وصاة لأبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فانه قال : « واذا وعظت فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا » وهذا ينطبق على تناول الأغراض الكثيرة ولكنـه لا ينطبق على ايراد الأدلة الكثيرة ، فالأدلة الكثيرة اذا نسى بعض منها بقى بعض آخر ولكن الفكرة الأساسية لا تذهب ٠

٣ ـ أن تكون الخطبة مرتبة الأجزاء ترتيبا منطقيا :

مقدمة ثم عرض ثم استدلال ثم نتيجة ـ وكل جزء من هذه الأجزاء مبنى على الذى قبله : المقدمة تلفت الذهن وتوجهه مبدئيا الى الفكرة ، وشرح الفكرة أو موضوع الخطبة يوحى

بأهمية ما يدعو اليه الخطيب ، والأدلة التى تساق تحفز الناس الى هذا المبدأ أو تحرضهم على العمل ، ثم النتيجة دعوة صريحة والزام بالعمل ٠

قد يعتسف الخطيب موضوعه فيهجم عليه بدون أية مقدمة ولكن هذا يضيع جزءا مما دعا اليه ، لأنه لم يسترع انتباه سامعيه ولم يهيئهم الى سماع ما يريد أن يلقى عليهم ٠

والبداية بالنتيجة وطلب ما يعمل كبداية المدرس بالقاعدة قبل ان يذكر الأمثلة تظل أمرا معلقا توزه الأدلة والاقناع ٠

وعناصر الخطبة ليست كلها سواء فى الأهمية ، فمنها ما هو حتمى ضرورى ومنها ما هو تكميلى ، وعلى الخطيب أن يختار العناصر ذات الأهمية لتكون موضع تركيز واهتمام فهو يلح عليها بالشرح والأمثلة بينما لا يفعل ذلك بالأجزاء الأخرى وكل يتوقف على تقسيم الخطبة وترتيب أقسامها ٠

٤ ــ يعين الخطيب ويجعله أقدر وأنجح ، ما يعتمد عليه من حسن الالقاء ونبرات الصوت وقد أفردنا للالقاء حديثا خاصا ، كذلك تحدثنا عن أسلوب الخطبة وأثره فى نجاحها ٠

وجمع الجاحظ أهم عوامل نجاح الخطبة فيما نقله عن بعض علماء الهند فقال (١) : « جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الافصاح بها الى الكناية عنها اذا كان الافصاح أوعر طريقة ، وربما كان الاضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر » وقال مرة :

« جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق (٢) بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر ٠ وزين الكلام كله وبهاؤه

---

(١) البيان والتبين ١/٨٨ ، ٨٩ ٠
(٢) الحيرة والتخبط ٠

أن تكون الشمائل موزونة · والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية، فان جاءه ذلك الحسن والجمال وطول الصمت فقد تم كل التمام وكمل كل الكمال ·

الالقــــــــاء

أهمية الالقاء

يراد بالقاء الخطبة طريقة التحدث بها الى الناس ، وانهاء المعلومات بها الى أذهانهم وقلوبهم ، والالقـــاء من أهم العوامل فى نجاح الخطبة أو فشلها ، فقد تكون الخطبة جيدة المعانى والأفكار ، حسنة العبارات والأسلوب ، ثم لا تظفر بالقاء جيد فتضيع فائدتها اذ لا يفهمها السامعون ولا تجتذب انتباههم ، وقد تكون أقل من ذلك فى اعدادها وتكوينهـا ولكن جودة القائها تنهى الى السامعين كل جزئية منها ، فتكون فائدتهم منها أكبر وأكثر ، والخطيب الموفق هو الذى يستطيع أن يشد انتباه السامعين ويربطهم به ، فيتابعون أفكاره ويشاركونه انفعالاته وعواطفه ، وأكثر من هذا أن تكون خطبته موحية تولد فيهم أفكارا ومعانى جديدة وتوقظ عواطفهم وتوجه مشاعرهم الى ما يدعو اليه · ولا يكــون شىء مـ نهذا الا مع الالقاء الجيد المثير ·

وللالقاء الجيد قواعد من أهمها ما يلى :

أثر الصوت

١ ـ جهارة الصوت وقوته ، وكان العرب يفضلون فى الرجل أن يكون واسع الاشداق ، ويصفون الخطيب الجيد بأنه أشدق ، وكل متفوه ذو بيان فهو أشدق ، وأشتهر بهذا اللقب عمرو بن سعيد الأموى (١) لأنه كان من الخطبـاء المشهورين، ويتوقف الصوت القوى أيضا على قوة الحنجرة

---

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص الأموى · كان مروان بن الحكم وعده أن يجعله ولى عهده ثم ولى ابنه عبد الملك · فكان بينـه وبين عمرو هذا عداء حتى قتله عبد الملك أخيرا ·

وقوة الصدر والرئتين ، وهذه صفات خلقية ، ومردها كلها الى اجادة الصوت وجهارته وحسن بيان الحروف ومخارجها، وفى الوقت الحاضر سدت مكبرات الصوت مسد هـــذه الصفات الى درجة كبيرة وان كانت لا تغنى عنها نهائيا ٠

٢ ـ حسن مخارج الحروف وتمييز أجزاء الكلمة ، وكان العرب يكرهون من الخطيب أن يكون ألثغ ـ ينطق بالشين سينا مثلا ، أو بالراء غينا ، أو بالكاف تاء ، فذلك يضيع بهاء الخطبة وقد يوقع السامعين فى لبس ، أو على الأقل يكلفهم شيئا من المشقة فى فهمه ـ فاذا تحدث خطيب عن أثر الكبر وأخلاق المتكبرين فيقول: ان الشخص قد يزهو وينتفس فلا يطيق الناس نفسه ـ وهو يريد أن الشخص ينتفش فلا يطاق نفشه ـ وينتفش بمعنى يزهو كالديك ، أو يقول : ان الشخص السىء كالجغح المنتبغقد يقضى انتباغه الى ضغغ عظيم ، وهو يريد أنه كالجرح المنتبر أى المتورم المرتفع ٠ فيلتبس كلامه بالعبقرية والنبوغ وهو معنى بعيد جدا عن مراده ، ويعنى « بالضغغ » الضرر وهذا سيىء ٠

مخارج الحروف

وقد أفرد الجاحظ فى كتابه « البيان والتبين » فصـــلا للحروف التى تدخلها اللثغة وما حضره منها (١) فذكر أنها أربعة : القاف ، والسين ، واللام ، والراء ، وأورد صورا كثيرة من النطق بها ، وذكر بعضا من مشهورى الخطبــاء الذين كان بهم شىء من هذا اللثغ وكيف كانــوا يتجنبونه وينجحون فى تحاشيه ٠

ومنهم محمد بن شبيب وهو من رجال الكلام ٠ وكان ينطق الراء غينا ولكنه كان يستطيع النطق بالــراء اذا ضغط لسانه (٢) وكان لحسن تصرفه فى الكلام وسعة المفردات

---

(١) ص ٣٤ وما بعدها ، جـ ١ ٠
(٢) ص : ٣٧ ٠

لديه يستبدل الكلمة بأخرى خالية عن الراء ، وهذا عجيب وشاق ولكنه تأتى له بطول المران حتى وصفه بعض الشعراء بقوله :

عليهم بابدال الحروف وقامع لكل خطيب، يغلب الحق باطله(١)

لباقة واصل ابن عطاء

ومن أشهر هؤلاء واصل بن عطاء (٢) رأس المعتزلة ، فانه كان ألثغ فاحش اللثغ وكان مخرج الراء منه فاحشا شنيعا ، وكانت مكانته وموقفه من خصومه الكثيرين ، وحاجته لشرح مذهبه والدفاع عنه تحوجه الى الخطب الطوال ، وأنها لا بد أن تكون فصيحة بينة الألفاظ واضحة الحروف ، فعمل على اسقاط الراء من كلامه فلم يزل يكابد ذلك حتى استقام له أن يلقى الخطب الطوال خالية من هذا الحرف ، وكان يعادى بشار بن برد ، وكان بشار يلبس القرط فى أذنه على طريقة العجم فكان واصل يقول عنه : هذا الأعمى المشنف ، يريد ذا القرط ٠ ومن كلامه فيه : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله ، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى منزله وفى يوم حفله ٠٠ فتحاشى اسم بشار وكلمة الكافر، ويبقر بطنه، وعلى فراشه، وفى داره ٠٠ وكان الناس يعجبون منه ومن حسن تصرفه فى الكلام لتحاشى هذا الحرف ، ويتوقف مثل هذا العمل على سعة العلم بالمفردات اللغوية والتراكيب ، وعلى التدرب والتمرين ٠

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ ، ومعنى قامع متربص ، وهو يصفه بقوة الحجة وأنه لفصاحته يكسو الباطل ثوب الحق ٠

(٢) ولد واصل سنة ٨٠ هـ ، وتو فى سنة ١٨١ ، وكان يكنى ابا حذيفة ويسمى الغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين لدى صديق له ، وكان بشار قبل أن يجهر بمذهبه فى الرجعة يحبه ويقدمه على أقرانه من الخطباء ، فلما جهر بمذهبه عاداه واصل واتصل الهجاء بينهما ٠

تكييف الصوت

٣ ــ تلوين الصوت وتكييفه ، فيجهر الخطيب مرة ويعلو صوته ، ويلين أخرى حتى يكون كلامه همسا ، كما يسرع فى جلسة ويمد صوته فى أخــرى ولا بد أن يميز لهجــة الاستفهام من لهجة الخبر ٠٠ وهكذا ، ويزرى بالخطبة ويذهب بتأثيرها أن يكون صاحبها رتيب الصوت مطرد النغم تجرى كل تعبيراته على وتيرة واحدة ، وبعض الخطباء يثير الناس بحسن القائه ، فاذا قرئت الخطبة بعد ذلك كانت قليلة التأثير لأن تأثيرها فى الواقع كان راجعا الى حسن القائها لا الى حسن تأليفها ، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك ، وخير الخطب ما جمع بين حسن التأليف وحسن التأثير ، وتلوين الصوت يأتى من الدربة ومن انفعال الخطيب نفسه بخطبته فيكون تكييف صوته نتيجة انفعاله وتأثره ، فاذا عدم هذا الشعور كان قارئا لا خطيبا ، ولا يستحسن لهذا ــ أن تكون الخطبة مكتوبة ولا محفوظة ولكن على الخطيب أن يعــد عناصر خطبته والأفكار التى يريد نقلها الى الناس ثم يعبر عنها بطريقته ، وهذا يتوقف على مقدرة الخطيب الكلامية ومحصوله اللغوى ومحفوظاته الأدبية كمــا يتوقف على حسن تفكيره وقدرته على تحليل موضوعه ٠

الاشارات

٤ ــ لا بد لجودة الالقاء من الاشارات باليد أو بغير اليد أيضا فان هذه الاشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره فى سامعه ، وفى هذا يقول الجاحظ : « والاشــارة واللفظ شريكان ٠ ونعم العون له ونعم الترجمان هى عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وتغنى عن الخطأ » ٠

« وفى الاشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة ٠٠ » ٠

« هذا ، ومبلغ الاشارة أبعد من مبلغ الصوت ، فهــذا أيضا باب تتقدم الاشارة فيه الصوت ٠٠ » ٠

وحسن الاشارة باليد والرأس من تمام حسن البيــان

باللسان مع الذى يكون مع الاشارة من الدل والشـــكل والتفتل والتثنى ، واستدعـاء الشـهوة وغـــير ذلك من الأمور ٠٠ (١) » ٠

والاشارة أيضا وليدة الانفعال والتأثر ، والخطيب الذى لا يكون متأثرا بكلام نفسه ،يفقد أهمصفات الخطيب المؤثرة ٠
وننذكر مع هذا أن من الخطباء من يسرف فى تلوين صوته وكثرة اشاراته حتى يخرج ذلك بالخطبة عما يراد منها ، بل ويفقدها نهائيا قيمتها ، والخطيب الموفق من يستعمل ذلك فى موضعه المناسب بغير اهمال ودون اسراف ٠

الطريقة الناجحة

والطريقة الجيدة فى الالقاء ٠٠ أن يضع الخطيب نصب عينيه ، أن عليه أن يفهم سامعيه ما يقول ، وأن يستميلهم الى أفكاره ويقنعهم بها ، وهو لهذا يبدأ كلامه بلهجة هادئة عادية ، لهجة من يتحدث الى شخص فى موضوع ما ليفهم أبعاده وعناصره وليقتنع به ، ثم ليحبه ويعتنقه ، وفى هذا الالقاء الذى يبدأ بلهجة متكلم غير متصنع ، يجد الخطيب صوته قد ارتفع ، ونبراته قد تكيفت ، ويجد سمات الأخبار والاستفهام والتعجب والدهشة والسخرية ، وما اليها ، قد ظهرت تلقائيا فى هذا الحديث ٠

هذا ، وليس من المناسب أن يبدأ خطبته ثائرا منفعلا ، كما أنه ليس من المناسب أن يظل على نبرات رتيبة ، وهذا غالبا أو قطعا يرجع الى انفعال الخطيب بما يقول ، ولهذا تفتر الخطبة القاء وتأثيرا اذا كانت مكررة لا أثر لها فى نفس الخطيب ٠

وبهذا ترى أن الالقاء مرتبط بموضوع الخطبة ومعانيها ٠

---

(١) البيان والتبين ، ص ٧٨ ، ٧٩ ٠

مكـونات الخطيب

فطرة الخطابة والتدرب عليها

الخطابة ـ كالشعر والتمثيـل والرسم ـ من المواهب الفطرية ، فبعض الناس يخلق خطيبا أو شاعرا بفطرته ، وهذه الطبيعة توفر عليه جهدا كبيرا فى حصوله على كمال هذه الصفة ، ومن الناس من يحسن الكتابة وتشقيق الكلام فيما يعبر عنه من المعانى ولكنه لا يحسن القاءه ولا مواجهة الناس به ، ومنهم من يحصر ويعى أو يرتج عليه اذا وقف للخطابة ، واذا تحدث فى مجلس أجاد الحديث ، ومنهم من لا يستطيع هذا ولا ذاك · وهذا النوع يتجنب الخطابة أصلا أما الآخرون فيحتاجون الى تـــــدريب وتكوين عام حتى يحسنوا الخطابة ، والشخص الموهوب أقوى وأقدر على أى حال ، ولا يعنى هذا أن الخطيب الموهوب يستغنى عن مؤهلات الخطابة ومعرفة قواعدها وطرق القائها فهناك أمور خاصة لا يكون الخطيب خطيبا بغيرها وليس الالقاء الجيد كافيا فى جعل الخطبة ناجحة مقبولة حتى تقترن به الصفات الأخرى ومن أهم هذه المكونات هذه الأمور التى لا يستغنى عنها خطيب ·

درس اللغة

١ ـ درس اللغة درسا يحول بينه وبين الخطأ واللحن ، وهذا يرجع الى درس قواعد اللغة ومتنها ، وكان بين العرب جماعة لحانون وكانوا مضرب المثل والتندر ، وكان الخلفاء يحتقرون المتحدث اذا أخطأ أو لحن ، وكان خالد بن عبد الله القسرى من الخطباء المعروفين فقال مرة وهو فوق المنبر أطعمونى ماء فاتخذها الناس سخرية حتى قال فيه الشاعر:

بل المنابر من خوف ومن هلع واستطعم الماء لما جد فى الهرب

أما الخطأ النحوى فانه أفحش وأسوأ · وأشنع من هذا أن يستعمل الخطيب اللغة العامية فى خطبته أو فى جمـل

كثيرة منها ، وانما يسوغ كلمة أو جملة ليفسر بها شيئا غمض على سامعيه ٠

سعة الاطلاع والحفظ

٢ ــ سعة المحفوظات الأدبية من الشعر والنثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا . هذا فضلا عن حفظ الكثير من القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية فهذا المحفوظ يمده بالعبارات التى يستغلها بسرعة ويمنحه قدرة على التصرف فى تعبيراته وألفاظه كما أنه يسعفه بما يستشهد به على ما يقول ، ولئن كانت المحفوظات الدينية ضرورية وحتمية للخطيب الدينى انها أيضا من مكونات الخطيب أيا كان ، ونجد المحامين فى المحاكم وأعضاء البرلمانات يستعينون بالآيات القرآنية والأحاديث فى تأييد وجهة نظرهم وفى رفع أسلوبهم الخطابى ، وليس الغرض من هذه المحفوظات هو الاستشهاد ولكن الغرض منها هو اللغة وسهولة التعبير ، وكما سبق يحتاج الخطيب فى كثير من المواقف أن يكرر المعنى الواحد وأن يعبر عنه بعدة عبارات مختلفة ، فاذا لم يكن لديه هذه القدرة الكلامية صعب عليه هذا التعبير ٠

ولا ينبغى أن يكثر الخطيب من هذه الاقتباسات فان ذلك يفقد الخطبة أثرها ، وذكرها يكون دائما في الوقت المناسب وفى المكان الذى يحسن وضعها فيه فانها حينئذ تكون حجة ثانية مؤكدة لحجته الأولى ٠

الدراسة النفسية

٣ ــ لا غنى للخطيب عن دراسة الجوانب السلوكية فى علم النفس التعليمى ، وبصفة خاصة دراسة الغرائز وتربيتها ومراحل نمو الطفولة وما يناسب كل مرحلة من معاملة ، وبدون دراسة لهذا العلم لا يستطيع الخطيب أن يفهم نفسية سامعيه وهذا يعود عليه بضرر كبير فهو من ناحية لا يعرف ما يجب أن يقدمه لهم من نصائح وعظات اذ لكل جماعة حاجة الى نصائح خاصة ، ومن ناحية أخرى

لا يعرف أسباب الانحراف التى تطرأ على سلوكهم ولا كيف يكون علاجها والطب لها ٠ وعلم النفس التربوى والسلوكى يمده بينبوع فياض من المعانى ويمنحه القدرة على لمس قلوب السامعين وتحريك عواطفهم واثارة مشاعرهم ٠ ولكن لا يجوز أن يتخذ الخطيب ما درسه من علم النفس مادة لخطبته ، وقد سمعت مرة خطيبا يتحدث من فوق منبر المسجد عن بعض العقد النفسية وكيف تتكون وكيف يكون أثرها فى حياة الناس ، وهذا خطأ لأنه يجعل الخطبة شرحا لموضوع نفسى ٠

يكفى على سبيل المثال أن يطلب من الوالدين ألا يختلفا فى أمر ويتنازعا أمام طفلهما ، يكفى أن يطلب ألا يحرم الطفل مما تهفو اليه نفسه من المطعم والملبس والملعب فان لم يكن ذلك ممكنا فلا يترك بين أطفال يتمتعون وهو بينهم محروم ، وبالمثل اذا كان لأولاده ما يتمتعون به دون جيرانهم فلا يترك أطفاله يظهرون بما لديهم حتى يغيظوا به أولاد جيرانهم ، وهو واجد فى الآثار الاسلامية ما يكفى لهذا ، أما أن يستطرد من هذا ليشرح عقدا نفسية ٠٠ أو ديبية أو نرجسية أو ما الى ذلك فهذا غير سائغ كما أنه قليل الفائدة للسامعين ٠

الجراة والثقة بالنفس

٤ ـ من مكونات الخطيب الجرأة والشجاعة والثقة بما يقول وهذه صفات لكل منها مفهومه وليست مجرد مترادفات

فالجرأة تعنى عدم التهيب والتردد فيما يتحدث عنه الخطيب ، وهناك مواقف يتعرض لها الخطيب قد توهن قوته وتجعله بغير مجرى خطبته أو يوجزها أو يحذف بعض عناصرها ، ولكن الخطيب الجرىء لا يتأثر بها ٠

العوامل السلبية

قد يشرع الخطيب فى خطبته وبعد القاء بعض فقراتها يقوم من المجلس وربما من الصفوف الأمامية بعض الأشخاص ويخرجون ، وقد يعرض عنه بعض السامعين فينظر فى

صحيفة أو كتاب ، أو يتحدث الى من بجانبه فهذا يوهن قوة الخطيب ويترك أثرا كبيرا من الفتور فى صوته والقائه ولكن ينفعه فى هذه الحالة أن يولى وجهه الى الآخرين وألا يبدى أى اكتراث بما حدث · ومن نصائح الأقدمين : « انك لا تتعلم الخطابة حتى تتعلم القحة » والمراد بالقحة عدم المبالاة بأى شىء يكون معارضا له ويرجع ذلك الى الجراءة وقوة الجنان ·

ويراد بالشجاعة قوة الخطيب على فرض رأيه على سامعيه وخصوصا حين يكونون على غير رأيه ، وربما قاطعه بعض السامعين بما هو ضد ما يقول ، وفى المساجد قد يصفق بعض الحاضرين ، وفى هذه الحالات لا يستطيع الخطيب أن يتخلص بمجرد الانصراف بوجهه الى الآخرين ويتجاهل من يقاطعه ولكن عليه أن يكون ثابتا هادئا مبديا للناس بمظهره وثباته أن هذا ليس بشىء يهتم به ، ثم يستمر فى سرد الأدلة على رأيه مضمنا كلامه ردا على المعترض فى بساطة وهدوء فهذا موقف يعتمد على الشجاعة ·

ويفيد الخطيب فى هذه اشارة عابرة باليد أو الرأس لاظهار عدم اكتراثه وبيان أن ما عورض به ليس بشىء ذى بال ، ويجدى فى هذا مجرد ابتسامة ، أو مد شفتيه مع استمراره فى حديثه ، ويفشل الخطيب كل الفشل اذا انفعل أو غضب أو بدت عليه سمات الضعف فهو بهذا يخسر الموقف كله ·

ولقد رأيت بنفسى خطيبا عارضه أحد سامعيه وشرح فساد رأيه فصفق الحاضرون جميعا لهذا المعارض ، فلما انتهى تصفيقهم وضحكهم ومظهر سخريتهم بدأ الخطيب فى هدوء تام يصيح بالحاضرين : أيها السادة ·· الى هنا صفقتم وضحكتم لأن هذا الرجل خدعكم بكلام معسول ولكن أنظروا ههنا ما يستحق أن تتأملوه ·· ثم بدأ يشرح رأيه من

جديد فى ثبات وهدوء كان لم يعترضه أحد أو يسخر منه أحـد (١) ٠

انه خطيب حقا ، وانه مصر على أن يكسب من السامعين عددا قليلا أو كثيرا ولو انه انهار فضعف أو انصرف لضاعت خطبته هباء ٠

الايمان بموضوع الخطبة

وأما ثقة الخطيب بكلامه فتعنى ايمانه بالمبادىء التى يدعو اليها ، هذه الثقة تدفعه تلقائيا الى تكييف صوته وانفعاله وتلهمه الحجج والبراهين ، وتجعل الآخرين يتأثرون به ، وقديما قالوا : ما خرج من القلب وصل الى القلب وما خرج من اللسان لا يجاوز الآذان (أى لا يجاوز اذن السامع الى قلبه) ، كما قالوا : ليست النائحة المأجورة كالنائحة الثكلى وقد يبكى الخطيب سامعيه ويحرق قلوبهم بمواعظه ولا يفعل ذلك غيره ممن هم أبلغ منه ويرجع ذلك الى اخلاصه وايمانه بما يقول ٠

حال الخطيب الدينى

٥ ــ ويجر هذا الى عنصر آخر يتوقف عليه نجاح الخطيب الدينى أكثر من غيره ، ذلك هو صلاح الخطيب حقا واخلاصه لله تعالى ، وحرصه على الاستقامة التامة على تعاليم الدين، والخطيب الذى تتوافر فيه هذه الصفة تكون خطبته عبادة لأنها دعوة الى سبيل الله ، أما من لا يكون له هذه الصفة ، فهو منافق وهو أيضا عرضة للزلل والفتيا بما يرضى الناس لا ما يرضى الدين وكما قال الامام على : من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غـــيره وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه ٠

---

(١) كان هذا خطيب انجليزيا يدعو لمبادىء اشتراكية فى حديقة هايد بارك ٠ وقد لفتنا مدرس الخطابة غير مرة فى درسه الى حسن تصرف هذا الخطيب ، وكان هذا المدرس يذهب معنا الى ركن الخطباء هناك لملاحظتهم وكتابة ملاحظات عنهم ٠

وقراءة تاريخ الذين صمدوا بفكرهم الدينى أمامخصومهم مثل الامام مالك وأحمد بن حنبل وسعيد بن المسيب والحسن البصرى ٠٠ وغيرهم تفيد الخطيب كثيرا للاقتداء بهم فى موافقهم وبيان روعتها للسامعين ٠

التدرب

٦ ـ لا بد للخطيب مع كل هذه الصفات من التدريب العملى واعداد نفسه لمواجهة الجماهير ، ولا بد له أيضا أن يتوقع الفشل مرات كثيرة فشأنه فى هذا شأن كل متعلم ، يسقط مرة وينهض أخرى حتى يتم تكوينه ودربته ، وانك واجد فى تاريخ الخطابة أشخاصا كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولأشخاص وهميين وقد أجدى عليهم ذلك وخرجهم خطباء متفوقين ممتازين ٠

هيئة الخطيب

٧ ـ يتأثر الخطيب بمظهره وهيئته ولهذا يجب أن يكون مقبول المظهر حسن الملبس كما يحسن أن يكون بعيدا عن الصغائر التى تحط من هيبته وأن يكون قليل المزاح بعيدا عن مجالسة العامة ، وأن يغضى عن بعض الكلمات التى لا تناسبه ، وهذا يدخل فى أدب الخطيب ٠

أدب الخطيب

لهجة الخطيب

تحدث الأولون عن هيئة الخطيب وموقفه ، فذكروا له صفات ترفع قيمته وتعلى شأنه ، وأخرى تحط من قدره وتوهن من تأثيره فى سامعيه ، كما ذكروا له حالات تمل سامعيه وتدل على نضوب ذهنه وفقره الكلامى ٠

وقد كره العرب أن يكون الرجل ذا لثغة فى أى حرف من الحروف على ما ذكرنا قبل ، وذكروا منها أنواعا كثيرة كالتأتأة وهى تردد التاء واحتباس اللسان بها كما يفعل التيس فى ترديد صوته ، شبه هذا بحركة الطفل الذى يتعثر فى مشيته أول ما يتعلم المشى وربما أطلق هذا على كل لجلجة وتعثر فى الكلام ، ويسمى تتعتع اللسان فى أثناء

تمتمة ويسمى صاحبها تمتاما ، ومنه قول المتنبى يصف الخيل التى تتعثر بجثث القتلى :

يتعثرن بالرءوس كما مر بتاءات نطقه التمتام

يريد أنها لا تكاد تنطلق فى حربها لكثرة الجثث التى تطؤها

ومدح شاعر فصاحة رجل فقال (١) :

ليس بفأفاء ولا تمتام ولا كثير الهجر فى الكلام

ويعنى بالهجر الحشو والكلام الكثير الذى لا كبير معنى له ، وأصله الفحش والكلام القبيح ، ومن الأسباب التى تنشأ عنها اللجلجة والحبسة قلة ممارسة الشخص للخطابة والانقطاع عنها مدة ، وجاء فى رجزهم :

ترك ممارسة

كأن فيه لففا اذا نطق من طول تحبيس وهم وارق

قالوا : وكان يزيد بن جابر قاضلا جماعة الأزارقة الخوارج (٢) بعد احدى المواقع الحربية آثر السكوت والصمت حتى ثقل عليه الكلام ، فكان لسانه يلتوى ولا يكاد يبين .

ومن أسبابه أيضا ضعف النفس وقلة الجراءة ، وهى أيضا من أسباب الحصر لأن الهيبة تذهب بقدرة الشخص على التفكير وتذهب من رأسه الألفاظ ، وعابوا على الخطيب كثرة النحنحة ومس اللحية والعبث بأصابعه لأن هذه كلها مما يستعان به على استجلاب الكلام وهى دليل الفقر الكلامى والعى عن متابعة الخطبة ، والشأن فى الخطيب أن يكون متدفقا ينتقل من فكرة الى أخرى فى ترتيب واتصال بين أفكاره ، ولا يعنى تدفقه سرعة القائه ، فهذا عيب آخر ، لأن الاسراع فى الكلام يحول بين سامعيه وبين فهمه ، وقد تنشأ عنه لجلجة أيضا .

صفات ممقوتة

---

(١) الشاعر هو أبو الزحف بن عطاء ، ابن عم جرير ، ذكره ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء .

(٢) كان يزيد قاضيا لجماعة نافع بن الأزرق ، وهى فرقة معروفة، ولنافع مواقف مع ابن عباس ، وانظر الفرق بين الفرق ، ص ٨٢ .

كذلك كرهوا للخطيب أن يطيل النظر فى وجوه مستمعيه، وقالوا انه من العى وهو فى الواقع من أسبابه ، لأن الخطيب أو المتكلم أيا كان حين تلتقى عينه بعين من يحدثه تضعف ذاكرته وقدرته ويعزب عنه الكلام ، ومن أقوالهم فى هذا : «تلخيص المعانى رفق، والاستعانة بالقريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر فى عيون الناس عى ، ومس اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه أول الكلام اسهاب » وقالوا فى هذا أيضا :

« رأس الخطابة الطبع · وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الاعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه » ·

والأفضل للخطيب اذا لم يكن هادىء النفس محسا من قريحته استجابة ومن نفسه قابلية للكلام ألا يتكلم أصلا · فعدم قيامه بالخطبة وتركها أولى من تعريضه نفسه للنقد وكشف ضعفه أمام الناس ·

صحيفة بشر بن المعتمر

بصدد الحديث عن الخطيب وتكوينه وأدبه ، أوثر أن أنقل هنا وصية بشر بن المعتمر التى تحوى رأيه فى تكوين الخطيب واعداده ، وبشر هذا من أعلام المعتزلة وأعلام الخطباء ، تنسب اليه طائفة البشرية ، كان يخالف المعتزلة فى مسألة القدر ، ويرى أن الأعراض من فعل الناس وليست من خلق الله ، وأن الصفات العامة ــ من اللون والطعم والسمع والادراك ــ صفات مكتسبة ، وأن الانسان يستطيع أن يمنحها غيره ، وينشئها فيه بتهيئة أسباب الوراثة والمؤثرات فيه ، ولكن ذلك يتوقف على معرفته اياها ، وكان

---

(١) أنظر أمالى المرتضى ١٣١/١ ، ودائرة المعارف الاسلامية ٢٦٠/٣

هذا مما أنكره عليه معاصروه لأنه نفى تأثير الله فيه ، وكان له صفات غير شريفة اذ كان نخاسا يبيـع الرقيق ، وكان يقع فى أبى الهذيل العلاف بمالا يليق ·

وقد كان بشر مناظرا قوى الحجة ذا قدرة على قهـر خصمه ، لهذا كان له تلاميذ يتدربون عليه فى الجدل وعلم الكلام ، وترك مصنفات فى الاعتزال ·

ونذكر هنا وصيته كاملة ، وقد ذكرها كل من الجاحظ فى البيان والتبين، وابن عبد ربه فى العقد الفريد، وصاحب الوفيات ·· وكان بشر قد مر بابراهيم بن جبلة وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، وابراهيم خطيب كبير استمع اليه بشر أولا ثم قال للفتيان : اضربوا عما قال صفحا ، ثم دفع اليهم بصحيفة من تنميقه كان فيها :

« خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك فان نفسك تلك الساعة أكرم جوهرا ، وأشرف حسـبا ، وأحسن فى الاستماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسـلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عـين من لفظ شريف ومعنى بديع (١) ·

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكر والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك(٢) لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه ، واياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك · ويشين ألفاظك ، ومن أراغ (٣) معنى كريمـا فليلتمس له لفظا كريما · فان حق المعنى الشريف ، اللفظ

---

(١) العين من الناس والأشياء الشريف الرفيع ·
(٢) مهما يغب عنك من المعانى والتعبيرات فانك لن تخطىء هذه الاشياء
(٣) أراغ وارتاغ ، طلب وأراد ·

الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله الى أن يكون أسوأ حالا من قبل أن تلتمس اظهارهما · وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما فكن فى ثلاثة منازل :

فأول ذلك أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، أو فخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا · اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت ·

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ،وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مدخلك وقدرتك فى نفسك ·· أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التى لا تلطف عن الدهماء ·· ولا تخفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام ·

فقال له ابراهيم : أنا أحوج الى تعلمى هذا الكلام من هؤلاء الغلمة ·

واستمر بشر فقال :

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصرالى قرارها والى حقهامن أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها ، وفى نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن ، والنزول فى غير أوطانها، فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، فان أنت تكلفتهما ، ولم تكن حاذقا مطبوعا ، ولا محكما لشانك ، بصيرا بما

عليك وما لك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك ·

فان ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع (١) فى أول وهلة ، وتعاصى عليك بعد اجالة الفكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك وسواد ليلتك ، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق (٢) ، فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول اهمال (٣) ، فالمنزلة الثالثة (٤) أن تتحول هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فانك لم تشتهه ، ولم تنازع اليه الا وبينكما نسب ، والشىء لا يحن الا الى ما يشاكله ، وان كانت المشاركة قد تكون فى طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة ، فهذا هذا ·

وقال كلاما آخر بعد ذلك غاية فى الدقة ، وعمق تفهم الخطابة وموقف الخطيب ، فليرجع اليه فى البيان والتبين من يريد استقصاء هذه النصائح (٥) ·

صحيفة الهند فى البلاغة (٦)

كان العرب يسألون الهند والفرس أحيانا عما هى البلاغة

---

(١) الطباع ككتاب مفرد ، بمعنى الطبيعة والفطرة ، وقد يكون جمع طبع ، كرجل سمح وقوم سماح ·

(٢) بأن كان لك ميل نفسى وسجية للخطابة ·

(٣) طول اهمال الخطبة يسبب صدأ النفس وفتور القريحة ، ولكن يمكن علاج هذا الموقف بمعاودة التدرب ·

(٤) وهى فقدان الفطرة والطبيعة الخطابية ·

(٥) أنظر ص ١٣٨ ج ١ ، وما بعدها ·

(٦) وردت هذه الصحيفة فى عيون الاخبار مختصرة ، المجلد الثانى، ص ١٧٣ · وفى كتاب الصناعتين ص ١٩ · ونقلناها هنا عن البيان والتبين ٩٢/٢ ·

لديهم فيجيب كلبما لديه ، ولما اجتلبيحيى بن خالد البرمكى عددا من أطباء الهند وكان بينهم بهلة الهندى سأله معمر أبو الأشعث (١) عن البلاغة عند الهند فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها فلما ترجمت وجد فيها :

« أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، ذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قوله فضل التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفا عليما ، ومن (٢) قد تعود حذف فضـــول الكلام واسقاط مشتركات الألفاظ ، وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرف » ثم قال : « واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال وفقا ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصرا ولا مشتركا ولا مضمنا ، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظــه موفقا ، ولهول تلك المقامات معاودا ،ومدار الأمر على افهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلاته وتتصرف معه أداته ، ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى جميع الظن مقتصدا ، فانه ان تجاوز مقـــدار

---

(١) هو معمر بن عباد السلمى ، صاحب مدرسة ورئيس فرقة من المعتزلة تسمى المعمرية توفى سنة ٢١٥ · أنظر لسان الميزان ٧١/٦ ، وابن النديم ١٤٧ ·

(٢) وحتى يسادف من تعود ذلك ·

الحق فى التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين ٠ وان تجاوز الحق فى مقدار حسن الظن بها ، آمنها فأودعها تهاون الآمنين ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل » ٠

وصية الجاحظ

تحدث الجاحظ فى كتابه «البيان والتبين» عن الصمت وعمن زينوه ومدحوه ، ثم قدم هو نصيحته لمن يستطيع الخطابة ألا يدعها فقال :

« قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم ، وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبين (١) أن ظننت أن لك فيهما طبيعة وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك فى بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك فيستولى الاهمال على قوة قريحتك (٢) ويستبد بها سوء العادة ، وان كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ (٣) فى الخطابة والبلاغة ، وبقوة المنةيوم الحفل فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة (٤) وأرفعها فى البيان منزلة ، ولا يقطعنك تهييب الجهلاء وتخويف الجبناء ، ولا تصرفنك الرايات المعدولة عن وجوهها المتأولة على أقبح مخارجها ٠

وكيف تطيعهم بهذه الرايات المعدولة والأخبار المدخولة (٥) وبهذا الرأى الذى ابتدعوه من قبل أنفسهم ، وقد سمعت

---

(١) توضيح ما يستحق أن يوضح للناس ٠

(٢) يروى القريحة ، وهو يريد أن من ترك التدرب على الخطابة فقد ملكتها ٠

(٣) القوة والتفوق ٠

(٤) السورة بالضم اسم جنس جمعى لسور ـ على غير الاكثر يكون المفرد بغير التاء والجمع بالتاء نحوكم ٠ وكماة ، يريد « ما دامت لك قدرة وتسام فاطلب القمة العليا » ٠

(٥) المصنوعة ٠

الله تبارك وتعالى ذكر داود النبى صلوات الله عليه فقال: « واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب ، انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ٠ فجمع له بالحكمة (١) البراعة فى العقل والرجاحة فى الحلم، والاتساع فى العلم ، والصواب فى الحكم ، وجمع له بفصل الخطاب تفصيل المجمل ، وتلخيص الملتبس والبصر بالحز فى موضع الحز والحسم فى موضع الحسم (٢) ٠

وذكر رسول الله ﷺ شعيبا النبى عليه السلام فقال : كان شعيب خطيب الأنبياء ، وذلك عند بعض ما حكاه الله فى كتابه (٣) وجلاه لأسماع عباده ٠

فكيف تهاب منزلة الخطباء وداود عليه السلام سلفك ، وشعيب امامك مع ما تلوناه عليك ٠٠ من القرآن الحكيم والآى الكريم ؟ ، وهذه خطب رسول الله ﷺ مدونة محفوظة ومخلدة مشهورة ، وهذه خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم (٤) ٠

وقد كان لرسول الله ﷺ شعراء ينافحون عنـــه وعن أصحابه بأمره ، وكان ثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد (٤) ٠

---

(١) بوصف الحكمة ٠
(٢) الحز : المحاولة ، والحسم : القطع ٠
(٣) عند شرح بعض الآيات القرآنية المتعلقة به ٠
(٤) هؤلاء لم يحجموا عن الخطابة فلا تحجم عنها ٠
(٥) مع من حوله من الشعراء المنافحين كان المدافع عنه بلا منازعـة هو هذا الخطيب ، وقيس محارب شجاع ومن المبشرين بالجنة ، واستشهد فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ورآه أبو بكر فى منامه ، فأخبره بمكان فرسه وأسلحته وأوصاه بوفاء دين عليه واعتاق رقيق له ، فنفذ الخليفة وصيته ، ووجد ما أخبره به على ما هو عليه ٠ أنظره فى الاصابة ،ص٩٠٠

اركــان الخطبة

تتكون الخطبة الكاملة من أجزاء يتبع بعضها بعضــا ويرتكز كل واحد منها على سابقه ، ونحن نسميها أركانا للخطبة جريا على الغالب ، ولكنها فى الواقع ليست أركانا حتمية فى كل خطبة بحيث تكون الخطبة التى تخلو من جزء أو ركن منها مختلة ناقصة أو لا تستحق أن تسمى خطبة ، وانما هو عمل فنى يراد به جعل الخطبة أدنى الى الدقــة والكمال ، كما يراد منه مساعدة الخطيب وارشاده الى ما يكمل به خطبته ويرفعها ويجعل السامعين أكثر استفادة منها ، وهذه الأركان قد تكون ضرورية فى الخطب الطويلة التى تتعرض لموضوعات هامة خطيرة كما هو الحال فى الخطب السياسية والبرلمانية وخطب الدفاع فى القضــايا الكبرى ٠

وقد جاء تقسيم الخطبة فى محاضرات أرسطو (١) ٠ فقسمها الى اربعة أقسام ، هى : مقدمة الخطبة أو التمهيد لموضوعها ، ويليها عرض الموضوع ثم التدليل عليه ودفع ما قد يرد عليه من اعتراضات ، ثم ختام الخطبة بتقــرير النتيجة التى يريد الخطيب اقرارها فى أذهـــان الناس ، ومواقفهم عليها أو استمالتهم اليها ٠ وجرى الذين جاءوا بعد أرسطو على تقسيمه غير أن آخرين قسموها تقسيمــا أكثر دقة وان كان لا يخرج عما رسمه المعلم الأول ، جعلها هؤلاء خمسة أقسام، هى: المقدمة والعرض والتدليل والتفنيد والنتيجة ، وهو تقسيم لم يزد على الأول شيئا ســـوى أن حلل الموضوع وقسمه ٠ وأكثر الباحثين يجعل أجزاء الخطبة ثلاثة فقط ، هى : المقدمة والعرض والنتيجة ، والعـــرض

---

(١) المراد بالتقسيم هنا بيان أجزاء الخطبة ٠

يشمل عرض الفكرة وتبريرها والـدفاع عنهـا ودحض معارضاتها ، وهذه التقاسيم ، تكاد تكون متحدة وخلافاتها لا تزيد جديدا ولا تحذف شيئا ٠

ولنشرح كل جزء شرحا وجيزا ٠

المقـــدمة :

الغرض منها

مقدمة الخطبة أو بدايتها حديث يبدأ به الخطيب خطبته لشد انتباه السامعين نحوه ، ولتهيئتهم للاقبال عليه والسماع لما سيقوله لهم ، وتمهيدا للفكرة التى يريدها ، وهى كما قلنا ليست حتمية فى كل خطبة ٠ الخطبة القصيرة تستغنى عنها نهائيا ومع ذلك هى ذات أهمية ، وكما قال أرسطو هى أول ما يطرق سمع الناس ، فاذا كانت جذابة مشوقة أنجحت الخطيب وجعلت الناس يقبلون عليه واقبالهم عليه يشـد عزمه ويثير فيه النشاط والحمية ، وهى فى جملتها عامـل تهيؤ للسامعين ، والزعيم أو القائد يهتم الناس بخطابه لأنه يقرر مصائر شعبه أو توجيه جنوده فيصغى له أتباعـه وأعداؤه على السواء ، وهو لذلك ليس بحاجة الى مقدمة يهيىء بها أذهان سامعيه ، ولكنه مع هذا قد يكون محتاجا لها لتبرير اتجاهه نحو موضوعه أو تفكيره فيه ٠

جذب الانتباه

تمهيد للموضوع

فاذا رأى رئيس الوزراء فى دولة ديمقراطية أن تدخل بلاده فى معركة مع دولة أخرى فجمع نواب بلاده لهـذا الغرض فان أتباعه وأعداءه مهتمون بحديثه متجهون لكل ما يقول ٠ ولكن هذا لا يغنيه عن تقديم للموضوع الذى يريده، فلا بد أن يبدأ بذكر الأحداث التى وجهته لهذا التفكير قبل أن يعرض أمر الحرب أو المسالمة ٠

وحين اجتمع أعضاء الدول المصدرة للبترول للنظر فى تثبيت أسعاره أو رفعها استمع العالم العـربى والشرقى لحديثهم بكل لهفة ، فاذا حدث لوزير البترول أن يلقى فى هذا الجمع خطبة فان هذا الاصغاء لا يغنيه عن مقدمةلحديثه

هذا لأن الأمر الذى سيدعو اليه له خطر وأهمية ولا يمكن الهجوم عليه بدون مقدمة · ومن الممكن أن تكون هذه بداية حديثه :

مثال لها

« ان البترول هو المصدر الرئيسى لحياتنا ، لسنا أمة صناعية ولا زراعية ولا حتى أمة تجارية تقوم حياتها على البيع والشراء ، اننا نشترى كل شىء نحتاج اليه ، طعامنا وملابسنا ومشروباتنا وأيضا وسائل انتقالنا وآلات البناء التى نبنى بها مساكننا ، كل هذا فضـــلا عن استيرادنا كماليات حياتنا من الدول الأخرى ، هذه الدول الصناعية تدور آلاتها وتعمل مصانعها بما تأخـذ من البترول الذى تخرجه أراضينا ، من المصدر الوحيد الذى نعيش عليه ، وهم فى السنين الأخيرة رفعوا أثمان كل شىء يرد الينا منهم رفعوا أسعار الآلات التى نخرج بها البترول ، وأســعار الأقمشة والأطعمة والسيارات وكل أنـواع الكماليات من الثلاجات والغسالات والآلات وأنواع المذياع وغـيرها ، أصبح ما نأخذه من ثمن البترول لا يكاد يكفى لربع ما كنا نشتريه من بضع سنوات ··· » ·

ليست هذه مقدمة لاسترعاء سمع الحاضرين وانما هى تمهيد لما سيقدم عليه من طلب الموافقة على زيادة أسـعار البترول ، وهى ليست بعيدة عن الموضوع ·

اسكات المعارض

ومن المواقف الداعية للمقدمة أن يكون الســـامعون معارضين لفكرة الخطيب وهم فى هذه الحالة ليسوا على استعداد لسماعه ، وربما قاطعوه أو تعمدوا عمل ما يصرف الناس عنه وقد تكون مقدمته هكذا ·

··· اننى أعلم أن هذا الأمر ليس مقبولا لديكم ولكن ما الذى يمنع أن تسمعوا وجهة نظر خصومكم على الأقـل لتدحضوها أو لتعرفوا ما سيقال لغيركم فتفندوه ، انى أقبل بكل ارتياح معارضتكم ، ولكن لا أرضى لكم أن تقومـــوا

بمعارضة عمياء جامحة لا تدرون لماذا عارضتم بها ٠ أكره أن تكونوا مقلدين تندفعون فى أمر بدون أن تفحصوه وتعرفوا كل جزئياته ٠٠ أؤكد لكم أننى على أتم استعداد لأن أتخلى عن هذا الموضوع اذا لم تكن أدلتى مقبولة أو كان لديكم ما يدحضها ، اننا لا نريد الا أن نصل الى الحق والصواب، وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، فلتستمعوا قليلا الى وجهة النظر التى لدى ٠ فان كان بها شىء من الخطأ فانى أول من سيتخلى عنها ويحاربها لأننى لا أريد الا الوصول الى الحق وأن أكون على خير ما يجب أن تكون عليه ثم يبدأ بالتسلل الى موضوعه تدريجيا ٠

ومثل هذا الأسلوب حدث كثيرا فى برلماننا المصرى فى عهد الأحزاب وقيام المعارضات القوية واستعداد معظم الأعضاء لرفض الرأى المعارض لحزبهم ٠ ولكن الخطباء كثيرا ما كسبوا موقفهم بما لهم من لباقة وقدرة على التظاهر بأنهم غير متحزبين وانما ينشدون صالح البلاد ٠

مقدمات القضايا

والمحامى فى المحكمة ليس بحاجة الى شد انتباه القضاة لأنهم تلقائيا متجهون نحوه مصغون لكل ما يقول ، وهو مع هذا فى القضايا الكبيرة مضطر الى مقدمة قد تطول والغرض منها هو التهيئة للموضوع ولبيان أنه يدافع للحق لا لأنه منوب من طرف معين ٠

وقف أحد المحامين فى قضية كبيرة فقال : يا حضرات المستشارين : « نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية ، انهم يضعون المقدمات ثم يرتبون عليها النتائج ، فاذا كانت مقدمات القضية سليمة مقطوعا بصحتها كانت النتيجة المرتبة عليها صحيحة مقطوعا بصحتها »

بهذه العبارات أشعر القضاة أن لديه أدلة مقطوعا بها لا تقبل أى طعن أو توهين وعقبها مباشرة أخذ فى شرح المقدمات التى كان يريدها ٠ فقال :

فى سنة ٠٠٠ ظهرت جمعية ٠٠٠ وأعلنت مبادىء طاهرة نقية استهوت قلوب الشباب ، فأسرعوا للانضمام اليها ، بل وتهافتوا عليها ٠٠ وبسرعة مذهلة عجيبة وجدنا لها فروعا ومكاتب فى أنحاء البلاد حتى فى القرى النائية الصغيرة، وبينما فرح الناس بمنهج هذه الجمعية الاصلاحى حزن لها حزب ٠٠ لأنه وجد فيها منافسا يوشك أن يظفر دونه بأغلبية الشباب ٠ أخذ هذا الحزب منذ ذلك الحين على عاتقه محاربة هذه الجمعية فى كل مكان ، ونشبت المعارك بين الطائفتين فى كل مكان وجد فيه ٠٠ من هنا يا حضرات المستشارين تنبهت الفتنة فى أنحاء قطرنا العزيز ، وقد كانت نائمة لعن الله من أيقظها ٠٠٠ » ٠

وكانت المرافعة دفاعا عن شاب من الجمعية متهم فى قتل شخص ينتمى الى ذلك الحزب ، وهذا المحامى قد تأتى لغرضه بهذه المقدمة قبل أن يعرض القضية ويبين أدلته لبراءة المتهم ودحض الأدلة التى سبقه بها وكيل النيابة ٠

مقدمة الخطبة الدينية

وخطيب المسجد يتعرض لمثل هذا الموقف كثيرا ، ففى المعارك التى تقوم بين أسرة وأخرى كما يحدث كثيرا فى الصعيد ، وفى الخلافات التى تنشب بين جمعية وأخرى، وفى عرض اقتراحات ليست مقبولة كثيرا لدى السامعين٠ فى هذا كله لا غنى له عن استخدام مقدمة لخطبته ٠

وقد تكون المقدمة ذكر حادث تاريخى موجز أو قصة عابرة بها ما يمس الموضوع الذى يدعو اليه ، ينتقل منها الى موضوعه ٠

من هذا نرى أهمية المقدمة وأنها فى بعض الأحيان تكون ضرورية للخطبة ، أما مميزات أسلوبها وصوغها البلاغى فأهمها :

عنصر التشويق

١ ـ أن تكون مشوقة ذات قدرة على شد انتباه السامعين على نحو ما سبق ، وقد يستطيع الخطيب بجاذبية كلامه أن

يعيد الى سماعه أشخاصا هموا بالانصراف عنــه ، وفى المقدمة والخطبة جميعا يجب أن يتجنب الخطيب المبالغات وأعمال الانتباه القسرى أو الاتيان بحركات بهلوانية ٠٠ فكل ذلك يعود عليه بعكس ما يريد ، يصرف الناس عنــه ويجعلهم لا يهتمون به ، قد يتجهون اليه فى أول الأمرولكنهم لا يعبأون به بعد ذلك ٠ الخطبة الجيدة والخطيب الناجح والالقاء الجيد تجذب السامع دون حركة بهلوانية ٠ انجذاب السامعين نحو الفكرة والرأى والموضوع ، والانجذاب فى هذه الحالة يكون دائما وليس وقتيا كالذى ينتج عن انتباه قسرى بهلوانى ٠

حسن البداية

٢ ـ لكى يصل الخطيب الى هذه الدرجة يبدأ بألفــــاظ واضحة مفهومة ، وأفكار قريبة لا تعوز الى تفكير ، وبعد أن يطمئن اليه الناس ويتجهوا بأذهانهم نحوه يستطيع أن يتحدث عن الفكرة التى يريد ولكن مهارته تظهر فى مدى ما له من قدرة على تقريب المعانى البعيدة وتبسيط الآراء المعقدة ٠

تعدد طرق المقدمة

وفى أكثر الأحيان يستوحى الخطيب مقدمته من المجتمع الذى يحيط به فيأتى بكلام أو معان تناسب هذا المجتمع ٠ وكما سبق يتوقف هذا على مقدرته الكلامية ومحصوله الأدبى واللغوى ، فبغير هذه المقدرة يعجز عن التعبير عما يطرأ أمامه كما يعجز عن توليد المعانى المناسبة ٠

وقد تكون المقدمة قص حادث موجز غريب أو مثير ثم ينتقل منه الى غرضه ٠

وقف خطيب يتحدث عن حتمية العمل بالقانون الاسلامى واقامة الحدود الاسلامية ، وكان قد اطلع فى صحيفة يومية عن حادث يتضمن جريمة قتل وسرقة فكان أول ما بدأ خطبته قال : نشرت جريدة ٠٠٠ فى هذا اليوم تفاصيل جريمة قتل وسرقة ٠٠ شاب كان يصعد السلم الى بيتــه فقابله اثنان

أخبره أحدهما أن صاحب البيت يريد مقابلته وقاده الى الشقة الخاصة بالمالك · فما كاد يخطو الى داخلها حتى طعن بسكين طعنة قاتلة ·· وكان اللذان قابلاه قد اقتحما من قبل شقة المالك فقتلاه وسرقا حصيلته وخشيا أن يتعرف عليهما هذا الشاب فقتلاه أيضا ليتخلصا منه · ونقل الشاب الى المستشفى وبه رمق واستطاع أن يصف الشابين ·· فماذا تظنون أن يكون جزاؤهما ؟ ، هل كان يحدث هذا لو أن هناك قانونا اسلاميا ؟ ، ان القانون الاسلامى ينص على أنه لو اشترك مائة شخص فى قتل شخص واحد لقتلوا به جميعا ·

ومن ثم استطرد الخطيب يذكر آثار القصاص وما فيه من استتباب الأمن وهدوء الحياة واطمئنان الناس ، فكانت مقدمته دليلا على ما يريد والمقدمة كما ترى واضحة قريبة·

٣ ـ لا بد أن تكون شديدة الصلة بموضوع الخطبة ، فلا يكون بينها وبين الخطبة حين ينتقل اليها فجوة ، بل تكون الخطبة امتدادا للمقدمة ، وهو فى هذه الحالة اذا أطال المقدمة كان طولها توضيحا للخطبة ، فاذا كان مضمون المقدمة بعيدا عن موضوع الخطبة كانت عديمة الفائدة لأن الحديث يكون عن موضوعين كل مستقل عن الآخر ولا يجوز أن تكون المقدمة ذات موضوع أصلا ، بل هى تمهيد وتوطئة للموضوع ، يراد منها تهيئة الأذهان اليه ·

٤ ـ من ناحية طول المقدمة أو قصرها يجب أن تكون غير مسرفة فى أى من الجانبين لأنها اذا كانت موجزة جدا لم يكن ثم مقدمة ، واذا كانت طويلة جدا ذهبت فائدتها أيضا لأنها تستنفد قوة الخطيب ، فاذا انتقل الى الموضوع كان قد أجهد وقلت حميته وفتر حماسه ، كما أن المستمع أيضا يكون قد اكتفى وذهب تشوقه نحو السماع ، ولهذا يختار الخطيب مقدمة مناسبة فى طولها وفكرتها ويبدؤها بصوت

مند غير صارخ . فاذا انتقل الى الموضوع كانت الافكار التى يعرضها هى الجانب الاهم فى حديثه ولهـــا الجانب الاكبر من نشاطه وطاقته والمعانى التى يتعرض لها هى التى تكيف صوته والقاءة على نحو ما ذكرنا من قبل ٠

هذه الارشادات والتعاليم الخطابيه نجدها فى كتب النقد الأدبى كثيرا ، ونجـــد الخلفاء والولاة ومشهورى القواد والأثرياء العربكانوا يؤاخذون الشعراء بمقتضاها فيفرون من ألفاظهم النابية فى أول قصائدهم ويحاسبونهم على طول مقدماتهم وعلى غموض تراكيبهم . وهذا كثير جدا فى أدبنا العـــربى ٠

مدح شاعر نصر بن سيار فاطال فى غزله أول القصيدة، فلما انتقل الى مدحه انتقده نصر بأنه استنفد طاقته فى شيء يخصه هو ، وغضب هشام ابن عبـــد الملك على أبى النجم لأنه قال :

والشمس قد كادت ولما تفعل كأنها فى الأفق عين الأحـــول

وكان هشام أحول فساءه هذا التشبيه . ونقد آخر كلمة « بوزع » فى قول مادح له بدأ شعره بغزل جاء فيه .

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزأت بغيرنا يا بوزع

فاختار لحبيبته اسم بوزع وهو اسم ناب منفر ٠

وهكذا نجد أن ما ذكرناه من قواعد خطابية مرده الى الـــذوق ٠

الموضـــــوع :

نعنى بالموضوع جريا على مذهب الأغلبية ما يشـــمل الفكرة التىيدعو اليها الخطيب والتدليلعليها ودفع ماعسى أن تقابل به من نقد واعتراضات ٠ وهذا الجزء ـ كما هو واضح ـ أهم أجزاء الخطبة أو هو عمودها الفقرى وكيانها فالأجزاء الأخرى يمكن الاستغناء عنها . أما هذا الجزء فهو

الاساس وبقية الأجزاء جيء بها من اجـــله ، ومهمتها هى انجاحه وتثبيت آثاره ٠

حين يصل الخطيب الى هذا الجزء وذلك بعد فراغه من المقدمة ان كان ثم مقدمة ، يلخص موضوعه باعطاء فكـرة موجزة عنه او شرحه أن كان يحتاج الى شرح ثم يأخذ فى عرض الادلة التى يراها مؤيدة له ٠

وقد يسبق الخطيب خطباء يوضحون الموضوع ويعرفون السامعين به ، وفى هذه الحالة يكفيه أن يذكـــر عنوان الموضوع فقط ، كما يوجز مقدمته ثم ينتقل الى أدلته ٠

وتتوقف جودة هذا العرض على أمور أهمها :

١ ـ وحدة الموضوع : بحيث تتركز الخطبة فى أمر واحد يدور الكلام كله حوله وتتجمع الأدلة لتأييده وتقويته ، وقد تكون الأدلة قياسا منطقيا أو احتجاجا بحادث تاريخى ، أو عمل لشخص ذى شهرة ولكنها كلها ـ على أى حال ـ تنتهى غرض واحد ، وتصب كلها فى بؤرة واحدة ، وعمل الخطيب حينئذ هو تعميق الفكرة وتثبيتها لأن هذا يثير انفعـــــال السامعين ويدفعهم الى العمل بما يدعو اليه الخطيب ٠

ويخطىء الخطيب ويفشل اذا حشا خطبته بعدة موضوعات فانها كلها تكون سطحية باهتة فى أذهان السامعين ، ومن السهل أن تزول كلها بعد زمن قليل أو بعد فراغ الخطيب من خطبتـــه ٠

قد يدعو خطيب المسجد فى خطبته الى قيام الليل وقراءة القرآن وصلاة النوافل وبذل الصدقة ٠٠ ويستريح السامعون لأنهم يسمعون دائما جديدا ولكنهم قطعا لا ينفعلون بمـــا سمعوا انفعالا كافيا . وكان الأولى أن يقصر خطبته على أمر واحد يكثر سوق الأدلة عليه والاستشهاد له ، ويتلو فى صلاة الجمعة آية من الآيات التى استشهد بها فى خطبته ،

فكل ذلك يثبت الفكرة فى نفوس السامعين (١) ٠

٢ ـ ترتيب الكلام وترتيب الأفكار يبدأ أولا بالفكرة البسيطة ثم يتدرج حتى يصل الى قمة ما يريده ، وفى القمة يبـدو انفعاله وقوة صوته وقوة عباراته جميعا ، وعلى سـبيل المثال: أراد خطيب مسجد أن يدعو المصلين الى التبرع لمساعدة ملجأ خيرى به أيتام وفقراء ، فكيف يوجه خطبته ويعرض موضوعه ؟ ٠

(أ) قد يأتى بمقدمة وجيزة تبين أن الاسلام دين التعاون وأن المسلمين أمة واحدة يجمعهم شعور الاخاء ويؤذيهم أن يكون بينهم جائع أو عار أو محتـاج ، وأن الدين يأمرهم بتحاشى وجود شىء من ذلك بينهم ٠

(ب) ينتقل بعد هذا الى التعريف بحال الملجأ الذى يدعـو لمساعدته ويصف ما يقدمه للايتام والفقـراء الذين به (وهذا هو الغرض) ٠

(جـ) ينتقل من هذا الى دعوتهم للتبرع (وهذا هو النتيجة)

(د) يعينه فى هذا أمور كثيرة تتوقف على مهارته وثقافته وعمق تفكيره ، ان هؤلاء المساكين قد ينشىء الملجـأ منهم نفوسا صالحة وأشخاصا نافعين لمجتمعهم ، واذا لم يعنهم الملجأ كانوا جراثيم فساد وضررا على الناس ، من هؤلاء من أخنى عليهم الدهر وكانوا قبل ذلك أبناء تجار أثرياء أو زراع موسرين أو عباد صالحين ، ان أى واحد من السامعين مهما كان ثريا أو صحيحا لا يأمن أن يصير أولاده الى هذا المصير ، وقد يلح على ذويه المرض والفقر أو يطرأ عليهم سوء السلوك المدمر ، فكما يود أن يجد من يعين أولاده عليه أن يساعد هؤلاء ٠

هذه النقطة الأخيرة هى قمة الخطبة والتى ينبغى أن يتخير لها العبارات المثيرة ، وفيها يعلو صوته ويبدو انفعاله وأسفه

---

(١) سبق أن ذكرنا هذا وشرحناه ٠

وتحزنه ، وهو بهذا قد سار فى خطبته سيرا مرتبا انتقل فيه من عنصر الى آخر انتقالا طبيعيا ٠

٣ ـ اذا انتقل الخطيب من الفكرة الأساسية الى الأدلة التى يريد الاستناد اليها يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضه فى موضوعه ، وليس من المحتم أن تكون أدلته منطقية من أنواع أقيسة المنطق ، فالدليل المنطقى أقوى وألزم بالتسليم ولكن من الجائز للخطيب ـ وهذا هو الأكثر ـ أن يستعمل أدلة ظنية بمعنى أن مقدماتها أمور ظنية، وهذه الأدلة كافية فى المواقف الخطابية وتسمى أيضا أدلة خطابية بمعنى أنها غير مقطوع بها ولكنها تثير الحمية وتبعث حماس السامعين ٠

وليعلم الخطيب أن الحديث الى الجماهير يعتمد على المشاركة الوجدانية واثارة العاطفة ، كما يعتمد على براهين المنطق وأقيسته ، وهو لهذا قد يثير حماس سامعيه ويهيجهم نحو عمل ما من غير أن تكون الفكرة قد درست فى نفوسهم درسا منطقيا سليما ، وفى هذا المقام قد يورد حادثا مشابها للحادث الذى يتحدث عنه أو موقفا لرجل من الحكماء والمشهورين فتنفعل نفس الناس به ، وأنت تشاهد الصحافة تلجأ لمثل هذا التأثير الوجدانى ، فتكتب العناوين الكبيرة لبعض الأحداث لتجتذب الأنظار اليها ، وتستعمل الألفاظ الضخمة الطنانة مثل مأثرة عظيمة ، جموع حاشدة ثورة على الجهل ، قضاء حاسم نهائى على الفقر والجهل، وأمثال ذلك ، كما تستعمل الرسوم والكاريكاتيرات للايحاء

ولا بد أن يلتفت الخطيب الى الأفكار المعارضة لفكرته ليزدها ويدحضها فاذا كان هناك خطيب قد تقدمه معارض لرأيه ، استعرض أدلته فنقضها ، والمزايا التى قالها لرأيه فهون منها وذكر بجانبها مزايا الفكرة التى يدعو هو اليها، وفى هذا المقام تفيد السخرية العابرة والنكتة المضحكة على

ألا يسرف فى ذلك ، ويخطىء الخطيب ويسقط نفسه اذا تناول خصمه بالشتم أو طعن فى شخصيته ، وسلوكه ، أو رماه بالغباء ·

وفى أدبنا العربى شواهد كثيرة لهذا ، كان جرير وهو يناقض الفرزدق لا يجد من مفاخر آبائه وأجداده ما يجد خصمه ، فالفرزدق ذو نسب ، لآبائه مآثر كثيرة ، وكان جرير يعدل عن هذا الجانب ليضحك الناس منه ويلفتهم عن مناقشة مناظرتهما بالمنطق وهو يستعمل فى ذلك الشعر السهل الرقيق فيكون أسهل على الناس وأشيع على لسانهم · وكذلك كان شأنه مع كل خصومه وما كان أكثرهم ولكنه غلبهم بهذا الأسلوب كقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

ومربع هو راوية جرير ، وكقوله فى هجاء تيم :

تهيأت تيم لى جهلا لتقتلنى ... كما تهيأ لاست الخارىء الحجر

وفى هجاء النميرى :

فغض الطرف انك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وكانت هذه الأبيات تشيع على ألسن الناس وينكس بها خصوم جرير وهى مجرد سخرية لا منطق فيها ولا برهان عقليا ·

واذا رجعت الى النقد الذى كان يوجهه عباس العقاد الى شوقى تجده يلجأ أيضا الى مثل هذا ، كان يستعرض أروع أبياته الشعرية وأجملها فيعرضها معرض السخرية ويقول: وأى شىء فى هذا البيت سوى حلية اللفظ ، وكذلك فعل بأبيات رائعة مثل قول شوقى :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وليس بعامر بنيان قوم ... اذا أخلاقهم كانت خرابا
على الاخلاق شدوا الملك وابنوا ... فليس وراءها للملك ركن

وكقوله فى « كارنار فون » واستكشافه مقبرة توت عنخ آمون :

افضى الى ختم الزمان نفضه   رحبا الى التاريخ فى محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى   فرعون بين طعامه وشرابه

وهى أبيات غاية فى الروعة والجمال ولم يكن نقدها بأكثر من عرضها معرض السخرية والتهاون فيوهم قراءه أنها ليست بشىء سوى ألفاظ جميلة ٠

وتفنيد الرأى المعارض لرأى الخطيب أمر هام فى الخطبة فاذا كان الخصم سيتكلم بعده ذكر ما يتوقع أن سيستدل به واذا وقع فعلا على الأدلة التى كان خصمه أعدها نال تفنيدها من الخصم وفتر عزيمته أثناء سردها ثم يكون أثرها فى نفس السامعين قليلا ، ولهذا يقابل المتكلم الثانى كلام صاحبه بالمثل فلا يكتفى بعرض الدليل الذى نقض ، بل يهون ما سبق من اعتراض عليه وربما تظاهر الخطيب الثانى بأن هذا الدليل لم يكن لديه و لاهو أعده ولكن صاحبه ذكره به ثم يعجب من تهوينه منه وعدم ادراكه مغزاه ، ولهجة الكلام وتكييف الصوت والابتسامة الخفيفة تفيد فى هذا كثيرا أمام الجماهير ٠

وربما لا يكون هناك خصم ولا معارض ولكن الخطيب يعرض رأيا ، وفى هذه الحالة يستعرض الأضرار التى تنشأ عن اهمال هذا الرأى والمتاعب والمشقات التى قد تواجه من ينفذ فكرته ، ولكنه يهونها ويبين أنها لا شىء بجانب الثمرة المرجوة من مشروعه ، أو يتوقع رأيا معارضا فى أذهان السامعين فيرده ــ كأن يقول : قد يظن بعض الناس أن هذا العمل شاق أو يقول قائل ٠٠ الخ ، وأنت تجد كثيرا فى كتب الأزهريين مثل فان قيل كذا أو فاذا قال قائل كذا وكذا ٠٠ قلنا كذا وكذا ٠

على أى حال عرض الموضوع لا بد له من نوعين من الأدلة ــ أدلة تؤيده وأدلة تدفع ما يعارضه أو ما عسى أن يرد عليه من اعتراض ٠

والذى يطلب من الخطيب هو الوضوح والاتجاه دائما نحو الموضوع ·

الخاتمة والنتيجة :

بعد أن يفرغ الخطيب من عرض موضوعه وسوق أدلته عليه ، ينتهى الى الغرض الذى أعد الخطبة من أجله ـ مثل طلب براءة المتهم ، أو الحكم عليه بأقصى عقوبة أو طلب انتخاب مرشح معين ، أو الاستعداد للمشروع الذى يدعو اليه ·· الخ ، وقبل أن ينتهى الى هذا الطلب عليه أن يثير انتباه الناس أكثر ، وأن يركز اهتمامهم على مطلبه ، حتى لا يورد طلبه على فكر مشتت وذهن خال شبيه بالخالى من الأسباب ، وهذا ما يسمى خاتمة الخطبة ، فما طريق نجاحها ؟

أكثر الخطباء يعودون بتلخيص لعناصر الخطبة وأهم أفكارها ، وفى هذه الحالة لا يسرف الخطيب فى التلخيص لأنه حينئذ يمل ويأتى بعكس ما أراد ، وأيضا لا يستعمل العبارات التى سبقت بعينها ، وانما يأتى بتعبير آخر جامع واضح ذى تأثير ، وقد يجنح الى التركيز والتشديد على الاستجابة لرأيه، ولكنه لا يستعمل الأمرالمجرد الجاف وانما يبين أهمية رأيه ويشير الى التحذير من اهماله ، كأن يقول:

هأنتم أولاء ترون مدى ما فى هذا الرأى من صلاح وفائدة وأعيذكم بالله أن تند عنكم مزاياه أو يغيب عن أذهانكم قدره ومرجو فوائده ·

فاذا كان خطيبا دينيا حذر من مخالفة الله أو البعد عن سنة نبيه ، وقد يختم كلامه بآية قرآنية أو حديث نبوى قصير فاذا كان يدعو الى التبرع بمال لعمل ما كان من المناسب أن تكون خاتمته هكذا :

« هأنذا قد بينت لكم ما فى هذا العمل من فائدة ودعوتكم

للتبرع له ، ولكل أن يتبرع بما شاء ، ومن سخا سخا الله له، وما لكم انما هو مال الله ، فأنفقوا من مال الله الذى آتاكم، اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ، ووفقنا جميعا لما فيه رضاك وثوابك » ٠

وقد يجدى أن يقول :

أيها القوم ٠٠ تبين لكم الآن أنكم مسئولون عن هذا العمل ومحاسبون على تركه أمام الله ، ومهما أنفقتم فى سبيله فهو قليل بجانب فائدته، وقد برئت الى الله وبلغت عنه وعن نبيه: « ها أنتم تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ٠

وقد يلجأ الخطيب الى تلخيص أفكاره أولا ثم يرتب عليها طلبه فيجمع بين الأمرين ، وبأى طريق يختم خطبته عليه أن يختار العبارات الواضحة القوية بقدر ما يستطيع ٠

وأهم شروط الخاتمة ما يلى :

١ ـ ألا تكون بعيدة عن الموضوع ولا مجددة لأدلة أو آراء جديدة لأنها حينئذ لا تكون خاتمة وانما تكون جزءا من الخطبة وامتدادا ، ومهمة الخاتمة هى تركيز معانى الخطبة واستمالة الناس أكثر نحوها ٠

٢ ـ أن تكون قوية فى تعبيرها وأيضا فى القائها ـ لأنها آخر ما يطرق سمع الناس ويبقى فى أذهانهم ، وربما كانت الخاتمة ضعيفة فى تركيبها أو فاترة فى القائها فتذهب فائدة الخطبة كلها ، والخطيب الناجح يلقى خاتمة خطبته فى حماس واقتناع وثقة ، مشعرا جمهوره بأنه انتهى الى رأى لا يحتمل جدلا ولا يحسن أن يغضى عنه ٠

اول خطبة للسفاح

وفى أول خطبة خطبها أبو عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس ذكر أولا قرابتهم من رسول الله وحقهم فى الخلافة بعده ، وذكر رأى أهل الشام أنصار بنى أمية وسفهه ، وبين

أن الله أملى للأمويين حتى أسفوه (١) فانتقم منهم ونصر بنى العباس ، ونصرهم خير سبق الى أهل الكوفة ، ورجا ألا يأتيهم الجور من حيث جاءهم الخير . وهو تحذير عن مخالفتهم له ، ثم ختم خطبته بهذه العبارات :

يا أهل الكوفة ٠٠ أنتم محل محبتنا منزل مودتنا ٠٠ أنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدت فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح (٢) .

فهذا ختام لم يخرج عن جو الخطبة وقد ختم بالوعد المغرى والوعيد المخيف وهو آخر ما يبقى فى ذهن سامعيه: زدت فى أعطياتكم فاستعدوا فانى سفاح للدماء منيح لمن أسطو عليه ، وهذا ما يحتاجه خطيب يؤسس دولة ويخشى الثورة عليه والتفرق عنه .

وقد كان السفاح يومئذ موعوكا ، وكان عمه داود بن على على درجة من المنبر أدنى منه فوقف وألقى خطبة أخرى .

خطبة داود ابن على

حمدا لله أن أهلك عدوهم ورد اليهم ميراثهم من رسول الله ، ثم ذكر أنهم لم يثوروا لغرض لهم . ولكن كانت أموركم ترمضنا (٣) ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، ووعد أن يلزموا كتاب الله وسنة نبيه ثم انحى على بنى أمية باللائمة وبين سوء فعلهم ، ثم تحدث عن السفاح وأثنى عليه واعتذر عن مرضه وبين أن بنى العباس لما يستردوا حقهم بعد ، ثم كان ختام خطبته هكذا :

٠٠ فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ولا تخدعن أنفسكم فان الأمر أمركم ٠٠ الا وانه ما صعد منبركم هذا

---

(١) اغضبوه .

(٢) تروى الثائر المبير ، أى المهلك . وظاهر العبارة التهديد، وتأولها بعض المحدثين بأن السفاح المنيح الجواد كثير العطاء . وبهذا تكون خاتمة الخطبة وعدا وأمانى ولا وعيد بها .

(٣) تحرقنا وتوجعنا ، أى كنا فى الم لما تعانونه .

بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار الى أبى العباس بيده) فأعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى ابن مريم ٠٠ والحمد لله على ما أبلانا وأولانا ٠٠٠ هذه خطبة جيدة وختام جيد ٠

أهل الكوفة شيعة على ، لكن العباسيين لا يريدون اثارة عداوتهم ، فقال داود فان لكل أهل بيت مصرا وانكم مصرنا وفى الختام ذكر عليا ثم أكد لهم بقاء الخلافة فى أيديهم ٠

الخاتمة متصلة بالخطبة اتصالا قويا لأن الخطبة كلها دارت على أن الخلافة حق لهم والخاتمة أكدت بقاءها فيهم حتى تقوم الساعة ٠

وهكذا تجد خطبا اسلامية كثيرة مرتبة ترتيبا فنيا ٠

٣ ـ وآخر ما نذكر من صفات الخاتمة أن تكون قصيرة على نحو ما رأينا وحاسمة ومشوقة ٠ هذه هى أجزاء الخطبة الفنية الكاملة والخطب الطويلة تقوم عليها جميعا ولا يغنى هذا الشرح عن الرجوع الى مطولات الخطب وتحليلها وتبين مدى تكامل هذه الأجزاء بها ٠

أما من ناحية التدرب على الالقاء فلا بد لمن يعد نفسه لهذه المهمة أن يمارسها مرات عديدة وأن يمرن نفسه عليها فى وحدته وبين رفاقه المتدربين حتى يحرز فيها تقدما ٠

هذا وقدمنا لك أنه لا بد من التكوين الأدبى بكثرة المحفوظات الادبية خطبا وشعرا وكتابة مع الدرس التاريخى والتثقيف العام والقراءة المستمرة حتى لا يكون ذهن الخطيب راكدا ٠

وهذا يفيد الخطيب فى الحالات التى يتعرض فيها للارتجال

اعـداد الخطبة وارتجالها

الخطبة قد تكون معدة وقد تكون مرتجلة ٠

أعداد الخطبة

والخطبة المعدة موضوع انشائى يستدعى من الخطيب أن يفكر فيه تفكيرا مناسبا للحادث الذى تلقى فيه الخطبة ، يفكر فى عناصره واحدا بعد واحد ثم يعمل على ترتيبها أيها يبدأ به وأيها ينهى به كلامه ، ولا يكفى التفكير فى المعانى بل عليه أن يفكر أيضا فى العبارات التى يعبر بها وفى طريقة مواجهة الجماهير بها وكيفية بداية الخطبة وفى موضوعها وأدلتها لا يكفى مجرد التفكير الشخصى بل لا بد من الرجوع الى المصادر التى تفيد فى صنع الخطبة ، وحقا أن ما يفيده الخطيب من اطلاعه الخاص وقراءاته السابقة يمده بمعان وأدلة ولكن لا بد خصوصا للمبتدئين من مراجعة المصادر التى تمد بقوى أكثر وكلما كثرت مواجهة الخطيب للجماهير، وطالت ممارسة الخطابة كان الاعداد أسهل عليه ، والذى يقع فيه الكثيرون من الأخطاء هو أن يغتر الخطيب بثناء الناس عليه فى موقف ما يكون قد تعوده فيكتفى بذلك ويقطع مداومة قراءته واطلاعه ، حينئذ يكون مضطرا أن يكرر نفسه وأن يعيد فى مسجد أو مجتمع ما قاله من قبل فى آخر وهذا يسقطه فى نظر سامعيه من جهة ، ثم يقضى على حماسه ونشاطه من ناحية أخرى ، فيصير القاؤه فاترا لأن تأثيره أيضا أصبح فاترا ، وربما اغتر خطيب مشهور باقبال الناس عليه فاكتفى بما عنده ولكنه لايلبث أن يفقد شهرته ٠ وكبـار الخطباء ومشهوروهم فى الشرق والغرب كانوا يقضون وقتـا فى اعداد خطبهم قبل أن يخرجوا بها الى الناس ، هذا مع قدرتهم البالغة على الكلام ٠ سعد زغلول ، وتشرشل ، ومصطفى كامل ، وتوفيق دياب ، وأحمد حسين ، وغيرهم كانوا يعدون خطبهم اعدادا جيدا ، وتنال خطبهم لهذا اقبالا كبيرا من

الناس ، وما زال الناشئون يحفظون من كلام سعد زغلول نماذج أدبية لا يمكن أن تكون عفو الخاطر ، ذلك أنه تعلم فى الأزهر وكان يجيد التعبير الأدبى ويحرص على قواعد النحو فكانت خطبه خليقة أن تحفظ وتدرس ، وكان كل من توفيق دياب وعلى الجارم ومنصور فهمى يتكلف انفعالا أثناء خطابته فيثير سامعيه أكثر مما يثير قارئيه ٠

أما الخطبة المرتجلة فهى صدى للخطبة المعدة ٠

قد يفاجأ الخطيب بأنه مطلوب منه أن يتحدث فى مناسبة ما لساعته ولم يكن لديه علم أنه سيواجه هذا الموقف فماذا عسى أن يكون موقفه ؟

بعض الناس يضطرب ويتلعثم ، فاما ألا يجد ما يقوله أو يقول كلمات عابرة يعرفها جميع الناس ، وهذا فى الواقع ليس خطيبا وان كان قد حل الموقف بطريقة ما ، وبعض الناس يقف بثبات ثم يجتر من ذاكرته ويستوحى من الموقف بضع جمل وعبارات تعجب السامعين وهو فى هذه الحالة قد ألقى حقا خطبة وان كانت قصيرة ٠

الخطبة المرتجلة على أى حال تكون قصيرة والسامعون لا يتوقعون من قائلها أن يطيل ولكن يعجبهم أن يقول شيئا ثمينا ٠

اثر الدربة والمحفوظات

والخطيب المطلع ذو الدربه والممارسة يجد من خطبه الماضية مددا لخطبته المرتجلة ـ ولهذا قلنا ان هذه صدى لتلك ، وسعة الاطلاع على أى حال هى ذخيرة الخطيب ، وربما طلب من خطيب أن يرتجل خطبة طويلة ذات موضوع وهذا كثيرا ما يحدث فلا يسعفه الا ما له من سعة الاطلاع ٠

هبك ذهبت الى حفل أو مسجد أو مجتمع كبير لتستمع الى متكلم سيخطب الناس أو يحاضرهم ثم علم الحاضرون أن المتكلم قد عاقه حادث عن الحضور وأنه لن يحضر أصلا، ثم كيلا ينصرف الجمع الكبير خائبا ـ طلب اليك أن تقوم

بالخطبة وأصبحت أمام أمر واقع فكيف يكون موقفك ؟

ليس من الجائز هنا ان تلقى بضع جمل أو كلمات عادية، ولكن لا ينقذ الخطيب فى هذا الموقف الا ما لديه من مكونات ثقافية ومعلومات واسعة ، وربما تحدث الخطيب المرتجل فأجاد وأحسن أكثر مما كان يتوقع من الخطيب الأصلى ، هذا لأنه مكون فكريا وأدبيا ٠

ولا يجمل بالخطيب المرتجل أن يتعرض لآراء جديدة أو نظريات غير مدروسة لديه لأن هذه لا تكون الا نتيجة تفكير طويل وفحص واستعراض للموضوع من كل جوانبه وهذا ما لا يستطيع له وقت المرتجل فأولى به أن يتحاشاه ٠

قوة البديهة

والخطباء ٠٠ وخصوصا المحامين ـ يحتاجون الى حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وربما سنحت للمحامى كلمة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنه يتصيدها بسرعة ويبنى عليها مرافعته ولا تستغنى البديهة الحادة عن ذخـــيرة الثقافة والمحصول الأدبى ٠

مواجهة حفل زفاف

ذهب شخص الى حفل زفاف به جمع من الناس وعدد من الكبراء فطلب اليه أن يتحدث وأن يهنىء العروسين فارتبك وأحمر وجهه ولكنه لم يستطع التخلص من الموقف فقال ٠٠ اننى مسرور جدا بهذا الزفاف لأنه ربط بين أسرتين كريمتين ولأنى أعلم أن العروسين من ذوى المميزات الانســانية ، وأسأل الله أن يأتى منهما نسل كريم ينفع الأمة كلها ، وانى أقدم لهما ولأسرتيهما خالص التهنئة وأطيب الأمانى بمستقبل زاهر وحياة سعيدة رافهة فبالرفـــاء والبنين وبارك الله زواجكما ومستقبلكما ٠٠

هذا كلام ليس بالضعيف ولكنه غير كاف ولا جديد فيه ٠

وواجه آخر مثل هذا الموقف فقال :

مثال آخر

اننى مع ابتهاجى وسرورى لاقتران عروسينا وأسرتيهما أود أن نقدر هذا الموقف قدره وأن ندرك معنى الزواج وسموه

ليس الزواج مجرد متعة جسدية ولا عملية نتاج بشرى، وانما هو موقف قداسة وطهارة يشهده الناس على الأرض وتشهده الملائكة فى السماء ، انه نوع من عبادة الله والانقياد لتعاليم دينه ، تعاون قبل كل شىء على السعادة واخلاص روحين اخلاصا يـــؤدى الى الامتزاج فى كل شىء : فى الأرواح والعواطف والميول والأمزجة ، ومن هنا لا ينشأ مجرد نسل وانما بداية أسرة لها مميزاتهــا وخصائصها ، وهل وجودنا فى هذا الكون الا نتيجة قران بين آدم وحواء؟

أنظر الكون وقل فى وصفه   كل هذا أصله من أبوين

انه سر الخلود وامتداد الجنس وبقاء النوع ، انه الفطرة المبنعثة فى هذا الكون ، الطيور والأشجار وكل الحيوانات والنباتات لها مثل هذه الرابطة ، فليست مجرد عاطفة ولا لقاء جنسى عابر ، ولكنها سر البقاء والخلود ، وهذا سر قداسة الزواج وسموه وجلاله ٠

ان الواحد منا يغار على ابنته أو قريبته وتثور غيرته وغضبه حين يلمسها شخص أجنبى أو حتى يخاطبها بكلمة نابية ، وكثيرا ما قامت الخصومات والعداوات لأمر بسيط كهذا ، ولكنه حين يعقد قرانها تذهب غيرته ويسلمها لقرينها بل يصير زوجها أقرب اليها من جميع ذويها ، وقـــد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زوج فاطمة : « جدع الحلال أنف الغيرة » ٠

اننا الآن نحتفى بآدم وحواء جديدين ، وانه توفيق من الله أن جمعهما فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ٠٠ باركوا جميعا هذا الزفاف وادعوا للزوجين بأطيب وأثمن ما تتمنون من الله تعالى ٠

وهذا الخطيب استطاع أن يكسو حديثه ثوبا فلسفيا رفع به قيمة خطبته ومرجع ذلك الى ثقافته ومحفوظاته الأدبية جميعــا ٠

وقد كان الخطباء فى عصور الخطابة القوية المزدهرة وهم ذوو القدرة على الكلام والدراية به يستعدون لخطبهم ويتخوفون اللحن فيها ونقد السامعين لهم ، وربما اعترت الواحد منهم هيبة يعزب بها الكلام عن ذهنه ويرتج عليه ، وكان عبد الملك بن مروان يقول : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ، وقيل له يوما : قد عجل الشيب عليك . فقال : كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين (١) ٠

ويجدر بنا بعد هذا الذى شرحناه أن نستعرض أمثلة لبعض الخطب الشهيرة المتكاملة ٠

* * *

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٣ ٠

أمثـلة للخطب المتكامنة

١ ـ خطبة للامام على

مقدمـة

٠٠ أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينـة وجنته (١) الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثـوب الذل ، وشمله للبلاء وديث بالصغار والقماءة (٢) وضرب على قلبه بالاسداد (٣) وأديل الحق منه بتضييع الجهاد (٤) الخسف ومنع النصف (٥) ٠

عـرض الموضوع

ألا وانى قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا واعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غـزى قـوم فى عقـر دارهم (٦) الا ذلـوا ، فتواكلتم وتخاذلتم (٧) حتى شنت الغارات عليكم (٨) وملكت عليكم الأوطان، وهذا أخو غامد(٩)قد وردتخيله الأنبار(١٠)وقد قتل حسان بنحسان البكرى وأزالخيلكم عنمسالحها(١١)

---

(١) الجنة : الوقاية ٠ (٢) ديث : وصم وأهين ، والقماء الحقارة والمهانة (٣) السدود والاغطية والمراد قسوة القلب وجموده ٠ وادالة الحق منه صارت الدولة والقوة للحق عليه ٠

(٤) سيم الخسف : حمل المشقة والذلة يقال سيم العذاب وسيم الخسف ٠

(٥) النصف العدل أى يصب عليه الظلم ٠

(٦) وسط دارهم والمراد هجم عليهم فى بلادهم ٠

(٧) التواكل التهاون والتراخى ٠ والتخاذل التقاعد وعدم الاتحاد فى الرأى

(٨) شن الغارة شمولها وتغطيتها القوم ٠ (٩) سفيان بن عوف الغامدى قائد جيش معاوية ٠

(١٠) بلد على نهر الفرات ٠ (١١) جمع مسلحة المكان الذى يعد به السلاح والجند المسلح ٠

ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها (١) وقلائدهـــا ورعاثها (٢) ، ما تمنع منه الا بالاسترجاع والاسترحام(٣) ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم كلم (٤) ولا أريق لهم دم ، فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوما ، بل كان به عندى جديرا ، فيا عجبا ، عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القـــوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا (٥)، لقد صرتم غرضا يرمى ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ،ويعصى الله وترضون (٦) ، فاذا أمرتكم بالسير اليهم فى أيام الحر قلتم : هذه حمارة (٧) القيظ ، أمهلنا ينسلخ (٨) عنا الحر، واذا أمرتكم بالسير اليهم فى الشتاء قلتم : هــذه صبارة القر (٩) أمهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فرارا من الحر والقر فأنتم والله من السيف أفر ٠

إثارة

يا أشباه الرجال ولا رجال ، حلوم الأطفال (١٠) وعقول ربات الحجال (١١) لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم !! معرفة والله جرت ندما وأعقبت سدما (١٢) قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبى قيحا (١٣) وشحنتم صدرى غيظا ، وجرعتمونى تغب

توبيخ

---

(١) سوارها والقلائد جمع قلادة ما يلبس فى العنق ٠
(٢) القرط الواحد رعثة ٠
(٣) يريد بالتذلل وطلب الرحمة ٠ ووافرين أى لم يخسروا شيئا ولا أصيبوا
(٤) جرح (٥) الهم والفاقة ٠
(٦) تسكتون على عمل ما يغضب الله ٠
(٧) شدة الحر ٠ (٨) ينتهى ويذهب ٠
(٩) شدة البرد ٠ (١٠) عقول الاطفال جمع حلم ٠
(١١) جمع حجلة قبة المرأة والعروس ٠
(١٢) السدم الهم والاسف والغيظ ٠
(١٣) جروحا : يعنى أنهم آسفوه ٠

التهام (١) أنفاسا ، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : ان ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحروب ، لله أبوهم (٢) ، وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما منى ؟ ، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وهأنذا قد ذرفت (٣) على الستين ولكن لا رأى لمن لا يطاع ، لا أرى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لايطاع(٤)

تحليل هـذه الخطبة :

الجو الذى قيلت فيـه :

بايع المسلمون عليا بالخلافة بعد عثمان عدا معـــاوية الذى كان والى الشام ، ولما نشبت الحرب بينهمـــا ، كان جيش معاوية ذا طاعة عمياء لا يسأل لماذا قام ولا لماذا قعد، وكان جيش على يناقشه فى كل عمل وتبدو منه اقتراحات كثيرة ، وكان على يقترح الرأى الصائب فيعارضه أصحابه فاذا أذعن لجماعة غضبت الأخرى ، ولم يكن ذا حزم وشدة، ولا ذا دهاء ومكر ، واستطاع معاوية أن يضم اليه ولايات أخرى فكان ملكه يتسع وملك على يضيق حتى لم يبق له الا العراق ، وأخيرا غزا معاوية العراق وقتل جيشه والى الأنبار من قبل على ، وهو حسان البكرى ، وفى هذه المناسبة قال على هذه الخطبة :

هـدف الخطبـة :

هدف الخطبة الأساسى هو تحريض أهل الكـوفة على الغزو والانتصار من عدوهم ·

---

(١) جمع ثغبة كجوعة والتهمام الهم ·
(٢) كلمة تعجب ·　　　(٣) زدت على الستين ·
(٤) يريد أن الرأى الصائب اذا لم ينفذ صار عديم الفائدة وهو ذو رأى ولكن رأيه يخالف ·

أجــزاء الخطبــة :

تشتمل الخطبة على مقدمة وهى بيان فضل الجهــاد ، وما له من أثر فى عزة المجاهدين ، وما لتركه من آثار تجر الذلة والهوان ، وهى مقدمة وثيقة الصلة بموضوع الخطبة

انتقل من المقدمة الى توبيخ قومه على تقاعدهم عن الجهاد وعدم استجابتهم لدعوته أن يحاربوا ، ثم أخبرهم بنتيجــة ذلك وهى قتل حسان ودخول الأنبار ، وتلا ذلك توبيخ آخر واستحثاث على القيام للغزو ·

وختم الخطبة بتأكيد أنه ذو رأى وعلم بالحروب ولكنهم يفسدون رأيه بعدم طاعته ·

وهذه هى أجزاء الخطبة وأهمها هو الموضوع ، فكيف واجهه وما هى المعانى التى استثار بها الامام أصحابه ؟!

حمل قبل كل شىء أصحابه مسئولية هذا الحادث لأنه دعاهم لطرد عدوهم بكل ما يمكن أن يدعو به قائد فتباطئوا ثم استثار حميتهم بما أهين به النساء مسلمات وذميــات وكيف كانت المرأة تمتهن كرامتها وتسلب حليها فلا تجــد رجالا يحمونها ، وانما تلجأ الى طلب الرحمة من ممتهنيها، وقد غنموا ولم يخسروا شيئا ، وبين أن هذا يبعث الحــزن القاتل ، وهو يريد بها أن يثير حماسهم ويشــعرهم بأنهم يحتملون لوما لا يطيق مثله غيرهم ، ثم أذكى هذه الروح بذكره أن القوم انتصروا على باطلهم وأن قومه خذلوا الحق فتحملوا مسئولية مضاعفة · وبلغت الخطبــة قمتهـــا فى موضعين: فى ذكره أنهم يتقاعدون عن الحرب متعللين بالحر تارة والبرد أخرى ، وبوصفهم أن لهم سمات الرجال وعقول النساء والأطفال ثم بتمنيه أنه لم يكن عرفهم ·

الخطبة تدرجت تدرجا منطقيا ، كل مرحلة أسلمت للتى تليها وكل فكرة كانت مقدمة لما بعدها ·

الجهاد طاعة وعزة وهم يتقاعدهم سدوا على أنفسهم

أبواب الجنة وجلبوا على أنفسهم الذلة . قتل واليهم وأهين نساؤهم ، ان الرجل الكريم لا يحتمل هذا الهوان ، فهؤلاء اذن ليسوا رجالا ، والامام محارب له تاريخه الحربى ، وما كان يحتمل هذه الهزيمة لو كان له جيش مطيع ، ولهذا ندم على تعرفه بهم لأنهم جروا عليه التهم الكاذبة حتى اتهامه أنه ليس محاربا ·

ثم جاءت خاتمة الخطبة وثيقة الصلة بأولها ، لأنه وبخهم على عدم طاعته ، وفى أولها قال انه دعاهم مرارا للحرب فلم يطيعوا ·

« الخطبة كلها مصبوبة فى قالب متماسك ، وألفاظها قوية وجملها قصيرة ذات ايحاء مؤدية غرضها من اثارة الشجاعة والحماس ·

٢ ـ خطبة زياد البتراء

مقدمة

أما بعد ، فان الجهالة الجهلاء (١) ، والضلالة العمياء(٢) والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم (٣) من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من ثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى (٤) الذى لا يزول أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات(٥) واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه من ترككم الضعيف

---

(١) الجهالة الشديدة مثل ليلة ليلاء ·

(٢) التى يتخبط على غير هدى ·

(٣) السفيه السىء الخلق وضعيف العقل ، واشتمال الحلماء عليه يعنى أن الكبار العقلاء لم يتركوه ·

(٤) الزمن الدائم ·

(٥) يريد شغلت الدنيا بحبها حواسهم فلا ينظرون لغيرها ولا يحسون بشىء سوى ما يشتهون ·

يقهر ويؤخذ ماله، ما هذه المواخير المنصوبة (١) ؟والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر، والعدد غير قليل؟ ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل (٢) وغارة النهار ، قربتم القرابة وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس (٣) كل امرىء منكم يذب عن سيفه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادا ، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم(٤) حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب(٥) حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما واحراقا ، انى رأيت هذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ٠

وانى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى (٦) والمقيم بالظاعن الموضوع والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم(٧) حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد (٨) أو تستقيم قناتكم (٩) ، ان كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى، فاذا سمعتموها منى فاغتمزوها (١٠) وأعلموا أن عندى أمثالها من نقب منكم عليه (١١) فأنا ضامن لما ذهب من ماله،

---

(١) جمع ماخور وهو بيت الفحش ويطلق على الخمارة ٠

(١) دلج الليل السير فى ظلمته للتلصص والفتك ، وهو يعنى : كان يجب أن يكون بينكم نهاة عنه ٠

(٢) المختلس السارق وغض عليه وعنه أغضى وتركه ٠

(٣) دفاعكم عنهم ٠

(٤) أطرقوا وراءكم : استتروا بكم وكنوس جمع كانس وهو الظبى يستتر فى كناسه وهو مأواه ومنه الجوارى الكنس ومكانس الريب أماكنها ٠

(٥) أخذ السيد بذنب عبده ٠ (٦) يريد أنه يعاقب لادنى سبب ٠

(٧) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين بهذين الاسمين خرجا للصيد فعاد سعد وفقد سعيد ٠

(٨) حتى تستقيموا كالرمح ٠ (٩) عدوها على غميزة وموطن عيب٠

(١٠) من سرق ماله ينقب بيته ٠

فاياى ودلج الليل (١) فانى لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه (٢) ، وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم (٣) ، اياى ودعوى الجاهلية (٤) فانى لا أجد أحدا دعا بها الا قطعت لسانه ٠

وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما أغرقناه ، ومن أحرق قوما أحرقناه ، ومن نقب بيتا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه وقد كانت بينى وبين أقوام أحن (٥) فجعلت ذلك دبر أذنى (٦) وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ، ومن كان منكم مسيئا فلينزع عن اساءته ، انى لو علمت لو أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته (٧) ،فاذا فعل ذلك لم أناظره (٨) ، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور سيبتئس٠

أيها الناس ، اذا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة (٩)، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء (١٠)

---

(١) يريد اياكم والتلصص ليلا ولا يستعمل التحذير للمتكلم الا قليلا ٠
(٢) أرقته ٠
(٣) لا يمضى على المدلج زمن الا بقدر ما أعلم به وأحضره ٠
(٤) التناصر عصبية وجهالة وسفها ٠
(٥) ضغائن وأحقاد ٠
(٦) اهملته ولم أحتفل به ٠
(٧) حتى يكشف هو عن عدائه لى ٠
(٨) لا أجادله بل أقتله بلا مناقشة ٠
(٩) منافعون ٠
(١٠) الفىء الخراج ومال الغنيمة ــ يريد الذى أفاءه الله علينا وحبانا به٠

الله الذى خولنا (١) ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا (٢) ، واعلموا أنى مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث :

لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ولا حابسا عطاء ورزقا عن ابانه (٣) ولا مجمرا (٤) لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم (٥) وكهفكم (٦) الذى اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا (٧) حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل .

واذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله(٨)، وأيم الله لى فيكم لصرعى كثيرة (٩) ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى .

الجو الذى قيلت فيه الخطبة :

زياد بن أبيه ـ وستأتى ترجمته ـ كان أحد دهاة العرب، وكان ذكيا هماما يجيد الخطابة ، وامتاز بسداد الرأى

---

(١) أعطانا ومنحنا ، يريد : يدافع عنكم من هذا المال الذى جعلنا الله قيمين عليه .

(٢) بصراحتكم ومكاشفتكم ، أى لا تبطنوا لنا غشا .

ختام

(٣) وقته المحدد له .

(٤) تجمير الجيش ابقاؤه فى أرض العدو ، والبعث ما يبعث مددا للجيش.

(٥) الساسة جمع سائس يريد تقوم بسياستكم والحفاظ عليكم .

(٦) انكم تحتمون بهم كما يحتمى الشخص فى بيته اى أنهم يدافعون عنهم ويحمونهم .

(٧) يريد بهذا أن يؤكد لهم اثبات الدولة وأن أعمالهم العدائية وأحقادهم تعود عليهم مضراتها ، وأردف أنهم خير لهم من غيرهم .

(٨) على طرقته ووجوهه .

(٩) يهدد بانه سينتقم ممن يخرج عليه .

والكياسة ولكنه كان صارما عنيفا ، وكان من أنصار على ابن أبى طالب ضد معاوية ، ولما تم الأمر لمعاوية بعد مقتل على استلحق زيادا وقال انه أخوه ابن ابى سفيان ، وان أباه كان قد وقع على سمية فى الجاهلية ، وقبـــل زياد هــذا الاستلحاق فانضم للحزب الأموى ، وكان من رجال الدولة المعدودين حتى مات سنة ٥٣ هـ ٠ وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له البحرين والسند وعمان، ثم ضم اليه الكوفة فصار وليا للعراقين وهو أول من جمع له بينهما ٠

كان العراق من حزب على ، وأهله يكرهون الشام وبنى أمية ، وكان موقف زياد بينهم واليا لمعاوية شاذا غريبا ، لأنه كان قبل ذلك يقف ضده بجانب على ، ولكن زيادا سد باب النقد والاعتراض عليه باستعمال شدته المألوفة وحزمه الصارم ، وخطبته هذه تسمى البتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة ولا بحمد الله (وقيل لغير ذلك) ، وكان أهل العراق قــد أدركوا بعد تهاونهم فى نصر على أنهم ارتكبوا اثما كبيرا فأظهروا تمردا على معاوية وارتكبوا أمورا كثيرة منكرة ذكر زياد بعضا منها فى خطبته وحذر منها وبين لهم أن بنى أمية خير لهم من غيرهم ، وبكل هذا التهديد استطاع زياد أن يثبت نفسه ويثبت موقفه الحرج ٠

تحليــل الخطبــة :

غرض الخطبة الأساسى هو القضاء على ما كان بالعراق من شغب وتهدئة الجو للدولة ، وقد رأى أن يصل الى مأربه بهذا التهديد الرهيب ونجح فيما أراد ، ولم يستقم العراق بعد عمر بن الخطاب الا لزياد والحجاج ، ولكن زيادا كان ذا كياسة وحذق فلم يجعل خطبته كلها تهديدا ووعيدا ، بل وعد المستقيمين خيرا وجعل لهم الحق فى محاسبته ، وأعلن

انه لن يحتجب عن ذوى الحاجات . ولن يحبس العطاء أو يحجز البعث ، وبهذا كانت له أمنيات بجانب تهديده ·

أجـزاء الخطبـة :

فاجأ زياد سامعيه بأنهم ينغمسون فى أمور لا يقـــرها الاسلام وهو عمل لا يقدم عليه مسلم يؤمن بحساب الآخرة، وانما يعمله من أخلد الى الدنيا ، وأيد حديثه بأنه يحـرص على تعليم الاسلام وهم قد خرجوا عنها وعادوا الى عادات الجاهلية ومهدوا للمفسدين طرق الفساد ·· وهـذه هى مقدمة الخطبة لأنه للآن لم يصل لغرضه وموضوعه ·

انتقل من هذه المقدمة الى التهديد الذى يخضعهم ، ولكنه جعله عملا اسلاميا فقال ان هذا الأمر ـ وهو الوقت الذى كان فيه لا يصلح الا بما صلح به أوله ـ وهو وقت قيـام الاسلام ، وبهذا جعل كل ما هدد به من عمل الاسلام ولخدمة الاسلام ، وانتقل من هذا الى ذكر برنامجه ، وهو الأخـذ بالظنة ومحاسبة الجـــانى والمتسبب حتى يتمنى الناس السلامة ، ثم أخذ يعدد لهم ما فشا فيهم من سيئات ، وذكر أنه سيعاقب عليها بعنف ، وهذ العقوبات ليست خارجة عن الاسلام فجزاء السيئة سيئة بمثلها ، وفى هذه المساوىءالتى ذكرها والعقوبات التى أعدها بلغت الخطبة قمتها ، ونحن نتمثل الناس وقد ملئت قلوبهم بالرعب من تهـديده ، وفى خلال هذا كله يلوح بين فقرة وأخرى أنه لن يتجنى ولن يظلم حتى أعداءه وخصومه ، وانتهى من هذا الى أنه حـــاكم شرعى له عليهم السمع والطاعة ·

وختم الخطبة بطلب دعائهمللحكومة بالصلاح وباخلاصهم لها ولزوم طاعتها لا لأنها فى حاجة اليهم بل لأنهم سيكونون عرضة للهلاك ·

الخطبة بكل أجزائها محكمة الربط وتجرى على وتيرة واحدة من الوعد والوعيد ، وتظهر قدرة الخطيب فى أنــه أظهرهم مدينين مرتكبين يستحقون العقوبة لخروجهم على تعاليم الاسلام ٠

أما عبارات الخطبة فجاءت صلبة مناسبة للمقام الذى قيلت فيه ، وصورت ما قد يحل بهم من عقابه تصويرا قويا مفزعا ، وبطبيعة الحال ليست الخطبة مرتجلة ولكنها أعدت اعدادا فنيا محكما ٠ وهذا الاعداد واضح فى معـــانيها وعباراتها ٠

٣ ـ خطبة أبى حمزة الخارجى (الشارى)

مقدمة

يا أهل المدينة قد بلغنى مقالتكم فى أصـحابى ، ولولا معرفتى بضعف رأيكم وقلة عقولكم لأحسنت أدبكم ۰ ويحكم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه السنن وشرع له فيه الشرائع (١) وبين له فيه ما يأتى ويذر (٢) فلم يكن يتقدم الا بأمر ولا يحجم الا عن أمر الله حتى قبضه الله اليه (صلى الله عليه وسلم) ، وقد أدى الذى عليه ، لم يدعكم من أمركم فى شبه ، ثم قام من بعده أبو بكر فأخذ بسنته وقاتل أهل الردة وشمر فى أمر الله حتى قبضه الله اليه والأمة عنه رضوان (٣) رحمة الله عليه ومغفرته۰ ثم ولى بعده عمر فأخذ بسنة صاحبيه وجند الأجناد ومصر الأمصار وجبى الفىء فقسمه بين أهله (٤) وشمر عن ساقه وحسر عن ذراعه (٥) وضرب فى الخمر ثمانين وقام فى شهر رمضان (٦) وغزا العدو فى بلادهم وفتح المـــدائن والحصون حتى قبضه الله والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولى بعده عثمـــان بن عفان فعمل فى ست سنين بسنة صاحبيه ، ثم أحدث أحداثا أبطل آخر منها أولا ، واضطرب حبل الدين بعدها فطلبها كل امرىء

---

(١) احكام الدين الاسلامى ، لا يعنى الديانات ۰

(٢) ما يفعل وما يترك ۰

(٣) كلمة الامة مفردة اللفظ ومعناها الجماعة الكبيرة من الناس وقد أعاد عليها ضمير جماعة الذكور مراعاة لمعناها ۰

(٤) بين مستحقيه ۰

(٥) يقال شمر عن ساقه اذا اشتد الامر وجاهد فى سبيله بقوة وتستعمل الكلمة للامور الشديدة كما فى قوله تعالى يوم يكشف عن ســاق ـ أى يشتد الامر ، وحسر بمعنى كشف أيضا ۰

(٦) عمر هو الذى حدد عقوبة الخمر وجعل القيام فى رمضان عشرين ركعة وهو الذى وسع حدود الدولة فى بلاد الروم وفارس ۰

لنفسه ، وأمر كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه (١) حتى مضوا على ذلك (٢) · ثم ولى على بن أبى طالب ، فلم يبلغ من الحق قصدا ، ولم يرفع له منـــارا ومضى ·· ثم ولى معاوية بن أبى سفيان لعين رسول الله وابن لعينه (٣) وجلف من الأعراب وبعثة من الأحزاب (٤) مؤلف طليق (٥) فسفك الدم الحرام (٦) ، واتخذ عباد الله خولا (٧) ، ومال الله دولا (٨) ، وبغى دينه عوجا ودغلا (٩) ، وأحـل الفـرج الحرام (١٠) وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله ، فعل الله به وفعل ، ثم ولى بعده ابنه يزيد ، يزيد الخمور ويزيـــد الصقور ويزيد الفهود ويزيد القرود (١١) · فخالف القرآن واتبع الكهان ونادم الفرد وعمل بما يشتهيه حتى مضى على ذلك ، لعنه الله وفعل به وفعل ، ثم ولى مروان بن الحكم طريد ولعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه (١٢) فاسق فى بطنه وفرجه (١٣) فألعنوه وألعنوا آباءه · ثم تداولها بنومروان بعدييت اللعنة طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله · وقوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين

---

(١) كشفها الله · (٢) استموا عليه وألفوه ·

(٣) كانا من أعداء النبى حتى فتح مكة ·

(٤) الذين حاربوا رسول الله (ص) يوم الخندق ·

(٥) من المؤلفة قلوبهم الطلقاء يوم الفتح ·

(٦) قتل الصحابة فى صفين ومنهم عمار بن ياسر ·

(٧) خدما اتباعا · (٨) تصرف فيه على هواه ·

(٩) حقدا · (١٠) جمع فرجة أى المنافذ المحرمة ·

(١١) يتهم يزيد بالشراب واللعب بهذه الحيوانات للصيد وغيره ·

(١٢) كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد نفى الحكم الى الطائف، فتشفع له عثمان ، فقال له فيما يروى اذا انتهى الامر اليك فأعده فلما ولى الخلافة أعاده الى المدينة ومروان هو كاتب عثمان الذى زور عليه كتابا الى ابن أبى سرح ، أمره فيه بقتل محمد بن أبى بكر وايذاء عــدد من الصحابة وهو أهم أسباب الثورة عليه ·

(١٣) يريد أن أكله حرام وهو غير عفيف ·

والأنصار ولا التابعين باحسان ، فاكلوا مال الله أكلا ولعبوا بدين الله لعبا واتخذوا عباد الله عبيدا ، ويورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيالها أمة ما أضيعها وأضيعها ! والحمد لله رب العالمين · ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى وقد نبذوه وراء ظهورهم لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون وقد ولى عمر بن عبد العزيز فبلغ ولم يكد وعجز عن الذى أظهره حتى مضى لسبيله (ولم يذكره بخير ولا شر) ·

ثم ولى يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده ولم يؤنس رشده ، وقد قال الله عز وجل : « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » (١) فأمر أمة محمد فى أحكامها ودمائها أعظم من ذلك كله ، وان كان ذلك عند الله عظيما . مأبون فى بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام ، يلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على أهلهما بألف دينار وأكثر وأقل وقد أخذت من غير حلها وصرفت فى غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار (٢) وحلقت فيها الأشعار (٣) ، واستحل فيها ما لم يحل الله لعبد صالح ولا لنبى مرسل ، ثم يجلس حبابة عن يمينه وسلامة عن شماله تغنيانه بمزامر الشيطان ويشرب ·

واعلموا يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا أشرا ولا بطرا (٤) ولا عبثا ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ،

---

(١) كان يزيد ماجنا متلافا محبا للغناء والشراب ، وله مع حبابة وسلامة أحاديث سيئة والاستشهاد بالآية يعنى ان مال اليتيم الخاص به لايدفع اليه الا اذا أنس منه الرشد ، وهذا لم يؤنس منه رشد ودفعت اليه الامة كلها ·

(٢) جمع بشرة أى الجلود ، يريد جلد الناس حتى دفعوها ·

(٣) من عقوبة الشخص أن يحلق شعره ·

(٤) تكبرا واعجابا ·

ولا لثأر قديم نيل منا ، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل (٥) بالحق وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله (٦) ·· « ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض » ، فأقبلنا من قبائل شتى (١)، ونحن قليل مستضعفون ، فى الأرض فآوانا (الله) وأيدنا بنصره فأصبحنابنعمته اخوانا، ثم لقينا رجالكم (بقديد)(٢) فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فدعونا الى طاعة الشيطان وحكم بنى مروان ، فشتان لعمر الله ما بين الغى والرشد ، ثم أقبلوا يهرعون وقد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله (٣) ، وصدق عليهم ظنه ، وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب به المبطون، وأنتم يا أهل المدينة أن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين(٤)

يا أهل المدينة أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر (٥) ·

يا أهل المدينة ·· أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل فى كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع له فيها سهم

---

(١) أو ذى ·

(٢) يريد امام الخوارج ·

(٣) كان الخوارج يتألفون من قبائل متباينة من البدو لا يربطهم الا مبدؤهم·

(٤) مكان قريب من المدينة قتل فيه جيش أبى حمزة عددا كبيرا جدا من قريش ، وللشعراء فى رثاء قتلى قريش مراثى كثيرة لكثرتهم فى هذا اليوم

(٥) الجران : الكلكل تحت صدر الجمل ، والمرجل الاناء الضخم ، يريد ان الشيطان استهواهم وغلبهم غيه ·

(٦) يريد بهذا تهديدهم وحملهم عن الطاعة والسكون · ويسحتكم : يهلككم

(٧) أولهم ايواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية الاسلام وآخرهم طاعة بنى مروان ·

فأخذها لنفسه مكابرا محاربا ربه (١) ٠

يشرب الخمر الصراح المحرمة نصا بعينها (٢) حتى اذا أخذت مأخذها فيه وخالطت روحه ولحمه ودمـه ، وغلبت سورتها على عقله مزق حليته ثم التفت اليهما فقال : أتأذنان لى أن أطير ؟ ، نعم فطر الى النار (٣) الى لعنـة الله حيث لا يردك الله ٠

أصابو امرة ضائعة (٤) وقوما طغاة جهالا لا يقومون لله بحق ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية ، بطشهم بطش الجبابرة ، يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب (٥) ويأخذون بالظن ويعطلون الحدود بالشفاعات (٦) ويؤمنون الخونة ويقصفون ذوى الأمانة ، ويأخذون الصدقة على غير فرضها ، ويضعونها فى غير موضعها ، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله فالعنوهم لعنهم الله ٠

وأما اخواننا من هذه الشيعة فليسو اخواننا فى الدين ولكن سمعت الله عز وجل قال فى كتابه : « ٠٠ انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ٠ شيعة تظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون الى نظر نافذ فى القرآن ولا عقل بالغ فى الفقه ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلدوا أمرهم أهواءهم وجعلوا دينهم

---

(٦) هذه الاسهم هى مصارف الزكاة ويريد بالتاسع الحاكم الاموى الذى شارك هؤلاء وهو ليس منهم ومع هذا أخذ معظم المال لنفسه ٠

(٧) يريد الخمر الحقيقية وليس مجرد النبيذ ، والخمر محرمة بنص القرآن

(٨) دعاء عليه ٠

(١) امارة وملكا ليس له من يحفظه ويحميه ٠

(٢) لغضبهم لا للحق ٠

(٣) لا يسوون بين الجناة ، بل يعفون عمن يريدون أى يعطلون حدود الله بشفاعة الشافعين ٠

عصبية لحزب لزموه وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم غيا كان أو رشدا أو ضلالة أو هدى ، ينتظرون الدولة فى رجعة الموتى (١) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة (٢) ويدعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم أحدهم ما فى داخل بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه (٣) ، ينقمون المعاصى على أهلها ، ويعملون اذا ظهروا بها ، ولا يعرفون المخرج منها جفاة فى الدين قليلة عقولهم قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم (٤) وزعموا أن موالاتهم لهم تعفيهم من الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ·

فأى هؤلاء الفرق يا أهل المدينة تتبعون ؟ ، أو بأى مذاهبهم تقتدون ؟· يا أهل المدينة · قد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة ·· ويحكم ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير الا أحداثا شبابا ؟ هم شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة وأطلاح سهو ، قد نظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية بها ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية بها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين عينيه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام ، موفون بعهد الله منجزون

---

(١) يشير الى مذهب الشيعة فى رجعة الامام المنتظر · وأن هناك ائمة مستترين ·

(٢) أى بعث الامام فى هذه الدنيا والموتى لا بعث لهم قبل يوم القيامة ·

(٣) ما يصف به الشيعة أئمتهم من علمهم الغيب – وهم لا يعلمون ظواهر حياتهم ·

(٤) تركوا شئون دينهم لآل البيت العلوى ·

لوعدة ، قد شروا (١) أنفسهم ، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله (٢) حتى اذا التقت الكتيبتان ورأوا السهام قد فوقت (٣) والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ٠٠ استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه وعفر بالثرى جبينه فأسرعت اليه سباع الأرض (٤) وانحطت عليه طير السماء ، فكم من عير فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله ٠ وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد ، آه على فراق الاخوان(٥) رحمة الله على تلك الأبدان ، أدخل الله أرواحهم الجنان ٠

لمحة تاريخية :

لكى نلم بالجو العام الذى أحاط بهذه الخطبة ولكى نتعرف على أبى حمزة الشارى نذكر لمحة تاريخية عابرة توضح - على وجازتها واجمالها - موقفه وبدايته وخاتمة مطافه ٠

الخوارج كما هو معروف فرقة اسلامية لها اثر كبير فى الفكر الاسلامى وفى سياسته وعقائده ، ولهم بجانب ذلك أثر كبير أيضا فى الأدب الاسلامى والبلاغة العربية ٠

---

(١) باعوها ٠

(٢) هذا الوصف ليس مجرد مبالغة فقد كان الخوارج عبادا حقا شجعانا حقا وقد قابلهم ابن عباس فى النهر وان فرأى لهم جباها قرحة لطول السجود وأيديا كثفنات الابل ، عليهم قمص مرحضة ٠ وهم يبرأون من الكذابين ومرتكبى المعاصى وهذا وصف عبادتهم تلاه وصف جهادهم ٠

(٣) فوق السهم: وضع فيه الفوق وهو الكعب الذى يوضع به فى وتر القوس

(٤) يروى أيضا تمزقته سباع الارض وهو يريد بهذا اثارة العواطف نحوهم

(٥) عند هذه الكلمات بكى ابو حمزة على فراق اصحابه ٠

ظهرت هذه الفرقة عندما قبل على بن أبى طالب مبدء التحكيم عقب هزيمته معاوية فى صفين ولكنها مع طول الزمن انقسمت فرقا بلغت العشرين ٠

وسموا الخوارج لخروجهم على على وصحبه لأنهم كونوا جماعة اختارت لها أميرا ، ويقال أيضا ان اسمهم مأخوذ من الآية الكريمة : « ومن يخرج من بيته مهاجـرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » ٠ وسموا أيضا الشراة ، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى وفضلوا الموت جهادا فى سبيله على الحياة مع شريعة منقوصة وهو اسم منشق من شرى بمعنى باع كمـا فى الآية « وشروه بثمن بخس (١) وهم ألصق بالآية : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله(٢) أى يبيعها، وكان أكثر الذين انضموا اليهم عربا بدوا ، والبدو أعـرف باللغة وأوسـع حفظا لمفرداتها (٣) ، يمتاز كلامهم بالقـوة والدقة ، واشتهر الخوارج بأمرين : قوة حجتهم وفصاحة خطبهم ، ثم تشددهم فى العبادة وقوتهم على أنفسهم فى سهر الليل تهجدا وصيام النهار نافلة ، وخطبة أبى حمزة توضح ذلك ، وقد استنفدوا جزءا كبيرا من طاقة على فى حربهم ثم قتلوه وظلوا بعـده شوكه دامية فى جانب الدولة الأموية ، واستهلكوا أيضا جوانب من طاقتها فى حروبهم ، وفى أواخر أيامها حين بدا فيها الضعف بدأ للخوارج نشاط جديد ٠

أثرهم السياسى

بيعة أبى حمزة وحربه

وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، قام عبدالله ابن يحيى الحضرمى الذى عرف باسم طالب الحق فأعلن خلع مروان ، وولى أبا حمزة واسمه « بلج بنى عقبة » من

(١) سورة يوسف ٠

(٢) سورة البقرة ٠

(٣) أفرد ابن عبد ربه فى كتابه « العقد الفريد » فصولا لكلام الاعراب ومواعظهم فارجع اليه ان شئت تجد نماذج من البلاغة العربية القوية ٠

الأزد فطلع على الناس فى موقفهم بعرفه سنة ١٢٩ هـ بأعلام وعمائم سود على أسنة الرماح ، ولكنه لم يشن حربه الا بعد انتهاء الحج ضنا بعبادته وعبادة الناس أن تفسد ٠ وعقب الحج استولى على مكة بدون قتال ٠ وفى سنة ١٣٠ هـ دخل المدينة واستولى عليها ولكن اقامته بها لم تدم الا نحو ثلاثة أشهر ، ثم خرج لقتال مروان وقال لأهل المدينة : انا خارجون لقتال مروان فان نظفر نعدل فى اخوانكم ونحملكم على سنة نبيكم ، وان يكن ما تتمنون ـ فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ـ وقد انهزم أبو حمزة فرجع الى المدينة ببقية جيشه فكان من القتلى بها وكانت هذه نهايته ولكن لم ينته الخوارج ولا مذهبهم ٠

جــــو الخطبــة :

موقف أهل المدينة منهم ومذهبهم

لم يكن أهل المدينة راضين عن أبى حمزة ولا عن الخوارج بل أذعنوا له كرها وخوفا ، ولأبى حمزة فى أهل المدينةأكثر من خطبة تهدف الى تهدئتهم وتثبيت قدم الخوارج بينهم ٠ وكلها تدور حول أفكار خاصة أهمها بيــان المساوىء التى اتسم بها العهد الأموى ، وبيان ما يتسم بــه الخوارج من صلاح وتقوى وحرص على قوانين الله ، والخوارج بوجــه عام يقرون خلافة أبى بكر وعمر ويقرون خلافة عثمان فى ست السنوات الأولى ، منها فقط : ويقرون خلافة على حتى قبوله التحكيم ، بينما كان أهل المدينة يقبلون خلافة هؤلاء جميعا بل قبلوا أيضا خلافة الأمويين ، هذا لأن جمهور أهل المدينة كانوا يرون أنه اذ ولى الخليفة وجبت طاعته ، ولهذا يتهم أبو حمزة بقلة الفهم وضعف العقل ولو كانوا من أهل الرأى الناضج والعقل القوى ما قبلوا خلافة هؤلاء ، وكان مما نفرأهل المدينة منه أنأصحابه كانوا من الشبان الناشئين ومهمة الخطبة قبل كل شىء هى الدفاع عن هؤلاء الشبان

بوجه خاص ، ثم تأييد مذهب الخوارج وتثبيته بوجه عام ،

مهمة الخطبة

وقد جاء هذا أيضا فى خطبة أخرى ٠ وهذه الخطبة أطول مما ذكرنا ورواياتها ليست متفقة ولكن ما وصف به أصحابه فيها أوضح مما وصفهم به فى غيرها وهى مثل جيد فى البلاغة وحسن التصوير ٠

أجزاء الخطبة :

منهج الخطبة

مهد أبو حمزة لحديثه بمقدمة بينت فضل الاسلام وفضل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنه أخرج الناس من ظلمات الجاهلية الى نور التوحيد وتركهم على المحجة البيضاء ، وهذه مقدمة لا يجادل فيها أحد من سامعيه ، ثم انتقل الى الثناء على الخليفتين الأولين ولهما بلا ريب مكانتهما فى نفوس الناس ، ثم أيد عثمان للسنوات الأولى من خلافته وهى سنوات لم تكن ظهرت له فيها عيوب ولا ترك لبنى أمية العنان أن يخرجوا عن حدود السنة ، وذكر خلافة على الصحيحة قبل التحكيم ، ثم أنحى على بنى أمية باللوم والتجريح فأفاض فى هذا افاضة كبيرة لم نذكرها جميعها، وهذا من غرض موضوعه لا من مقدماته لأن أبا حمزة جاء فى آخر هذه الدولة والنيل منها انما هو تثبيت لدعوة الخوارج التى تقوم على السنة المحكمة والعدل الاسلامى الصحيح ، وقد جاء فى حديثه أن هشام بن عبد الملك لما أصابت ثمارهم جائحة وضع الخراج عنهم نهائيا وهذا خطأ لأنه زاد الغنى غنى بتوفير الخراج ! وعطف كذلك على الشيعة فسفه مذهبهم وبهذا قضى على أعدائه، ثم دخل فى موضوعه الأساسى فذكر أن الخوارج لم يثوروا طلبا للملك ولا رغبة فى الانتقام وانما خرجوا لاقامة العدل واعلاء حكم الله :

« لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت ، وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت » ٠ ثم برر معركته مع جندهم ٠

الى هنا برر أبو حمزة كل أعمال الخوارج وزكاها فانتقل الى النقطة الأخيرة وهى أهم شىء فى الخطبة لأنها الغرض الذى من أجله قيلت : ذلك هو دفاعه عن أصحابه من الشباب احتج أولا بأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قامت على أيديهم الدعوة الاسلامية كانوا شبابا ·

واذن فدعوته صدى لدعوة نبى الاسلام وأصحابه صورة من أصحاب الرسول · ثم أخذ فى وصفهم فأبدع أيما ابداع · وصفهم بالنسك والعبادة وطول التهجد ، وصيام النهار · والكف عن جميع المحرمات ، ثم وصف ما أصابهم من بنى أمية · هذه الأيدى التى تلمس الأرض فى سجودها والتى لم ترتكب محرما قط ، تقطع ظلما ، وهذه الأعين التى تبيت باكية من خشية الله ، والتى تغض عن كل محرم تصبح قطعا فى مناقير الطير ، وهذه الأجسام الطاهرة العابدة تصبح طعام الوحوش ، كل هذا والمجرمون منعمون رافهون هذه كلمات ، خليقه أن تنفذ الى قلوب سامعيها ، وتحرك عواطفهم ، وقد جاءت ختاما للخطبة كلها وهى اشعار بما هم عليه من التمسك بالسنه النبوية وعمل رسول الله ، ثم جعل غرضه الأساسى آخر شىء يسمع فذلك يجعله أبقى فى الأذهان وأعلق بقلوب السامعين ·

فهذا مثال للخطبة الجيدة الناجحة ولكن لا يرجع نجاحها الى هذا الترتيب بقدر ما يرجع الى قوة تعبيرها وصدق تصويرها وحسن اختيار ألفاظها · وأنت تراه يجنح الى صيغ التعجب ، ويختار آيات قرآنية مناسبة وهو لا يتملق أهل المدينة ويسترضيهم ، بل يهجم عليهم ويوبخهم ، ذلك أن أدب الخوارج يمتاز بالقوة والعنف والشجاعة المتهورة ، وليس الى السياسة والمداهنة شأن بنى أمية ·

وفى الحديث عن تاريخ الخطابة وأدب الخوارج نشرح ذلك ان شاء الله ونذكر ترجمة لبعض خطباء الخوارج الآخرين ·



أنواع الخطابة



أنــواع الخطابة

يعتمد الباحثون فى فن الخطابة وتاريخها على تقسيم أرسطاطاليس · باعتباره أقدم باحث فى قواعـــد العلوم وتقنينها ، وهو قد نظر فى تقسيمه الى الزمن ، فجعل من الخطب ما يختص بالماضى ، كالخطب القضائية ، اذ يطلب فيها من المحكمين قضاء فى حدث قد وجد بالفعل وانتهى زمنه ويراد منهم الحكم ببراءة المتهم أو عقوبته ، فموضوع الخطبة يدور حول حدث قد انتهى ، ومن الخطب ما يختص بالحاضر كخطب التكريم والدعـــوة الى مشروع قائم ، فالخطيب يعنيه فى المقام الأول أن يثبت فى أذهان سامعيه حقيقة واقعة وحادثة فى الوقت الذى يتكلم فيه ، وهناكخطب تختص بالأمور المستقبلة كالخطب التى يطلب بهـــا تقرير قانون أو انشاء شىء جديد ، فالخطيب حينئذ يستحثالناس على عمل لم يحدث بعد ، فالخطب اذن ثلاثة أقسام فى نظر أرسطو ، تبعا لأجزاء الزمن ، لكن هناك تقسيما آخر للخطبة باعتبار موضوعاتها العامة ، وهذا التقسيم ليس دقيقا كل الدقة بل يتداخل بعض أقسامه فى بعض والنظر والتسمية من جهة الجوانب الغالبة ·

وهذه الأقسام هى : الخطبة السياسية ، والخطبةالقضائية وخطب التكريم ، والخطب الدينية والخطب الاجتماعية ، فهى اذن خمسة أقسام ، ووجه تداخلها أن الخطبة الاجتماعية تشمل السياسية والقانونية والخطبة الدينية تشمل كل تلك الأنواع بما فيها الخطبة القضائية لأن القـانون من الدين وهكذا لا تجد هذا التقسيم دقيقا دقة تقسيم أرسطو ولكنه يتناول حقيقة الخطبة لا زمنها ، والتقسيم الزمنى ليس بذى

فائدة فنية ، ونحن نعنى هنا بالخطبة الدينية لأنها هى النوع الذى نريد التدريب عليه واجادته ، ولكننا نتحدث عن كل قسم من الأقسام الأخرى بما يوضحه ويجلوه فى أذهاننا ، واجادة الخطبة الدينية وجودة التدريب عليها تبعث على الاجادة فى الأنواع الأخرى ٠

الخطبــة السياســية

أنواعها

يعنى بالخطبة السياسية الخطبة التى توجه من حكومة الدولة الى وجهة معينة سواء فى علاقاتهــا الخارجية أو أعمالها الداخلية ، وقد كان هذا هو موضوع هذه الخطبة عند اليونان يستعرضون فى خطبهم أحوال الدولة وما يجب أن تعمله للنهوض بأبنائها ورفاهيتهم ، وكذا ما يجب أن تنتهجه ازاء اعلان حرب على دولة أخرى أو تحاشى الاشتباك معها أو عقد صلح بين الدولتين أو زيادة عدد جيشها أو انقاصه وهكذا ٠٠ والخطب البرلمانيــة من أهــــم الخطب السياسية لأن الخطيب البرلمانى من حقه بل ومن وظيفته أن يقترح على حكومته وأن يشرع لها وأن ينقدها فيما تخطىء فيه ، وهو لهذا يتمتع بحصانة برلمانية تتيح له الحرية الكافية فى أن يقول ما يشاء ، ومن الخطب السياسية خطب الدعايات الانتخابية اذ فيها يوضح العضو المرشح جوانب السياسة التى يريد أن ينهجها ويبين عيوب السياسة التى يعارضها، ومنها خطب المؤتمرات السياسية فهى بطبيعة الحال خطب رسمية خاصة بسياسة الدولة ٠

نشاطها وأثره

هذا النوع من الخطب نال نشاطا وازدهارا فى عهـــد الأحزاب السياسية فى مصر وانتقل من الخطابة الى الكتابة الصحفية وكتابة المنشورات ، فكان بيان الخطابة والكتابة يجريان معا فى طلق واحد ، ولكن مع الصحف اليومية وغير اليومية كانت تعقد المجتمعات الكبيرة لحزب ما أو رئيس

حزب أو لعضو بارز فيه ليتحدث عن سياسته وربما استغرقت خطبته ساعة أو أكثر نجد المستمعين خلالها صامتين مصغين كل الاصغاء قد تعلقت أعينهم بالخطيب وتموجت أجسامهم بتموج حركاته ، وكانت هذه فى الواقع نهضة خطابية عظيمة فضلا عن أنها أمدت الشباب بروح خطابى وأمدت الشعب أيضا بثقافة سياسية ، وفتحت أذهان الناس لأفكار حية ومبادىء هامة تستحق الدرس والتفكير ٠

أمثلة لها

وفى كل أمة دستورية يتمتع نوابها بحرية كافية ويمنح أبناؤها حرية الادلاء بآرائهم ، ينضج هذا النوع من الخطابة وحسبك أن تطلع على كتاب من الكتب التى تترجم لكبار السياسيين لترى خطبهم المختلفة وما تحتوى من آراء توجيهية أو نقد للحزب المعارض ٠ ولعل أوضح الأمثلة فى هذا خطب الزعيم الانجليزى ونستون تشرشل ، فهى بجانب بلاغتها وقوتها تتسم بالديمقراطية والنزاهة الرائعة ، وقد هجم تشرشل على تشمبرلين رئيس الوزراء أول قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ هذا مع أنهما من حزب واحد ، وأروع من هذا أنه عندما تنحى تشمبرلين عن رئاسة الوزارة وتولاها تشرشل كان تشمبرلين من أكبر معاونيه ومشجعيه، مما دل على أن عملهما كان خالصا للوطن ، ولا أثر فيه أصلا للجانب الشخصى ، ولم تكن الأحزاب المصرية حين قيامها وتعددها على حظ من المثالية بل كانت تعمل لصالح ذويها والهجوم على خصومها بكثير من التحامل ، ولكنها خلقت نهضة خطابية على أى حال ٠

نشأتها وتطورها

واذا رجعنا الى نشأة هذا النوع من الخطابة نجد بدايته عند اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، فاليونان مهد الديمقراطية ، وهى أيضا منشأ كثير من جوانب الفكر البشرى والثقافات العامة وفى كل هذه الفروع نرجع للبحث عن بدايتها الى اليونان ، وهى أول بلاد عرفت الديمقراطية

السياسية ومنحت شعبها حرية الرأى واعلانه ؟
ولما جاءت الدولة الرومانية لم يخفت هـــذا النوع من الخطابة ، بل نما وازدهر · حتى عندما كانت الدولة تحكم بقواد عسكريين ، ولعل ما يحفظه التاريخ من محاورات حول موقف يوليوس قيصر ، واتصاله بالملكة المصرية كليو باترة، وتأييد بعض الخطباء مسلكه وهجوم آخرين عليه مما يوضح مدى قوة الخطابة السياسية وشدة تأثيرها لدى هؤلاء القوم وسنعرض لشىء من هذا عند الحديث عن تاريخ الخطابة ·
واستنامت الخطابة فى العصر الوسيط فى البلاد الأوربية بينما كانت ناهضة قوية جدا فى الأمة العربية ، ويرجع ذلك الى الفرق الواسع بين نظام الحكم هنا وهناك ، وفى العصر الحديث عصر البرلمانات والحياة النيابية نضجت الخطابة السياسية كثيرا وتهذبت أيضا · وكانت فرنسا ابان الثورة الفرنسية أسبق الدول فى هذا الميدان ، وما أثر عن خطبائها، أمثال ميرابو ولامرتين ، وروبسبير ، وكونستانت ، يوضح مدى نجاح الدولة فى هذا النوع ، ثم نمت الخطابة السياسية فى البلاد الأوربية جميعا ·
ولم تقف دائرة الخطب السياسية عند الأحزاب والبرلمانات بل تعدت ذلك الى المحيط الـــدولى ، ذلك أن الســياسات الخارجية وعلاقات الدول بعضها ببعض ، أصــبحت أكثر أشتباكا وأشد تعقيدا ، وقد أنشئت عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى فضمت أنماطا من الأمم والشعوب فى صعيد واحد ، وحلت محلها هيئة الأمم بعد الحرب الثانية ، وفى كلتا الدارين تبودلت خطب سياسية هى بلا ريب أوسع وأهم من خطب الأحزاب والبرلمانات · وفى محيطنا العربى أنشئت أيضا « الوحدة العربية » التى حولت الى جامعـــة الدول العربية ، وكانت بدورها ميدانا للخطب السياسية ·
ويرجع فجر هذه الخطب السياسية فى مصر الى الخطب

التى كان يلقيها مصطفى كامل ضد الانجليز وخصوصا فى فرنسا عقب حادث دنشواى ، ثم كانت خطب سعد زغلول التى تمتاز ببلاغتها وقوة أسلوبها العربى ، وجمع مكرم عبيد خطبه فى كتاب سماه « المكرميات » به كثير من التعابير البليغة القوية ، ولكن خطبه وخطب النحاس كانت أقل كثيرا من خطب سعد لضعف تكوينها الأدبى وقلة درسهما اللغة العربية ، ثم لحرصهما على السجع حرصا هبط بخطبهما فى كثير من الأحيان الى الركاكة والتهافت ، ثم كان مكرم بالذات غير مهذب الألفاظ ويكثر من العبارات النابية السوقية بجانب العبارات البليغة الرصينة ٠

وبعد ذلك هبطت الخطابة البرلمانية والسياسية ، فمن ناحية ذهبت الأحزاب ومن ناحية أخرى عمر البرلمان بغير المثقفين من العمال والفلاحين الذين لا يجيدون الخطابة بل ولا يعرفونها ، ثم جنح السياسيون الى استعمال اللغة العامية فضاعت الخطابة السياسية نهائيا ٠

مكونات الخطبة السياسية :

ليس كل خطبة سياسية مما ينال نجاحا وقبولا لدى السامعين ، وكثيرا ما ينصت السامعون احتراما للخطيب، ولكنهم غير مقتنعين برأيه ، ونجاح الخطبة يقوم على الاقناع والاستمالة ٠ وهى بوجه عام تعتمد على عملين : تأييد رأى الخطيب وهدم الآراء المعارضة ، ذلك لأن الخطيب اذ يزين رأيه لا يدع مجالا للرأى الآخر أن يبرز فى ذهن سامعيه بل ينفرهم منه ويطرده عنهم وأهم قواعد الجانبين ما يلى : (أساسها)

١ ــ على الخطيب أن يدرس الموضوع الذى يريد أن يتخذه موضوع خطابته ٠ ويتعمق معانيه ليمكن أن يقدم لمستمعيه شيئا جديدا مقنعا ٠ ثم ان هذه الدراسة تمكنه من الرد على معارضيه وتفجؤهم بمبادىء ومعان لم تخطر ببالهم فلا (درس الموضوع)

يجدون قدرة على ردها والاعتراض عليها · ويجب أن يعد الخطيب بجانب هذه الدراسة عبارات خطبته التى يوضح بها الأفكار التى درسها ·

اخلاص الخطيب

٢ ـ يجب أن يكون مقتنعا بالمبدأ الذى يدعو اليه فهذا الاقتناع يمنحه حرارة وقوة فى خطابه ويمده أيضا بمعان جديدة ، ثم عليه أن يقدم للناس نفس الأسباب التى اقتنع هو بها ، وأن يجمع فى خطابه شأن الخطابة عامة بين الأسباب المقنعة والأخرى المثيرة للعاطفة ، لأنه بها يستميل مشاعرهم ولكن مخاطبة الجماهير التى تحتاج الى هـذه الاثارة لا تستغنى عن المنطق الذى تعتمد عليه ، وبغير ذلك يتحمس الناس للخطيب أثناء خطابته ، فاذا انصرفوا من موقفه لا يجدون فى أذهانهم ما يغذى عاطفتهم فتكـون الخطبة ضعيفة الأثر ·

٣ ـ عليه أيضا أن يدرس آراء معارضيه ليفندها ويضعف تأثيرها ، وهو فى هذا يوازن بين مذهبه ومذهب الآخرين المعارضين ، ويبين ما لمذهبه من مزايا ومنافع عامة للناس وما للمذهب الآخر من أضرار وقلة جدوى ·

ما يجوز وما لا يجوز

ويغتفر للخطيب فى هذا أن يستعمل سخرية قليلة عارضة أو يرسل نكتة عابرة للنيل من خصومه ، فهذا يكسبه شجاعة فى موقفه وايهام الناس أن المذهب المعـارض مفروغ من دحضه وقلة نفعه ، ولكن لا يجوز له أن يتناول خصومه من الجوانب الشخصية أو أن يبحث عن مغامز فى سلوكهم أو تاريخهم فهذا اسفاف يزرى بالخطيب نفسه وقد ينتج عكس ما يريد ·

استعداد الخطيب السياسى

٤ ـ الخطيب السياسى فى أكثر مواقفه كالمناظر قلما يسلم من معارضين وقد يفاجأ بمن يقاطعه فى حديثه أو يبدى عليه اعتراضا ، ولهذا يجب أن يكون رابط الجأش ثابت القلب حاضر الذهن فلا يتزعزع لهذه المقاطعة بل يجد اجابة حاضرة

عليها ، وقد يستعمل فى هذا الموقف شـيئا من السخرية والاستهانة وهى فى الغالب تمنحه فرصة من الوقت ليفكر تفكيرا جديدا أو ليستخرج ردا ما على خصمه ، والخطيب الشجاع الجرىء لا يتزعزع لهذه المقاطعة وربما عدل الى جانب آخر من الحديث وترك اعتراض صاحبه أو رد عليه ردا غير كاف ليشغل الناس بحديثه الجديد ، وبعبارة أخرى يقابل الهجوم عليه بهجوم آخر ، وهذا النوع قد يكفى فى الخطابة السياسية ولكنه لا ينجح فى الخطب القضائية ٠

وتختلف الخطبة السياسية عن الكتابة السياسية فى أن الخطبة تبادل آراء والكتابة القاء آراء ، فالكاتب يوضح ما يريد وهو منفرد مستقل يستطيع تفادى بعض الوجهات المعارضة ثم لديه فسحة فى اعداد خطبته بدقة ، واختيار الألفاظ الجيدة ٠ وكل ذلك لا يتأتى للخطيب ٠

مثال لها

ومن الخطب السياسية الجيدة خطبة لسعد زغلول قالها فى موضوع التفاوض مع الانجليز ، وكان للاحزاب الأخرى مواقف متضاربة ، والنزاع بينهم شديد ، وهو يؤكد لمستمعيه أنه لن يفرط فى شىء من حقوق البلاد ٠ ومنها :

« ٠٠ ان الثقة التى شرفتنى الأمة بها لا يمكن أن تنعدم – كما قلت لوفدكم بالأمس – الا فى واحـدة من حالتين : احداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحماية ٠ وانى أعيذها من هذا الخبال ، والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأها (١) فبدلا من أن يسعى للاستقلال سعى فى غيره وعمل لسواه ، وفى هذه الحالة لا يصلح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالاعدام ، ويكون حكمها من أعـدل

---

(١) يعنى بموضع ثقة الامة هو نفسه ٠ يريد أن الامة وضعت كل ثقتها فيه فهذا هجوم آخر ٠

الأحكام · وانى أبيح دمى اذا رأيتم منى انحرافا عن قصدكم أو تسامحا فى حقوقكم ، أو خروجا عن حدود المهمة التى عاهدتكم على القيام بها ، وما عدلت ولن أعدل عنها ــ وما دام فى عرق ينبض ، أو نفس يتردد · وانى أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات فى طريقها ، مهمـا كانت رابطته معنا ، وحاله من الصداقة لنا ، ولقد قاطعت كثيرا من أصدقائى لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصا على التمسك بحقوق الأمة ، فكل من رأيت فيه تهاونا فى السعى ، وتواكلا فى العمل ، أو تسامحا فى الحق وأعيتنى الحيلة فى اصلاح شأنه قطعت بينى وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها ·· أفعل ذلك غير آسف لأن حقوق الأمة لا تقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب » ·

الخطبة تدور حول تأكيد حرصه على مصالح بلاده ، وقد قدم الأدلة الكافية من غير أن يجرح أحدا من خصومه ·ولكنه وضح أنه يضحى بحياته فى سبيل وطنه كما يضحى بكـل صديق عزيز عليه لأن حقوق الأمة لا تقبل المجاملة ،ووظيفته هى العمل لها لا للأصدقاء ·

وخطب سعد بوجه عام كانت قوية الأسلوب قوية التعبير قوية الحجة ، وترجع قوة أسلوبه وسلامة لغته الى نشأته الأزهرية ، والى تكوينه الأدبى فى الأزهر ، وقد كانت خطب مصطفى كامل أكثر من خطب سعد حرارة وأملأ بالعاطفة، ولكنها كانت لينة الأسلوب سهلة العبارة لا تكاد تفترق عن الكلام المألوف ·

ومن خطبة له رحمه الله يشجع فيها المصريين ويشـــد عزائهم كيلا ييأسوا من نيل استقلالهم أو تفتر عزائمهم عن المطالبة به :

خطبة لمصطفى كامـــل

·· « ان العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ،

ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعــد الشروق شروق وبعد الغروب غروب فاننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبدا : لقد طال الانتظار اننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا الى أشرف غاية اتجهت اليهـا الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب اليه فى مستقبلها فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا (١) · ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية ·

عبد الله النديم

ولا يفوتنا أن نذكر خطيب الثورة العرابية عبد الله النديم وهو لم يكن واسع الثقافة ولكنه كان حاد الذكاء تواتيـه الألفاظ والمعانى بغزارة فتمكنه من اقناع سامعيه واستمالتهم الى ما يدعو اليه ، وكان السيد عبد الله النديم الى جانب خطابته الفصيحة زجالا لا يبالى أن يبارى أحد « الأدباتية » لمدة طويلة ، ولا ترجع شهرته الى بلاغة عباراته وانما ترجع الى حضور ذهنه وما أوتيه من بديهة تستجيب لكل موقف ، كان يواجهه الموقف الطارىء فيرتجل الخطبة التى تناسبه ولا يحمله ارتجاله على الايجاز ، بل يمتد به الحديث ويمتد، وكلما تحدث انفسح له مجال القول وتدفق لسانه به ، حتى يكون فى آخره أسهل عليه من أوله ، لهذا لقبوه خطيب الثورة وبالغوا فقالوا خطيب الشرق · وترجع هذه الصفة الى ما كان له من ثبات الجنان وقلة التهيب ومواتاة العبارات، فهو يبدأ الخطبة بقول ما يطرأ على كل ذهن ، ولكنه يعمل فكره فى المعانى الأخرى ، فيكون لديه ينبوع من الحديث غير منقطع وبه تطول الخطبة ولا يحتاج الى تكرار ، ولعل التمهل

طريقته فى الخطب

---

(١) الفعل وقف الثلاثى متعد بنفسه ·

فى الالقاء مما كان يتيح له فرصة التفكير كما انه يحول دون الاجهاد الذى يكل الذهن ، ويؤثر عن النديم أنه خطب فى حفل لجمعية المقاصد الخيرية خمس مرات فى يوم واحد وهو يحلى فى كل خطبة ولكنه لا يعيد شيئا مما قاله من قبل ٠

وبذكر ثبات النفس فى المواقف المتأزمة الحرجة نعود ثانيا الى ذكر ونستون تشرشل ، ففى أول الحرب العالمية الثانية أحرزت ألمانيا سلسلة من الانتصارات ــ جعلت الناس يوقنون لها بالنصر المحتوم وكان تشرشل وزير بحرية فجاء فى خطبة له :

من كلام تشرشل

« ان بعض الدول الصغيرة يهولها ما فى قوة ألمانيا العسكرية من بطش ودقة فيبهرها هذا البريق اللماح ، وتأخذها الأحداث المؤقتة ، بينما تعمى عن قوة الشعوب العريقة القوية التى تتصدى لألمانيا ، وعن مقدرتها على مجالدة المحن وتحمل الأخطاء وخيبة السعى وسوء التدبير ولكن فى وسعها أن تجدد قوتها وتمضى فى كفايتها الى غايتها بعزيمة لا تفلها خسارة موقف ، بل هى لا غاية لها فى مواجهة الصعاب حتى يتحقق لها النصر فى أعظم قضية حاربت الانسانية فى سبيلها ٠

ومن خطبة لمصطفى كامل بالاسكندرية ١٨٩٧ :

اذكروا مصر

كل اجتماع وطنى تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها ، ويعلن أبناؤها اخلاصهم لها هو فى الحقيقة مرهم لجراحها ودواء لدائها ٠ فاذكروها ما استطعتم ، فان فى ذكراها ذكرى آلامها ، وذكرى الآلام تجر حتما الى ذكر عوامل الشفاء ، اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة ، وهى على سرير المرض والعناء ، اذكروها بآلامها ، وان كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها ، اذكروها فانكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها فالأمل

وطيد فى سلامتها ، اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره ، والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ، ومن المستحيل أن يكون الوطن فى خطر ونحن نيام ، وأن يعمل الأجنبى لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا ، بـل لاسـتعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل لنا ولا حراك ٠

التضحية فى سبيل الوطن

القوا ـ أيها السادة ـ بأنظاركم قليلا الى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ، ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه ٠ بل هو يرضاهما ضـحية للوطن ، ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمها لاعلاء شأن بلاده، ويعد الموت من أجل الوطن حياة دونها حياة البشرية ووجودا دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصرى على هـذا الطراز ووطنه أجمل الأوطان وأحقها بمثل هذه المحبـة الشريفة الطاهرة ٠

تحليل وتقديم

والخطبة ـ وخطبه الوطنية كلها ـ على هذا النسق ، تبدو فيها العاطفة كما تبدو فيها قوة المعانى ، وفيها تأثير واضح على السامع والقارىء ٠ ولكنها كما ذكرنا ليست قـوية التركيب البلاغى ، ولا دقيقة التعبير ، وفى هذه القطعة التى اخترناها تجد فيها ذلك كله ، تمثيل قوى واثارة للعواطف، وترغيب فى التضحية من أجل الوطن ، فاذا بحثت ألفاظها وجدتها أسلوبا سهلا دارجا ، بل يبدو التهـاون فى بعض عباراتها ، فلو أنه قال : اذكروا مصر كما يذكر الولد البار أمه الحنون لكان أدق لأن الحنان صفة الأم والـبر من واجبات الأولاد ولو أنه ذكر أن الأجنبى يعمل لاستعبادنا واسترقاقنا ، بل للقضاء علينا وسلب حياتنا لكان أدق ، لأنه ترق من الاستعباد الى الاهلاك ، وسعد زغلول أقوى منه تعبيرا ولا ريب ٠

الخطبـة القضائية

ما هى ؟

الخطبة القضائية هى التى تلقى فى ساحة المحاكم أمام

القضاء طلبا للحكم فى أمر ما ، وهى تختلف باختـــلاف المحاكم التى تلقى بها ، فقد تكون فى أمر جناية أو أمـــر مدنى أو حالة من الأحوال الشخصية، وموقف الخطيب ـ المحامى أو وكيل النيابة ـ يختلف باختـلاف القضية التى يتكلم من حيث نوعها وأهميتها والأحداث التى بنيت عليها٠

قدمها

هذا النوع من الخطابة قديم ترجع قواعده وأهم أصوله الى اليونان ، ثم الى الرومان ، وكان موجودا عند العرب قبل الاسلام ، نجده فى مجتمعاتهم التى يقررون فيها شئون الديات والقصاص والمغارم ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أهمية هذا النوع فى قوله لنفر من الأنصـــار اختصموا اليه : « انما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون الى وقد يكون بعضكم ألحن (١) بحجته من الآخر فأحكم له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فانمـا أقتطع له قطعة من نار » ٠ وبين هذا الحديث أن المحامى اللبق يستطيع أن يخدع القاضى وأن يلبس الباطل ثـوب الحق ، والحديث يلجأ الى ايقاظ الضمائر وتحذير الناس من الحيد عن الحق ، وليس هذا متبعا الآن ، لأن المحامى يعنيه أن يكسب موقفه وأن يتغلب على خصمه وهو على استعداد للتحدث عن أى من الخصمين يلجأ اليه ، والقضاة الأذكياء يحرصون على ألا يخدعوا ببلاغة الخطيب وأن يبحثـــوا القضايا التى أمامهم من الوجهة القانونية البحتة ، والخطيب القضائى رغم هذا لا يستغنى عن اثارة عواطف القضاة ، وبعبارة أخرى أمام هذا الخطيب لنجاحه أمران : الأمر الأول والأهم هو البحث القانونى وتطبيق قضيته عليه ٠ الأمـر الثانى وهو أمر مساعد هو جذب عواطف القضاة نحـــو ما يدعو اليه ٠ وهذا الأمر الأخير وان كان محدود الاثـر

واجب الخطيب القضائى

---

(١) افصح وأبين ٠

لا يخلو من أهمية ، لأن القانون ذو مرونة ومرونة متروكة للقضاة ، فمثلا نجد العقوبة فى جريمة ما غرامة لا تقل عن خمسين جنيها وسجن شهر أو احدى العقوبتين ٠ فالغرامة قد تؤخذ فى أضيق حدودها وقد يكتفى بها وحدها وقد تزيد عن حدها الأدنى ويضم اليها السجن ، ومن هنا نجد أن عاطفة القاضى لها أثر ٠

وليس من اثارة العاطفة القضائية أن يقول المحامى أن الجانى رجل فقير ويعول أسرة كبيرة ولا كاسب لها غيره، فهذا بعيد عن العدالة التى تحتم أن يلقى جزاءه على عمله مهما كانت حالته ، ولكن الاستعطاف يأتى من ناحية توهين المستند ، والتحذير من عقوبة شخص برىء أو هو أقرب الى البراءة ، وأن القانون يفضل براءة الجانى أو عشرات الجناة على أن يعاقب شخص برىء بأدنى عقوبة ، ومهمة الخطيب القضائى ان يضع صورة للجريمة التى ينظر القضاء فيها أولا ، ثم يعرض المواد القانونية التى وضعت لها ، وهنا يختلف الموقف ، فوكيل النيابة يعمل على تثبيت الجريمة ويطالب بأقسى ما ينص عليه القانون من عقوبة ، أما المحامى المدافع فانه يعمل على نفى تعمد الجريمة ، ثم يحاول تجريح الشهود ، وأخيرا يلجأ الى الجوانب القانونية التى تخفف العقوبة ، ولا بد لكل من الخطيبين أن يفند آراء خصمه وان يوهنها بأدلة منطقية وقانونية ٠

وأهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية :

١ ـ درس القضية درسا عميقا شاملا لا يغيب عن الخطيب أدنى جزئية منها ٠

٢ ـ وضعها فى الصورة القانونية الملائمة بحيث ينجح طلبه بأقصى ما يستطيع ، ويبحث اقتناع القاضى أنه يعتمد على القانون لا على التهريج والاثارة ٠

٣ ـ أن تصاغ الخطبة فى صورة منطقية متسلسلة تسلم كل

نقطة الى تاليتها بدون أن يشعر السامع بفجوة أو انقطاع فهذا يوهن الخطبة وينبىء عن عجز صاحبها ٠

٤ ـ جودة الأسلوب وقوة التعبير مما له أثر كبير فى انجاح الخطبة القضائية ، وكبار المحامين يطبعــون خطبهم ليقرأها من لم يشهد القاءها ويستفيد منها المحامــون الآخرون والخطباء ٠

٥ ـ قد يجد القاضى أن القانون العام ليس مسعفا ولا واضح التطبيق فى قضيته ، ولهذا يلجأ الى القوانين الخاصة التى وضعها القانونيون شرحا للقانون العام ، وما لهم فيها من آراء فرعية كما يلجأ المحامى فى الأحــوال الشخصية الى أقوال فقهاء من المذاهب الفقهية الكثيرة التى ترد فى القانون ٠

والخطبة القضائية مصدر ثقافة قانونية ، وفى قليل من الأحيان تجد المحامى باحثا عن الحق داعيا الى طرق العدالة متعاونا مع القاضى فى احقاق الحق ودفع الظلم ، وربما لا يوجد هذا الامـع محامى الحكومة ، فالحكومة كما يقولن خصم شريف ، أما المحامون المأجورون فانهم لا يعنيهم الا نجاحهم ولهذا يلجأ الواحد منهم أول ما يلجـأ الى تجريح الشاهد أو التماس فارق بسيط بين أقوال الشهود ثم يطيل فى خطبته لاقناع موكله انه بذل جهدا ، ولم تشرع المحاماة لهذا العمل ٠

ولا يعنينا أن نقف طويلا لدى الخطبة القضائية فلهــا مدارسها ورجالها وليست مما يمس أعمال الدعاة الى درجة كبيرة ، وأهميتها انها خطبة مستحدثة تمثل روح العصــر أكثر مما تمثل التاريخ ، فهى لم توجد فى بلادنا بهذه الصورة المنظمة الا منذ اتخذت المحاكم المصرية نظاما أوروبيا ،وهى لم تظهر فى الأدب الأوروبى الا منذ عصر النهضة ، ولكننا نجد لهذه الخطبة أمثلة فى الأدب العربى القديم ، وقد كان

المتخاصمون يقفون أمام القضاة فيدلي كل برأيه وحجته ثم يناقشهم القاضي قبل أن يصدر حكمه ، كما فعـــل بعض الأنصار أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم · وهذا يبين مدى تأثير الخطيب القضائي ببلاغته على القضاة ·

أبو الأسود وزوجه

ومن الأمثلة العربية في هذا مخاصمة أبي الأسود الدؤلي وزوجته أمام زياد ابن أبيه في ابن كان لهما وأراد أبو الأسود أن يضمه اليه · فقالت الزوجة :

« أصلح الله الأمير ·· هذا ابني كان بطني وعـــاءه وحجري فناءه وثديي سقاءه ، أكلؤه (١) اذا نام وأحفظـه اذا قام، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى اذا استوفى فصاله (٢) وكملت خصاله واستوعكت (٣) أوصاله وأملت نفعـــه ورجوت دفعه (٤) أراد أن يأخذه مني كرها فآدني (٥) أيها الأمير ؟ فقد رام قهري وأراد قسري (٦) ·

فقال أبو الأسود : أصلحك الله ·· هذا ابني حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه وأنظر في أوده (٧) وأمنحه وألهمه حلمي حتى يكمل عقله ويستحكم (٨) فتله ·

فقالت الزوجة : صدق ــ أصلحك الله ــ حمله خفا وحملته ثقلا ، ووضعه شهوة ووضعته كرها ·

فقال له زياد : أردد على المرأة ولدها فهي أحق به منك ودعني من سجعك (٩) ·

---

(١) أحفظه وأرعاه ·
(٢) بلغ حد الوفاء والفصال الفطام والاستغناء عن الرضاعة ·
(٣) اشتدت وصلبت · (٤) دفاعه عن ·
(٥) قوني واعني من الايه والآد · أى القوة ·
(٦) اجباري وكرهي · (٧) اعوجاجه ·
الغرض منها وتاريخها
(٨) تبلغ قوته الجسدية تمامها · والفتل الاحكام ·
(٩) ارجع الى هذه المحاكمة في امالي القال ج ١٥/٢ ·

وكان الورعون من المسلمين يكرهون منصب القضاء خوفا أن يحيفوا .

ولعل مما يتصل بهذا من قرب وصية عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى حين ولاه القضاء ، وهى رسالة مشهورة مذكورة فى أكثر كتب الأدب والتاريخ ، ويجب ألا يغفلها دارس للادب القضائى سواء كان محاميا أو قاضيا أو خطيبا ، وتلحق بها رسالة الامام على للأشتر النخعى ، وليستا من الخطب ، ولكنا نذكرهما مددا للخطيب الاسلامى

خطب الصلح

الغرض منها وتاريخها

يتصل بالخطب القضائية خطب الصلح بين المتخاصمين والغرض الأساسى منها هو اصلاح ذات بينهم وازالة مابينهم من إحن وضغائن ، وهى من الخطب القضائية ، لأن مجلس المصالحة العرفى أو الوسيط بين الخصوم قد يحكم على أحد الطرفين بدفع غرامة مالية أو عقوبة أدبية ، والفرق بين هذا الموقف وموقف المنافرة أن المتنافرين ليس لأحدهما حق على الآخر ولكن كل يدعى أنه أرفع منه وأشرف ، وخطبة الصلح فى الواقع عمل قضائى يحاول به الوسيط أو الوسطاء إحلال المودة مكان الخصام ، وهذا العمل والخطب التى تقال فيه ليس شيئا مستحدثا ولكنه معروف منذ العصر الجاهلى ففى أعقاب الحروب يتوسط بعض الكبراء أو يتحملون ديات القتلى كما فعل هرم بن سنان والحارث بن عوف فى حرب داحس والغبراء (١) واستمرت هـذه الخطب فى العصر

---

(١) هرم بنى سنان بن أبى حارثة المرى ، والحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى ايضا ، اصلحا بين قبيلتى عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء كادت تذهب بالجبين ، وكان من شجاعة الحرث أنه بعث الى بنى عبس = بمائة من الابل ومعها ابنه ، وقال لهم : أيما أحب اليكم الابل ، أم قتل ابنى مكان قتيلكم . فاخذوا الابل . أنظر الاغانى ، حـ ١٠ /٢٨٨ وما بعدها

(١) انظر الصناعتين ١٩٢ .

الاسلامى والأموى ، لأن الاسلام يؤثر الصلح على القضاء لما فيه من ازالة الشحناء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متفائلامبتهجا بالحسن بنعلى ويقول : ان الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين · ومع كل هذا ليس لدينا مأثورات واسعة من خطب الصلح ، والذى وصل الينا ليس جاريا على شريطة شراح الخطب ومؤرخيها من حيث طوله ، فقد ذكر أبو هلال العسكرى أن الناس كانوا اذا خطبوا فى الصلح بين العشائر أطالوا (١) ولم ترد الينا خطبة مطولة من هذا النوع · وكان الخطيب فى خطب الصلح يخطب واقفا · بينما يكون جالسا فى خطب الأملاك ·

مكانتها الآن

ولا نزال فى وقتنا الحاضر نحتاج الى هذا النوع من الخطب ونستعمله وخصوصا فى المنازعات التى تحدث فى الريف وبين القبائل فى صعيد مصر ، وقد يجعل الواعظ خطبته للاصلاح موضوعا عاما لخطبة الجمعة حيث يسمعها الكثيرون ، وقد تعقد لها مجالس خاصة يحضرها بعض الكبراء وبعض رجال الحكومة فيتداول الرأى وتبحث الأحداث أولا ثم يأتى دور الواعظ ليلقى نصائحه مدعمة بالأدلة الدينية والعقلية ·

طريقتها

والاتجاه العام فى خطبة الصلح أنها تدعو الى التسامح والعفو وترغب فى الصفح وعدم الانتقام ، كما تنفر من المعارك ومن اراقة الدماء ، وقد يذكر الواعظ فى هذا المقام عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن أساءوا اليه من قومه حتى الذين حاربوه وهموا مرارا بقتله ، وهو يوم الفتح سأل عن عتبة ومعتب ابنى أبى لهب الذى كان شديد الايذاء له · كما يذكر مسامحة ابن حنبل كلا من المعتصم العباسى والواثق بعد ما ناله من تعذيبهما وسجنهما له مدة طويلة ، وقد يذكر أن الشخص حين ينتقم من خصمه يشعر بغبطة وقتية ثم يؤنبه ضميره ويلومه على ما فعل ·

---

(١) أنظر الصناعتين ١٩٢ ·

ودراسة علم النفس كثيرة النفع فى هذه المواقف · كما يذكر أن توريث المحبة والوئام بين الناشئين والذرية البريئة خير من توريث الشحناء والمطالبة بالثارات · وحياة الأمن والدعة خير من حياة الحروب وطول النضال ، ثم لا بد مع هذا من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ·

ونورد فى هذا المقام خطبة للأحنف بن قيس قالها بعد فتنة نشبت بين قبائل العرب فى البصرة واشتركت فيها تميم ضد الأزد ، والأحنف تميمى فقال فى هذا :

خطبة الأحنف ابن قيس

« يا عشر الأزدوربيعة ·· أنتم اخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصهر ، وأشقاؤنا فى النسب ،وجيراننا فى الديار ، ويدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب الينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحب الينا من تميم الشام ،فان استشرى شنآنكم وأبى حسك (١) صدروكم ففى أموالنا وأحلامنا سعة لكم » ·

هذا ما أورده كل من صاحب العقد وصاحب البيان والتبين من هذه الخطبة ، فاذا كان هذا كل ما قال فقد أرجز جدا ، ولكن تأتيه لموقفه وتدرجه لما يريد من الصلح غاية فى الجودة والبلاغة ·

خطبة مرثد الخير

وهذه خطبة أخرى لمرثد الخير نوردها أيضا نموذجا من دعوات الصلح ، ومرثد قيل من أقيال حمير (٢) · وقد حدث فى عهده أن تنازع سبيع بن الحرث أخوذى جدن وميثم بن مثوب بن ذى رعين ، شرف قومهما كل يطلب لنفسه سيادة القبيلة حتى خيف أن يقع الشربين حيهما ويفنى فيه الجذمان جميعا فدعاهما مرثد ليصلح بينهما وخطبهما خطبة جاء فيها :

---

(١) الحسك الشوك ، يريد الحقد ·

(٢) القيل الرئيس والملك ·

إن التخبط (١) وامتطاء الهجاج (٢) واستحقاب اللجاج (٣) سيقفكما (٤) على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة (٥) وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد (٦) وانحلال العقد وتشتت الألفة وتباين السهمة به وأنتما فى نسجة (٧) رافهة وقدم واطدة (٨) وأودة مثرية والبقيا معرضة (٩) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب من عصى النصيح وخالف الرشيد وأصغى الى التقاطع ،ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوء سعيهم وكيف كان صيور (١٠) أمورهم ، فتلافوا القرحة (١١) قبل تفاقم الثأى (١٢) واستفحال الداء واعواز الدواء ، فانه اذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء واذا استحكمت الشحناء تقبضت عرى الابقاء وشمل البلاء » .

وهذه الخطبة على قصرها كافية فى ردع الرجلين عن الشر لأنه حذرهم من سوء العاقبة عليهما معا ، وبين أنه اذا وقعت حرب وسفكت الدماء فانه يعز بعد ذلك أن تصفو النفوس أو تنقطع الثارات فيعم البلاء الموجودين ومن سيوجدون ، ويبدو أنها أخذت مكانتها من صاحبها اذ ليس فيها ـ غير اللغة ـ شىء ذو بال .

الخطب الاجتماعية

ما هى الخطبة الاجتماعية

نعنى بالخطبة الاجتماعية تلك الخطبة التى تلقى فى

(١) التخبط السير على غير هدى أو معرفة بالطريق .
(٢) الامتطاء الركوب والهجاج الاندفاع بدون تفكير .
(٣) استحقب الشىء اصطحبه واللجاج التمادى فى الخصومة .
(٤) سيسعلكما تقنان على حافة حفرة .
(٥) فى وردها والسقوط فيها هلاك الاصل وانقطاع الصلات .
(٦) قبل أن نقطع العلاقات .
(٧) القرابة . (٨) ثابتة . (٩) الابقاء على الصداقة ممكن .
(١٠) مصير وعاقبة . (١١) الجرح . (١٢) استشراء الفساد .

موضوع يهم المجتمع ويعود عليه بعض الفوائد ، ومن أمثلة ذلك : أن يدعو خطيب القرية لانشاء مدرسة أو ناد بها أو يقترح شق ترعة أو اقامة جسر ، أو يدعو شخص فى مجتمع ما لانشاء دار أمومة تساعد المرأة الموظفة أو مدرسة لتربية الحاضنات وتدريبهن ، أو انشاء دار لرعـاية المسنين أو انشاء ناد رياضى يشغل وقت الشباب ويـربى أجسامهم وغرائزهم ، أو تكوين شركة لانتاج شىء يرى أن مجتمعه فى حاجة اليه ، أو لزراعة رقعة من الأرض ·· وهكذا ·· وكل هذه اصلاحات اجتماعية وهذه الأعمال كثيرة ونشيطة جدا فى البلاد الراقية ، وقد كان لها أيضا نشاط فى مصر، ولكن قبدها النظام الاشتراكى الذى وضع كل شىء فى يد الحكومة ·

صلتها بالدين

وخطيب المشروع الاجتماعى كأى خطيب آخر لا بد له من درس موضوعه درسا عميقا يجعله يدرك غايته وفوائده ويدرك ما يستدعيه نظامه وقيامه من مشاق ، وبهذا يستطيع أن يدفع آراء معارضيه وهذه الخطبة من حيث ما تجلبه من منافع تتصل بالخطبة الدينية ·

ولكى ينجح الخطيب فى موقفه هذا يتبع هذه الخطوات:

١ ـ يقدم لمشروعه بمقدمة مناسبة ·

٢ ـ يعرض مزايا مشروعه وفوائده ، وعليه أن يتوسع فى هذا الجانب ويستقصيه ليرى أن نفعه يعم الفقـراء والأغنياء جميعا ويرفع مستوى مجتمعه ويسد نقصا فيه ، فهذا هو موضوع الخطبة الذى هو أهم أجزائها ·

٣ ـ عليه أن يذكر أمثلة لهـذا المشروع ونظـائر له من مشروعات أخرى كانت رغم ما كلفت من مشقة وجهد ذات نفع عظيم تنسى ثمرته كل ما بذل من مشقات ·

٤ ـ اعدادالعبارات وتنسيق الأسلوبوالاستشهاد بالأحداث والأحاديث وآيات القرآن وأبيات الشعر ، مما يثـير

عواطف السامعين ويهيئهم للاقبال على ما يدعو لـــه الخطيب ، ولكن فى جانب الاستشهاد بالشعر لا يجـوز الاسراف والاكثار عكس الآيات القرآنية والأحاديث ،لان ادخال الموضوع الاجتماعى فى الدين يجعل المشارك فيه متطلعا الى مثوبة الله والى درج نفسه فى سلسلة الصالحين ورجال الاصلاح .

٥ ـ من المفيد جدا أن يستأنس الخطيب بأعمال العظمـاء والمشهورين فى ميدان الاصلاح الاجتماعى وما أنشأوا من مشروعات كانت فى بدايتها صغيرة ثم نمت وصارت ذات نفع عظيم ، وبقيت تحمل ذكراهم وتذكـــر الناس بأياديهم .

موضوع الخطبة الاجتماعية لصيق بالخطبة الدينية ، ومما يجب أن يهتم به الواعظ الاسلامى ، وهو فى جملتـه موضوع انشائى يحتاج الى البحث عن عناصر جيـــدة وترتيبها ترتيبا مناسبا يفضى الى نتائجها ، ومن أمثلة ذلك:

مثال لها

اذا أراد خطيب اجتماعى أن يدعو مستمعيه للتبرع لملجأ أيتام ، فماذا يقول وكيف يواجه موضوعه ؟

طريقة التفكير

يبدأ أولا بالحديث عن الملجأ الذى يريد التحدث عنه ، فيصف مبناه ولون التعليم الذى يقدم فيه ، ويصف حـال الأطفال الصحية ، والأدب الخلقى والسلوكى الذى هم عليه ثم يوازن بينهم وبين الآخرين الذين تجرفهم تيارات الفساد، فتسوء صحتهم وأخلاقهم .. ثم ينتهى من هـذا الى طلب معاونة الملجأ ، وفى حال المعونة لا بد أن يشـعر الخطيب سامعيه بما يعود عليهم من الفوائد العامة والخاصة أيضا كأن يذكرهم بأن هؤلاء الأيتام ربما كانوا أبناء قوم صالحين وربما كان آباؤهم من ميسورى الحال ولكن الزمن أخنى

عليهم ، وكل منا عرضة لهذه الحال ولا يضمن أحد مصير أولاده فليساعد هؤلاء ليحفظ الله أولاده ويرعاهم ، وهذه النقطة الأخيرة يمكن التوسع فيهـا فتـكون أكثر مساسـا بمشاعر السامعين ٠

فى مثل هذه المواقف بوجه عام يوجه الخطيب انتبـاه سامعيه الى أثر الأعمال التى يقوم بها الأهلون ، ولا تعتمد على معونات الحكومة ٠

ان الغربيين يبنون حضارتهم وأعمالهم الهـامة بأيدى الشعوب بينما يعيش الشرقيون عالة على حكوماتهم ، ان الشعب الحى الناضج يسبق حكومته ويقودها ، أما الشعب المتأخر فانه يرهق حكومته بتواكله ، ويشغلها بمـا يطلب منها عن أعمالها الأخرى ٠

لقد تقدمت مصـر فى بعض المواقف ، اذ اعتمدت على جهود الشعب فنجحت نجاحا كبيرا ولكنها ما لبثت أن تركت عملها للحكومة ، كانت جامعة القاهرة أول جامعة أنشئت فى الشرق الأوسط ، وكانت تسمى الجامعة المصرية ، وقد نشأت جامعة أهلية ، لا علاقة للحكومة بها وأدت رسـالة التعليم الجامعى على وجه مشكور ثم سلمت للحكومة ، وقام طلعت حرب بانشاء بنك مصر ، وبفروعه العديدة وشركاته القيمة النافعة ثم سلم كل ذلك للحكومة ، فدل ذلك وأمثاله على فقر عزائمنا وقلوبنا، وهذا لا يحدث فىالبلاد الأوروبية ولقد اثمرت هذه الجهود الشعبية على أى حال ، ولا يليق بنا أن نتراخى أو نتوانى فى أعمالنا النافعة أو نستهين بها فان وراء العمل الصغير نفعا كبيرا ، كانت الجمعية الخيرية الاسلامية جمعية متواضعة ثم أنشأت من المدارس النافعة ذات المناهج الاسلامية ما كان مثالا يحتذى ، ومنها اشتقت

جمعية العروة الوثقى وأقامت عـددا من المدارس وقامت بأعمال ثقافية ودينية نفعها لا يخفى ٠

خطب المحافل

ما هى الخطبة الحفلية ؟

وهى ما يلقى فى حفلات التكريم لبعض الأشخاص ، وقد تكون بسبب انتقال موظف كبير من عمل الى آخر أو من بلد لآخر ، أو بسبب تقاعده ، أو قيامه بعمل خطير أو استقباله قادما من سفر أو وافدا كضيف ، وهكذا ٠٠ ويدخـل فى خطب المحافل تكريم الموتى بتأبينهم عند موتهم أو باحياء ذكراهم ، وفى أدبنا الحديث أمثلة كثيرة من هذا ٠

٠ هذا النوع الخطابى يختلف عن المراثى الشعرية ، لأن قصائد الشعر وطبيعة الشعر تحتمل المبالغة والتجوز ، أما الخطبة فتسقط اذا جنحت الى المبالغة ويسقط الشاعرأيضا اذا أسرف فى مبالغته ٠

ما يعاب فيها

ومن الأساليب التى رثت وبليت أن يقف الخطيب فيقول: وددت لو أن لى بلاغة سحبان أو أنى أوتيت الحكمة وفصل الخطاب لأوفى فلانا ما يستحق من التقدير والثناء ، ولو اننى نظمت الكواكب عقودا وجمعت الورد أكاليل ثناء ، ما أدت قليلا مما يجب ٠

مثل هذا الأسلوب أصبح ممقوتا ، وهو مما يثير اشمئزاز السامعين ، ولا يعود عليهم بفائدة ٠

ما يحمد منها

ولكن من المفيد المقبول أن يمر الخطيب سريعا بصور من حياة المحتفى به ــ حيا أو ميتا ــ لا ليعرض تاريخ حيـاته ولكن ليقف عند أعماله ومواقفه التى تستحق الذكـــرى والتمجيد ، واذا كان الخطباء عديدين فان الخطيب الأول هو الذى يمكن أن يفعل ذلك ، أو يذكر تاريخ حياته بايجاز، ثم لا يكون هناك مساغ لاعادة هذا التاريخ ٠

والخطابة الناجحة فى هذا الموقف تتبع طرقا معينـــة أهمها ما يلى :

أشراطها

١ ـ أن يتخذ الخطيب من عمل خاص للمحتفى به محورا لخطبته فيبين أثر هذا العمل ويدعو الناس الى محاكاته أو اكماله أو ابتداع شىء مثله ، فهو بهذا يكرم مبدأ أو عملا ويحفز السامعين لعمل مثله ، واذا كان للشخص المكرم عدد من الأعمال الجليلة مر بها الخطيب سريعا أو سردها باجمال ثم وقف لدى عمل واحد أو اثنين لتحليلهما وبيان آثارهما ٠

ارجع الى الجزء الثالث من تاريخ الشيخ محمد عبـده وانظر الاتجاهات العديدة التى سلكها من رثوه واقرأ أيضا قصيدة حافظ ابراهيم وقد حدثناك عن هذا من قبل ٠

أمثلة للرثاء

وقف جماعة من الخطباء يرثون المرحوم الشيخ محمود شلتوت فتحدث واحد منهم عن كتابه « الاسلام عقيـــدة وشريعة » ، وشرح منهجه فيه وطريقة عرضه وفهمه الأحكام الفقهية ، وتحدث آخر عن فتاواه وبين ما له فيها من آراء جديدة وكيف تهدى الى أدلتها ، وعرض بعضا منها فقال انه لا يوافقه على ما استدل به ، ولا ما انتهى اليه فيها ٠ وهذا لا يضر أبدا ، فلا يعنى تكريم الشخص حيا أو ميتـا اننا نوافقه على كل رأى له ، والثناء على الشخص فى هذه الحالة أو تكريمه يرجع الى ما بذل من جهد وما كان له من ذكاء وصفات علمية ، وتحليل منهج الشخص الفكرى هو نفسه تكريم وان لم نوافقه عليه ٠

وذكر ثالث تفسيره ، ورابع درسه الفقه المقارن وهكذا ، وكل ذلك حسن وجميل ، ومنه يخرج السامعون بفائدة وتبقى بسببه لمن يكرم ذكرى ٠

ووقف خطيب وعالم كبير يؤبن ملكا عربيا فقال :

« اننى أخالف الذين سبقونى بالحديث عن ٠٠٠ لقـد

أراقوا الدموع الغزيرة وتوهموا ان الموت يخطىء العظماء لا ٠٠ ان الموت نتيجة محتومة لكل حى ، وانما يبكى على الذين يقطعون عمرهم ولا يتركون وراءهم آثارا تخلد ذكراهم يبكى على الذين عاشوا لأنفسهم ولم يقدموا لغيرهم شيئا، يبكى على الذين استفادوا من أوطانهم كثيرا ولم يفيدوها كثيرا ولا قليلا ٠

أما (فلان) فقد ترك آثارا وأفاد الناس وأعطى وطنه أكثر مما أخذ ، ثم أخذ يعدد أعماله النافعة وسياسته الموفقة ٠٠ وانتهى الى الدعوة للاقتداء به ونهب الأعمار قبل ان تفنى فلمثل هذا يعمل العاملون ٠

هذا المنهج بوجه عام أنجح الطرق وأكثرها ملاءمة وتوفيقا ٠

٢ ــ أن يكون لدى للخطيب معلومات خاصة عن المحتفى به ، ودراية قيمة له فيكشفها أو يكشف ما يجوز التحدث عنه منها ، فهذا اذ يرفع قدر المحتفى به ، يوجه الناس الى محاكاته أيضا ، وربما اشتمل الحديث على أحداث لم تكن٠

خطبة تكريم

وقف خطيب يكرم مدرسا منقولا ، فقال :

« ان من الأعمال الهينة ما لا يلتفت اليه الناس ويغيب عن خاطرهم ، وهو اذا التفتوا اليه ذو قدر كبير ٠

لقد عاش (فلان) بيننا ما عاش فى حياة سليمة رقيقة ، لم ينشب بينه وبين أى واحد منا مشادة أو خلاف ، ومرد ذلك أنه يعطى أكثر مما يأخذ ويتنازل عن كثير من حقوقه ولكنه لا يهمل ما عليه من واجبات ، وهذا هو خلق المعلم الذى يرشد الى الأخلاق الكريمة والذى يفيد بعمله كما يفيد بلسانه ، ويجعل من سلوكه قدوة حسنة للاخرين » ٠

كثيرا ما خرجت من درسى وأنا مرهق كليل أتهالك على

مقعدى ملتمسا شيئا من الراحة ، ثم أنظر الى (فلان)بجانبى منهمكا فى تحضير درسه أو تصحيح كراسات أمامه فيبعث فى نفسى نشاطا وحفزا على العمل ، وربما تراخيت عند بدء الدرس لكننى أجده حريصا على أن يدخل فصله فى الوقت المعين فأستحى أن أكون دونه ·· الخ » ·

ترى كانت هذه الصفات حقا أم مبالغة واختلاقا ؟ ·

ان كانت الأولى فقد صادفت الخطبة نجاحا لأنها دعت الى مبادىء قويمة للمعلمين ، وان كانت الثانية فقد أهان الخطيب نفسه أمام رفاقه وأمام المدرس المحتفى به ، لأنه قال شيئا غير الواقع وأشعرهم أنه على استعداد ان يكذب ·

طرق صوغها

٣ ـ قد يجنح الخطيب الى الحديث عن الوظيفة التى شغلها المحتفى به وأنهحقق كثيرا منها أو قام بكذا وينتظر من خلفه أن يحقق ما بقى ·

٤ ـ قد يبدأ الخطيب بالقاء عدد من الأسئلة التمهيدية كأن يسأل : لماذا نحتفى بهذا الشخص ؟ وما هى الأعمال التى جعلته موضع تقدير واجلال ؟ · ثم يبدأ فيعرض أعماله ·

وفى تأبين الموتى الذين بعد زمن موتهم يلجأ الخطباء الى تحليل أعمالهم وتعليل حدوثها والظروف التى لابستها ، وكثيرا ما ينقدون لهم أعمالا وآراء ويخالفونهم فى اتجاهاتهم ولكن هذا لا يناسب فى رثاء ميت يوم موته أو عقب موته بقليل ، فالناس فى هذا يذكرون المزايا ولكن لا يبالغون وسنتحدث بعد عن خطب الرثاء ·

أسلوبها

بقى شىء آخر لا بد منه وهو أسلوب هذه الخطابة انها موقف ألصق بالأدب ، وفى كثير من الأحيان يقع الخطيب فى حرج فلا ينقذه الا أطلاعه الأدبى وثقافته الخاصة ، وهذا التكوين يفيد أيضا عند المفاجأة وعندما يكون الخطيب خالى

الذهن عن الشخص أو لا يجد له ما يستحق أن يكـرم عليه حيا أو ميتا ٠

دخل واعظ قرية أو مجتمعا فوجد الناس يكرمون أحـد النواب البرلمانيين لنجاحه فى الانتخاب وهو ليس لـــديه معلومات وافية عنه ولا كان فى ذهنه أن يخطب ولكنه وجد اسمه يعلن من البوق والمكان يفسح له فوق منصة الخطابة فماذا يفعل أو ماذا فعل ؟

مما يناسب هذا الموقف على سبيل المثال ان يقول :

ان المنصب النيابى ، وتبوأ أى شخص مقعدا فى البرلمان ليس أمرا هينا انه أمر خطير حقا ، لا ترجع خطـورته الى ما يبذل المرشحون من جهد وعرق ومال ٠٠ لا ، ولا ترجع الى انه منصب خطير يعطى صاحبه حق استجواب الوزراء والكبراء ، انه أمر فوق هذا كله ، انه منصب شرف وتكريم أكثر مما هو موقف مادة أيا كان نوع المادة ، يكفى من ينجح فى هذه الانتخابات أنه أحرز الثقة من أبناء دائرته ، يكفى أنهم رأوه وحده دون الآخرين موضع ثقتهم وائتمانهم وأنه الجدير أن يلقوا بين يديه أمانيهم ومستقبلهم ، لقد وثقوا فى عقله وتفكيره ، كما وثقوا فى أمانته وضميره ، وفى جرأته ومثابرته وعطفه عليهم وحبه لهم ٠٠ هذه الثقة الغالية هى نفسهم تكريم وتقدير ٠

وبقدر ما نولى نوابنا من ثقة نبنى عليهم الآمال ، ونتقدم لهم بكل مطالبنا ونحن واثقون مطمئنون ، ليس هذا المنصب تكريما فقط ولكنه أيضا مسئولية وجهاد وكفاح لصـــالح الوطن والأمة جميعا ٠

سيدى النائب المحترم ، اننا من قبلنا نصبناك قائدا لنا واماما ، رفعناك وتواضعنا ، قدمناك وتراجعنا ، بقى أن

نطلب منك ما أملنا ، وأعتقد أننا وفقنا فيما اخترنا واهدينا الى الحق فى اختيارنا ، ونسأل الله أن يوفقك فى النهوض بما يلقى عليك من أعباء ٠

بهذا يخلص الخطيب نفسه من مسئولية الثناء على ما لم يعلم وقد تحدث عن المنصب أكثر مما تحدث عن شاغله وكلامه مقبول وخطبته ناجحة ٠

ووفد واعظ آخر ـ أو خطيب ما ـ على بلد أول ما وفد فوجد سرادق عزاء كبير والناس يتناوبون الخطابة وهو لا يعرف عن المتوفى شيئا ، ولكن طلب منه أن يخطب ، فماذا يقول : ٠٠٠ يمكن أن يقول :

مثال آخر

ان الموت لغز سيظل الناس فى حيرة منه ، ما هذا الروح الذى ينسل من جسم الانسان فاذا هو جثة هامدة لا تفكر ولا تتحرك ولا تعمل شيئا يقف المفكر أو الفيلسوف أو المخترع فيكشف من خبايا الكون وأسرار النفس وغوامض القوى ما يحير العقول ويظل كل يوم يأتى بجديد ، فاذا دهمه الموت وفارقت روحه جسده ذهب كل هذا التفكير وانمحت كل تلك القوى ، وما لم نسرع الى مواراة هذا الجسد تحت التراب أسرع اليه البلى وهدده الفناء ، كل هذا بسبب فراقه الروح وهى أمر خفى لا نعرف عنه شيئا : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا »

ثم ماذا يحدث لو أن الناس لا يموتون ترى هل تتسع الأرض لكل هذه الأجيال من عهد آدم الى اليوم ؟ ان الموت سنة طبيعية والموتى يفسحون لمن يأتى بعدهم من الأجيال الوافدة التى لا ينقطع سبلها ٠

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها منعنا بها من جيئة وذهوبا

ونحن ننظر الى مقابر الموتى من حولنا فاذا تزاحم مساكن الاحياء ، وهم موتانا الذين لم يمض عليهم الا زمن محدود

فأين ترى قبور آبائنا من آدم الى اليوم ؟ ليخيل الى أنــه لا توجد ذرة من تراب الأرض الا وهى من رفات أجـدادنا وأجسام آبائنا السابقين ·

صـاح هذى قبـورنا تمـلأ الرحــ ـب ، فاين القبور من عهد عـاد ؟

وقد نستحيى أن نطأ الأرض بأقدامنا ، ونحن نشعر أنها من أجسام الذين سبقونا ، ولكننا لا نستطيع ان نطير فى الجو فلا أقل من أن نرفق بهؤلاء الأجداد حين نمشى على رفاتهم :

خفف الوطء ما اظـــن اديم الـ ارض الا من هــــذه الأجسـاد
طر ان اسطعت فى الهواء رويـدا لا اختيـالا على رفــات العبـاد

وقد نرثى للآنية الفخارية التى نستعملها نأكل فيهاونشرب وهى ليست الا عجينة من أجسامنا ، وترى فى أى بلد عجن هذا التراب ومن كان صاحبه ؟

لعل اناء منك يصـــنع مـــرة فياكل فيـه من يشــاء ويشـرب
وينقل من ارض لأخـرى وما درى فواها له بعـد البلى يتغــــرب

هذه حياتنا ، ما أرخصها ، ما أقصرها ، انها لا تغلو ولا تطول الا بالأعمال فأين هم الذين يدركون رخص الحياة وقسوتها وهوانها ؟

وتخلص هذا أيضا من موقفه ، والفضل فى كلتا الحالتين للادب سواء فى ذلك سعة القراءة أو سعة المحفوظات أو سعة التفكير ·

وأخيرا اذا فوجئت بموقف خطابى من مواقف التكريم فحذار أن تتردى فى هوة المبالغة المقيتة ، وأن تضفى على

الممدوح كل ما تعرف من صفات المدح والثناء ، فهذا يسقطك خطيبا ويسئم الناس مما تقول • تذكر دائما أن خطبة المدح والرثاء مصدر ثقافة وتعليم •

الالتفات الى الماضى

ومن المفيد للخطيب فى هذا الموقف أن يلتفت الى أحداث التاريخ الماضية ففى خطب التكريم اذكر ما حيا به رسول الله ﷺ أصحابه فى مواقفهم المختلفة وفى حفلات الرثاء تذكر وفاة ابراهيم وما اعترى والده من حزن وكآبة وما تحلى به من صبر جميل ، وفى موقف الزفاف اذكر زفاف فاطمة بعلى ، ولا تقف الأحداث عند رسول الله ﷺ فقط ، اذكر ما فعل أبو جعفر حين فقد ابنه ، وما فعل المأمون عندما فقد أخاه يعقوب ، اذكر زفاف بوران وقطر الندى ومقتل على وعمر وعثمان • وهكذا نجد فى أحداث التاريخ مددا مشوقا ومفيدا •

مدد من الشعر

وكان الأقدمون من الخطباء والشعراء يفعلون ذلك فارجع الى القصيدة المشهورة التى قالها أبو العلاء المعرى فى رثاء فقيه حنفى تجد أنه لم يخصص للميت منها الا أبياتا معدودة بينما صرفها كلها لرثاء الانسانية كلها ، وهذا سر خلود هذه القصيدة وولع الناس بها ، وقد اقتطفنا منها ونؤثر أن نقدم مهنا أكثر لما فيها من المعانى العميقة المثيرة وفيها وفيما نذكره بعدها مدد أدبى للخطيب •

قال أبو العلاء المعرى :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد (١)
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد (٢)

---

(١) لا فائدة وراء بكاء المحزون . أو بهجة الفرح السعيد •

(٢) المياد : انتهز •

وشبيه صوت البشير اذ قيـ   س بصوت النعى فى كل واد (١)

ان حزنا فى ساعة المو   ت اضعاف سرور فى ساعة الميلاد

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ   ب فاين القبور من عهد عاد (٢)

خفف الوطء ما أظن اديم الـ   ارض الا من هذه الاجساد (٣)

وقبيح بنا وان قدم العهـ   د هوان الآباء والأجداد

طر ان اسطعت فى الهواء رويدا   لا اختيالا على رفات العباد

رب لحد قد صار لحدا مرارا   ضاحك من تزاحم الأضداد (٤)

ودفين على بقايا دفين   فى قديم العصور والآباد

تعب كلها الحياة فما اعـ   جب الا من راغب فى ازدياد

وللمعرى قصيدة أخرى مشهورة أيضا فى الرثاء أولها :

احسن بالواجد من وجده   صبر يعيد النار فى زنده (٥)

ومن ابى فى الرزء غير الأسى   كان بكاه منتهى جهده (٦)

ومنها :

يا دهر يا منجز ايعاده   ومخلف المأمول من وعده (٧)

اى جديد لك لم تبله   واى اقرانك لم ترده (٨)

---

(١) النعى : الناعى ٠

(٢) الرحب بضم الراء جمع الرحب بفتحها ، وسكنت الحاء تحقيقا وأصلها الضم ٠

(٣) أديم الارض وجهها يريد التراب الذى نمشى عليه ٠

(٤) يجتمع فى اللحد الواحد صالح وطالح وطفل وعجوز ، ورجل وأنثى، وكأن القبر يعجب لهذا الحشد العجيب ٠

(٥) الواجد المحزون والزند الذى يضرب به الحجر ليقدح النار يقول انه الافضل للواجد المحزون ان يتصبر فالصبر يعيد اليه قوته ونشاطه ٠

(٦) من أصر على الحزن فانه لا يعمل شيئا غير البكاء ٠

(٧) الايعاد التهديد والوعيد ، والوعد يكون فى الخير يقول ان الزمن يمضى وعيده ويخلف وعده ٠

(٨) كل جديد يبلى مع الزمن ، والاقران جمع قرن وهو الند والخصم المحارب وأرداه : أهلكه وقتله . يريد أنه جبار قوى لا يغلب ٠

تستأسر العقبان فى جـــوه ... وتنزل الأعصم من فنده (١)
أرى ذوى الفضل واضدادهم ... يجمعهم سيلك فى مده (٢)
تجربة الدنيا وأفعالها ... حثت أخا الزهد على زهده
والقلب من اهوائه عابد ... ما يعبد الكافر من بده (٣)
لو عرف الانسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده
امس الذى مر على قربه ... يعجز أهل الارض عن رده
اضحى الذى اجل فى سنه ... مثل الذى عوجل فى مهده (٤)
ولا يبالى الميت فى قبره ... بذمه شيع أم حمده
والواحد المفرد فى حتفه ... كالحاشد الاكثر من حشده
وحالة الباكى لآبائه ... كحالة الباكى على ولده (٥)
ما رغبة الحى بابنائه ... عما جنى الموت على جده (٦)
تدعو بطول العمر افواهنا ... لمن تناهى القلب فى وده
يسر ان مد بقاء له ... وكل ما يكره فى مده (٧)
افضل ما فى النفس يغتالها ... فنستعيذ الله من جنده (٨)
كم صائن عن قبلة خده ... سلطت الارض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده ... وكان يشكو الضعف من عقده
ورب ظمآن الى مورد ... والموت لو يعلم فى ورده

وجرى المتنبى فى هذا المنطلق حين رثى فقد اضطرته

---

(١) تستأسر : تتخذ أسيرا ، والعقبان جمع عقاب كغراب ، والاعصم :الوعل يسكن أعالى الجبال فنده : القطعة من الجبل .
(٢) الدهر لا يبقى على شريف أو خسيس ، فهم يستوون أمام الموت .
(٣) اليد الصنم . (٤) صار العمر كمن مات صغيرا .
(٥) اولاده .
(٦) لماذا يرغب بأبنائه عن الموت الذى أتى على أجداده .
(٧) يتمنى طول عمره ، وطول العمر يأتيه بما يكره .
(٨) افضل ما فيها طول العمر وهو موت .

مجاملته لسيف الدولة أن يرثى أخته ثم أخته ثم عمته ثم طفلا له ، ثم غلاما له ٠٠ ولم يكن بالمتنبى حـزن على أى من هؤلاء ولا هم من ذوى الشهرة ٠ فكان مضطرا أن يلجأ الى الموضوع لا الى الميت ، وكان موفقا فيما فعل ، فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة :

ولذيذ الحيـاة أنفس في النفس   واشهى من أن يمـل واحـلى

واذا الشيخ قال أف فما مل حياة   وانمـا الضـعف مـلا

آلة العيش صـحة وشـباب   فاذا وليـا عن المـرء ولى

ابدا تسـترد ما تهب الدنيـا   فيا ليت جـودها كان بخـلا

وهى معشـوقة على الغدر لا تحـ   ـفظ عهـدا ولا تتمم وصـلا

شيم الغانيـات فيهـا فمـا أدرى   اذا أنث اسـمها الناس أم لا (١)

وفى موقف آخـر يتجه هـذا الاتجاه الفلسفى فيقول :

نحن بنـو الموتى فمـا بالنـا   نعـاف مـا لا بـد من شربـه

تبخـل ايدينـا بأرواحنـا   على زمـان هـن من كسـبه

فهذه الأنفاس من جـوه   وهـذه الأجسـاد من تربـه

يمـوت راعى الضـان فى جهـله   ميتـة جالينوس فى طبـه

وانظر قصائده الأخرى التى أشرنا اليها ، وانك واجد فى الأدب العربى قديمه وحديثه مثلا كثيرة من هذا وفيها ما يلهمك ويمدك بالمعانى الغزيرة اذا فوجئت بموقف يطلب منك أن تتحدث فيه وقد أطلنا فى هذه المقتبسات الشعرية لأن بها معانى يحسن بالخطيب أن يحاكيها وأن يولد منها٠

ولا يقف هذا المدد عند مواقف الرثاء وحدها بل تجد فيه مددا غزيرا للمواقف المختلفة تكريما ورثاء وغيرهما٠ وقد قدمنا لك نماذج شعرية لسهولة حفظها وارجع الى

---

(١) الدنيا تغدر كما تغدر النساء وربما أنث اسمها لهذا السبب ٠

ما جمعه صاحب العقد الفريد من خطب الخلفاء وغير الخلفاء ، وادرس ما تستطيع درسه منها لترى كيف اختار هؤلاء الخطباء معانيهم وألفاظهم وكيف واجهوا المواقف الحرجة واستطاعوا النفاذ من مضايقها ٠

وأنت على أى حال كخطيب دينى لا غنى لك عن قراءة ودرس التراث الخطابى الهائل ، ولا غنى لك عن اقتناء كتب مثل : جمهرة خطب العرب ، العقد الفريد ، والبيان والتبين ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد فضلا عن نهج البلاغة نفسه ٠

خطب الرثاء

مواقف مختلفة للرثاء

خطب الرثاء تدخل في خطب المحافل ٠ ولكنا نفردها بحديث موجز نبين فيه الفرق بين التأبين وخطب التعزية٠ والرثاء نوع من التأبين قدمنا أمثلة له ، والفرق بين النوعين أن التأبين يتناول الحديث عن الميت ، والتعزية فيه توجه الى آله وذويه ٠

والترتيب العام لخطبة التأبين أن يذكر المتكلم الميت فيصف صفاته الحميدة ومناقبه بين الناس وينتقل منها الى ما خسره مجتمعه أو العالم كله بفقده وطلب المغفرة له والرحمة ٠

ويفرق بين خطبة التأبين التى تلقى يوم وفاة الميت أو أثناء أيام العزاء فيه وبين الأخرى التى تلقى يوم الأربعين من وفاته كما هى العادة الجارية ، ثم الخطب التى تلقى فى مجتمعات العزاء ، وعقب وفاة الشخص لا يجوز أن يوجه أى نقد له أو ذكر أى عيب من عيوبه ٠ وتكون هذه الخطب عادة مختصرة لأن الحديث الذى يقتصر على ذكر المحاسن اذا طال كان مدعاة للمبالغة والتزيد ، وذلك

مما يزرى بالخطيب نفسه ، وقد ذكرنا لك أن المخلص من هذا هو صرف الحديث الى الموت نفسه وذكر انه يأتى على كل شىء لا يفرق بين شخص وآخر أو أنه يختار كـــرام الناس فيعجل بهم ٠

وهذا النوع قديم فى الجاهلية وفى الاسلام ، ولكنه فى الشعر أكثر وأغلب ، وهناك قصائد خاصــة اشتهرت فى هذا النوع فاذا رجع الخطيب اليها استفاد من معانيهـــا واستعملها نثرا فترفع قيمة خطبته ٠ وقد ذكروا أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى مات له ولد فعاد من دفنه حزينا فطلب من ذويه من يحفظ قصيدة أبى ذؤيب الهزلى فى رثاء أبنائه فلما لم يجد من يحفظهـا قال : لمصيبتى فى آلى اذ ليس بينهم من يحفظ هذه القصيدة أشـد على من مصيبتى فى ولدى (١) ٠

من أمثلتها

وكذلك مرثية لبيد بن ربيعة لأخيه أربد ٠ وفى أمــالى القالى أمثلة كثيرة من هذا ، ومن خطب العــزاء الشهيرة ما عزى به وفود العرب سلامة ذا فائش وهو من أجـــود العرب وذوى المكانة بينهم ، وكان له ابن يرجو أن يكــون خليفته فى سيادة قومه ، كان الولد بادى النجابة واللسن تدل مخايله على أنه أهل لما يرشحه له أبوه ولكنه صــادف أن ركب جوادا أرنا (٢) فوقصه (٣) ونال الجزع عليه من أبيه حتى امتنع عن الطعام وعن مقابلة الناس وقدمت وفود العرب ليعزوه فلم يخرج حتى لامه بعض أصدقائه لافراطه

---

(١) انظر هذه القصيدة فى ديوان الهذليين أول قصيدة به وفى المفضليات وأولها .

أمن المنون وريبها تتوجع　　　والدهر ليس بمعتب من يجزع

(٢) جموحا ٠

(٣) رقص عنقه : كسره ٠

فى جزعه فخرج اليهم وأخذ خطيب كل وفد يلقى بما لديه مما يناسب هذا الموقف ، وأورد صاحب الأمالى خطبتين أولاهما للملبب بن عوف الجعفى والثـــانية لجعادة ابن الأفلج بن الحارث وهو جد الجراح بن عبـــد الله الحكمى صاحب خراسان ٠ وهاتان الخطبتان (١) من خطب العزاء وهمـــا :

١ ـ خطبة الملبب بن عـوف

أيها الملك ان الدنيا تجود لتسلب وتعطى لتأخذ وتجمـع لتشتت وتحلى لتمر (٢) وتزرع الأحزان فى القـلوب بما نفجأ به من استرداد الموهوب ٠ وكل مصيبة تخطتك جلل(٣) مالم تدن الأجل وتقطع الأمل ، وان حادثا ألم بك فاستبد(٤) بأقلك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك وقد تنـــاهت اليك أنباء من رزى فصبر وأصـــيب فاغتفـر (٥) اذ كان شوى (٦) فيما يرتقب ويحذر ، فاستشعر اليأس مما فات اذا كان ارتجاعه ممتعا ٠ ومرامه مستصعبا ٠ فلشىء (٧) ما ضربت الأسى ، وفزع أولو الألباب الى حسن العزاء ٠

ففى هذه الخطبة الموجزة أربعة عناصر بارزة :

١ ـ ان طبيعة الدنيا أن تسترد ما جادت به على النـــاس وبهذا تكون عاقبة الفرح حــزنا ٠

---

(١) أنظر الامالى ج ٢/٩٩ وما بعدها ٠
(٢) تجعل الشىء حلوا ليصير مرا ٠
(٣) الجلل العظيم والحقير ـ والمراد بها هنا الهين الحقير ٠
(٤) استخلص لنفسه ٠
(٥) تناسى ٠
(٦) الشوى : القليل الهين ٠
(٧) لسبب من الاسباب ٠

٢ ـ ان حياته هو وسلامته كنز يغنى عن كل ما ذهب ٠

٣ ـ انه يعلم بحال كثيرين أصيبوا فصبروا وما يتوقع من حدثان الدهر أكبر مما يحدث فعلا ٠

٤ ـ اشعار النفس بأن ما فات لن يرجع مما يسبب الصبر والسلوان ٠

واذن الى رجعت ما قدمنـــــاه من الأمثـــــلة والى محفوظاتك الأدبية تجد أن الشعراء والخطباء يتداولون هذه المعانى ٠ وفى شعر المتنبى وأبى العلاء الذى سبق معان وأفكار من هذه الخطبة وفى العنصر الثانى يقول أحـــد الشعراء :

لعمـرك ما الرزية فقـــد مـــال ولا فرس يمـــوت ولا بعـــير

ولكن الرزيـة فقـــد حــــر يمـــوت بموتـه خلق كثـــير

وهو عكس المعنى الذى جاء به الملبب ٠

ويقــول آخــر :

لا تجزعى ان منفســا اهلكتـه فاذا هلكت فعند ذلك فاجـــزعى

ويشبهون الولد دائما برأس المال الذى ينتج عنـــه العوض عما فات ٠

٢ ـ خطبـة جعادة بن أفلح

« ٠٠٠ أيهـا الملك :

لا تشعر قلبك الجزع على ما فات فيغفل ذهنـــك عن الاستعداد لما يأتى ٠ وناضل (١) عوارض (٢) الحـــزن

---

(١) دافع وحارب ٠ (٢) طوارىء ٠

بالأنفة عن مضاهاة (١) أفعال أهل وهى (٢) العقول · فان العزاء لحزماء (٣) الرجال والجزع لربات الحجال · ولو كان الجزع يرد فائتا ، أو يحيى تالفا لكان فعلا دنيئا · فكيف وهو مجانب لأخلاق ذوى الألباب ، فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت عليه الأرذلون · وعن قدرك عما يركبه المخسوسون · وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام ضلة (٤) كأحلام النيام » ·

دعا جعادة الى مكافحة الحزن باتجاه أن يترفع المحزون عن الظهور بمظهر الواهن الضعيف ، لأن هذا المظهر يناسب النساء لما فيهن من ضعف وقلة عزيمة ، ومظهر الجزع اذا فرض أنه يفيد لا يناسب كبار الرجال فكيف وهو لا فائدة وراءه · لهذا لا يليق برجل عظيم مثل سلامة ذى فائش أن يبدو فى أخلاق النساء ·

وواضح أن الخطبة مدروسة أعدت على تمهل وبصيرة وقد استطاع الخطيب أن ينفذ الى قلب الرجل لأنه واجهه بما يناسب مكانته وأخلاقه فهو رجل شجاع كريم ذو شهامة وكبرياء وترباً نفسه عن صفات الأرذلين الأخساء ·

٣ ــ تعزية أكثم بن صيفى

ومن التعزيات المشهورة أيضا تعزية أكثم بن صيفى لعمرو بن هند عن أخيه وفيها : « ·· ان أهل هذه الدار سفر (٥) لا يحلون عقد الرحال الا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك وارتحل عنك ما ليس براجع اليك وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك ·

---

(١) مشاكلة ومشابهة · (٢) صعف ·
(٣) ذوى الحزم ــ يقال حازم وحزيم ، وحزم وحزماء ·
(٤) ضلال وبعد عن الحق · (٥) مسافرون كركب ·

واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام ، فأمس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمةوصديق أتاك ولم تأته طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته ، وغد لا تدرى من أهله وسيتأتيك ان وجدك فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء الفروع بعد أصولها واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلق منها وخير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله

وقد تكون هذه الخطبة مصنوعة نسبت لأكثم · ولكن الذى يعنينا هو الناحية الفنية ، وهى تجرى على نسق الخطب السابقة من التهوين من شأن الدنيا والتذكير بأن الناس عنها راحلون ، وبعض عباراتها مذكور فى خطب أخرى ·

وقد يجيب المعزى بخطبة أيضا أو يكتفى بجملة أو بعض جمل لا تصل أن تكون خطبة ·

٤ ـ خطبة هند بنت المهلب

ومن الخطب التى أجاب بها من عزوا فى أشخاص فقدوهم · هند بنت المهلب ابن أبى صفرة لما قتل أخوها المفضل بن المهلب · دخل عليها والناس حولها ثابت قطنة (١) وكان من خلصاء أخيها يزيد فعزاها بقصيدة رصينة فقالت :

« اجلس يا ثابت ! فقد قضيت الحق وما من المنية من

(١) ثابت قطنة شاعر فارس من شعراء الدولة الاموية وخطبائها كان فى صحبة يزيد بن المهلب وجليسه ، وكان يوليه بعض أعمال الثغور فيحمد كفايته وشجاعته وسمى ثابت قطنة لان سهما أصاب عينه فى حرب الترك نذهب بها فكان يجعل عليها قطنة تسمى بها ، وله أشعار وخطب بليغة ، أنظر الاغانى ٢٦٣/١٤ ط دار الكتب ·

بدوكم من منية ميت أشرف من حياة حى ، وليست المصيبة فى كل قتل من استشهد ذابا عن دينه مطيعا لربه ، وانما المصيبة فيمن قلت نصرته وخمل ذكره بعد موته وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا فما كان مقامه فى طاعته خاملا»

فيقال انه ما عزى يومئذ بأحسن من كلامها ٠

ولما مات شبيب بن شيبة جاء صالح المدى فى بعض من جاءوا للتعزية فقال :

« رحمة الله على أديب الملوك وجليس الفقـــراء وأخى المساكين (٢) فجمع له فى هذه الجمل الثلاث أجمل ما يوسم به من الصفات ٠

أما فى خطب التأبين التى تلقى عقب دفن الميت فقد قلنا انه يقتصر فيها على ذكر منافيه فاذا كانت حفلة ذكـــرى لكبير من الكبراء أو شاعر أو زعيم ٠ كان ثم مجال التحليل للميت وبيان ما أثره وما يؤخذ عليه ، وقد سبقت أمثلة لذلك وقد تكون هذه الخطبة من أحد أولاد الميت أو ذويه ٠ فتبدو فيها عاطفة الحزن عليه والابار له ، وفى صدر الاســلام وعصر الدولة الأموية لم يكن الخطباء يبالغون أو يظهرون كثيرا من التفجع على الميت وتباريح الحـزن به لكن ذلك ظهر فى العصر العباسى وأشتد وكثر فى العصور الأولى وهذا هو الأمر السائغ الذى يجرى عليه المثقفون والفارق بين الحالتين هو الأسلوب فهو هناك رصين قوى متساوى الجمل والعبارات بينما هو فى هذا العصر من الكـــلام الجارى الذى لا تكلف فيه ٠

وينسب للسيدة عائشة أم المؤمنين خطبة أبنت فيهـــا

---

(٢) البيان والتبين ١١٣/١ ٠

والدها أبا بكر رضى الله تعالى عنه ، ويقال انها وقفت على قبره بعد دفنه وهو قد دفن فى بيتها ، ولكن لا تظن أن أم المؤمنين ألقتها بين جميع المسلمين الذين دفنوا أباها ، وربما كان ذلك بين النساء وفى هذه الخطبة :

« ٠٠ نصر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فقد كنت للدنيا مذلا بادبارك عنها ، وللآخرة معزا باقبالك عليها ، ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأكبر الأحداث بعده فقدك ، ان كتاب الله ليعدنا بحسن الصبر عنك حسن العوض منك وأنا متنجزة من الله وعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار بك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على قضاء الله فيك » ٠

وأبنه على بن أبى طالب اذ وقف ببابه يوم وفاته وقال :

« رحمك الله أبا بكر ٠٠ كنت والله أول القوم اسلاما ، وأخلصهم ايمانا وأشدهم يقينا وأعظمهم غنى وأحفظهمعلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وسمتا ٠

فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا ٠ صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا وسماك الله فى كتابه صديقا فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به » ٠ كنت والله للاسلام حصنا وللكافرين ناكبا ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك ٠٠ كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضعيفا فى بدنك قويا فى دينك ، متواضعا فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين ٠٠ » ٠

ورثى الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ولده فقال :

« رحمك الله يا بنى ، فقد كنت برا بأبيك · والله ما زلت منذ وهبك الله لى بك مسرورا ، ولا والله ما كنت أشـــد سرورا بك ، ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله اليه ! · فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عمله ، وتجاوز عن سيئاتك ورحم الله كل شـاهد يشهد لك بخير » ·

ومات ابن الحجاج محمد وأخوه محمد باليمن فوافاه نعى ابنه صباح اليوم ونعى أخيه مساءه ، وقد فرح أهل العراق وقالوا : هيض جناحه ، فخرج الى الناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ·· أيها الناس محمدان فى يوم واحد : أما والله ما كنت أحب أنهما معى ، فى الحياة الدنيا ، لما أرجو لهما من ثواب الآخرة ، وأيم الله ليوشكن الباقى منى ومنكم أن يموت وأن تدالا الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنـــا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم تكون كما قال الله تعالى : « ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون » ·

ومثل هذا رثا عبد الله بن الزبير أخـــاه مصعبا ورثا الحسين بن على وأخوه محمد أخاهما الحسن ، وأمثـال هذه كثيرة ·· ونجد هذه الخطب كلها تدور فى فلك واحد، وتعمر بمعان مستمدة ومتقاربة · ويحسن بدارس الخطابة وممارسيها أن يرجع الى الأمثلة الأخرى فى مراجعها ·

الخطبة الدينية

الخطبة الدينية هى التى تعتمد على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه ، فهى تشمل الخطبة المنبرية التى تلقى فى الجمع والأعياد ويوم الحج الأكبر وعند صلاة الاستسقاء ·· تلك الأمور التى بين الدين أن لها خطبة ، كما تشمل المواعظ والخطب التى تلقى فى المجتمعات الدينية أيا كانت ففى الجمعيات الدينية وسرادقات العزاء ومجالس الصلح ·· وما اليها تلقى خطب تستند فى معانيها وأغراضها الى الدين ، ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف ، فهذه كلها خطب دينية ، وأهمها جميعا هى خطبة الجمعة لتكررها ولأنها فرض لا تصلح الصلاة الا بها ·

ما هى

والخطبة الدينية أشق أنواع الخطب جميعا فاذا استهان بها الخطيب وجعلها أمرا تقليديا هانت وسقطت وأصبحت عديمة الفائدة نهائيا ·

مشقتها

ولا تزدهر الخطبة الدينية وتثمر الا فى عصور الحرية شأنها فى ذلك شأن الصحافة والخطب الأخرى ، فمهمة الخطيب الدينى تتوقف على جانبين بيان حكم الشرع فى أمر من الأمور ، هل هو جائز أو ممنوع ، ثم تطبيق هذا الأمر على حياة الناس وأوضاع المجتمع الذى يعيش فيه، وكلا الجانبين كثيرا ما يكون مضادا لما يريد الحاكم فيحجم الخطيب عن شرحه أو طلب تطبيقه ، وهذا سبب تأخر الخطابة فى عصور الاحتلال الأجنبى والاضطهاد ·

ومجال الخطبة الاسلامية أوسع من مجال الخطبة فى الديانات الأخرى، لأن الاسلام دين شامل لكل جوانب الحياة

مجالها

وكل عمل ضار ينهى عنه الاسلام ويحذر من الوقوع فيه ، وهذا مما وسع موضوعات الخطبة الاسلامية ٠ وفى البلاد الأوروبية يتمتع الخطيب الدينى بحرية واسعة جدا ، ولكن الكنائس مع عدم كثرتها كثرة فاشية قلما تمتلىء مقاعدها أو تزدحم بروادها ، وفى لندن يزدحم الناس حول الخطباء فى الركن المخصص لهم فى حديقة « هايد بارك » ولكن لا يظفر القسيس الا بعدد قليل جدا من المستمعين ، ويرجع ذلك الى أن خطابتهم لا تعدو أن تكون أحاديث عن حياة المسيح مأخوذة من الأناجيل ، أو عرض قراءات من أعمال الرسل أو العهد القديم ، وكل ذلك مما هو معروف وسمع مرارا ، فهو لذلك لا يهز مشاعر السامعين ، ورجل الدين ـ مع هذا ـ فى كل البلاد الأوروبية يظفر باجلال واحترام لا يظفر به سواه ، والخطيب الاسلامى الموفق فى بلادنا الشرقية يظفر بمثل هذا التوقير وأكثر ٠ كل ذلك لأنه لما فطرت عليه النفوس من حب الدين واللجوء الى الله تعالى فى الشدائد، ولا يخلو انسان من شدائد ، والفطرة الانسانية تتجه الى الخير وتحبه ونجل الحق وتكبره (١) حتى مرتكبى الذنوب والآثام يجلون أهل الخير ويقدرونهم ، ويدركون أنهم أقل رتبة من الأطهار سبب تلوثهم بالمعصية ٠

ولا يجولن بخاطرك أن قراءة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شرح آية قرآنية أو ذكر حادث تاريخى ذى مغزى يمر على سامعيه من غير أن يترك فى نفوسهم أثرا ما ، ولكن هذا الأثر يختلف بين شخص وآخر ٠

نبالة مقصدها

والخطابة الدينية دائما ذات مغزى شريف وأغراض سامية نبيلة ، لأنها دائما تلفت الذهن الى الجزاء الأخروى

---

(١) هناك خلافات وجدل واسع بين الفلاسفة وعلماء الاخلاق حول الفطرة الانسانية ـ فارجع اليه ان شئت ـ ولكن الرأى السائد هو أن الفطرة الانسانية خيرة طاهرة والشر والدنس يأتيان من البيئة وسوء التربية ٠

وتحذر من الحساب على الأعمال ، وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى ، فهى بهذا ترفع الانسان عن الأغراض المادية وتتسامى به الى المعنويات · والخطبة السياسية تدور حول أعمال مادية بحتة من انشاء مشروعات مثمرة أو تنمية الزراعة وتنشيط التجارة وما الى ذلك ، والخطبة القضائية تدور حول تبرئة شخص أو عقوبته ، وقل مثل ذلك فى الخطب الأخرى ، فهى جميعا تدور حول أمور دنيوية ، أما الخطبة الدينية فتشمل ذلك كله ، ولكنها تربطه بجزاء أخروى من الله تعالى وهذا ما عبر عنه الشراح بقولهم : الخطبة الدينية تتجه بالانسان الى السماء حين تربطه الخطب الأخرى الى الأرض ، وتسمو به الى المعنويات حين تهبط به الخطب الأخرى الى الماديات ، والغرض بين الاتجاهين بعيد وواسع جدا ·

ضعفها

ومع نبل الخطبة الدينية وأهميتها نجد أكثر الخطباء الدينيين لا يدركون النجاح المنشود ، ولا تترك خطبهم فى نفوس السامعين أثرا عميقا ، ومستمعو الخطيب الدينى يأتون اليه تلقائيا لأنهم مجبورون على أداء الصلاة طاعة لله تعالى · ولكن لضعف الخطبة وقلة الاستفادة منها تجد معظم المصلين لا يحضرون الى المسجد الا بعد بداية الخطبة والخطيب ـ وليس المصلون ـ هو المسئول عن هذا ، ولذلك تجد مساجد معينة يهرع اليها السامعون فى وقت مبكر ومن أماكن بعيدة ثم لا يسأمون سماع الخطبة حتى ولو طالت ·

أسباب ضعف الخطبة الدينية

نجمل أسباب ضعف الخطبة المنبرية فى هذه الأسباب :

بعد الخطبة عن الحياة

١ ـ بعد الخطبة عن حياة الناس وواقعهم ، فخطيب المسجد يدور فى محيط ضيق هو الحديث عن الجنة والنار

وقد يحدث الناس عن أشياء بعيدة جدا عن حياتهم ولا يتوقع أن يواجهوها ٠

سمعت مرة خطيبا فى قرية ريفية يتحدث عن مضـــار الخمور وعما ينشأ عنها من أمراض وكيف تدرج الاسلام فى تحريمها ، هذا وسكان القرية لا خمور لديهم ولا يجدون أثمان طعامهم ٠ وكان أولى لو نهى عن التدخين وشـــرح أضراره ، وخطيب آخر فى احدى قرى الصعيد اختار لحديث الجمعة أخطار الرحلات الى البلاد الأوروبية وما ينزلق فيه زوارها من فساد وأعمال لا يقرها الاســـلام ، وليس بين مستمعيه من يرحل الى « بندر » المحافظة ، ومن حضر منهم مرة الى القاهرة يعتبر نفسه رحالة واسع التجول ، والخطبة بهذه الطريقة مضيعة للوقت بغير فائدة ، ولا يجبر الناس على سماعها الا الواجب الدينى ٠

وسكان الريف تشيع بينهم عادات سيئة جدا ، ولقـلة ثقافتهم تفشو بينهم الأحقاد ، وكثيرا ما يسعى الواحد منهم لافساد زراعة جاره حتى لا يسبقه فى ميدانها ، وقد يقتل ماشيته أو يساعد على سرقتها ، وقد يظلمه فى نصيبه من ماء الرى ، وكل ذلك يصلح أن يكون مجالا لخطبة الجمعة هناك ، أو من الناحية الايجابية يجد الخطيب أمامه الحث على الزراعة واجادتها والارشاد عن طرقها ، والدعوة الى الاخلاص فى العمل واجادة العمل الزراعى ســـواء كان الزارع أجيرا أو يزرع فى أرضه ٠

وفى المدن يستطيع الخطيب أن يتابع الأحداث العامـة ويبين رأى الدين فيها فيربط مستمعيه بحاضرهم وواقعهم ولكن لا يجوز أن يسرف فى ذلك اسرافا يجعل الخطبـــة سياسية ، فهذا فى الواقع هروب من الخطبة الدينية ، وانما وظيفة الخطيب الدينى أن يكيف الأحداث تكييفا دينيا ، وأن

يوازن بينها وبين ما يشابهها من أحداث التاريخ الاسلامى وخصوصا ماكان فى حياةرسول الله (صلى الله عليهوسلم)

تعددأغراض الخطبة

٢ ــ تتعدد أغراض الخطبة ، وهذا شائع وفاش فى أكثر المساجد تجد الخطيب يتحدث عن صلة الرحم وبر الوالدين والرفق بالضعاف ومساعدة الفقراء وحسن تربية الأطفال وهكذا تكظ الخطبة بعديد من الأغراض وقليل من البحث والتحليل ، ومثل هذه الخطبة تذهب من أذهان السامعين فور مغادرتهم المسجد ، وربما شغل السامعين تنقل الخطيب من فكرة الى أخرى لكنهم لا يحصلون على فائدة ثقافية ، ولا تستقر فى ضمائرهم عظة تهدى الى الخير وتحول دون أعوجاج السلوك ، بعبارة أخرى ان الفائدة المنشودة من الخطبة قد ضاعت هباء ٠

تكرار المعانى

٣ ــ تكرار المعانى والشواهد ، فالخطيب يذكر معانى واحدة معادة يذكرها فى كل خطبة ، وأكثرها يدور حول موضوعات معروفة للكثيرين ، وهذا التكرار يذهب بأثر الآيات والأحاديث والنصائح ، فلا تمس قلوب السامعين ولا تحرك مشاعرهم ، ولو أن الخطيب يتبع ما ذكرنا من متابعة الأحداث الجارية لوجد جديدا يهز مشاعر السامعين وأيضا مولاة القراءة والبحث فى تفسير القرآن والحديث والسيرة النبوية فى كتبها المختلفة ، وفى كتب التاريخ الاسلامى ما يفتح ذهن الخطيب ويمده بموضوعات كثيرة جديدة فان لم تمس حياة الناس من طريق مباشر مدتهم بلون جديد من الثقافة ٠

سوء الالقا

٤ ــ سوء القاء الخطبة ، وقد تحدثنا من قبل عن طرق الالقاء السليمة ، وأنت لا تزال تجد بين خطباء المساجد من يلقون الخطبة بطريقة منغمة ، ومن يلقيها بأسلوب رتيب يستوى فيه صيغ الاستفهام والتعجب والإخبار ٠٠ فهذا مما

يصرف ذهن السامع عن متابعة الخطيب ويضعف تأثير العظة فى نفسه ، وبوجه عام لا تزال خطبة المسجد تنهج منهجا تقليديا ، ولا يزال خطيب المسجد بحاجة الى استنارة واسعة ، والخطبة الدينية فى غير المسجد قد تكون أنجح وأفيد ، فبين الجماعات الدينية تحررت الخطبة من المنهج التقليدى وواجهت موضوعات أشد مساسا بحياة الناس ٠ وتناولت معانى موحية ، وفتحت الأذهان على أفكار جديدة ٠

وسائل النهوض بخطبة المسجد :

تحاشى الاخطاء السابقة

خطيب المسجد الحديث مطالب باحياء الخطبة الدينية ، ويوجد الآن فراغ واسع فى هذا الميدان ، وتعطش كبير الى سماع العظات والارشادات الدينية ، ولكى يسد الخطيب الحديث هذا الفراغ ، عليه قبل كل شىء أن يتخلص من العيوب التى ذكرنا ، فيحصر خطبته فى موضوع واحد ، ولا يقصر حديثه على الدار الآخرة وما بها من ثواب وعقاب

المزاوجة بين جزاءى الدنيا

بل لا بد أن يزاوج بين جزاءى الدنيا والآخرة ، فنفوس الناس تتعلق بالنفع العاجل وتخشى كوارث هذه الحياة ، وهناك آيات وأحاديث تتوعد العصاة بعقوبات دنيوية ،وفى قصص الأنبياء والجزاء الذى نال مخالفيهم ما يرهب النفوس ويردها عن المعاصى ، كما فى قوله تعالى حكاية عن هؤلاء : « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ٠

وكقوله سبحانه : « وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ، أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولى الألباب » ٠

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بماكان يكسبون»

ولا تكون الخطبة كلها دائرة على النفع والضرر الدنيوى فهى بهذا تكون أقرب الى المادية وانما تربط الأعمال دائما بطاعة الله وحب القربى اليه حتى تأخذ صورة العبادة ·

والثقافة الحديثة خصوصا درس علم النفس مما يحتاج اليه الخطيب الحديث لتجديد خطبته وجعلها ذات مساس بقلوب سامعيه ·

درس السيرة النبوية

والذى نلاحظه فى خطباء المساجد بوجه عام هو فقرهم البين فى درس السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى ،وعجزهم عن شرح النصوص القرآنية والأحاديث عجزا يصمهم بالنقص الفاضح · وفى استطاعة الخطيب أن يتخذ من الآية الواحدة موضوعا لخطبة طويلة شائقة مؤثرة ، لكنه لا يستطيع هذا الا بثقافته ودرسه الواسع واطلاعه على كتب التفسير ومعرفته بأحداث التاريخ ·· وهكذا ·

والخطيب البادىء يحتاج الى مجهود كبير فى هذا الاعداد ولكنه لا يتم تكوينه خطيبا الا بهذا المسلك ، وبعض الخطباء يرون أنفسهم قد نجحوا غير مرة فى خطبهم فيعتمدون على شهرتهم ويقصرون فى اعداد خطبهم فيسقطون وينصرف عنهم السامعون ·

وليلاحظ الخطيب أن مجهوده فى بناء نفسه أول أمره مهما شق أسهل من مجهوده فى اعادة بنائه اذا سقط ، ومعنى هذا أنه يجب أن يكون حذرا من السقوط مهما كانت شهرته ·

فى نفسية السامع

ان خطيب المسجد لا بد أن يتعرف على نفسيات جمهوره حتى يقف منهم موقف المعلم الحاذق يعرف كيف يوجههم الى

عمل أو يردهم عن آخر بما له من كياسة ودراية بتربية الغرائز ومعالجة الميول الجامحة ٠

متابعة القراءة

وهو لا بد أن يكون دائبا على القراءة وأن يقرأ تفسير القرآن مثلا فى أكثر من كتاب وأكثر من مذهب تفسيرى ، وأن يطلع على الكتب الدينية الحديثة والمقالات الصحفية التى تتعرض للشئون الدينية ٠٠ وهكذا، وبغير هذا الاطلاع يصير الخطيب كالماء الآجن يعيد نفسه ويمل الناس سماعه٠ والخطباء الآخرون السياسيون والمحامون وخطباء المحافل تتجدد موضوعاتهم تلقائيا ، أما خطيب المسجد فهو المسئول عن اختيار موضوعه كما هو مسئول عن طـــريقة اعداده ومعالجته ، وككل خطيب آخر لا ينهض خطيب المسجد بدون غذاء أدبى ومدد من المحفوظات يستعين به فى تفكـــيره وتعبيره جميعا ٠

هذا ولا نزال نرى بيننا خطباء مساجد يؤمهم مستمعون كثيرون جدا ولكنهم لم ينجحوا فى بث ثقافة دينية فىنفوس مستمعيهم ، ذلك لأن خطبهم تقوم على الاثارة والنقد الهدام دون أن تقدم غذاء علميا وفكريا ، ودون أن تقدم منهجا بناء من السنة النبوية وقوانين الاسلام ٠

وبعد ـ فليعلم خطباء المساجد أن حياتنا العامة تواجه فراغا روحيا واسعا ٠ وأن هناك تطلعا وظمأ كبيرا نحـــو المعلومات الدينية ، وقد بـــدأ الناس يسأمون أكثر فأكثر تيارات الفكر المادى ، وعلى رجال الـدين ـ وفى مقدمتهم خطباء المساجد ـ أن يقدموا من الغذاء الروحى ما يشبعهذا النهج ، ويسد هذا الفراغ ، وقد نشط فى هذا الميدان رجال الأديان الأخرى مع أن الاسلام أغنى وأقنع وأفيد ٠

خطب الاملاك

طريقتها قديما وحديثا

من أنواع الخطب ما يقال عند عقود القرآن وهو نوع لا يزال مستعملا فى أيامنا وأكثر ما نستعمله نحن الآن بعد أن يتم عقد القران ليكون تهنئة للزوجين ولأسرتيهما ، وكانوا قديما يستعملونه قبل اجراء العقد يجعلونه اعلانا من الزوج وآله ، ورغبة فى الاصهار الى آل الزوجة ، وكان هذا الموقف متأثرا بعاداتهم من وصف الزوجة بالتمنع وعدم الرغبة فى الزواج على نحو ما نجد فى قصائدهم الغزلية ، ولهذا كانت العادة الجارية أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب من آل الزوجة ، والخاطب أو من ينوب عنه هو الذى يبدأ ثم يجيب آل الخطيبة أو لا يجيبون ، وخطبة النكاح فى أيامنا هذه لا مشقة فيها ولا تفترق عن أى خطبة من خطب المناسبات الأخرى ، وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى (١) خطبة النكاح» وسئل عبد الله بن المقفع عن هذا القول فقال : « ما أعرفه الا أن يكون أراد قرب الحداق من أجواف الحداق (٢) ولأنه اذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء فاذا علا المنبر صاروا كأنهم سوقة ورعية . قال الجاحظ : « وقد ذهب ذاهبون الى أن تأويل قول عمر يرجع الى أن الخطيب لا يجد بدا من تزكية الخاطب ، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه » . ولم يرض الجاحظ هذا التعليل لأن عمر وأمثاله لم يكونوا يمتدحوا شخصا الا بما هو فيه ، ولم يكونوا ليتكلفوا ذلك . وبهذا يكون الجاحظ قد قبل قول ابن المقفع ، ولكن عمر وأمثاله

صعوبتها

---

(١) تشق على ، انظر البيان والتبين ص ١١٧ ـ ١٣٤ . جـ ١ .

(٢) قرب أعين الخطيب من أعين الناظرين اليه . والحدق يراد بها الاعين.

أيضا لم يكن يرهقهم نظر الحدق من أجواف الحداق ، ولا الخطبة من جلوس فيمن يساوونهم ·

ومن المعروف لدى العرب أنه يعرض للخطيب فى خطب الاملاك من الحصر مالا يعرض لصاحب المنبر ·

ومدح أحد الشعراء خطيبا برجز جاء فيه :

لله در عامر اذا نطق   فى حفل املاك وفى تلك الخلق (١)

ليس كقوم يعرفون بالسرق (٢)   من خطب الناس ومما فى الورق

يلفقون القول تلفيق الخلق (٣)   من كل نضاح الدفارى (٤) بالعرق

اذا رمته الخطباء بالحدق

وكانت خطبة الأملاك تلقى من جلوس ، فتشبه المحادثة والكلام المعتاد ولعل ذلك مما يقلل نشاط المتحدث وانفعاله ولا يجعله يستعمل الاشارة والحركة فيقلل ذلك نشاطه ويفتر همته ، وربما كانذ لك من أسباب صعوبتها · أما فى الوقت الحاضر فانها تلقى من وقوف ولا تفترق عن الخطب الأخرى

طريقتها

وأنجح طريق للخطيب فى عقود القران أن يجنح كثيرا الى الحديث عن الزواج وأثره فى الربط بين أسرة وأخرى، وفى انجاب النسل الصالح وتشابه الفروع بالأصول وما الى ذلك · وقد خطب عبد الله بن الزبير مرة أمام عثمان بن عفان فى جمع فأعجبه فقال : « أيها الناس أنكحوا النساء على أشبه بن من هذا (٥) » · يريد أن عبد الله شبيه بجده أبى آبائهن وأخواتهن ، فانى لم أر لأبى بكر الصديق ولدا

---

(١) حلقات الخطابة الحافلة بالناس ·

(٢) السرقة ·   (٣) الثياب البالية ·

(٤) الدفرى ما وراء أذن البعير ، ولكل بعير ذفريان وأراد بالدفارى هذا أجزاء بدن الخطيب ، يعيب الخطباء الذين تأخذهم الرهبة فيسيل العرق من جسمهم ، والحدق جمع حدقة اى لا يتهيب اذا حدق الناس فيه بأعينهم

(٥) البيان والتبين ١/٤٠٦ ·

بكر ، وأن نسب الزبير لأبى بكر أنجب له عبد الله فى هذه الفصاحة ٠

أمثلة لها

ومن خطب الأملاك المشهورة خطبة أبى طالب عم رسول الله عليه وسلم ، عند زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضى الله عنها ، وفيها يقول :

خطبة أبى طالب

« الحمـد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع (١) اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنـا الحكام على الناس ٠ ثم ان محمد ابن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش الا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا (٢) ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية (٣) مسترجعة ، وله فى حديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما ؤحببتم من الصدق فعلى » ٠

ومن المعروف أن اتفاق الزوجين ٠٠ رسول الله وأول أم للمؤمنين كان قد سبق ، وكان معروفا لذويهما ٠ وقد قال فيه والد خديجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك الفحل لا يجدع أنفه » (٤) يريد أنه خطيب لا يرفض ٠ وقد زكاه أبو طالب وأثنى عليه بما لا ينكره عليه أحد ٠

شبيب وسوار

وأكثر ما انتهى الينا من خطب الزواج كان موجزاقصيرا وقليل منه كان مطولا ، ومن طريف ما جاء فى هذا أن شبيب ابن شيبة الخطيب الخارجى المعروف زوج ابنة بنت سوار القاضى ــ وهو خطيب معروف أيضا ــ فقال القوم : اليوم يعب عباب الخطابة ، فلما اكتمل الجمع قام شبيب فحمد الله

(١) يريد من سلالته ٠
(٢) ذكاء ونجابة ٠ (٣) بتشديد الياء الشىء المعار ٠
(٤) اذا أراد الفحل أن ينزو على انثاه وهم يريدون دفعه عنها ضربوه على أنفه فيسكن ويرجع ، والمراد هنا أنه صلى الله عليه وسلم لا ترد خطبته بل يرحب به ٠

تعالى وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« ٠٠ أما بعد فان المعرفة منا ومنكم ، بنا وبكم ، تمنعنا من الاكثار ، وان فلانا ذكر فلانة » ٠

ولم يزد على ذلك فانتحل سببا وجيها لايجازه ٠

وكان الحسن البصرى يجنح على نحو ما ذكرنا الى الحديث عن الزواج وكان يقول بعد حمد الله والثناء عليه :

الحسن البصرى

« أما بعد ٠٠ فان الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأنساب المتفرقة وجعل ذلك فى سنة من دينه ومنهاج واضح من أمره ، وقد خطب اليكم فلان وعليه من الله نعمة وهو يبذل من الصداق كذا ، فاستخيروا الله وردوا خيرا يرحمكم الله»

وحين يتكلم آل الخطيبة قد يذكرون أن الزوج كفء وأنهم لهذا زوجوه وقد يوصونه بالزوجة ويطلبون اليه أن يبرها ٠

امثلة اخرى

ومن أمثلة النوع الأول أن محمد بن الوليد بن عقبة بن أبى سفيان ، خطب الى عمر بن عبد العزيز أخته فألقى خطبة أطالها ، فلما أجابه عمر قال :

« الحمد لله ذى الكبرياء وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء

أما بعد : فان الرغبة منك دعتك الينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظنا من أودعك كريمته واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتكما على كتاب الله ، امساك بمعروف أو تسريح باحسان » (١) ٠

ومن أمثلة النوع الثانى أن عثمان بن عقبة بن أبى سفيان خطب الى عمه عتبة بن أبى سفيان ابنته وكان عثمان حدثا فأجلسه عتبة على فخذه وقال :

---

(١) هذه رواية العقد الفريد جـ ٤ / ٣٢٤ وفى البيان والتبين ٤٠٤/١ ٠ أما بعد فقد أحسنا بك ظنا ٠٠ وقد زوجناك على ما فى كتاب الله ٠٠٠

« .. أقرب قريب خطب أحب حبيب ، لا أستطيع له ردا ولا أجد من اسعافه بدا ، وقد زوجتكما وأنت أعز على منها وهى ألصق بقلبى منك ، فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندى قدرك ، وقد قربتك مع قربك فلا تبعد قلبى من قلبك » .

وهذه الخطبة أقوى وأجمل من سابقتها ، فهى تعبر عن حقيقة ما يشيع فيها من العاطفة وروح المودة ، أما خطبة عمر فقد شوهها بذكره التسريح ، فان هذا لا يجمل فى مثل هذا الموقف .

فكاهات فى خطب الزواج :

تذكر كتب الأدب فكاهات حدثت فى خطب الاملاك قديكون منشؤها العى والحصر ، وقد يكون منشؤها المبالغة أو الميل الى الدعاية واشاعة السرور ، ويختلف ذلك بين موقف وآخر فهذه الدعابات كثيرا ما تكون فى الحفلات التى يحضرها كبار الناس .

١ ــ من ذلك ما رووا أن خطيبا حضر عقد قران فاستفتح خطبته بحمد الله والصلاة على نبيه ، ثم ذكر بدء الخليقة وخلق السموات والأرض ، ومضى يسرد أخبار القرون الماضية والأمم البائدة حتى ضجر الناس وهو لا يشعر ، فلما فرغ من خطبته أراد أن يذكر اسم الخاطب فسأله عنه فأجاب : قد والله نسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى والله طالق ان تزوجتها بهذه الخطبة .

فضحك القوم وهيأوا مجلسا آخر ليعقدوا له فيه بغير هذه الخطبة (١) .

(١) زهر الآداب ١٤٤/٢ .

٢ ـ ومن ذلك ما ذكروا أن عبدا لخالد بن صفوان طلب أن يزوجه من أمة له فأجابه ٠ فقال له العبد : لو دعـوت الناس وخطبت !٠ قال خالد ادعهم أنت ، وكان خالد خطيبا فلما تكامل الجمع قال :

« ان الله أعظم وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الكلبين، وأنا أشهدكم أنى زوجت هذه الزانية من هذا ٠ ابن الزانية(١)

٣ ـ ومن الخطب المضحكة فى حفلات الزواج خطبـة مصعب بن حبان ، فقد تهيأ لالقاء خطبة فحصر ولم يجـد شيئا يقوله فقال : « لقنوا موتاكم قول لا إله الا الله » فقالت له أم الفتاة : عجل الله موتك ، ألهذا دعوناك ؟ (٢) ٠

٤ ـ ومن ذلك أن شابا طلب من أحد الشيوخ أن يخطب له بنت صديق له ٠٠ فقال له الرجل : اذا كنت فى مجلسهم غدا فأت الينا ٠ فلما رآه الشاب معهم اتجه اليهم فقال الشيخ: انظروا الى هذا الشاب القادم ، ما أحسن والله ما مشى لا أسرع ولا أبطأ ٠ فلما جاء وسلم عليهم قال : ما أحسن والله ما سلم لا أطال ولا اختصر ٠ ثم جلس فقال الرجل : ما أحسن والله ما جلس لا دنا ولا أبعد ٠ ثم تكلم فقـال : ما أحسن والله ما نطق لا رفع صوته ولا خفضه ٠ ثم ضرط فقال الرجل : ما أحسن والله ما ضرط لا أغنها ولا أرنها ٠ فضحك القوم وقالوا : حسبك والله لو سلح لزوجناه ٠

٥ ـ وأهدت أعرابية أبنتها الى زوجها فقالت لها (٣) ٠

---

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٥ ٠

(٢) البيان والتبين ٢/٢٥٠ ٠

(٣) عيون الاخبار ٤ـ٧٧ ، وزج الرمح كعبه والحديدة أسفله ، وسنانه الحديدة المدببة أعلاه ، وهى العالية ، وبقية الوصية تعنى انها تستعمل أدوات حربه أدوات للمنزل ٠

« أقلعى زج رمحه ، فان أقر فأقلعى سنانه (١) ٠ فان أقر فاكسرى العظام بسيفه ، فان أقر فاقطعى اللحم على ترسه، فان أقر فضعى الإكاف على ظهره فانما هو حمار » ٠

(١) تريد سنان رمحه ــ وسن الرمح عاليته ، وهى الطرف المحدد الذى يوضع فى أعلى الرمح للطعن به ، وزج الرمح كعبه قطعة من الحـــديد يوضع فى أسفله ، وكسر العظام بالسيف أو قطع اللحم على الترس مما يهين الشخص لان هذه آلات حرب . فاذا قبل ذلك فهو جبان ٠



مواقف خطابية أخـرى

الخطبة القصيرة ـ العى والحصر



الخطبـــة القصـــيرة

المناظرات ــ الجدل البرلمانى

قلنا إن الخطبة لا تستكمل كل أجزائها فى جميع مواقفها، لأن الموضوع المعلوم للسامعين لا يحتاج الى مقدمة ، وفى المواقف الضيقة والمفاجآت الطارئة يعـــرض الخطيـب لموضوعه مباشرة ، ويختصر خطبته اضطرارا لمجـــاراة الموقف ٠

والخطبة القصيرة تحتاج الى درس للموضوع كى يركز الخطيب كلامـه على الجوانب الهـامة وحدها ، ويحتاج فى هذا لوضوح أكثر ولاختيار عبارات أشد تأثيرا وأكثر دقـــة ٠

وقد يكون المجلس للشورى ، يتبادل المجتمعون فيه الرأى لإقرار أمر من الأمور أو رفضه ، أو التهدى لطريق يسلكونه ويكون هذا فى المجتمعات العامة فى الجمعيات وفى مجالس الأحزاب والجامعات ونحوها ، وفى هذه الحالات قد يقاطع الخطيب فجأة ، وقد يحاول معارضوه التغلب عليه برفع الصوت ، أو عدم السماح له بالاستمرار فى حديثه ، وإكمال حججه ٠

وواجب الخطيب حينئذ أن ينقطع عن الكلام ، وألا يبدأ كلامه من جديد الا بعد استيثاق من عدم المقاطعة ، وقد يحدث هذا فى المحاكم الصغيرة ، والمحامى الذى يقاطع يطلب الحماية من المحكمة ، أو يهـدد بالانسحاب ، حتى

يقهر خصمه على دم مقاطعته · أما فى المحاكم الكبيرة ، فان كل محام يأخذ دوره حتى يفرغ نهائيا من كلامه ، ثم يتكلم الطرف الآخر ، فاذا أراد المتكلم الأول أن يتكلم ثانيا استأذن المحكمة فى الرد على ما أثاره خصمه أو فى تدارك ما فاته أن يقوله ، وقد يطلب القاضى من كل منهما أن يكتب دفاعه فى مذكرة خاصة ويقدمه للمحكمة فى زمن معين ·

وفى كل هذه الحالات يجب على الخطيب أن يستوفى موضوعه درسا حتى لا يدع لخصمه شيئا يتداركه عليه ·

والجدل البرلمانى لا يدخل فيه شىء من هذا ، لأن الخطيب يطلب الكلمة ولا يسمح له بالكلام حتى يأتى دوره ولهذا قد يرد على شخص تكلم قبله بمدة طويلة ، وتحدث بينهما عدد من الخطباء ، ولا يستطيع الخطيب الأول أن يرد عليه مباشرة ، بل يطلب هو الكلمة من جديد ، وقد لا يعطى حق الكلام مرة ثانية · وهذا يحتم على المتكلم استيفاء موضوعه من كل جوانبه ·

أما المناظرات فمنها ما سبق، ومنها ما يكون منظما بحيث يتكلم كل مناظر مرة واحدة ، وهذه الأخيرة لا يراد منها الا تدريب الناشئين على الكلام ، وتعويدهم على درس الموضوعات درسا مستوفى ، وحسن الدفاع عن الآراء التى يتبنونها ·

وفى مجال الخطب القصيرة نذكر بخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب بعض أصحابه ، ونرجىء المحاورات من الأدب الاسلامى ونكتفى هنا ببعض الأمثلة ·

١ ـ خطبة لمعاوية بن أبى سفيان

خطب معاوية خطبة الجمعة فى يوم صائف شديد الحر، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« ان الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » ٠

قوموا الى صلاتكم ٠

هذه خطبة قصيرة جدا ، وهى كافية من الوجهة الشرعية لتؤدى بها صلاة الجمعة ، وبعض المذاهب الفقهية يرى أن الخطبة تكون مجزية اذا اشتملت على أمر ونهى ، نحو « اتقوا الله فيما أمر ، وانتهوا عما عنه نهى وزجر » ٠ فاذا قالها وجلس ثم وقف فأعادها أجزأ ذلك فى خطبتى الجمعة٠ ولكن الأداء الشرعى المجرد ، أو العمل الرسمى أيا كان ، يتخذ صورة الشكلية ولا يؤدى الغرض المطلوب ، فالمفروض أن الخطبة تقال لغرض افادة السامعين وتوجيههم ، ولايقاظ مشاعرهم الدينية وعواطفهم النبيلة ،فاذا قصرت الى هذا الحد ، أدت الجانب الشكلى ولم تؤد الجانب الروحى وهو الجانب الأهم ، ولكن الظروف قد تدعو الى مثل هذا الايجاز

٢ ـ خطبة معـاوية بن يزيد

معاوية هذا حفيد معاوية بن أبى سفيان ، استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ بعد أبيه يزيد ، وكان حدثا ،قيل كان فى الحادية والعشرين من عمره ، وقيـــل كان دون

سبق هذه الخطبة

ذلك (١) . وكان تقيا ورعا ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة جدا ، قيل كانت ثلاثة أشهر ، وقيل كانت أربعين يومـا ، وهذه الخطبة أول خطبة وآخرها .

أمر فنودى فى أهل دمشق : الصلاة جامعة . فلما تكامل جمعهم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد : فانى قد نظرت فيما صار الى من أمركم ، وقلدته من ولايتكم فوجدت ذلك لا يسعنى فيما بينى وبين ربى أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير منى ، أحقهم بذلك وأقوى على ما قلدته ، فاختاروا منى احدى خصلتين : اما أن أخرج منها وأستخلف عليكم من أراه لكم رضى ومقنعا ، ولكم الله على لا آلوكم نصحا فى الدين والدنيا ،واما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجونى منها » .

فأنف الناس من ذلك ، وخشى الأمويون افلات الخلافة من أيديهم فقالوا : أمهلنا ، فلم يلبثوا الا أياما حتى طعن، فقالوا له : استخلف من تراه رضى ، فقال : عنـد الموت تريدون ذلك ؟ لا والله لا أتزودها ، ما سعدت بحلاوتها فكيف أشقى بمرارتها .

موازنة بين رواياتها

وهذه الرواية التى ذكرناها هى رواية ابن قتيبة ـ وهى فى نظرنا مرجوحة ـ وقد جاءت الخطبة فى الطبرى ومروج الذهب والفخرى بما يخالف ذلك ، وهى ليست بالنص نفسه فيها جميعا ، وفى بعض رواياتها كما يلى :

فانى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكـم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه

(١) قال ابن قتيبة كان ابن ثلاث عشرة سنة وهو رأى غير وجيـه ، لان خالدا اخاه كان أصغر منه وكان يتطلع الى الخلافة . وقيل كان ابن ثمانى عشرة سنة . وانظر مروج الذهب جـ ٣٧/٣ .

أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجد ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم، فما كنت لأتزودها ميتا ، وما استمتعت بها حيا ٠

وفى بعض الروايات : ما ذقت حلاوة خـــلافتكم فكيف أتقلد وزرها ؟ تنتحلون أنتم حلاوتها وأتعجل أنا مرارتها ، اللهم انى برىء منها متخل عنها ٠

وندع اختلاف الروايات فى هذه الخطبة وفى تحقيــق نصها ، وقد ذكرناها مثالا للخطبة القصيرة ، وقد أدت معنى هاما وغرضا قيما ، وهو انخلاعه من الخلافة ٠ وفى أى من الروايات أعلن سبب تخليه ، وسبب عدم استخلافه ، فهو فى بعض روايات الخطبة أضعف من أن يحمل عبئها ، وفى بعض آخر يرى من الاثم أن يتقلدها وهناك من هو أقدر منه عليها وأجدر بها ، ثم اعتذاره عن تقليدها غيره مخافة أن يضل هذا الخليفة فيحمل هو وزر استخلافه ، وهو بهــذا عدل عن طريقة أبيه وجده فى الاستخلاف ، ويقال انه دس له السم ، ولعل ذلك أقرب من أنه طعن ٠

٣ ـ خطبة لعبد الملك بن مروان

لعبد الملك بن مروان عدد من الخطب القصيرة ، كان فى معظمها يريد تهديد الناس ، فيجنح الى ايجاز الكلام حتى لا يفتح باب المناقشة والجدل من ناحية ، وحتى يشعر الناس انه جاد فيما هدد به فلا يظنوا انه يكثر من الوعيد كى يطيعوه وليس ثمة عقوبة وراء تهديده ، وهذه سياسة يجنح اليها الحكام فى مواقف الصرامة وبث الهيبة فى نفوس الرعية ، على نحو ما مر بنا من خطبة أبى جعفر المنصور حين قتل أبا مسلم الخرسانى ٠ وهذه خطبة له أخرى ٠

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : ان الله حد حدودا ، وفــرض فروضا ، فما زلتم تزدادون فى الذنب ، وتزدادون فى العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » ٠

خطبة موجزة جدا وواضحة جدا ٠٠ انهم خرجوا عن حدود الله وبالغوا فى الخروج فلم يكن بد من قتالهم ، فهم المسئولون عما عسى أن ينزل بهم من عقابه ٠

خطبــة له بمكــة :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه :

« أيها الناس : والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون ، فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا » ٠

كان عبد الملك يعرف جيدا أن أهل الحجاز لا يحبون بنى أمية ، ولا يرى أنه يمكن أن يتملقهم أو يستميلهم بالكلام ، فجنح الى تهديدهم ، وأشار الى ضعف عثمان ، ومداهنة معاوية وحمق يزيد ابنه ، ونفى كل ذلك عن نفسه ، وصرح بأنه معد سيفه لمن تبدو منه اشارة عابرة ٠

٤ ـ خطبــة أعــرابى

وردت هذه الخطبة عن بعض الأعراب :

حمد الله تعالى وصلى على نبيه وجميع الأنبياء ، ثم قال:

« ما أقبح بمثلى أن ينهى عن أمر ويرتكبه ، ويأمر بشىء ويجتنبه ، وقد قال الأول :

فدع ما لمت صاحبه عليه　　فذم أن يلومك من تلوم

ألهمنا الله واياكم تقواه ، والعمل برضاه » ٠

من أقصر هذه الخطب خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق ، وهى بعد حمد الله والثناء عليه :

« ان أبا ذبان قتل لطيم الشيطان » · « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » ·

وأبو ذبان لقب عبد الملك لأنه كان أبخر يموت الذباب حين يدنو من فمه · وقيل : كان فى لثته فساد يجعلها تـدمى فيقع عليها الذباب بكثرة ·

وفيه يقول الشاعر اذ يتوعد الوليد ابنه :

لعلى أن مالت بى الريح ميله على أبن أبى ذبان أن يتندما

ولطيم الشيطان هو عمرو بن سعيد ، كان فى فمه ميل، فسمى بذلك ، وقيل انما سمى الأشدق لتشادقه فى الكلام· وكان معاوية قد دعا به فى غلمة من قريش فاستنطقه فأعجبه كلامه ، فقال : أن ابن سعيد لأشدق (١) ·

---

(١) انظر البيان والتبين ١/٢١٥ ·

العى والحصر

تعريف

العى : العجز والضعف عن الشىء ، ويقال لمن لا يحسن ابانة الكلام وشرح ما يريد عيى · والحصر : الحبس ،ويقال حصر الرجل ــ كفرح ــ فهو حصر ، اد عى عن الكلام وضاق به ، ومنه الآية الكريمة : « أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » أى ضاقت صدورهم عن احتمال أى من العملين · فالعى والحصر متقاربا المعنى ·

سبب الحصر

وقد يعرض للخطيب أو المتحدث أن يعجز عن الكلام اما لأنه لا يستطيع شرح ما فى صدره ، أو لا يجد فى ذهنه شيئا يقوله · وقد يرجع ذلك الى نقص مادة الكلام أو نقص المعلومات ، وقد يرجع الى الهيبة والخوف من موقف الخطابة أو الكلام ، والشخص فقير المادة قد يستعين بشد لحيته وعقد أصابعه أو اظهار التأفف أو نحو ذلك · ومثل هذا يضجر السامعين ، وخير له أن يقطع كلامه ، وألا يواجه هذا الموقف حتى يتهيأ له ويعد ما يقدمه لسامعيه · ولكن من الخطباء الذين يجيدون الخطابة ولهم درية ودراية بمواجهة الجماهير من ينقطع عن الخطبة وترتج عليه فلا يجد مايقول ·

وأمثال هؤلاء كثيرون ، ويرجع انقطاعهم والارتاج عليهم الى حالات نفسية تعتريهم قد تكون هيبة طارئة ، وقد تكون كلالا جسميا ، وقد تكون شغل الذهن بأشياء أخرى · والذى ينبغى أن يفعله الشخص فى هذه الحالة هو أن يصرف الكلام الى جهة أخرى ، كأن يقرأ أى آية قرآنية تمر بذهنه أو يذكر حديثا فيقول انه يعرضه على سبيل التبرك ، ثم يعد أنه سيتكلم فى موقف آخر اذا كان سيظل بين من يتحدث اليهم ·

أما اذا كان زائرا ، فانه يبين أن الكلام لا داعى له ، أو يتواضع فيذكر أنه ليس أعلم منهم ، وليس ذلك الا عملا يخفى ارتباكه ويستر موقفه ·

وفى التاريخ خطباء كثيرون أرتج عليهم وتخلصوا بطرق مختلفة ، ومن أملة هذه المواقف ما يل:

١ ـ عبد الله بن عامر (١)

ولاه عثمان ـ رضى الله عنه ـ البصرة ، فوقف يخطب يوم عيد الضحية ، فأرتج عليه ، فمكث ساعة لا يتكلم ثم قال : لا أجمع عليكم عيا ولؤما ، من أخذ شاة من السوق فهى له وثمنها على ·

٢ ـ خالد بن عبد الله القسرى

كان من الفصحاء ، وكان اذا تكلم ظن الناس أنه يعد كلامه ، ووقف مرة يخطب فسقطت جرادة على ثوبه فقال : « سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوقها جناحها ، وسلطها على ما هو أعظم منها » فأعجب الناس

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن كريز ، جده الأعلى عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، لأن أم عثمان هى أروى بنت كريز ، أحضر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليدا ، فقال . هذا شبيهنا ، وعوذه فابتلع ريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ·كان عبد الله شجاعا ميمونا جوادا ، ولاه عثمان البصرة سنة ٢٩ هـ · ثم ضم اليه فارس فافتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان وغيرها . وفى أمارته قتل يزدجرد آخر ملوك فارس ، وهو أول من اتخذ الحياض بعرقه وأجرى اليها العين ، قتل عثمان وهو بالبصرة ، فسار بما كان معه من الاموال الى مكة وشهد موقعة الجمل مع طلحة والزبير . ولم يحضر صفين ، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين بعد اجتماع الناس عليه . ثم صرفه عنها فأقام بالمدينة ، ومات سنة ٥٩ هـ ـ (الاصابة ٦١٧٨) ·

ارتجاله . ولكنه وقف مرة أخرى على المنبر فأرتج عليه ووقف مدة فوق المنبر لا يتكلم ، ثم تهيأت له مندوحة فقال:

« .. ان الكلام يجيء أحيانا ، ويعزب أحيانا ، فيسح عند مجيئه سيبه (١) ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى وعولج فنأى . فالتأتي لمجيه خير من التعاطي لأبيه ، وتركه عند تنكره (٢) أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجرىء جنانه وسأعود فأقول ان شاء الله » (٣) .

هذا الاعتذار الذى ذكره من أصدق وأبلغ ما يعتذر به، ولهذا قالوا : ما رئى حصر أبلغ منه ، وحديثه ينم عن تجربة لأن الكلام يتبع حالات الشخص النفسية والجسدية ، شأنه شأن كثير من حالات الشخص كالضحك والمزاح وانقباض النفس وانبساطها .

٣ ـ معاوية بن أبى سفيان

لما ولى معاوية صعد المنبر ليخطب فحصر ، فقال :

« أيها الناس .. انى كنت أعددت مقالا أقوم به فحجبت عنه ، فان الله يحول بين المرء وقلبه ، كما قال فى كتابه ، وأنتم الى امام عدل أحوج منكم الى امام خطيب ، وانى أمركم بما أمر الله به ورسوله ، ونهاكم عما نهى الله عنه ورسوله، ، وأستغفر الله لى ولكم » .

والذى أنقذ معاوية فى موقفه هذا هو صراحته ، وأعلانه

---

(١) فيضه وكثرته (٢) غيابه وعدم طواعيته .

(٣) هذه رواية العقد الفريد وفى امالى القالى : يجيء أحيانا فيسيب سيبه ، ويعزب أحيانا فيعز مطلبه ، وربما طولب فأبى وكوبر فعصى . والتأتى لمجيه اصوب من التعاطى لابيه ، ثم نزل .

الناس بحقيقة أمره · كما أسعفه ذكر الآية القرآنية ، واذا كان أهم ما يحصر به الخطيب هو الهيبة ، فان ما أنقذ معاوية هو شجاعته الطبيعية ، فليس كل شخص ذا جـرأة ليعلن حقيقة نفسه كما فعل ، وكان معاوية ذا جرأة كبيرة ، ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنه دون الخلافة ، ولعل هـذا ما حصر من أجله ·

٤ ـ عثمان بن عفـان

أرتج على هذا الخليفة فى أول خطبة خطبهـا عقب استخلافه ، فقال :

« أيها الناس ان أول كل مركب صعب . وان أعش تأتكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرا ان شاء الله »

وهذا أيضا اعتذار صادق ، وقد كان عثمان رضى الله عنه حييا ذا ضعف · لهذا تهيب أول خطبة ، وخطبته بوصفه خليفة ذات معنى غير خطبته بوصف آخر ، ولهذا عزب عنه لبه وارتبك · وفى رواية أخرى للخطبة : ان أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم الى امام عادل أحوج منكم الى امام خطيب · وستأتيكم الخطب على وجههـا وتعلمون ان شاء الله » (١) ·

٥ ـ يزيد بن أبى سفيان

ولى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يزيد بن أبى سفيان الشام فلما وقف يخطب الناس أول خطبة له حمد الله تعالى ، فأرتج عليه · فسكت ثم عاد الى الحمد فأرتج عليه ثم عـاد الى الحمد ·· فلما طال الموقف قال :

(١) الرواية من العقد وانظر البيان والتبين ١/٣٤٥ ·

يا أهل الشام ! عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرا ، وبعد عى بيانا ، وأنتم الى امام فعالأحوج منكم الىامام قوال(١) ثم نزل · وبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه وقال : هن مخرجاتى من الشام ، يريد خطب الأمويين البليغة ·

٦ ـ ثابت قطنـة

صعد ثابت قطنة منبر سجستان فقال : الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فان لا اكن فيهم خطيبـــا فاننى بسيفى اذا جـــد الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها وأنت فوق المنبر لكنت أخطب الناس(٢)

٧ ـ أشتات ممن أرتج عليهم

وقف رجل على المنبر يوم الجمعة فمر فى خطبته الى «أما بعد » فأخذ يعيدها ولا يجد ما يقوله ، ثم قال : أشهدكم أن أمرأتى طالق ثلاثا · لم أكن أريد أن أجمع اليوم فمنعتنى(٣)

وخطب آخر فلما بلغ « أما بعد » بهت وظل ساكنا · ونظر فاذا شخص ينظر اليه ، فقال : لعنك الله ، ترى ما أنا فيه وتلمحنى ببصرك أيضا ·

وأرتج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله وقال : فتى حروب لا فتى منابر ·

وكان عبد ربه اليشكرى عاملا لعيسى بن مـوسى على المدائن ، فأرتج عليه يوم جمعة فسكت طويلا ثم قال : والله انى لأكون فى بيتى على لسانى ألف كلمة ، فاذا قمت مقامى

(١) رواية العقد : امام فاعل ·· خطيب قائل ·
(٢) تقدمت ترجمة ثابت ·
(٣) لم يكن يريد صلاة الجمعة فمنعته موجه مما اراد ·

هذا جاء الشيطان فمحاها من صدرى ٠ لقد كان يوم الجمعة أحب الأيام الى ، فصرت وما فى الأيام يوم أبغض الى منه، وما ذاك الا لخطبتكم هذه ٠

مقاطعة الخطيب

كيف يواجه الخطيب المقاطعة

ذكرنا من صفات الخطيب أن يكون رابط الجأش ، فلذلك لا ينبهر ولا ينقطع اذا فاجأه بعض السامعين بما يقطع كلامه أو وجه اليه كلمة نابية ، أو عارضه فى رأيه الذى يذكره ، فانه اذا انبهر وتلعثم خسر موقفه وضاعت خطبته ، والخطباء الذين مرنوا على هذه المواقف يسلكون طرقا عديدة للتخلص من مثل هذه المحرجات ، فأحيانا يستمر الخطيب فى حديثه كأن لم يوجه اليه أحد كلاما ، وأحيانا يوجه اليه اشارة استهانة وسخرية وأحيانا يزجره ، وأحيانا يجيبه اجابة صريحة مستفيضة ، وهذا يكون مفيدا جدا اذا كان فى هذه الاجابة ما يزيد الموضوع الذى يتناوله الخطيب شرحا وابانة ٠

وهذه المقاطعة قلما تحدث فى خطب الجمع والأعياد لمقام الدين فى النفوس، ولكنها تحدث فى خطب الجمعيات والأندية وتحدث فى الخطب الاجتماعية ، وربما تحولت الخطبة الى مناقشة أو ما هو قريب من المناقشة ، وعلى الخطيب أن يكون دائما مستعدا ، وموطنا نفسه على مثل هذه المقاطعات كيلا يدهش أو يحار اذ فوجىء بها ٠

وبعض هذه المقاطعات يدخل فى باب المحاورة ، وذلك حين لا يريد من يقاطع الخطيب أن يعترض عليه ، ولكن يريد مزيدا من التوضيح أو سؤالا عن شىء غامض ، وعندما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ان الله كتب عليكم الحج فحجوا » ٠ قام رجل فقال : أكل عام يا رسول

الله ؟ • وقصة هذا الحوار معروفة • وقد أسرف السائل حتى أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، واعترض رجل عمر وهو فوق المنبر لأنه يلبس قميصين وقد أعطى كلا من الآخرين قميصا واحدا ، فلما تبين له أن ابنه عبد الله أعطاه قميصه ، قال لعمر : الآن قل نسمع ، وخطب على بن أبى طالب فقال : انظروا الى هذه الحكومة ، فمن دعا اليها فاقتلوه وان كان تحت عمامتى هذه ! فقال له عدى بن حاتم: قلت لنا أمس : من أبى عنها فاقتلوه ، وتقول لنا اليوم : من دعا اليها فاقتلوه • والله ما ندرى ما نصنع بك • وقام اليه رجل من أهل العراق فقال : أمرت بها أمس وتنهى عنها اليوم فأنت كما قال الأول : آكلك وأنا أعلم ما أنت • فقال على : ألى يقال هذا ؟ أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به، ونهيتكم عما نهيتكم عنه ، حملتكم على المكروه الذى جعل الله عاقبته خيرا لكانت الوثقى (٢) التى لا تقلع ولكن بمن والى من ؟ • أريد أن أداوى وأنتم دائى !! •

وخاطر (٣) رجل أن يقوم الى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيسأله عن أمه • فقام اليه وقال : أيها الأمير من أمك ؟ ففطن عمرو الى أنها مراهنة فقال له : هى النابغة بنت عبد الله ، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، اشتراها عبد الله بن جدعان فوهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت فان كانوا جعلوا لك شيئا فخذه •

ومثل هذا ما حدث لآخر اذ قام عن مخاطرة (رهان) ، فوضع يده على عجيزة معاوية وهو ساجد ، فقال : ما أشبه

---

(١) راجع تفسير الآية : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤلكم » فى تفسير الطبرى او اى تفسير مطول •

(٢) العروة المتينة ، أى لكانت الحالة الحسنى •

(٣) راهن •

عجيزتك بعجيزة أمك هند ؟ ففطن معاوية الى أنها مخاطرة أيضا · فلما سلم من صلاته قال : « يا ابن أخى ان أبا سفيان كان الى ذلك أميل ، فخذ ما جعلوا لك » · وأغرى حلم معاوية هذا الرجل فخاطر ثانية على أن يسأل زياد ابن أبيه فقال له وهو فوق المنبر : أيها الأمير من أبوك ؟ ·

قال زياد ـ وأشار الى صاحب الشرطة ـ هذا يخبرك، فقدمه فضرب عنقه ، فلما بلغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيرى ، لو أدبته على الأولى ما عاد الى الثانية ·

والذين كانوا يحلمون على مقاطعيهم ، كانوا بين اثنين: « رجل دين يعنيه أن يشرح موقفه ويعلم الناس ، ورجل سياسة يدرك غاية السائل ويرغب بحلمه عنه أن يكسب لنفسه سمعة حسنة ، والكثيرون كانوا يضيقون بمن يقاطعهم وكان الحكام يعاقبونهم ، أو يهددون من يفعل مثلها ، والذى يعنينا من هذا كله ألا يرتج على الخطيب أو يتلعثم ويرتبك »

وقد خطب أبو جعفر المنصور مرة ، فقال بعد افتتاح خطبته : أيها الناس اتقوا الله ، فقاطعه أحد مستمعيه قائلا: أذكرك الله الذى ذكرتنا به يا أمير المؤمنين ·

فأجابه أبو جعفر : سمعا لمن ذكر الله ، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذنى العزة بالاثم ، لقد ضللت اذن وما أنا من المهتدين ، وأما أنت فوالله ما أردت بها وجه الله ، ولكن ليقال : قال فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت (١)· وأنا أحذركم أيها الناس أختها ، فان الموعظة علينا نزلت، ومنا أخذت (٢) ، ثم رجع الى موضعه من خطبته ·

وجلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة ـ وكان

(١) او عاقبتك وقبل هذا ما شق ذلك على ، لانك تستحق العقوبة ·
(٢)يريد أنه من آل البيت الذين يعظون ويعلمون ·

يخطب جالسا (١) ـ فأطال حتى أصفرت الشمس ، فقام اليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ان الوقت لا ينتظرك ، وان الرب لا يعذرك ! • قال : صدقت • ومن قال مثل مقاتلك فلا ينبغى له أن يقوم مثل مقامك ، من ههنا من الحرس يضرب عنقه (٢) •

وخطب الحجاج مرة فشكا سوء الطاعة من أهل العراق، فقام اليه جامع المحاربى فقال : أما أنهم لو أحبوك لأطاعوك على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع ما يباعدهم منك الى ما يقربهم اليك ، والتمس العافية فيمن دونك تعطها ممن فوقك ، وليكن ايقاعك (٣) بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك • فقال الحجاج : والله ما أرانى أرد بنى اللكيعة (٤) الى طاعتى الا بالسيف • فقال : أيها الأمير : ان السيف اذا لاقى السيف ذهب الخيار • قال الحجاج : الخيار يومئذ لله • قال : أجل • ولكنك لا تدرى لمن يجعله الله فقال : يا هناه (٥) انك من محارب • فقال جامع :

وللحرب سميناً وكنا محـــاربا ... اذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرا

فقال الحجاج : والله لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك • فقال له : يا حجاج : ان صدقناك أغضبناك ، وان كذبناك أغضبنا الله ، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله (٦) •

---

(١) هو أول من سن ذلك ، وكان آخرون من بنى أمية يخطبون جلوسا ، لان معاوية اول من اتخذ منبرا عاليا ، فكان ارتفاع المنبر يغنى عن الوقوف

(٢) ينسب هذا الحادث للحجاج أيضا وهو به اليق •

(٣) انزال العقوبة •

(٤) الكيعة الامة اللئيمة ، ويقال للرجل الذمىء والاحمق لكع ولكيع وألكع•

(٥) كلمة يكنى بها عن اسم الانسان ـ والاصل أن يقال ياهن لمن لا يعرف الساكنين •

(٦) عيون الاخبار ٢١٢/٥ ـ وهى فى العقد الفريد وكثير من كتب الادب مع اختلاف يسير •

وخطب عبيد الله بن زياد بعد مقتل الحسين فلعن على بن أبى طالب ، فقام اليه رجل يدعى عبد الله بن عفيف فقال : الملعون أنت ومن ولاك ، وأبوك ومن ولاه ، تقتلون أبنـــاء النبيين وتقومون مقام الصديقين ٠

تاريخ الخطابة قبل العرب



الخطابة عبر العصور

الخطابة العربية هى التى تعنينا فى المقام اول من هذا الحديث ، ولكن لا يكمل الحديث عنها الا بالالمام بفكرة عابرة عن الخطابة لدى الأمتين القديمتين ، أمة اليونان وأمة الرومان ، ذلك أن الثقافة الأدبية لهاتين الأمتين كانت هى الأساس الذى قامت عليه النهضة الحديثة فى أوروبا ، وشاعت عناصرها فى ثقافات البلاد الأوروبية كلها وانبثت فى برامج جامعاتها : انجليزية وفرنسية وألمانية وايطالية وغيرها ، ثم قيض لها أن تترك آثارا كبيرة فى الشرق ٠

أما الثقافة اليونانية فكانت ولا تزال أساس الفكر الانسانى فى مختلف جوانبه ، وقد بلغت ذروتها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وظلت الثقافات كلها تتفرع منها بالامتداد والتوليد والمعارضة ، حتى ان البحوث الذرية المستحدثة تجد لها جذورا فى الفكر اليونانى ٠ وأما العهد الرومانى فكان امتدادا وتقليدا للعهد اليونانى ، والتجديد فيه قليل جدا ، وكانت اللغة اليونانية تستعمل لغة رسمية فى كثير من البلاد فى العهد الرومانى ، ذلك أن الاسكندر المقدونى حين مد فتوحاته فى الشرق نشر معها فكر اليونان ولغتهم ، وكان يصحبه أستاذه أرسطو يلقى محاضراته ويمليها على طلابه ، وأنشأ الاسكندر عددا من المدن تحمل اسمه وتنسب اليه ، بقيت منها اسكندرية مصر ٠ فلما حلت روما محل اليونان لم يكن من الهين عليها ولا فى اتجاهها أن تمحو اللغة اليونانية أو تزيل ثقافتها ٠ بل ان الفكر الرومانى لم يكن الا صورة من الفكر اليونانى ، ولكن حكم

الرومان شمل مساحات من الأرض أوسع بكثير مما شمل حكم اليونان ، وامتد أيضا الى زمن أطول ، وظهر فيه فلاسفة وكتاب وخطباء وساسة لا تزال أسماؤهم بارزة ولامعة فى التاريخ الانسانى العام ، وكان فى ذلك كله مد للفكر اليونانى ٠

لهذا يعنى دارسو الأدب بدرس الفكر اليونانى والرومانى ونحن نعرض هنا معلومات عامة عارضة لاستكمال الحديث عن الخطابة :

الخطابة عند اليونان

توطئة :

بداية اليونانيين

قضت البلاد اليونانية ردحا طويلا من الزمن وهى قبائل مفككة تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة ، ولم تكن هذه القبائل ترجع الى أصل واحد ،ولكنها أجناس شتى نزحت الى هذه الجزر ولم يربط بينها الا المجاورة واشتراك الأعمال ، وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب وتتحد على نحو ما تصف الياذة هوميروس والإلياذة على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية ، هى كتاب اليونان المقدس ، وكما يقوم العهد القديم بتسجيل تاريخ الاسرائيليين ، تقوم الإلياذة بتسجيل تاريخ اليونان ٠

تنقل الزعامة بين البلاد

ومن أحداث تاريخهم البارزة قيام التنافس بين أثينا وإسبرطة ، وقد اشتد هذا التنافس حتى أدى الى حروب لم تنته الا سنة ٤٠٤ ق٠م ، وكانت نهايتها هى استسلام أثينا وزعامة اسبرطة على البلاد اليونانية كلها ، ولكنها لم تعمر طويلا فقامت مدينة طيبة مقامها سنة ٣٧١ ق٠م ، وهذه

أيضا لم تعمر طويلا فانتهت سنة ٣٦٢ ق٠م ، وكان ذلك بظهور فيليب المقدونى والد الاسكندر الأكبر ، فقد شن حربا على كل من طيبة وأثينا وهزمهما ، فانتقلت الزعامة الى مقدونيا ، ولكنه مات سنة ٣٣٦ ق٠م حين كان يستعد لغزو الفرس ، فقام ابنه الاسكندر بتحقيق كل ما كان لأبيه منآمال

الاسكندر الأكبر

جال الاسكندر الأكبر فى أطراف الشرق الأوسط ما بين مصر وحدود الهند ، ثم مات فى بابل عام ٣٢٣ ق٠م ، وكان عمره ٣٣ عاما ، أى أنه حقق كل هذه الفتوحات فى نحو ثلاث عشرة سنة ، اذ هو تولى الحكم وعمره عشرون سنة٠

من هذا نجد أمرين ظاهرين فى حياة اليونان ، أولهما : أن هذه البلاد وهى مهد العبقريات ومشرق الفلسفات ومنبت الفكر الانسانى فى أنحاء العالم كله ، فشلت فى جانب سايسى عظيم ، وهو توحيد بلادها وجمع ولاياتها تحت تاج واحد ٠ وثانيهما : أنها تبعا لهذا الفشل قضت نحو ستة قرون فى حروب محلية بين قبائلها المختلفة ، ولم تحقق فى هذا المدى الطويل ما حققه الاسكندر فى زمن قصير ٠

دواعى الخطابةعندهم

والخطابة تنضج وتقوى عادة فى أيام الحروب والمشادات وقد اعتمدت الحروب اليونانية فى شتى مواقفها علىالخطابة ولهذا ظهر هناك خطباء لن ينساهم التاريخ ، من هؤلاء « سولون » الأثينى ، وهو شريف وتاجر ثرى ، ظهرتمهارته الخطابية فى حرب قامت بين « أثينا » و « مجارا » بسبب تنازعهما على امتلاك « سلاميس » ، فقام هذا الرجل يستنفر قومه بالخطابة وبالشعر ، فاستولى على قلوبهم وأثار حميتهم ، وقد أحبه الشعب وأسلس له القيادة ، وكان يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها، وهو الى جانب خطابتهالحربية مشرع وصاحب منهج اصلاح ، وقد توج أعماله بتنازلهعن سلطاته الحكومية عندما تمت مشروعاته الاصلاحية ، ولا

تزال صور من خطبه محفوظة فى الآثار اليونانيـة ، وهى تمتاز ببلاغتها وقوة تعبيرها وعمق معانيها ·

ببلاغتها

ولما قام فيليب المقدونى بحركته السياسية ، كان يريد أن يتحالف مع الأثينيين وأن يربط له بهم صداقة ، ولكن الخطيب الشهير « ديموستثيس » كان ضد هذا الرأى ، وضد فيليب فشن بخطبه عليه حروبا لم تكن أقل من حـــرب الجيوش المسلحة ، وخطبه هذه فى نظر المؤرخين من أبلغ ما خلـف الاغريق من خطب ، كما أنها اتخذت نماذج يحتذيها الخطباء

واذا نحن رجعنا الى الإلياذة نجد الخطابة اتخذت فيها مكانة قوية ، فهى ميزة من ميزات أبطالها ، وهى التى أبرزت مشاعرهم وصورت أحاسيسهم ، كما نجد الفلاسفة والمؤرخين اعتمدوا عليها فى اقناع الجماهير ، مما يـــدل على أن الخطابة كانت ذات مكانة فى حياة اليونانيين وأخلاقهم ·

نشاط الخطابة والسوفسطائية

وعندما سادت الديمقراطية بلاد اليونان ، وشاعت الحرية السياسية ، وأبيح لكل فرد أن يعلن رأيه ويدافع عنه ،وأن يقترح على الحكومة ما يشاء نشطت الخطابة وشعر الأفراد بحاجتهم اليها ، ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل ويدربون على حسن الحديث ومحاولة كسب الجولة فى تأييد رأيه ، وظهرت طائفة السوفسطائيين يدربون على الجدل والمغالطة ، وكان لعملهم لونان مختلفان ، أولهما : افساد المنطق والجنوح الى اقناع الناس والحكام بأدلـــة كثيرا ما تكون مضللة ولكنها تستهوى السامعين ، وثانى اللونين لعملهم أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها وجعلوها فنا مستقلا له قواعده وأصوله ، وكان سقراط ــ والد الفلسفة ــ أول أمره واحدا من السوفسطائيين ولكنـــه أنف من طريقتهم وأبغضها فأخذ على عاتقه أن يعلم الشباب المنطق وأن يربط بين النتائج والمقدمات ، واعتمد سقراط فى عمله على الحوار

عمل سقراط

الهادىء والقاء الأسئلة الساذجة ، ثم اعتراضه على الاجابة حتى يهتدى الذى يحاوره الى الاجابة السليمة ، وكان هذا الحوار نوعا آخر من الخطابة ، أثارها بين أتباعه وأتباع السوفسطائيين ٠

وخلال مائة عام أو من نحو سنة ٤٢٠ الى سنة ٣٢٠ق٠م كانت الخطابة اليونانية فى قمة ازدهارها رواجا وسموا واتقانا ، وتميزت بوضوح الأقسام الثلاثة التى سبقت وهى خطب المحافل ، وأشهر أصحابها هو « جورجياس » الذى برع فى عدد من أنواعها ، والخطب القضائية ، وكان على محترفيها أن يجيدوا اعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين ، فكان هذا تعليما واتقانا للخطابة ، وأشهر القائمين بهذا العمل هو «لوسياس» الذى سنذكر ترجمة له٠

ازدهارها

وازدهرت الخطابة السياسية ازدهارا أوسع ابان الصراع بين أثينا ومقدونيا ، اذ انقسم الأثينيون على أنفسهم قسمين قسما يؤيد قيام فيليب واعتباره يونانيا ، وقسما يعارض استسلام أثينا لحكومته ٠

وهكذا سجلت الخطابة اليونانية صور الحياة فى اليونان واتجاهاهم الفكرى كما سجلت بلاغتهم وسمو أساليبهم ٠

أسباب رقى الخطابة اليونانية :

نجمل أسباب رقى الخطابة وتقدمها عند اليونان فى الأسباب الآتية :

١ ـ ما ذكرناه من اتصال الحروب والمناوشات ، وهى حالات تدعو الى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وتشجيع المحاربين واثارة الجماهير ٠٠ وهكذا فهى مواقف تقوم على الخطابة وتعتمد عليها ، وكل ذلك يدعو الى تجويد الخطابة وظهور الخطباء ٠

الحروب

مل اسبرطة

٢ ـ فى الوقت الذى كانت أثينا فيه تعد نفسها اعدادا عسكريا بحتا ، كانت اسبرطة مركزا فنيا عاما ، نشطتفيه التمثيليات والفنون والخطابة والأدب، والتمثيلياتوالمسارح ليست الا منابر للخطابة ، فكان فى كلتا المدينتين نهضة خطابية وتدريب على حسن الالقاء ٠

الديمقراطية

٣ ـ كان نظام اليونان السياسى مشجعا أيضا على الخطابة ، فكانوا اذا عرض أمامهم رأى من الآراء قام صاحبه أو مؤيدوه بتقديم حججهم ، وتوضيح الأسباب التى تدعو الى تشريعه أو رفضه ، فاذا انتهى الخطباء المؤيدون والمعارضون من خطبهم طلب من الحاضرين أن يعلنوا رأيهم والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججه المنطقية ، فكان الخطباء يتبارون فى تنميق عباراتهم واختيار أساليبهم المجازية ، وألفاظهم المؤثرة الجذابة كى يجتذبوا مشاعر الجماهير ويستميلوهم اليهم ٠

٤ ـ كان النظام القضائى يؤدى مثل ذلك أيضا ، فقدكان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيدون علىالمائة وبلغ أيضا عند الرومان نحو أربعمائة ، وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهورا ، ويجعل المحامين يسلكون سبيل التأثير فى عواطف القضاة ، ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية ، فكان ذلك مدعاة الى نهضة الخطابة، لأنها هى التى تحقق للمتقاضين ما يريدون ٠

يضاف الى ذلك أن القضاة كانوا حكاما ومشرعين ، وليسوا فقط مطبقين للقانون الموضوع ، فاذا استمالهم المحامى باسم العدالة العامة والشفقة الى شىء يخالف القانون عدلوا عن نص القانون ، ووضعوا تشريعا جديدا، أو سببا عاما للحكم الذى يريدون ٠

٥ ـ كان النظام اليونانى يقضى أن يدافع كل شخص عن نفسه ، ولم يكن لديهم نظام توكيل محام بمهمة المرافعة، وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها ، وكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة وطرق التأثير فى عواطف السامعين والاستيلاء على مشاعرهم ، وكان الشبان يتعلمون الخطابة ويتدربون عليها استعدادا لما عسى أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء ونشأ عن هذا جماعة السوفسطائية الذين برعوا فى تغيير حقائق الأشياء · وتحويل أذهان الناس الى ما يريدون لا الى ما تتطلب الحقائق وهؤلاء هم الذين حاربهم سقراط ، وعمل على تعليم الشباب المنطق والبحث عن حقائق الأشياء من أجلهم ·

هذا النظام كما هو واضح نظام سيىء فى جانبيهالسياسى والقضائى ، ولكنه شجع على تعلم الخطابة ورواجها ، ومن خطباء اليونان الخالدين « سولون » الذى ذكرناه من قبل، ثم « بريكيلس » ، « ديموستنيس » ، ونذكر كلمة عن كل منهما

بريكليس Pericles

ولد « بريكليس » فى أثينا سنة ٤٩٠ ق·م ، أو نحوها، من أب سياسى مشهور له مواقف وطنية مشرفة ، وتلقى ثقافته على مشهورى عصره ، علمه « زينون » البلاغة ودربه على قوة الجدل وادارة الحوار والتغلب علىمناظريه كما أخذ بحظ كبير من الموسيقى والفنون الجميلة ، ونشأ

كما أخذ بخط كبير من الموسيقى والفنون الجميلة ، ونشأ

« بريكليس » هادىء الطبع ميالا الى التفكير العميق محبا للديمقراطية ، وذلك فيما يبدو من أثر درسه الفلسفة ·

وقد شهد فى صباه ذلك الصراع العنيف بين أثينا واسبرطة ، كل تريد انتزاع زعامة البلاد لنفسها ، وبرز فى

أثينا اتجاهان متضاربان ، أحدهما يدعو الى مسالمة البلدين وتجنب الخصام ، وتزعم الدعوة لهذا الرأى خطيب سياسى يدعى « سيمون Cimon » أو « كيمون » ، وفريق آخر اعتنق الاتجاه المضاد ، وهو احتفاظ أثينا بالزعامة ولو أدى ذلك الى اعلان الرحب والانغماس فيها ، وكان على رأس هذا الحزب « تموستوكليس » · وفى عام ٤٧٦ ق·م هزم هذا الزعيم ، واقتضت هزيمته أن يبعد عن أثينا ، وقام مقامه « بريكليس » ، وأخذ يدعو الى مبادىء حزبه ــ الحــــزب الديمقراطى ــ فبهر وناس بخطابته ، وشعر «سيمون» رئيس الحزب الأرستوقراطى أنه أمام خصم أقوى من سابقه ، وما زال « بريكليس » يترقى فى حزبه حتى آلت اليه زعامته ، والتف الجمهور الأثينى حوله ، فصمد لخصمه عشرة أعوام أبعد « كيمون » بعدها عن أثينا أيضا ·

امتدت زعامة بريكليس نحو ثلاثين عاما من ٤٦٠ ــ ٤٣٠ ق·م ، وتعتبر هذه المدة من العصور الزاهية الجميلة فى أثينا ، لأن « بريكليس » دتعها بنظم ديمقراطية مبتكرة كما أنهض الفنون الجميلة وبنى الأبنية الفخمة ، ومنها مبنى الأكروبوليس الذى لا يزال له آثار باقية الى الآن ، وهو معبد البارثينون الذى زينه الفنان « فيدياس » برسومـــه الرائعة ، والمعبد على رأس جبل يؤمه آلاف السياح الآن · وقد اقاموا خارجه تمثالا للآلهة أثينا وضعوه على ارتفاع سبعين قدما ، وعلى مقربة من الأكروبوليس بنى مسرح كبير يسع ثلاثين ألف مشاهد ، وفيه مثلت الروايات التى أبدعها مشهورو الشعراء اليونان مثل «أنجيلوس» ، «وسوفوكليس» «وأريستوفان» وغيرهم ممن لا يزال الأدب العالمى يحفــــل بأعمالهم ، وهو مسرح « ديونيسيوس » أو الأرديون ·

كان عصر « بريكليس » عصر فن وديمقراطية ، وكانت

أسبرطة اذ ذاك تعد نفسها اعدادا عسكريا ، فلما مـات « بريكليس » انفرجت مسافة الحلف بين البلدين وجثت أثينا تحت أقدام خصومها · وكانت حياته بسبب قوته الشخصية والتفاف الناس حوله ستارا يخفى حقيقة أثينا ، وكان له اهتمام بالبحرية ، وكان أسطوله الكبير يتجول فى بحر إيجه فيبهر سكان الجزر ويزيدهم تعلقا به ، ولكن يبدو أن أعماله البحرية كانت أيضا من نوع الفن والجمال ، دربت الشباب على السباحة والأعمال البحرية ، ولكن لم تكتسب مجـدا حربيا ·

ومهما يكن الأمر فقد كانت بلاغة « بريكليس » وقوتـه الخطابية من أهم أسباب نجاحه ، وقد أدت ديمقراطيته الى ظهور خصوم مناوئين له ، فكانوا يطعنون جهـــارا فى سياسته ويتهمونه بتبديد أموال الأمة ، وكان هـو بدوره يبدالهم الحجج ويناطحهم بالخطب الطنانة التى كان يلقيها فيسحر بها سامعيه ويستهوى قلوبهم ·

وتوجد الآن باللغة الانجليزية مجموعة من خطب«بريكليس» ولا بد أن يكون فى اللغات الأخرى صور منها ، أو مجموعات غيرها ، وهى فى ترجمتها لا يمكن أن تنقـل روح البلاغة الأصلية التى كتبت بها ، ولكنها تعكس جدلا منطقيا وروحا فلسفية تعتمد على المنطق واقامة الدليل · .

ومات « بريكليس » سنة ٤٢٩ ق·م فى طاعون تفشى فى البلاد ، وذهب بعدد كبير من سكانها ، وذهب فيمن ذهب أخت لبريكليس وابناه ، ثم قضى عليه أيضا ، وأحدث موته فراغا واسعا فى سياسة أثينا ، وانحطت درجة الخطابة بعده ، وقام مقامه عدد من صـغار الخطباء والسياسيين أثبتت الأحداث فشلهم وضعفهم الفكرى والخطابى والسياسى

ولد هذا الزعيم العظيم فى أثينا سنة ٣٨٤ ق٠م ، ومات سنة ٣٢٢ ق٠م ، وهو من رجال السياسة والكفاح من أجل أثينا ، وساعده فى كل أعماله ما له من مقدرة خطابية ، وما امتاز به من لسن وبلاغة ٠

نشأته

نشأ «ديموستنيس» يتيما ، ولكن يظهر أن يتمه ومعاناته منذ صغره ، ووقوعه تحت ظلم أقاربه مما أنضج عوده ، ودربه على الاعتماد على نفسه أولا ثم حبه للكفاح والمعارك ثانيا ، وقد ترك له أبوه ثروة كبيرة اغتال أوصياؤه جانبا منها، فلما شب وأدرك قاضىهؤلاء الأوصياء ليسترد حقوقه المغصوبة ، وظهرت براعته فى ميدا نالمحاماة كما ظهرت فى الميادين الأخرى ٠

استعداده

مالت نفسه منذ صباه الى الخطابة ، فأخذ يعد نفسه لها رغم ما كان به من عيب خلقى يحول دون نبوغه فيها ٠ فقد كان ألثغ ثقيل اللسان لا يكاد يبين حروفه ، وكان الناس يضحكون منه ويسخرون من خطابته ولكنه بذل جهدا كبيرا جدا فى تعويد لسانه على النطق والابانة ، ومن محاولاته أنه كان يحبس نفسه الأيام والساعات الطويلة ، وهو يقرأ بصوت جهير ولهجة خطابية تصحبها الاشارات والانفعالات كأنه يخاطب جمهورا ، ونحا فى هذا منحى العرب ، فقد كان من يعتزم حفظ القرآن مثلا يقيد نفسه بالحديد ويعتزلالناس وكان « ميدوسفنيس » يحلق نصف رأسه فلا يستطيع أن يبرز للناس فى هذه الحالة ، ومن محاولاته ايضا انه كان يذهب الى البحر ويضع فى فمه حصاة ، ثم يقف ليخطب محاولا ابراز حروفه وتجويد كلماته رغم وجود الحصاة فى فمه ، وبهذا قاوم ما به من عيب خلقى ، وكان يتخيل الأمواج

جموعا حاشدة تستمع اليه ، فيظل يخاطبها ويهيب بها أن تفعل كذا أو كذا ، وكل هذه المحاولات خلقت منه خطيباكبيرا

وهو فى فاتحة حياته درس القانون ودرس الخطـابة ، واتخذ منهما معا عونا له فى مقاضاة خصومه ، والدعوة الى مذهبه السياسى ٠

سياسته

وكان مذهبه السياسى يقوم على الدعوة أن تكون أثينـا زعيمة البلاد اليونانية ، وأن تقوم زعامتها على العمل لنفع اليونانيين جميعا ، ومرجع هذه النزعة لديه ولدى من سلكوا هذا المسلك قبله ترجع الى التعصب للعنصر الأيونى الذى ينتمى اليه أهل أثينا، بينما ينتمى أهل اسبرطة الى الدوريين وكانت أثينا بحق مهدا للديمقراطية بينما كانت اسبرطـة تتسم بالأرستقراطية ، أما سائر البلاد والجزر فكان سكانها من جنسيات أخرى ، وكانوا فى أغلب الأوقات مستقلين ، وأحيانا ينضمون الى احدى المدينتين الكبيرتين ، ولكن لم يستهوهم أحد ما استهواهم ديموستنيس ٠

معارضة فيليب

عاصر « ديموستنيس » قيام فيليب بالمقدونى والد الاسكندر وقد قدمنا أن فيليب كان يريد تحاشى الحروب ، لـكن ديموستنيس كان يرى أنه حاكم مستبد وأنه يريد فـرض سلطانه على اليونانيين ، كما يرى أن حكم المقدونيين حكم عنيف بعيد عن الديمقراطية والعدالة ، وأن حكم اليونان هو الحكم الانسانى العادل ، وقد اعتمد كل من الرجلين فيمـا اعتمد على الخطابة ، وكانت خطبهما أشبه بالنقائض ، كل يدعو لفكرة ضد فكرة صاحبه ، وكل يدعم رأيه بالأدلـة ويدحض رأى صاحبه ، وكان « ديموستنيس » يحرض على فيليب ويحذر من وقوع أثينا تحت يده ، وتنازعا معا مدينة ثيبة كل يسعى لضمها اليه ، فلما ذهب اليهـا ديموستنيس وجد أعوان فيليب قد سبقوه اليها ولفتوا أذهان الناس اليهم

بخطبهم ، ولكنه أظهر مهارة خطابية رائعة ردت سكان ثيبة اليه ، ونجح فى مسعاه اذ انضمت المدينة الى أثينا ، وأيد نصره الخطابى نصر آخر حربى هزم فيه فيليب وجيشه ٠

وخطبه فى كل هذه المحاولات تعرف باسم الخطب الفيليبية

موقف الاسكندر

ولما تولى الاسكندر الأكبر مركز أبيه لم يثبت اليونان أمامه ، فاختار ثمانية من الخطباء لقتلهم كان ديموستنيس أحدهم ٠ وأظهر الاسكندر نبلا عظيما اذ عفا عنهم جميعا ، لكن ديموستنيس ظل على رأيه فى عداء الحكم المقدونى ، فلما مات الاسكندر قام هذا يدعو من جديد الى معـــاداة المقدونيين ولكن سياسته فشلت ، وفقد مكانته فحكم عليه بالاعدام ، ورأى هو أن يفلت من هذه العقوبة فتجرع السم ومات سنة ٣٢٢ ق٠م ، ولكن خلدته آثاره الخطابية ٠

يعتبر « ديموستنيس » خطيب اليونان ، كمـــا يعتـــبر « هوميروس » شاعرها وشخصية هوميروس غير مقطوع بوجودها ، ولكن ديموستنيس مقطوع بوجوده ، وأعماله حقائق تاريخية ٠

كان خطيبا سياسيا واجتماعيا ، وخطيبا قضائيا ومعلم خطابة ، وكان لخطبه ميزة خاصة هى فخامة الأسلوب واختيار الألفاظ مع بساطة الموضوعات والفكرة ، ولا تزال له آثار باقية ، وتعتبر خطبه نماذج يحتذيها من يريدون اجادة الخطابة

نهـــاية ديموستنيس :

كان ديموستنيس شديد الاعتداد بوطنه ، شديد التمسك بوطنيته ، وعقب موت الاسكندر ، قام بحث المدن الاغريقية على الاتحاد والتماسك ، ثم حـرب الفيلبيين للتخلص من حكمهم ، واستطاع أن يثير شعور مواطنيه وهو فى غربته ،

ولما عاد الى أثينا استقبل استقبالا رائعا ، وحفه موكب كبير من الميناء الى المدينة ، وقامت بذلك حرب تعـرف بالحرب اللامية ، فلاقت نجاحا أول أمرها ولكن القائد الفيلبى انتباتن Antipaten أباد القوات الاغريقية فى موقعة كرانون Cranon وصدر أمر بقتل ديموستنيس ، ولكنه هرب الى معبـــــد بوسيدون Posidon فى بعض الجزر ، وتابعه رسول من انتيباتن ليرده ، فأخذ الرسول وكان من الممثلين المسرحيين ، فأخذ يغريه ويمنيه ، لكن ديموستنيس قال له : « ان وعـــودك لا يوثق بها » فعاد يهدده ، فأصر ديموستنيس على موقفه لأنه يدرك عاقبة استسلامه أسيرا لأعدائه . فطلب من الرسول أن يمهله حتى يكتب بضعة سطور ، ثم غافله وامتص سما كان فى طرف قلمه ، وأراح رأسه على يديه كمـا لو كان يفكر . ولما استحثه الرسول على النهوض معه قال له : لقد آن وقتك لتلعب دور كريون "Cimon" لترمى بجسدى دون أن تدفنه ، ثم أخذ يخاطب بوسيديون :

« أيها المعبود بوسيديون ، أترك معبدك وأنا على قيـد الحياة ولكن انتيباتن واتباعه المقدونيين لم يتركـــوا حتى معبدك بدون تدنيس » ثم نهض ليقوم فسقط جثة هامدة على سلم المذبح ، وهكذا كانت الخطابة آخر ما فعل .

آثـاره الخطابية :

ذهبت معظم آثاره الخطابية ، ولم يبق منها الا أقل مما كان ينتظر ، وقد تضاربت الآراء فى مكانته الخطابية بين معاصريه ، وكان له معاصرون ينافسونه ويتفوقون عليه فى بعض الجوانب ، ويقاربون مكانته الخطابية العامة ، من أشهرهم فوكيون واسخينيس ، وكان لكل ميزته كمـا أن ديونوسيوس كانت له كتابات أشد نقاء وأبلـغ تعبيرا من

معارضوه

كتابات ديموستنيس ، وكان فوكيون أكثر تأثيرا ولكن تأثيره يرجع الى شخصيته ومهابته ، وله قدرة على الايجاز والتعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة عديدة ، وكان ديماسيس يرتجل خطبه ويؤدى بها تأثيرا أكثر منه ، وعلى أى حال حكم السابقون بأنه أمير الخطابة اليونانية ، وأثنى عليه الخطيب الرومانى شيشرون ، وكل هؤلاء رأوا من آثاره الخطابية أصح وأكثر مما وصلنا ·

هذا من ناحية مكانته ، أما من ناحية أمثلتها فهناك مثالا لاحدى خطبه المحرضة على فيليب ، وقد قالها فى موقف حرج كان الأثينيون فيه قد يئسوا من الحرب وركنوا الى مسالمة هذا المحارب العنيف ومنها (١) :

خطبة له

« سادتى ، يجب علينا بادى ذى بدء ألا نيأس من حالة شئوننا الحالية ، ولو أنها فى خطر ، لأن عظم ضعفنا فى الماضى سيكون قوتنا فى المستقبل ·

ماذا أعنى ؟

أعنى أنكم الآن فى متاعب ، لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجبكم ، واذا ظلت الأمور كما هى — رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاق فلا أمـــل فى التحسن ، أود أن تفكروا فى القوة التى كانت لاسبرطة منذ أمد بعيد ، والتى يتذكرها بعضكم ويسمع عنها بعضكم الآخر ، ومع ذلك فقد قمتم فى وجه تلك القوة بشرف ونبل ، ولم تحطوا من قـــدر مجد وطنكم ، فواجهتم الحرب غير هيابين ولا مترددين ، لعدالة غرضكم ···

لو ظن أحدكم أن فيليب لا يقهر ، ناظرا الى ضخامة القوات التى تحت تصرفه ، والى أن مدينتنا قد فقـدت كل الأماكن

---

(١) ملخص من كتاب خطباء اليونان ترجمه د · أمين سلامة ·

لكان محقا فى ظنه ، وكان اعتقاده يستند الى أساس ، ولكن لينظر ذلك الشخص الى أننا فى وقت ما كنا نملك « بودنا وميثونى و ٠٠٠ » وسائر تلك المقاطعة ، وأن كثيرا من القبائل الخاضعة له الآن كانت حرة مستقلة ، وكانت تفضل أن تكون تابعة لنا لا الى مقدونيا ٠

لو أن فيليب كان قد شعر كما تشعرون ٠٠ أن محاربة أثينا أمر جليل ، لأنها تملك كثيرا من الحصون التى تشرف على مملكته ، عندما لم يكن له حلفاء ، لما فاز بأى انتصار، ولما وصل الى تلك القوة العظيمة التى ترتجفون منها الآن، ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأماكن ما هى الا جوائز الحرب التى تمنح فى مسابقة حرة ، وأن أملاك م نتيغيب عن سوق الوغى تذهب طبيعيا لمن يتقدم الى الحرب طالبا أن يحصل عليها ، وأن من يرغب فى العمل يجد وفى المجازفة قد يحل محل من يهمل الفرص ٠

لا تظنوا أن فيليب إله آمن فى ممتلكاته الى الأبد ، ان هناك رجالا يبغضونه ويخافونه ويحسدونه ، حتى بين أقرب خاصته ، وانهم ليخفون هذا الشعور الآن لأنهم لا يجـدون منفذا فى تباطئكم واهمالكم ، فاخلعوا عنكم هذه العادة ، اذا ما سألت : متى تهبون من سباتكم وتقومون بواجبكم ، تقولون : سيكون ذلك عندما يحين وقت الضرورة ! ، وماذا تظنون فى الأزمة الحالية ؟ أعتقد أن أمة حرة لن تكون فى أعظم م نالوقت الذى يكون سلوكها فيه مخجلا وعارا عليها ٠

خبرونى يا سادة ٠٠ أتريدون أن تمضوا وقتكم فى ذرع الطريق يسأل بعضكم بعضا : هل هناك خبر جديد اليوم ؟ وأى خبر أخطر من أن أحد المقدونيين يسحق أثينـا الآن ، ويملى سياسته على اليونانيين ، يقول أحدكم : فيليب ميت، ويقول آخر : بل هو مريض ، وما الفرق بين الحالتين لكل؟

انه لو مات فيليب فانكم سرعان ما تطلبون وجود فيليب آخر ٠٠ ليت قوته هى التى رفعته بقدر ما رفعه جمودكم ٠

تحليل الخطبة

هذا النموذج من خطب ديموستنيس يعكس مظهر حماسه وغيرته الوطنية ، ومن ناحية الصوغ الفنى للخطبة نجده قد بدأ يدعو قومه الى عدم اليأس من اصلاح ما تعانيه البلاد من سوء ٠ وهو بهذه البداية شجعهم واستمالهم الى الاستماع اليه ، ثم انتقل فذكر الحال السيئة التى يعانونها ولم يشأ أن يطيل فى تصويرها لأنهم يحسونها ، وغرضه الأساسى من الخطبة هو اثارتهم وتشجيعهم على حرب فيليب وقد استبد هذا العنصر بالخطبة وسلك له عدة مسالك ٠

ذكرهم بما كان تحت أيديهم من مدن اليونان وقراها ، حملهم مسئولية ما حل ببلادهم ، وذكر أن تواكلهم وتوانيهم هو الذى هيأ لفيليب تقدمه ، ولبعث الأمل فى نفوسهم ذكرهم بانتصاراتهم على اسبرطة ، وهذا يعنى أنهم اذا هبوا فى وجه فيليب فانهم سينالون هذا الانتصار ، ثم وازن بين اقدامه وتراخى اليونانين ، وأنه لو كان على مثل شعورهم لتوانى وناله الكسل ، ولكن تكاسلهم شجعه فكانت هذه الممتلكات التى تحت يده جوائز شجاعته ، ثم نحا منحى آخر فأشعرهم أنه يعانى محاربة الأعداء وانقسام الأتباع ، مما يسهل مهمتهم ، ولكنهم لن يحققوا شيئا وهم متخاذلون ان تقاعدهم هو الذى أسلم بلادهم لفيليب ، ولو لم يكن فيليب هو الذى امتلكهم لظهر شخص آخر مكانه لأن الأرض التى لا حامى لها يطمع فيها كل مالك ٠

والخطبة مليئة بتوبيخ الأثينيين ولكنها أيضا مليئة بصور التشجيع والاغراء ٠

لوسياس Lysias

فى بداية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الخطابة اليونانية قد بلغت حد النضج ، ومهر خطباؤها ـ بفضل تعاليم السوفسطائية ـ الى درجة بالغة فى التأثير ، ومقدرة رائعة على تصوير الحق فى صورة الباطل واظهار الباطل فى صورة الحق ، وقصة كوراكس مع تلميذه تبسياس مما يعطى صورة واضحة عن هذه السفسطة ۰

كان ايسوكرانيس قد كون لنفسه شهرة خطابية ، وأخذ التلاميذ يلجأون اليه يتعلمون منه ، والمتقاضون يطلبون منه اعداد خطب لهم ، بينما كان اندوكيس يؤلف أيضا خطبا لمن يطلب ، ولتبقى لاستعمالها فى الوقت المناسب ، وكان ايسيوس Lsaevs قد حبا الى الشهرة ، وكان صغار الخطباء يتعلمون ممن فوقهم ويعلمون من دونهم لهذا كانت سوق الخطابة أروج سوق وأنفقه ۰

فى هذا الجو نشأ لوسياس ، وتاريخ ميلاده بالضبط غير متفق عليه ، ولكن اشتهر أنه ولد سنة ٤٥٩ ق۰م ، وعمر أكثر من ثمانين عاما ۰ ولد فى أثينا ولكنه من أصل سيراكوزى، وانتقل أبوه باغراء بريكليس الى أثينا ۰

ونشأة لوسياس فى هذا العهد حببت اليه الديمقراطية ، وقد درس الخطابة والبلاغة على تسياس ـ أحد البلغاء البارزين ـ فتفوق فيما تعلمه ثم استعمل لسانه وخطبه فى نصر الديمقراطية ، وقد عانى فى سبيل مبادئه كيرا ، حتى حكم عليه بالاعدام لكنه هرب ، وفى منفاه عمل على تشجيع رفاقه دعاة الديمقراطية ، وعاش فترة طويلة يعد الخطب وأحيانا يلقيها ، فكان سياسيا وأديبا ، ولكن معظم خطبه بها فتور عظيم لأنها كانت تكتب ولم تكن ملقاة ۰

طريقته في الخطبة

كانت خطبه بسيطة الأسلوب والتركيب ، وأكثرها تمثل في عناصر أربعة : المقدمة والعرض والبرهان والخاتمة ، وكما رأينا من قبل كان العرض والبرهان لديه يندمجان حتى يعسر أحيانا أن نفصل بينهما · لأن عرضه القضية لم يكن مجرد سرد ، بل كان يحوى تعليقات توضيحية قد تغنى عن الأدلة ·

مقدمة

أما مقدمته فكانت عبارات موجزة تمت بصلة قوية الى موضوعه ، وكان الخطباء فى عصره يستعملون جملا خاصة لافتتاح الخطب ربما كررت فى العـديد من خطبهم ، لكن لوسياس لم يكن كذلك ، فقد أثر عنه نحو مائتى خطبة ليس فيها مقدمة مكررة ، وكذلك كان شأنه فى ختام خطبه ، يلخص موضوعه ولا يعيد شيئا من ألفاظه مما يبرز مقدرته الكلامية وينسب اليه أربعمائة وخمس وعشرون خطبة ، ولكنها ليس مقطوعا بأنها كلها من عمله ، ولكنها تدل على أنه من أثرى خطباء اليونان خطبا ·

أسلوبه

أما أسلوبه الخطابى فكان بسيطا مرنا كثـير التلون ، أحيانا يستعمل عبارات مسجوعة وجملا متوازنة ، وأحيانا يستعمل كلاما مرسلا ، وربما أكثر من ذكر الجمل المعترضة كل ذلك حسب الموضوعات التى يتعرض لها والجزئيات التى تعالجها خطبته ، ونظرا لأن مدار المرافعة فى هذا الوقت كان يتوقف على استمالة القضاة والتأثير فى مشاعرهم ، كان الأسلوب ذا أثر كبير فى نجاح الخطبة ·

وقد ترك لوسياس خطبا منوعة توضح أسلوبه ومرونته، وطرق مواجهته المواقف المتباينة ، ففى مرافعة أعدها للدفاع عن شاب أثينى عريق النسب حسن التربية ، يعترف بطموحه وبأنه ذو عاطفة مهذبة ، نجد لوسياس يجنح الى جـوانب فرعية ربما ليست وثيقة الصلة بموضوعه ، وهى حديثه عن أسرة الشاب وما لها من مآثر على الوطن العزيز ، ومنها :

نموذج من الخطبة

فمن مثل هذه البيانات يجب انصاف الرجل الطموح فى حد الاعتدال فى حياته العامة ، فلا ينبغى أن تمقتوا رجلا لأنه يصفف شعره على طراز حديث ، هذه عادات شخصية بحتة لا تؤذى أى فرد ، ولا تسبب أى ضرر للمجتمع ، كما أنكم تستفيدون ممن يواجهون أعداءكم بمحض ارادتهم ، انه ليس من العدل فى شىء أن تحبوا أو تكرهوا شخصا ما بسبب مظاهره الخارجية ، وانما يحكم عليه بأعماله ، فكم من أشخاص قليلى الكلام كانوا مصدر متاعب وأضرار ، بينما كانت هناك فئات أخرى على عكس تلك السجايا قامت بخدمات جليلة للمجتمع ٠

كذلك هناك من حنقوا على لأنى تجرأت على الحديثأمام الجمهور ، كنت فى نظرهم لا أزال غض الإهاب ، ولكننى أجبرت على الكلام عن أمور تخصنى ، وفــــوق ذلك فانى بفطرتى طموح لدرجة كبيرة ٠

إن أجدادى لم يكفوا أبدا عن خدمة الدولة ـ وصراحة أرى مثل هؤلاء وحدهم يجب أن يكونوا موضع تقديركم ، وطالما كانت هذه عقيدتكم فمن الذى يجرؤ على الدفاع عن الدولة بالقول والعمل ؟ ولم تغضبون على من يعمل ذلك ، وليس لأحد سواكم أن يحكم عليهم ، فأنتم وحدكم تملكون هذا الحق ٠

ومن خطب لوسياس الشهيرة خطبة أعدها للدفاع عن شاب مقعد كان يحصل على معونة من الحكومة ثم اتهم بأنه كان يدعى ادعاءات كاذبة للحصول على هذه المعونة ، وفى هذه الخطبة تبدو روح السخرية والتهكم ٠ ومنها :

خطبة اخرى

« ٠٠ شكرا للمدعى على تقديمى لهذه المحاكمة ، لم أكن حتى هذه الساعة أجد سببا به أتحدث عن حياتى ، وقد أتاح

المدعى لى هذا السبب ، وسأبين فى حديثى مدى خطئه وكذب تهمته ، وأوضح لكم بالأدلة القاطعة أن حياتى تستحق كل عطف وثناء واعجاب بدلا من الغيرة والأحقاد ، لا أعتقد أن هناك سببا دفعه الى تقديمى للمحاكمة الا هذا السبب ، سبب الحقد والحسد ، فما ظنكم بالخيبة والحقارة التى يهوى اليها من يحسد شخصا يشفق عليه ويرثى لحاله الناس جميعا ٠

طبيعى أنه لم يقم بالتبليغ عنى ليجنى من وراء ذلك أموالا وهو أيضا لا يقصد معاقبة عدو يريد أن ينتقم منه ، وانما دفعه الى ذلك سوء خلقه ، اذ لم يسبق لى أية معاملة معه ٠

واضح لكم من هذا أيها السادة أنه يغار منى ، فاننى على الرغم من عاهتى هذه ، مواطن شريف أحسن منه ، ان المرء المنكوب المصاب يعمل دائما كى يعوض عن نكباته الجسدية بسجايا عقلية حميدة ، ولو أبديت عقلية تتناسب وجسدى المنكوب الحظ ، وصغت حياتى تبعا لذلك لكنت شخصا سيئا مثله ٠٠ (وقد اتخذ من ركوبى ذريعة لاتهامى) ٠

وليس لدى كثير أقوله عن ركوبى الذى تجرأ على ذكره غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم ، فانى أعلم أن الذين يعملون تحت أى ضغط أو يتحملون أعمـالا فـوق طاقتهم يضطرون لتلمس لحظات للاستجمام ، ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون ، اننى واحد من هؤلاء، وقد وجدت فى الركوب لأى مسافة شيئا من الراحة ، ولو كنت ميسور الحال لنشدت راحتى فى ركوب بغل بدلا من استعارة جواد ٠ ولكن ما حيلتى وليس لدى ما أشترى به دابة ؟ فانا مضطر دائما الى استعارة جواد ٠

إنى لأعجب من هذا الاتهام ، يرانى أسـتعمل عصوين وغيرى من العرج والأصحاء يمشى وبيده عصا واحدة ، فلا

يرثى لى ولكن يتهمنى بالترف والاسراف ، لأن الأغنيـــاء وحدهم هم الذين يستطيعون شراء عصوين !!

وهكذا تمضى الخطبة تستعرض التهم واحدة بعد أخرى لتفندها وتردها ٠ وتطلعنا هذه الخطبة على جانب من أخلاق الشعب الأثينى،ونوع القضايا التى كانتتقدم لهيئاتالتحكيم

مثال ثالث

وهناك مثال آخر من خطبة يبدو فيه الأسلوب القصصى٠ وهو حديث عن مقتل شخص ٠ وفيـــه يتحـــدث زوج عن تصرفات لزوجته :

وهكذا أيها السادة سارت الأمور حتى رجعت يوما من الريف على غير انتظار ، وبعد تناولى غذائى كان الطفـل يصرخ ويتململ ، وكان الخادم يعاكسه قصـدا كى يصرخ ويصيح لأن ـ ايراتوسنيس Eratosthenes كان بالمنزل ، ولم أعرف كل ذلك الا فيما بعد ـ وقد طلبت من زوجتى ـ اذ ذاك ـ أن تذهب الى الطفل لتطعمه وتمنعه من البكاء ،ولكنها تباطأت متعللة باغتباطها بعودتى بعد غياب طويل ، ولـما انتهرتها ثانيا محتما أن تقوم لمراعاة الطفل قالت : نعم ٠ سأذهب ، وسأدعك أنت والخادم وحدكما ٠ لأنى أذكـــر ما حدث منك ذات ليلة وأنت سكران ! فضحكت ٠

وقامت زوجتى وهى تتظاهر بالمزاح فى اغلاقها الباب ، ثم أوصدته من الخارج ٠

لم أفكر فى شىء ، ولم تدر أى شكوك بخاطرى ، بل وذهبت الى مضجعى ناشدا للراحة بعد العمل المضنى فى الريف طوال ذلك اليوم ٠

وفى الصباح الباكر عادت وفتحت الباب ، ولما سألتها عن سبب ايصادها الأبواب طوال الليل أجابت بأن المصباح المجاور لسرير الطفل انطفأ ٠ فخرجت تبحث عن مصباح عند جارتها ٠

لم أجادلها لأنى كنت أظن كلامها عين الحقيقة ، ولكنى أتذكر جيدا أن وجهها كان عليه مساحيق رغم موت أخيها منذ زمن أقل من شهر · لم أسألها عن ذلك أيضـــا ، ثم غادرت المنزل واتجهت الى عملى » ·

وهذه الخطبة ترينا جوانب من حيـــاة اليونان فى ذلك الوقت ، وعن شىء من زينة المرأة ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز ·

الخطابة فى العهد الرومانى

لمحــة تاريخية :

تطار الحكم الرومانى

ترتبط حال الخطابة الرومانية بحال الحكم فى تلك البلاد وقد نشأت الحكومة الرومانية فى روما ملكية مطلقة تستمد سلطانها من السماء ، ومنذ ســنة ٥٠٠ ق٠م تحولت الى جمهورية ، ولكن لم يكن لها امبراطور واحد ، بل كان الشعب يختار حاكمين معا ، يحمل كل واحد منهما اسم القنصل ، ومدة حكمهما لا تتجاوز العام الواحد ، وكان يعاونهما مجلس من النبلاء والأشراف ذوى المناصب العالية فى الدولة ، ويبلغ عدد هؤلاء نحو السبعين ، ثم سمح بوجود ممثلين من الشعب أطلق على الواحد منهم اسم تربيون ولكن هؤلاء لم يزيدوا على عشرة أشخاص ، ولما بدأت رومــا تتوسع فى فتوحاتها وتغزو الممتلكات اليونانية برز قائد كبير هو بومبى ، الذى قضى على قراصنة البحر الأبيض المتوسط الذين كانوا يهددون تجارة روما ، فاختاره الشعب ليكون الرئيس على البحر المتوسط ، وحيث أثبت نجاحا وكفــاية اختير رئيسا على آسيا الصغرى ، فمد فتوحاته الى الفرات شرقا ، واستولى على سوريا فأخضع القسيس الأكبر فى القدس الى سلطان روما ٠ وكان ذلك نصرا عظيما جدا ٠ فاختاره الشعب رئيسا على روما كلها وسمى الرئيس الأعظم

بومبى

يوليوس قيصر

وفى هذه الأيام ظهر ثرى موهوب هو يوليوس قيصر ، كان ماهرا فى قيادة الجيش والحروب محبا للعدالة ، له مقدرة على الخطابة قلما تمتع بها شخص آخر ٠ وسرعان

ما أصبح الحاكم المطلق فى الجهة التى هو بها · وكسب لايطاليا مجدا جديدا · ومع كثرة الأعمال التى قام بها ، وجد متسعا من الوقت ليكتب قائمة بأعماله المشرقة ، وقدمها الى مجلس النبلاء فى روما · فدل بهذا العمل على أنه كاتب بقدر ما هو خطيب ، وسمى مذكراته « التفسيرات » وهى لا تزال الى الآن من الكتب المشهورة فى أنحاء العالم ·ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة ، ويقرؤها الآن البادئون فى اللغة اللاتينية لتعلم هذه اللغة · كما يقرؤها المثقفون للدرس والسياسة والتاريخ · وعندما انتهت مدته طلب بومبى وقواد آخرون منه أن يسرح جيشه ، ولكنه رفض ، واتجه الى روما فخافه بومبى وفر الى اليونان ثم الى مصر حيث قتل غيلة بها · ولكن يوليوس قيصر فى هذه المطاردة قابل الملكة كيلو باترا ملكة مصر ـ فوقع فى غرامها وتزوجها ، وذهبت معه الى روما سنة ٤٥ ق‌م حيث أقيم لها استقبال رائع عظيم ، وأنجب منها ابنه قيصرون ·

محاكمته

ومع هذا المجد الباذخ تمت أيضا عداوات وأحقاد ضد القيصر، واتهم اتهامات كثيرةوكان صديقاه بروتسر Brutvus وكاسيوس Cussius هما اللذان قاذا المكيدة ضده ، وعقدا له مجلس محاكمة رهيبا ظل الخطباء يذكرون أخطاءه ومظالمه حتى أثاروا عليه الناس فقتلوه ، ودهش القيصر للطعنة القاتلة من يد بروتوس ، فالتفت وقال : حتى أنت يا بروتس؟

انطونيو واكتافيو

وكان من أصدقاء القيصر وقواده · أنطونيو Mark Antony وأوكتافيو octavian ،فغضبا لمصرعه ووقف أنطونيو عند تشييع جثمانه فالقى خطابا مثيرا رهيبا استفز به السامعين وأثار غضبتهم على قتلة القيصر ـ ثم طارد هو وأوكتافيو بروتس وكاسيوس الى بلاد اليونان حيث ماتا منتحرين ·

أصبحت السلطة الآن فى يد أنطونيو وأوكتافيو ، ومع بقاء الدولة الواسعة الأطراف فى وحدتها كان أوكتافيو هو المختص بالأقاليم الغربية ، وكان أنطونيو هو المشرف على الشرق ، ولكنه أيضا كقيصر وقع فى حب كليو باترا وكان زوجا لأخت أوكتاف ، فقامت بينهما معارك انتهت بنصر أوكتاف ودخول مصر فى قبضة الدولة الرومانية ٠

الاستيلاء على مصر

وفى وقت هذا النزاع ظهرت المسيحية ، وتسللت ببطء الى أعماق الدولة الرومانية الكبيرة، ولم يعبأ بها أباطرة الرومان أول الأمر ، لكنهم فيما بعد لمسوا فيها خطـرا يهدد ملكهم ويزلزل عظمتهم ، فصبوا جـــام غضبهم على المســيحيين وأذاقوهم ألوان العذاب ، لكن الوثنية كانت قد فقدت سلطانها على نفوس الناس ، وسئموا ماديتها الفارغة ٠ فأقبلوا على المسيحية رغم ألوان التعذيب التى انتابتهم ، ولـمـا جـاء الامبراطور قسطنطين وجد المسيحية توشك أن تهز عرشــه فقررها دين الدولة الرسمى ، ثم أخذ يكره الناس عليها ، وانعكست آيات التعذيب ، فعذب الوثنيون وأعفى المسيحيون لكن المسيحيون ما لبثوا أن انقسموا ، واختلفت آراؤهم فى المسيح فسببوا لأنفسهم عذابا آخر جديدا ، وظلوا كذلك حتى ظهر الاسلام فى الشرق واستولى على أطراف الامبراطورية الرومانية فخلص رعاياها من هذا العذاب ، اذ أباح لكل طائفة مسيحية أن تتبع المنهج الذى تريد ، ولكل فـرد أن ينتمى الى أى فرقة ٠

ظهور المسيحية

هذه لمحة عابرة تبرز بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه الدولة ، لم نر بدا من ذكرها قبل الحديث عن الخطابة فى هذا العهد ٠

بداية الخطابة الرومانية

قلنا من قبل ان الخطابة لا تنمو الا تحت شمس الحرية ، ولم تكن حياة الرومان ممتعة بحرية كافية ، ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة كالتى أشرنا اليها من مواقف بروتوس وأنطونيو ، ذلك أن الشدائد وأزمات الحياة تدعو الى الخطابة وتظهر الخطباء ــ واتخذ الكتاب والشعراء فيما بعد من موقف بروتوس من يوليوس قيصر ثم من موقف أنطونيو من بروتوس مجالا لتمثيل سحر البيان وأثر الخطابة فى نفوس السامعين ، ولعل تمثيليــة شكسبير الخالدة من أبرع ما يمثل هذا الموقف العجيب الذى تموجت فيه عواطف السامعين وحماساتهم ، مرة يغضبون عليه وأخرى يرضون عنه ويهجمون على قاتليه ، ولا تزال مرثية أنطونيو من الآثار الأدبية الرائعة ، وأشهر خطبــاء الرومان على الاطلاق هو شيشرون الذى نفرد له ترجمــة وجيزة ٠

فى العهد المسيحى

وفى العهد المسيحى ظهرت خطب دينية ، وكان الموقف خليقا أن يخرج خطباء ممتازين كبارا ، ولكن المسيحية ظلت ــ كما ذكرنا ــ مكبوتة ، فلما صارت ديانة رسمية انشقت على نفسها ، واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكى ، ولما ظهر هرقل بمذهبه الذى قام على وحدة الارادة ، والذى أراد به أن يوفق بين المذاهب المتضاربة كان قصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهبا آخر ، وكان بطشه وظلمه مما قتل الخطابة وكمم أفراه الخطباء ٠

شيشرون

من هو

هو ماركوس ثيولوس ، عاش قرب نهاية الامبراطورية، وشارك فى الحياة السياسية وظل نجما لامعا فى سماء الخطابة والسياسة والقضاء حتى قتل فى سنة ٤٣ قم ·

بدايته

ولد شيشرون سنة ١٠٦ قم ، من أسرة ذات مال وثقافة ومحبة للفنون ، ودرس فى روما القانون والبلاغة والفلسفة والأدب اليونانى ، وله فضل كبير على اللاتينية ، ذلك أنه استعملها ــ دون اليونانية ــ فى كتابته ومرافعاته القضائية فأكبره الناس وقدروه وقلدوه ·

كان محاميا قديرا ، وكاتبا أديبا ، وسياسيا لبقا ماهرا·

فقامت شهرته على عملين أدبيين ، هما رسائله ، ومرافعاته القضائية ·

رسائله

كان له عدد من الأصدقاء خارج روما ، فكان يكتب لهم رسائل مطولة تصف جميع أخبار روما وما يحدث بها ، وكان يحشوها أحيانا بالنكت والسخريات ، كما تصف حياة الناس الأدبية والكتب التى تظهر ، وما يدور فى المجتمعات من أحاديث ، وهذه الرسائل وان لم تكن محل درس لمن يؤرخون الخطابة ، تعكس مقدرة الكاتب البلاغية ، ومدى ما كان يتصف به من ذكاء ودقة حس ، وهى جميعا من مكوناته خطيبا ، وهذه الرسائل لا تزال محفوظة الى الآن تعطى صورة حية عن حياة روما فى ذلك العهد ·

خطبه

أما خطبه القضائية فهى سبب شهرته ، وهى التى هيأت له أن يكون قنصلا فتولى هذا المنصب سنة ٦٣ قم ، وأول خطبة لفتت الأنظار اليه كانت خطبة قضائية ضد رجل من ذوى النفوذ ، سوغ له شرهه الماذى أن يلصق تهمة بأحد

الأثرياء ليحكم عليه بالسجن ، ومن ثم استولى على ممتلكاته بثمن زهيد يكاد يكون اسميا فقط ، وتولى شيشرون الدفاع عنه ، وكان يومئذ شابا لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، فأبدى حماسا رائعا وبلاغة قوية وحججا واضحة، مما أدهش السامعين والقضاة ، فبرىء المتهم وأعيدت اليه ثـروته ٠

بعض مواقفه

وله موقف آخر شبيه بهذا حين كان فى الثلاثين من عمره ذلك أن والى صقلية من قبل روما وكان يدعى فيريس أسرف فى ظلم السكان ونهب أموالهم ، فاختاروا شيشرون كى يدافع عنهم ، فأخذ يصور حال السكان وما يعـانونه من ظلم الحكام الرومانيين واستهانتهم بهم مما رقق القلوب وهاج عواطف الرحمة لهؤلاء المحكومين المساكين ، كما أبرز حكام الرومان فى حالة من الخجل من سوء تصرفاتهم ،وقد أغضبت خطبه هذه معارضيه من الأحزاب الأخرى ، ولكنها رغم غضبهم ارتقت به ليكون قنصلا ، ولقب قنصل هو أرقى المناصب الرومانية ، وكان لقب الامبراطور يطلق على قواد الجيش ، ولم يتخذ لقبا للحاكم الأعلى الا منذ عهد أوكتاف (أغسطس) ٠

وبعد مصرع القيصر قام شيشرون بخطب كثيرة ضد انطونيو وأوكتافيو ، فأثار عداوتهما ضده ، فلما آل اليهما الحكم قررا اعدامه فقتل سنة ٤٣ قم ٠

درسه

كان شيشرون فيلسوفا ، ومحبا للعلم والاستزادة منه، فكان أثناء خلو حزبه من الحكم يعكف على القراءة والكتابة ويستزيد من درس الفلسفة ، وقد غادر روما مرة لمدة عامين طاف خلالهما بآسيا الصغرى وأثينا وبعض الجزر ٠ وعمق دراسته الفلسفية فى أثينا ، وله مقالات فلسفية كثيرة ،منها

مقالات فى الشيخوخة ، والصداقة ، والواجب ، ورسالة فى طبيعة الآلهة ، وأخرى فى « النهاية الحقة للانسان » ٠

وترجمت آثاره الى كثير من اللغات ، أما خطبه القضائية ضد فيريس فلا تزال الى الآن مثالا يحتذى من حيث جودة الأسلوب ، ورصافة التعبير وقوة الحجة وترتيب الأفكار ٠

أعم من فرجيل

واذا كان فرجيل أعظم شاعر أنجبته « روما » فى هـذا العهد ، وشيشرون أعظم خطيب ، فانا نرجح كفة شيشرون لسبب واضح جدا ، وهو أن فرجيل كان صدى لهوميروس، وملحمته الكبيرة « الإنياد » ليست الا صورة من ملحمة هوميروس « الإلياذة » ولا يبقى له إلا تعبيره وبلاغته ٠ أما شيشرون فيبدو نسيجا وحده كما يبدو اعتماده على ثقافته وتفكيره الخاص ٠

وهو فى نظر المؤرخين خطيب وأديب وكاتب أكبر منه سياسيا ، وصفة الخطابة على أى حال سياسية أو قضائية هى أبرز صفاته ٠

الرومان واليونان

ومما يفرق به بين اليونان والرومان ، أن اليونان أمة فلسفة وأدب وفنون ، أما الرومان فكانوا دولة سياسة وقوانين ، وكانوا يعتمدون على التراث اليونانى فى الفلسفة والآداب ، ولهذا يقول المؤرخون : ان اليونانيين غزوا الرومان فكريا حين غزاهم الرومان عسكريا ٠ وأجمل مواقف الخطابة الرومانية هو ذلك الموقف الذى نشأ بعد مقتل يوليوس قيصر ، وقد ألمنا بصورة منه ٠

خطبة لهانيبال

أيها الجنود ، انى لا أدرى اذا كان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى ، فقد شد بكم الوثاق ، وحمت الحاجات، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم ، وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون اليها ، ومن بين أيديكم نهر يو ، وهو أعرض وأسرع جريانا من الرون ، ومن خلفكم جبال الألب، تلك الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها الا بشق الأنفس حتى فى أيام وفرة عددكم ، فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم الا الفناء والنصر على الأعداء يوم لقائكم لهم ٠

لا تيأسوا فان تلك القدرة الإلهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال ، هى عينها التى أعدت لكم على مرأى منكم نعيما عظيما ليكون لكم أجرا على انتصاركم ، وجزاء لا يرجو أعظم منه انسان من الله الباقى٠

اننا ان لم نستطع ببأسكم وحميتكم الا أن نعيد الى حوزتنا صقلية وسردينية اللتين سلبهما العدو من آبائكم سلبا كان ذلك جزاء وفاقا لا يستهان به ، ولكن أين هاتان مما لكم من ثروة رومة الطائلة ، وأموالها المكدسة وغنائمها التى سلبتها من الأمم الأخرى ؟ كل هذه ستكون فى حوزتكم ٠

انى أربأ بكم أيها القوم ، أن تتصوروا أن الانتصارصعب المنال ، أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن اعلان حـرب على رومة أمر عظيم له وقع فى النفوس ، فلتعلموا أنـه كثيرا ما تغلب جيش مستصغر على عدو مستعظم ، وصمد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرءوس ، وكم ثلت عروش فخمة وأفنيت أمم عريقة فى المجـد على أيدى جيوش قليلة العدد ٠

ولكنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق ، وصيتها الذائع ، فما الذى يبقى لديهم مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم ٠

الخطابة عند العرب

الخطابة العربية أهم ما يعنينا فى هذا الحديث والخطابة الاسلامية أهم ما يعنينا من الخطابة العربية ، ذلك لأننا نريد بكل هذه الدراسة أن نتدرب حتى نكون خطباء اسلاميين ، وقد قدمنا فيما سبق أن الخطابة تقوى فى المواقف الجادة ، مثل مواقف الحروب ، وقضايا الجرائم الكبرى ، والمعارضات البرلمانية ، وهى فى كل مواقفها تحتاج الى الحرية التى تسمح للخطيب أن يفضى بذات نفسه ويعلن كل ما فى صدره ، فاذا كبتت الحرية ضعفت الخطابة ٠

ونستعرض هنا مواقف الخطابة من أقدم عصورها لتبيين خصائصها فى كل عصر ، وليكون لنا من درسها عون على ما نريد من تكوين ملكة خطابية ، ومقدرة فنية لدى الدارسين ٠

الخطابة فى العصر الجــاهلى

ضياع الخطب الجاهلية

مما لا جدال فيه أن العرب الجاهليين كـانت لهم خطب قوية، وأنهم اعتمدوا عليهافى مواقفهم الهامة، واستعملوها فى مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم ، وقد ذهب الكثير جدا من هذه الخطب مع الزمن ، وحفظ لنا التاريخ قليلا جدا منها ، كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين لم يبق من خطبهم شىء ، ذلك لفشو الأمية وبعد الزمن ، وقد كـانت أسباب الخطابة متوافرة لعرب الجاهلية ، فهم ممتعـــون بحرية قلما توفرت لغيرهم ، ولهم مقدرة قوية على الحديث وتشقيق الكلام، واللغة العربية ذات نغميثير المتكلم والسامع ويبعث الخطيب على الاستمرار فى حديثه ، ولهذا كانت لهم مقدرة على الارتجال ومواجهة الموضوع الذى يطرأ من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثا ، ومع ذلك تأتى على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة · قال الجاحظ : فما هو الا أن يصرف (العربى) همه الى جملة المذهب والى العمود الذى يقصد فتأتيه المعانى ارسالا ، وتنثال عليـــه الألفاظ انثيالا » (١) · ولا يعنى هذا أن كل خطبهم كان مرتجلا ·

توافر أسبابها

مواقفها

وللخطابة الجاهلية مواقف كثيرة ، أهمها ما ذكرنا من اجتماع القوم للتشاور فى أمر من أمورهم كالقيام بحرب ، أو الاصلاح بين متنازعين ، ويأتى فى هذه المواقف خطب ومحاورات ، ويتبع ذلك الوصايا التى يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم لقومه ، أو لأولاده · وفى أسواقهم كانت تقوم

(١) البيان والتبين ٢٨/٣ · وارسالا اى جماعات · وتنثال اى تسيلوتتوالى

بينهم المنافرات والمفاخرات ، ويتعالى كل شخص أو قبيلة على الآخر ، وكانت هذه تتناول كل شىء حتى ان الخنساء وهند بنت عتبة تنافرتا فى المصائب ، وكل ادعت أنهـــا أصيبت أكثر من الأخرى · وهذه المواقف تظهر قوة البديهة العربية ، والقدرة البالغة على الارتجال ، وأكثر ما نجـد فى هذه الخطب أو الوصايا اتسامها بقصر الجمل ، وسرد الحكم ، حتى تكاد تنقطع الصلة بين جملة وأخرى ، وهى فى جملتها خلاصة تجاربهم وخبرتهم بشـــئون الناس ، وأحداث الحياة ، وليس فى حكمهم معان فلسفية عميقة ، لقلة ثقافتهم وعدم دراستهم ، ولكن لهم نظرات صـــائبة وآراء حكيمة لا نزال نحتاج اليها ونستعين بها فيما يطرأ لنا من أحداث ومواقف تشبه ما طرأ لهم ، وكثـــيرا ما يأتى السجع فى عباراتهم عفوا ، فان لم تكن العبارة مسجوعة، كانت الجمل مقسمة متوازنة ، وخطب الأعراب وأدعيتهم من أبلغ وأجمل مافى أساليب اللغة العربية ·

خصائصها

وخطب الجاهلين وأدعيتهم ومحاوراتهم ووصاياهم ، كلها مما يستعين به الخطيب الحديث ، ويجد فيهـــا مددا واسعا بالرأى والفكر ، وبالتعبير والبلاغة · ونورد بعضا منها للدرس والاستشهاد ، وعلى الراغبين أن يرجعوا الى المصادر الأخرى ليجدوا مددا أوسع ، وغذاء أوفى وأدسم ·

حاجتنا اليها

صفات الخطيب وعادة الخطباء لعـرب

كان للخطباء فى الجاهلية سمات وعادات استمرت الى ما بعد ظهور الاسلام ، ولا يزال الكثير منها موجودا الى الآن ذلك أن أغراض الخطابة ، والوسائل المؤدية الى الاقنـاع لا تتغير الا قليلا ·

الوقوف على شىء مرتفع

وقد كان من عادات الخطباء أن يقفوا على شىء مرتفع أو نشز من الأرض ، ليشرف الخطيب على مستمعيه ، فيروا شخصه حين يسمعون كلامه ، وليستطيع الخطيب أن يضم الى كلامه الخطابى اشارات اليد وانفعالات الوجه وحركات الجسم ، فيكون ذلك أعون على التأثير والاستمالة ، وفى المواقف الحاشدة ، والمجامع الكبيرة يخطبون على ظهـور رواحلهم ، وقد خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بعرفة وهو راكب ناقته القصواء ، وكان تحت عنقها ربيعة بن أمية ابن خلف يعيد قول رسول الله ﷺ ويصـــرخ به لكثـــرة المشاهدين وبعد الذين فى أطراف الجمع عنـه ﷺ . وفى الحالات العادية يكون الخطيب واقفا ، الا فى خطب الاملاك فانه يتحدث وهو جالس ، ذلك لعدم كثرة السامعين ولأن المراد من الخطبة هو الاخبار بالزواج وتزكيته ، وليس ثم موضع للاقناع والاستمالة ، كذلك كان يلوث (١) عمامته، ولا تكون سوداء اللون الا فى حالات المطالبة بالثأر ، وقد خرج امرؤ القيس الى وفد أسد الذين قدموا عليه بعد مقتل أبيه ، وهو يعتم بعمامة سوداء ، وكان فيهم عبيد بن الأبرص وقبيصة بن نعيم ، كذلك كان الخطيب يعتمد على شىء فى يده ، عصا أو مخصرة أو قناة (٢) . وقد يستعمل ما يعتمد عليه منها للاشارة والايحاء وقوة التأثير فى السامعين ، واستعمال العصا ونحوها مستحب أيضا فى الخطبـــة الاسلامية ، وهو كذلك مما يستأنس به الخطيب ويحول بينه وبين العبث بيده .

اعتماء العمامة

صفات الخطيب

ويستحسن فى الخطيب أيضا أن يكون نظيف الثـــوب حسن البزة ، جهير الصوت ، هادئا فى عباراته ، وقد مدحوا

---

(١) يلف ويكور .

(٢) المخصرة : السوط . والقناة الرمح .

سعة الفم ، وذموا صغره ، وجعلوا من الجمال رحب الشدق وبعد الصوت ، وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل ، شريف النفس ، لأن ذلك يجعله أكثر تأثيرا ، ويجعل السامعين أكثر قبولا لكلامه ، كما آثروا أن يكون مقتنعا بكلامه عاملا به ، ومعظم هذه الصفات مما أيده الاسلام ، وقد قال على بن أبى طالب : من نصب نفسه للناس اماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه. ووقف زياد ابن أبيه يخطب فأعجب الناس حتى قال عمرو بن العاص : « لله در هذا الفتى ، لو كان من قريش لساق الناس بعصاه » فهو لم يحط منه الا خسة نسبه ولو كان كريم الأصل لساق الناس .

وكانوا يمدحون فى الخطيب أن يكون ثابت الجنان هادىء المظهر قليل التلفت قليل التنحنح أو العبث بلحيته ، أو مس جبينه ، فهم يعدون ذلك من أسباب غياب الكلام والعجز عن متابعة الخطبة ، كما عابوا التلعثم والارتباك، وقطع الجمل قبل تمامها ، واسكان الكلمات فى غير مواضع الوقف .

أما تعبيراتهم فقد تكون مسجوعة ، وقد تكون مرسلة متوازنة الجمل ، وكانوا لمقدرتهم الخطابية وطواعية اللغة لهم يأتيهم السجع عفوا .

أشهر خطباء الجاهليين

ومن أقدم الخطباء المشهورين كعب بن لؤى ، الجد السابع لرسول الله ﷺ . وقد كان يخطب العرب فى الشئون المختلفة ، ويحث كنانة على البر وأعمال الخير ، وكان مهيبا مسموع الكلمة ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به وظلوا يتخذونه تاريخا حتى عام الفيل ، فأرخوا به حتى كانت الهجرة النبوية ، فاتخذها عمر بن الخطاب مبدأ لتاريخ المسلمين .

ومن مشهوريهم بعد ذلك قيس بن خارجة بن سـنان ، خطيب داحس والغبراء (١) ، وفى هذه الموقعة اشتهر خويلد ابن عمرو الغطفانى بخطبه فى حرب الفجار (٢) ، وقس بن ساعدة الايادى (٣) · خطيب عكاظ ، وأكثم بن صيفى (٤)، والحارث بن عباد (٥) ، وقيس بن مسعود (٦) ·

---

(١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس ، راهن بهما حذيفة ابن بدر ليسابق فارسيه الخطار والحنفاء ، وقد سبقت الغبراء فردها كمين كانت فزارة قد أعدته ، فتخلفت ، وقامت بذلك حرب بين عبس وفزارة ،ثم امتدت الى حرب بين عبس وذيان ، وقصص هذا الحادث طويل يحسن أن ترجع اليه في كتب الادب ·

(٢) حرب نشبت بين ريش وهوازن — سميت بذلك لانهم تفاجروا فيها ، وكانت فى الاشهر الحرم ، وقد شهدها رسول الله (صلى الله عليه وسلم)— وكان ينبل على أعمامه فيها ، أى يقدم لهم النبل ·

قس بن ساعدة (٣) أشهر خطباء العرب الجاهليين على الاطلاق ، كان يدين بالتوحيـد ويؤمن بالبعث ، ويدعو الى نبذ عبادة الاوثان ، يقال انه أول من قال : « أما بعد » ، وأول من اتكأ على عصا أو نحوها ، وكان حسـن الالفاظ واضح العبارة ، وكان الناس يتحاكمون اليه ويرضون حكومته ، وهـو القائل : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » تلك العبارة التى رضيها الاسلام وأقرها ·

اكثـم (٤) من الخطباء البلغاء المولعين بسرد الحكم وضرب الامثـال ، أوفـده النعمان بن المنذر رئيسا على وفد من الخطباء الى كسرى ، فأعجب به ، وقال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكان ذلك كافيا ، لهم ، وخطبته أمام كسرى مليئة بالحكم والامثال ·

الحرث بن عباد (٥) من الخطباء البلغاء له مواقف محمودة فى حرب داحس والغبراء ، وله فيها شعر جيد أيضا وهو من قبيلة بكر ·

قيس بن مسعود (٦) قيس بن مسعود بكرى أيضا ، من الخطباء ومن الاجواد الكرماء ، كانت العرب جميعا تقر له بالفضل والسيادة ، كان له حظيرة بها مائة من الابل مخصصة للاضياف تقيد واحدة منها للنحر ، فاذا نحرت قيـدت أخرى — وهؤلاء جميعا شرفاء كرماء تدل مواقفهم على أن العرب كانت تتأثر بمكانة الخطيب الاجتماعية ·

خطبة المأمون الحارثى (١)

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه ، فنظر الى السماء والنجوم وفكر طويلا ثم قال :

« أرعونى أسماعكم ، واصغوا الى بقلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد : طمح (٢) بالأهواء الأشر (٣) ، وران على القلوب الكدر (٤) ، ان فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وقمر تطلعه النحور (٥) ، وتمحقه أدبار الشهور (٦) ، وعاجز مثر ، وحول (٧) مكد ، وشاب محتضر (٨) ويفن قد غبر (٩) ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفترون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر الاير (١٠) ، فيصدع المدر عن أفنان الخضر ، فيحيى الأنام ، ويشبع السوام (١١) ، وينمى الأنعام ، ان فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارىء المصور ·

---

(١) يروى المأمور الحارثى بالراء أيضا ·

(٢) طمح ذهب ، والطماح ككتاب ، النشوز والجموح ·

(٣) الكبر والبطر ، أى ان الكبرياء ضللت الناس

(٤) ران : غطى ، والكدر للغيم والكدرة ·

(٥) نحر النهار والشهر أوله ، يريد قمر تطلعه أوائل الشهور ·

(٦) تمحوه أواخر الشهور ، فينحل ثم يختفى ·

(٧) الحول : الشديد الاحتيال أى الذى يحاول محاولات كثيرة ، يقال حول بالتشديد وبفتح الواو كصرد ، وحولة ـ كهمزة بسكون الواو وفتحها: فقير لا مال معه ·

(٨) محتضر بالحاء حضرته الوفاة ، وبالخاء المعجمة : ميت فى فتوته ، يقال اختضر الشخص · اذا مات فى شبابه ·

(٩) اليفن : الشيخ المسن ·· وغبر عاش وبقى · يقال غبر بمعني مات وعاش · والغابر الماضى والمقبل ·

(١٠) الصلب الشديد ، والمدر : الارض التى تزر ·

(١١) الماشية التي تسام وترعى ·

يا أيها العقول النافرة (١) ، والقلوب النائرة (٢) ، أنى تؤفكون (٣) ، وعن أي سبيل تعمهون (٤) وفي أي حيرة تهيمون ، والى أي غاية توفضون (٥) وكشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصح الشك عن اليقين (٦) ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة » ٠

خطبة قس بن ساعدة (٧)

لقس بن ساعدة خطبة مشهورة سمعها منه رسول الله ﷺ وهو يخطبها في سوق عكاظ ، وأعادها أمامه رجل من اياد، فاكتسبت بذلك شهرة ، وهي أيضا من الخطب المبشرة بظهور الاسلام ٠

قدم وفد اياد على رسول الله ﷺ عام الوفود ، فسألهم عن قس فقالوا : مات ٠ فقال كأني أنظر اليه بسوق عكاظ في جمل له أورق (٨) وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدني أحفظه ٠ فقال رجل من الوفود : أنا أحفظه ٠ قال رسول الله ﷺ : كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول :

« أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات

---

(١) الجامحة التي لا تريد أن تانس وتفكر ٠

(٢) أي ذات النائرة ٠ والنائرة العداوة أو هو وصف بالمصدر مثل زيد عدل٠

(٣) الى اي اتجاه ينصرفون ٠ من افك يأفك ٠

(٤) من عمه بمعنى تحير ٠ يعجب كيف يتحيرون في البحث عن الطريق الحق وهو واضح امامهم ٠

(٥) تسرعون من أوفض ٠

(٦) صرح عنه ٠ تكشف عنه ٠ أي لو فكرتم لانكشف الشك وتجلى اليقين٠

(٧) تقدمت ترجمة له ٠

(٨) أبيض في سمرة ـ رمادي اللون ٠

فات (١) ، وكل ما هو آت ات (٢) ، ليل داج (٣) ، ونهـار ساج (٤) ، وسماء ذات أبراج (٥) ونجوم تزهـر (٦) ، وبحار تزخر (٧) ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة (٨) ، وأنهار مجراة ، ان فى السماء لخبرا (٩) ، وان فى الأرض لعبرا (١٠) ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، يقسم قس بالله قسما لا اثم فيه، ان الله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه، انكم لتأتون من الأمر منكرا ٠

ثم أنشـأ يقـول :

فى الذاهبـــين الأوليـــ	ـن من القـرون لنـا بصائر
لمــا رايت مـــواردا	للمـوت ليس لهـا مصـادر
ورايت قـــومى نحوهــا	تمضى الاكـابر والأصـاغر
لا يرجــع المــاضى الى	ولا من البـاقين غابـر (١١)
ايقنت أنى لا محـــا	لة حيث صـار القوم صـائر

وقد جاءت هذه الخطبة بروايات تزيد وتنقص ، والذى

---

(١) ذهب ولا يعود ٠ (٢) ما هو مقدر لا مفر منه ٠

(٣) مظـلم ٠ (٤) سـاكن منتشـر ٠

(٥) البرج : صورة من مجموعة كواكب تشبه صورة حيوان أو غيره ، ويسميها الفلكيون بأسماء أشكالها ٠ فيقولون برج الجدى والثور والحوت والدلو ٠٠ والابراج اثنا عشر برجا تقابلها الشمس على طول السنة ، ويظهر أن قسا يتحدث عن النجوم بوجه عام ٠

(٦) تضىء ٠

(٧) مليئة بالماء تطمى به وترتفع ٠

(٨) مبسوطة والفعل ثلاثى واسم المفعـول منه مدحو ٠ وجاءت الكلمة مدحاة لمشاكلة أخواتها ٠

(٩) دليلا على خالق عظيم ٠

(١٠) عظات وخيرات ٠

(١١) مقيم يريد أن الناس يذهبون للموت ولا يرجعون ٠

ذكرناه هو ما جاء فى صبح الأعشى · وفى رواية الأغانى(١) ــ بعد « ونجوم تزهر » ! « وضوء وظلام ، وبر وآثام ،ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ــ مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ··· واله قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه » ·

ثم أورد الشعر الذى سبق ·

مدى صحتها

ترى ما مدى هذه الخطبة من الصحة (٢) ؟· لسنا بصدد التحقيق فيما أورده بعض الباحثين المحدثين من وضع كل هذه الخطب الجاهلية موضع الانكار ، وليس فقط مجرد الشك ، فان لم تكن هذه الخطبة صحيحة ، فانا لا يغيب عنا أنه فى أواخر العصر الجاهلى كان الناس قد سئموا عبادة الأوثان ، وكرهوا الاحتفاء بها ، وقد اجتمعت مرة تحتفى بالآلهة العزى بنخلة ، فانحاز منهم زيد بن عمرو ، وعثمان ابن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش ، وورقة ابن نوفل ، فقالوا : « تعلموا ــ والله ــ ما قومكم على شىء وانهم لفى ضلال ، فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ·· التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه »·

وتميل النفس الى أن هذه الخطبة وخطبة المأمون الحارثى والخطبة التى تنسب لكعب بن لؤى ·· كلها من الخطب التى وضعت فى العصر الاسلامى تأييدا للدعوة الاسلامية ،

---

(١) أنظر صبح الاعشى ، جـ ١ ، ص ٢١١ · واللآلىء المصنوعة ، جـ ١ ، ص ٩٥ · ومختار الاغانى ، جـ ٦ ، ص ٢٢٣ · وله أقاصيص أخرى طريفة، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سماعه هذه الخطبة : « يرحم الله قسا ، انى لارجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده » ·

(٢) نكرها الكثيرون · وقد جاء أن الذين سئلوا عن قس هم وفد عهد القيس فهذا يجعل السؤال غريبا ، اذ هم ربعيون لا اياديون ، ويقال انه كان فى نجران ·

وعلى فرض انتحال كل هذه الخطب نجد فيها سمات الخطب الجاهلية ، لأن واضعها تحرى جهده أن يجعلها مشابهة لطريقتهم حتى تجوز على الناس ، واختلاف روايات الخطب دليل على أنها زيد فيها ، وليست الخطبة الواحدة من صنع شخص واحد ٠

خطبة كعب ابن لؤى

وخطبة كعب بن لؤى تجرى على نسق الخطبتين السابقتين وهى :

« اسمعوا وعوا ، وتعلموا تعلموا ، وتفهموا تفهموا ، ليل ساج ، ونهار ضاج (١) ، الأرض مهاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك الى بلاء ، فصلوا أرحامكم وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ؟ أو ميتا نشر ؟ ٠ الدار أمامكم ، والظن خلاف ما تقولون ، زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبى كريم » ٠

ثم قال أربعة أبيات من الشعر منها :

تهاويل ليل واختلاف حوادث　　سواء علينا حلوها ومريرها
على غفلة يأتى النبى محمد　　فيخبر أخبارا صدوقا خبيرها

وهى ظاهرة الوضع ، ولا تحتاج الى تفنيد ٠

من خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى

« ان أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة (٢) ،

(١) ضاج بالجيم مخفف ضاج ـ اسم فاعل من ضج ، أى نهار ملىء بالعمل والحركة ٠

(٢) سبب السقوط والفشل ٠

والشر لجاجة (١) ، والحزم مركب صعب (٢) والعجز مركب وطيء ، آفة الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر (٣) ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، أصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعى (٤) ، من فسدت بطانته (٥) كان كالغاص بالماء(٦) شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجز لا المحالة (٧) ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك (٨) ، حسبك من شر سماعه (٩) ، الصمت حكم (١٠) وقليل فاعله ، البلاغة الايجاز ، من شدد نفر (١١) ومن تراخى (١٢) تألف » .

ومن خطبه المشهورة خطبة له يدعو بها قومه الى الاسلام وينصحهم باتباع نبيه ، وذلك أنه لما ظهرت دعوة الاسلام بعث أكثم ابنا له يدعى حبيشا فأتاه بخبره وموقف قومه منه وما يدعوهم اليه ، فدعا أكثر قومه فى جمع ثم دعاهم

(١) يريد أصل الشرهى اللجاجة . وهى تماحك الخصمين وتماديهما .
(٢) الاخذ بالحزم والحكمة أمر صعب لا يتاتي لكل شخص .
(٣) يريد بالعجز عدم الاحتيال .
(٤) الراعى الصالح لا يستطيع اصلاح الرعية الفاسدة ، ولكن الرعية الصالحة تحمل الحاكم على الصلاح . وهذا رأى أكثم . ويؤخذ على اجماله . وربما يريد أنه أسهل .
(٥) حاشيته ومخالطوه .
(٦) كمن يشرق بالماء . والغصة : وقوف الطعام فى الحلق . ومن غص بشىء ازال غصته بالماء . ومن غص بالماء كان أمره عسيرا .
(٧) المحالة الحيلة والمحاولة .
(٨) ما يكفيك فى سفرك حتي تصل الى موطنك ـ ينصح بالقناعة .
(٩) الانصات الى الشر شر ، وهو قدر كاف ، فلا يجوز المشاركة بالعمل .
(١٠) حكمة .
(١١) من تشدد نفر الناس منه .
(١٢) تهاون وتبسط .

الى اتباع دعوة الاسلام ، ولكن مع هذا لم يقطع الرواة باسلامه . ومما قاله لقومه فى هذا الموقف :

« يا بنى تميم : لا تحضرونى سفيها (١) ، فانه من يسمع يخل (٢) ، ان السفيه يوهن من فوقه ، ويثبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلة (٣) ، فاذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه ، وان رأيتم غير ذلك فقومونى استقم . ان ابنى شافه هذا الرجل وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه ، ان أحق الناس بمعونة محمد ﷺ ومساعدته على أمره أنتم ، فان يكن الذى يدعو اليه حقا فهو لكم دون الناس ، وان يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه ، وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته ، وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل ، وسمى ابنه محمدا ، فكونوا فى أمره أولا ، ولا تكونوا آخرا ، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، ان الذى يدعو اليه محمد ﷺ لو لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس حسنا ، أطيعونى واتبعوا أمرى . أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدا ،و أصبحتم أعز حى فى العرب ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم دارا . فانى أرى أمرا لا يجتنبه عزيز الا ذل ، ولا يلزمه ذليل الا عز ، ان الأول لم يدع للآخر شيئا ، وهذا أمر له ما بعده ، من سبق اليه غمر المعالى واقتدى به التالى ، العزيمة حزم والاختلاف عجز » .

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم .

---

(١) السفيه ضعيف العقل والتفكير .
(٢) من يسمع كلام السفيه يظنه حقاً .
(٣) وهن وضعف .

فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى ، والهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى ·

وموقف مالك معروف فى الاسلام ·

وهذه الخطبة مما تطمئن النفس على صحتها ·

ثانيا : الخطابة فى صدر الاسلام

الحاجة للخطابة دون الشعر

قلنا من قبل ان الخطابة دون الشعر يعتمد عليها فى المواقف الجادة ، لأن الشعر ترف واثارة عواطف ، والانقلابات الكبيرة فى التاريخ كما رأينا فى الأمةاليونانية والأمة الرومانية ، تعتمد على الخطباء اللسن ذوى المقاول الصارمة والكلام القوى المؤثر ٠ والخطباء دون الشعراء هم الذين يستطيعون أن يشرحوا المبادىء التى يدعون اليها ، ويقيمون عليها الأدلة حتى يقنعوا الناس بها ،وميدان الخطابة واسع يشارك فيه كل مستمع ، ويحاور الخطيب ٠ أما الشعر فله أشخاص معينون رزقوا موهبة الشعر ، وقد يهيج الشعراء مستمعيهم لأمر ما من غير أن يكون لديهمأى تفكير أو بحث عميق فيما أثيروا من أجله ٠

ثورة الاسلام

وقد كان ظهور الاسلام والدعوة لمبادئه أمرا خطيرا فى حياة العرب لم يقف أثره عند ترك عبادة الأوثان ، واخلاص العبادة لله وحده ، بل غير عاداتهم ونظام حياتهم ، بما فرض عليهم من سلوك معين ، وبما حرم عليهم من عادات ألفوها ومرنوا عليها سنين طويلة ٠ فهو قد محا الفوارق بينالناس وسوى بينهم جميعا فى الحقوق العامة ، وكان هذا أمرا خطيرا لدى العرب ، كما حرم عليهم الخمر والزنى ، ولم يكن ذلك أمرا هينا بينهم ، حتى أن الأعشى الشاعر لم يصده

عن الاسلام الا تحريمه الخمر (١) · وبنو هذيل حين أسلموا طلبوا من رسول الله ﷺ أن يبيح لهم الزنى ، وحرم الاسلام الهجاء ونهش الأعراض ، ولم يقبل المدح المسرف المبالغ فيه ، وقد كانت هذه كلها أغراضا للشعر الجاهلى ، لذلك هدأ صوت الشعر وقل نشاطه بظهور الاســلام ، وقامت الخطابة بعبء تبليغ الرسالة وشرح مبادىء الاسلام ،وكان ذلك سببا فى نهضة الخطابة وظهور عدد كبير من الخطباء ذوى اللسن ، الذين أثروا اللغة العربية بخطبهم وما أثـر عنهم من كلام بليغ ، ومحاورات مقنعة ، وحــكم قاطعة ، وأمثال سائرة ·

مواقف الخطبة الاسلامية

جعل الاسلام الخطبة فرضا فى صلاة الجمعة ، وهذا يعنى أن المسلم يسمع خطبة مرة فى كل أسبوع على الأقل، وأن يكون فى كل مسجد خطيب يلقى خطبة فى كل أسبوع، والخطبة سلاح الداعية الاسلامى فى كل مناسبة يدعو الى الاسلام فيها ، وهى مشروعة فى العيدين ويوم الحج الأكبر وفى الدعوة الى الحرب أو السلم ، ثم هى كذلك فى حفلات الزواج والاعراس وتولية الحكومات وولايات العهد ، وكان مبلغو دعوة الاسلام ، والمعلمون الموفدون الى أطــراف الجزيرة أو الجهات النائية عن مقام الرسول يعتمدون عليها فى شرح فكرة الاسلام وتحبيب الناس فيه ، واستعملهـا رسول الله ﷺ وهو بمكة لاعلان قومه برسالته ، وواجه بها القبائل فى مواسم الحج ، وهكذا كانت الخطابة أول سلاح استعمله الاسلام لاعلان مبادئه والدعوة اليها ·

---

(١) كان الأعشى قد اعتزم الاسلام وأعد مدحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء ليعلن اسلامه ، فقابله القرشيون وأخذوا يصدونه عن الاسلام فلم يعبأ بهم ، حتى ذكروا له تحريمه الخمر ، وأعطوه مائة من الابل فرجع ، فوقع من فوق دابته فمات ·

وكان الذين يدخلون الاسلام يدخلونه عن اقتناع ورغبة ، ومحبة وعاطفة ، وكان حبهم الاسلام وتقديرهم نعمة الله عليهم به ، يحملهم تلقائيا على الدعوة اليه ، ويستعينون على ذلك بالخطابة ، فكان المحيط الاسلامى كله مدرسة خطابية ، قويت فيها الخطابة وكثر الخطباء ٠

الخطابة بعد النبى

وكان عصر الرسول كله عصر جهاد ودعوة ، فلما انتقل الى الرفيق الأعلى ، بدا موقف خطابى عظيم فيمن يتولى الخلافة بعده ٠ وقد ذكرنا صورة موجزة منه فيما سبق ، ثم ارتد معظم العرب ومنعوا الزكاة ، وقام بين المرتدين خطباء يدعون الى الثبات على الاسلام ، كما فعل سهيل بن عمرو فى مكة ، وعثمان بن أبى العاص فى الطائف ، ونجد لأبى بكر ماجلس شورى يتناوب فيها هو والصحابة الرأى، من ذلك جمعه الصحابة واستشارتهم فيما يفعل ازاء المرتدين وبعد انتهاء هذه الحروب جمعهم أيضا ليستشيرهم فى غزو الروم ، وهى مواقف شبيهة بمواقف رسول الله ﷺ واستشارته الصحابة يوم بدر ، ثم استشارته اياهم فيما يفعل بالأسرى بعد نهاية المعركة ، وكذلك استشارتهم يوم أحد ، وهذه المواقف الاستشارية من مواقف الديمقراطية، ومظهر من مظاهر حرية الرأى التى تنشط فيها الخطابة وتقوى ٠

وكان عهد عمر فى جملته استمرارا لعهد أبى بكر ، وقد مات أبو بكر وهو يأسف أن لم يكن أرسل عمر بن الخطاب غازيا فى الشام اذ ارسل خالد بن الوليد غازيا فى العراق فيكون قد بسط يديه كلتيهما فى سبيل الله ٠ أما عمر فقد جاء وقد مهدت السبيل للغزو ، فاستطاع أن يبسط يديه كلتيهما فى سبيل الله ، ولم يجد فى عهده ما يزيد الخطابة

نشاطا ، وظل الأمر كذلك فى السنوات اولى من خلافه عثمان ، وبدءا من السنة السابعة من حكمه ، بدأ الناس ينقدونه جهارا ، ثم كانت الفتنة الكبرى بمقتله ، ثم انقسام المسلمين بعد بيعة على بن أبى طالب ، وخروج بنى أمية عليه بقيادة معاوية ، وبعد موقعة صفين وحادث التحكيم انقسم المسلمون الى شيعة يناصرون عليا ، وأبرزهم أهل العراق ، والى أمويين يناصرون معاوية ، وأبرزهم أهل الشام ، ثم الى خوارج ، وأكثرهم بدو وعرب خلص ٠ وهؤلاء اشتهروا بقوة ايمانهم وشجاعتهم النادرة ،وتميزت خطبهم بميزات القوة والبلاغة ، وظلوا شوكة دامية فى جانب بنى أمية طول ما حكمت ، واستنفدوا جهدا كبيرا من طاقة المهلب بن أبى صفرة ٠ فلما جاءت الدولة العباسية صادفتهم ، وقد فلت قواهم فاستطاعت القضاء عليهم ٠

وفى عهد الدولة الأموية ظهر عدد من المناوئين للخلفاء، فبعد مقتل على ظهر ابنه الحسن ثم الحسين ، ثم ابناؤهما، كما ظهر عبد الله بن الزبير وكان خصما قويا خليقا أن يقوض العرش الأموى ويقضى عليه، لولا ضنه بالمال وقصور سياسته عن استئلاف الناس به ٠ وكان خطيبا مفوها ،وكان مصعب أخوه خطيبا أيضا ٠ ثم ظهر المختار الثقفى ، والأشعث الكندى ، ثم دعاة الدولة العباسية أمثال أبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخرسانى ، وأئمة الدعوة ، وكل أولئك كانوا خطباء أقوياء ، وبجانب أولئك جميعا نجد الولاة أمثال زياد وابنه والحجاج وقتيبة بن مسلم وخالد بن عبد الله القسرى ، ويوسف بن عمر الفهرى ، ونصر بن سيار ، وكلهم خطباء بلغاء ـ وكذلك كان خلفاء بنى أمية ـ معاوية ويزيد وعبد الملك وابنه سليمان وهشام ٠٠وهكذا نجد العهد الأموى كله عهد خطابة ، لكن هذا العهد أنهض

الشعر أيضا بما أباح للشعراء من أغراض الشعر التى كانت محرمة عليهم ، وبسخاء الأمويين لهم بالمال والعطايا ٠

واستمرت فى هذا العصر أنواع الخطابة الأخرى من المناظرات والمحاورات والوصايا ٠ ونشط القصص ،ووعظ النساك ، ووعظ الأعراب، وهذا النوع لم يكن رائجا من قبل لأن البدو أسلموا بآخرة من الناس ولم يكن لهم ما للحضريين من حظ التفقه فى الاسلام ، فلما استكملوا حظهم منهصاغوا عظاتهم فى عبارات حكيمة ، وجمل بليغة رائعة ساعدهم عليها فصاحة ألسنتهم ، وفطرتهم علىالبلاغة واجادة التعبير ٠

مميزات الخطابة فى هذا العهد

ظهور عناصر جديدة

امتازت الخطابة فى أول العهد الاسلامى بنبل مقاصدها وسمو أغراضها وتنزهها عن الأغراض الشخصية ، فهى كانت دائما قائمة على الدعوة الى الاسلام واتباع مبادئه، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتطهير النفوس من الأحقاد والاتجاه بالأعمال الى الله وحده ، فلما كان العهد الأموى وانقسام المسلمين ظهر فى الخطابة عنصر السياسة وتفضيل فريق من طلاب الحكم على الآخرين ، ولكنها مع هذا ظلت تكتسى برود الاسلام ، فكل يحاج الآخر باسم الاسلام ويستشهد بآى القرآن ، وبرز غرض الجهاد والتحريض عليه أكثر من أى غرض آخر ، وخصوصا فى معارك على ومعاوية ، ثم ظل نغمة مستمرة على ألسنة الخوارج بمختلف فرقهم ٠ ولعل الخطبة الداعية الى الجهاد لم تبلغ فى موقف من المواقف ما بلغته خطب الخوارج ، وخصوصا فى اثارتها النفوس وترغيبها فى ثواب الله وتزيينها الجنة وما بها من نعيم ، وتخويفها من جهنم وما بها

من عذاب أليم ، وهذا العنصر من أهم ما ميز الخطبة الاسلامية عن الخطبة الجاهلية ، فالخطبة الجاهلية تدعو للقتال حمية وحفاظا على القبيلة وسمعة أبنائها ، وهذه تدعو للحرب حفاظا على مبادىء الاسلام وترغيبا فى ثواب الله ، والفرق بين المقصدين بعيد فى دلالته ومغزاه ٠

اسلوب الخطبة

أما من ناحية الأسلوب فقد تطورت الخطبة أيضا ٠أصبح لها منذ عهد رسول الله ﷺ بداية خاصة هى حمد الله تعالى والثناء عليه ، وذكر الشهادتين ٠ وقد مر بك أن خطبة زياد التى لم يبدأها بالحمد سميت البتراء ، وسموا الخطبة التى لا تذكر فيها الشهادة جذماء ، والتى لا تزين بالصلاة على النبى شوهاء (١) ٠ ولكن يظهر أن هذه التسميات لم تكن شائعة ولا قاعدة عامة ، وانما وصفت بها بعض الخطب ، وقال ابن قتيبة : تتبعت خطب رسول الله ﷺ فوجدت أوائل أكثرها ٠

بدؤها

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له » ٠

ووجدت فى بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته » ثم قال : ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد الا خطبة العيد ، فان مفتاحها التكبير ، وتكبير الامام قبل أن ينزل عن المنبر أربع عشرة تكبيرة (٢) ٠

ختامها

واتخذت الخطبة كذلك ختاما اسلاميا يعرف به أنها قد انتهت ، وهذا الختام كان معروفا عند خطباء الجاهلية اذ

---

(١) انظر العقد : ٦/٣٤ ٠ (٢) عيون الاخبار ، ٢٣١ ٠

كان الخطيب يكرر الجملة الاخيرة أو جملة معينة خاصة به فيعرف السامعون أن الخطبة قد انتهت ٠ أما هذا الختام الاسلامى فهو ذكر عبارة مما جاء به الدين ، كأن يقـــول الخطيب : أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ٠ أو قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله ، أو يذكر دعاء من أدعية رسول الله ﷺ ومأثوراته ، أو يذكر آية قرآنية ٠ فهذه كلها من مظاهر الختـام الاسلامى ٠

وكان أبو بكر رضى الله عنه ، يختم خطبة الجمعة بقوله: اللهم أجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك ٠ وكان عمر يكثر أن يقول فى ختام خطبته: « اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غـرة ، ولا تجعلنى من الغافلين (١) » ٠ وكان عبد الملك بن مروان يقول فى آخر خطبته : « اللهم ان ذنوبى قـــد عظمت وجلت أن تحصى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى » ٠ وأكثر الخطباء يقولون : أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ٠ أو يقولون : قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله ، وكلها كلمات اسلامية ٠

الاقتباس من القرآن

ومع أن كثيرا من خطب النبى والخلفاء بعده لم تشتمل على آيات قرآنية كان الناس فى العهـــد الأموى يعتبرون الخطبة الخالية من آيات القرآن الكريم ناقصة ٠ وقد خطب عمران بن حطان ـ وهو من خطباء الخوارج وشعرائهم ـ عند ذياد خطبة أتقنها جهده وأجادها ، ثم مر بقوم فاذا بينهم شيخ يقول : « هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن » (٢) ٠ ولم يكن تضمين الآيات القرآنية والاستشهاد بهـــا خاصا بالخطب الدينيـة كخطب الحج

(١) العقد : ٤/١٥١ ٠

(٢) البيان والتبين ٠

والجمعة والعيدين ٠٠ بل كانت خطب المحافل والحروب ، وما اليها كلها تحوى آيات قرآنية ٠

أما الاستشهاد بأبيات الشعر فكان شائعا ، وخطبة الحجاج بالكوفة مليئة بأبيات الشعر وبالرجز ، ولكن لم يكن ذلك كثيرا فى خطب الخلفاء والولاة ، اذ نجد أكثرها خاليا من الشعر ٠

لين العبارة وسببه

وفيما عدا هذه الصور التقليدية لأن أسلوب الخطبة ، ولم تعد تشتمل على الألفاظ الشديدة الكثيرة ، وسر ذلك فيما يبدو أن الخطب أصبحت غالبا بلغة قريش ، ومن كلام الحضريين ، وفى العصر الجاهلى كانت خطب قريش غير كزة ولا شديدة ، وانما كان ذلك فى كلام الأعراب النائين ، واستفادت الخطبة الاسلامية من أسلوب القرآن والحديث النبوى ، وكانت تحوى غالبا آيات من القرآن للاستشهاد بها أو لاكساب الكلام زينة ورونقا ، وخصوصا الخطب التى تلقى فى عقود الزواج وأيام الحفل الجامعة ، فان ذلك -كما يقول الجاحظ - « مما يكسب الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع » (١) ٠ وفى هذا المقام تقدم الحضريون الذين يحفظون القرآن على الأعراب الذين لا يحفظونه ٠

ولم تنبت الخطبة الاسلامية نهائيا عن الخطبة الجاهلية، فبقى بها كثير من خصائصها من جزالة الألفاظ ، وان قل غريبها ، ومن الاستشهاد بأبيات الشعر ، وظلت الخطبة قصيرة الا ما اقتضاه المقام من الطول ٠ وقد جاء هذا فى الخطبة الجاهلية والاسلامية ، ففى الجاهلية يذكرون خطبة لقيس بن خارجة (٢) بن سنان قالها فىحرب داحس والغبراء ضرب بها الجاحظ المثل فى الطول (٣)، وقيل لقيس ما عندك؟

---

(١) انظر البيان والتبين : ١/١١٨ ٠

(٢) انظر الحيوان: ٦/١١٦ ٠ والاغانى: ٧/١٤٢ ٠والعقد الفريد :٣/٢١٣

فأجاب : عندى قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع · قالوا : فخطب يوما الى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى · وسئل بعض البلغاء لم لم يكتف بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع ، اذ الأمر بالصلة نهى عن القطيعة · فقال : ان الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الافصاح والكشف (١) · وفى الاسلام روى أن سحبان بن وائل خطب أمام معاوية من صلاة الظهر الى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنح ولا سعل ، ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ فى معنى ، وخرج منه وقد بقى منه شىء ، حتى دهش الحاضرون ·

هذا الطول الطارىء لم يكن متبعا دائما ، وانما كانت تقتضيه ظروف خاصة ، وخطب النبى ﷺ وخلفائه وأيضا من بعدهم ليست بهذا الطول ولا تعد طويلة ، وخطب على والخوارج ذات طول نسبى ولكنها ليست طويلة ، سوى خطب معينة للامام ينتابها كثير من الشك ·

وكانوا يستحسنون فى الخطبة أن تكون قصيرة كيلا تنسى ، وأوصى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان حين أرسله الى الشام فقال : واذا وعظت فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا · ونورد أمثلة للخطبة الاسلامية وعلى رأسها خطب رسول الله ﷺ ·

---

(١) أنظر البيان والتبين : ١١٧/١ ·

خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع (١)

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ٠ وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله٠

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعتــه ، واستفتح بالذى هو خير ٠٠ أما بعـد :

مقدمة

أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ٠٠ فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ٠ أيهـا الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم (٢) الى أن تلقوا ربـكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا (٣) ٠

ألا هل بلغت اللهم فاشهد ٠

الموضوع

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها ، وان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وان دماء الجاهلية موضوعة ، وان أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب (٤) ، وان مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة

---

(١) هذه الخطبة جاءت فيه مصادر كثيرة ٠ واختلفت بعض الاختلاف فى فقرات كثيرة منها ، وانظرها فى الطبرى ١٢٨/٣ ، وابن ابى الحديد :٣١/١ والعقد الفريد وكتب السيرة ٠

(٢) حـرام عليكم سفك الدماء ، واغتصاب الاموال ، وكان ذلك يفعل فى الجاهلية ٠

(٣) تأكيد للحرمة ، لانهم كانوا في يوم عرفة ، وهو يوم حرام ، وفى بلد حرام ، وفى شهر ذى الحجة ، وكذلك جملة : الا هل بلغت اللهم فاشـهد من زيادة التوكيد ٠

(٤) كان مستوضعا فى بنى ليث ، وقتله هذيل ، وقد اسقط رسول الله صلي الله عليه وسلم ثارات الجاهلية ، واسقط المطالبة بثار عامر ، ومعنى وضع الربا او الدم أنه لا يطالب به ٠

والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية ٠

أيها الناس : أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ٠

أيها الناس : انما النسىء (١) زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض (٢) وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ٠ ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان ٠

ألا هل بلغت اللهم فاشهد ٠

أيها الناس : ان لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح (٣) ، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف (٤) ٠ وانما

(١) كان العرب اذا دخل الشهر الحرام الذى لا يجوز فيه القتال ، وهم فى حرب لا يقطعون حربهم ، بل يحلون الشهر ويستمرون فى حربهم ثم يحرمون شهرا آخر بعده ، فهذا هو النسىء وقد ترتب عليه اضطراب الشهور ، ووقوعها فى غير موقعها الحقيقى ٠

(٢) أصبحت الشهور فى وضعها الحقيقى ، فلا يجوز تغيرها ٠

(٣) عقوبات أبيحت للزوج طبقا للخطأ الذى ترتكبه الزوجة ٠

(٤) من غير ارهاق لكم ومشقة عليكم ٠

النساء عندكم عوان (١) لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا ٠

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ٠

أيها الناس : انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه الا عن طيب نفس منه (٢) ٠

ألا هل بلغت اللهم فاشهد ٠

فـلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى تركت فيكم ما ان اخذتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله وسـنتى ٠

ألا هل بلغت اللهم فاشهد ٠

أيها الناس : ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عنـد الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير ٠ وليس لعربى على عجمى فضلا الا بالتقوى ٠

ألا هل بلغت اللهم فاشهد ٠

فليبلغ الشاهد منكم الغائب ٠

أيها الناس : ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر (٣) ، من ادعى لغير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكـة والناس

---

(١) جمع عانية بمعنى أسيرة ٠ المرأة بخضوعها لزوجها وامارته على البيت تشبه الاسيرة ٠ فالتوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نرفق بها

(٢) تأكيد على ما نهي عنه من عادات الجاهلية التى كان الرجل القوى يستبيح الاستيلاء على مال الضعيف بغير حق ٠ وهذا كما فى قوله تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ٠

(٣) اذا ثبت الزنا على المرأة فالولد لزوجها – ويقام عليها الحد – فان كان الزوج منكرا للولد لاعن من أمه ٠ واللعان معروف ٠

أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل (١) ٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

هذه الخطبة من الخطب الجامعة لانها حوت تعاليم كثيره هامة ، وهى آخر خطبة جامعة لرسول الله ﷺ ، وتبدو صرامتها فى أنه ﷺ طبقها على ذويه قبل أن يطبقها على الآخرين ، فبدأ بوضع ربا العباس عمه ، وقد ضاع بهذا على العباس مال كثير ولكن حسبه أن كان له رأس ماله ، كما وضع دم ابن عمه عامر بن ربيعة بن الحارث ـ والحارث أكبر أبناء عبد المطلب ـ وكان له بلاء مشهود يوم بدر ، وكانت الطريقة الجارية أن يؤخذ بثأره ممن قتله ، لكن الاسلام يجب ما قبله ، لهذا ترك رسول الله هذا الثأر ٠

وقد آخى رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وجعل دماءهم متكافئة ، ونبيهم فى هذا الى أن أصلهم واحد هو آدم ، وانما يتفاضلون بالتقوى لا بالأجناس ، فالله جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، ولم تغفل الخطبة شأن المرأة ومالها من حقوق ، وما عليها من واجبات ٠

فى الخطبة مقدمة ليست هى مجرد الحمد والشهادة ، ولكنها الوصية بالتقوى والعمل الصالح ، فهذه أمر بشىء جامع عام ، كل ما بينته الخطبة بعد ذلك فهو من التقوى والعمل الصالح ، ثم كان موضوع الخطبة هو المتعاليم التى ألقيت ، ولم يحتج أكثرها الى دليل وبرهان ، لأنها تعاليم النبى المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، ولكن بعضها ذكر له تعليل عابر لبيان توجيهه ، ولماذا كان على هذا النحو ٠

---

(١) لا يجوز له ذلك أصلا ٠ وأصل العدل : القصاص وقتل شخص بشخص والعدل أن يأخذ دية تعادل ما أصابه ٠

والخطبة ليست طويلة وليست أيضا قصيرة ازاء ما جاء بها من تعاليم شرعية ، وقد اختلفت روايتها فى كتب التاريخ والسير ، ولكنها على أطول رواية جاءت بها ليست ذات طول ، وانما هى ذات توسط وأدنى الى القصر ، وهى نموذج من البلاغة النبوية ، ونموذج من الاصلاح الاجتماعى الشامل ، ونموذج من اصلاح الاسلام ، لأنها تعكس بوضوح جوانب من العادات العربية السيئة التى كانت شائعة قبل الاسلام !! .

خطب رسول الله ﷺ

نورد بعض الأمثلة لخطب رسول الله ﷺ للاستفتاح والتبرك .. ومع أنه ﷺ استقى بلاغته من معين القـرآن والوحى الالـهى ، وكلامه مما تزين به الخطب ، وتستشرف اليه كل نفس ، وكل خطيب يتطلع الى بلاغته العليا . ومع هذا كله كانت معظم خطبـــه قصارا ، ولم يكن يطيل خطبـــه الا للمناسبات الداعية الى الاطالة . ولقد أثبتنا خطبة الوداع، وتعتبر من الخطب الطويلة . وجاء عنه ﷺ أيضا أنه خطب مرة بعد العصر ، ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف ، فقال : « انه لم يبق من الدنيا فيما مضى الا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

وقد أورد الباقلانى هذه الخطبة فى كتابه اعجاز القرآن، ولكن لم يذكر منها الا كلمات قليلة هى :

« ألا ان الدنيا خضرةحلوة ، ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النســـاء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس أن يقول الحق اذا علمه ... ».
ومن أمثلة خطبه القصيرة :

١ ــ أول خطبة دعا بها قومه بمكة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناسجميعا ما غررتكم ، والله الذى

لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى النـــاس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعمـلون ، ولتجزون بالاحسان احســـانا وبالسوء سوءا ، وانها للجنة أبدا ، أو النار أبدا » ٠

فانظر الى هذه الكلمـات الوجيزة كيف رتبت واتصلت حلقاتهـا حتى انتهت الى الغرض الذى تريد ، وليس بهـا تكرار ولا حشو ٠ بدأت بأن الرائد ـ أيا كان ـ لا يكذب ، وهو نفسه معروف بالصدق والأمانة ، فقد اجتمع له مايزيد صدقه تأكيدا ، ثم أكد ذلك ثانيا بأنه لو جاز أن يكذب فانه لا يجوز له أن يكذب عليهم ، لأنهم أهله وعشيرته ، ثم زاد ذلك كله ليصدقوه أنه مرسل من الله ، وهو مرسل لهمخاصة لأنهم أهله يحمونه ويشرفون برسالته ، ورسول الى الناس جميعا ، فهى رسالة عامة ٠ ثم حدثهم عن البعث بعد الموت والحساب علىالأعمال ـ وهذا مفتاح الرسالةالاسلامية ـ فمن آمن بذلك سعى لمعرفة ما ينجيه ويرفع درجته ٠

٢ ـ خطبة أخرى له (ﷺ)

« أيها الناس » : ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم (١)، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم (٢) ، ان المســـلم بين مخافتين : بينأجل قد مضى لايدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ٠ فليأخذ العبد من نفســه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ٠ فوالذى نفس محمد بيده ما بعـد الموت من مستعتب (٣) ، وما بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار» ٠

---

(١) جمع معلم ، ما يستدل به كالعلامة ٠
(٢) تذكروا أنكم ستموتون ٠
(٣) عتاب ٠ مصدر ميمى ٠

٣ ـ خطبة أخرى

« أيها الناس : كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأنه الذى نشيع من الأموات سفر (١) عما قليل الينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم (٢) ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائعة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت (٣) وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ، ولم تستهوه البدعة » ٠

٤ ـ وأول خطبة له ﷺ بالمدينة

أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن(٤) والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ ٠ وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ ٠ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ٠ ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزى(٥) ، الحسنة بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف(٦) ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمته وبركاته ٠

---

(١) كشرب وركب بمعنى مسافرون ٠

(٢) جمع جدث وهو القبر ٠

(٣) طهرت ٠

(٤) بفتح العين وتشديد اللام بمعنى تعلموا واعلموا ٠

(٥) بالبناء للمفعول ٠

(٦) الضعف المثل ، ويقولون أيضا : لك ضعف هذا أى لك مثلاه ٠

٥ ـ خطبته ﷺ فى الاستسقاء

جاء أعرابى الى رسول الله ﷺ وآله فى عام جدب فوقف أمامه وقال : أتيناك يا رسول الله ، ولم يبق لنا صبى يرتضع ولا شارف(١) تجتر ، ثم أنشد :

أتيناك والعذراء يدمى لبانها
وقد شغلت أم الرضيع عن الطفل(٢)
وألقى بكفيه الفتى لاستكانة
من الجوع حتى ما يمر ولا يحلى(٣)
ولا شىء مما يأكل الناس عندنا
سوى الحنظل العامى والعلهز الغسل(٤)
وليس لنا الا اليك فرارنا
وأين فرار الناس الا الى الرسل

فقام النبى ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا(٥)هنيئا مريعا(٦) سحا سجالا(٧) غدقا(٨) طبقا(٩) ديما(١٠)

---

(١) الشارف الناقة المسنة الهرمة ، ويقال شارقة ، والجملتان كناية عن الجوع والانعام تجتر ما فى بطنها ، فاذا خلا بطنها فلا اجترار ٠

(٢) اللبان ـ بفتح اللام الصدر ـ وهو يدمى لان الصبية امتهنت بالعمل لعدم قدرتها على استئجار خادم ٠ فهى كناية عن الفاقة والفقر ٠ وشغل أم الرضيع عنه من هذا لانها تعمل ولا تستطيع التفرغ له ٠

(٣) ألقى بكفيه أى استسلم وعجز عجزا تاما ، وما يمر ولا يحلى ، أى لا يستطيع ان يعمل ما يضر أو ينفع ٠

(٤) العامى الذى أتى عليه عام ، والحنظل مر المزاق ، والعلهز طعام من الدم والوبر كانوا يأكلونه فى الجاهلية أيام المجاعة وقد اكلته قريش حين دعا عليهم رسول الله أن يجدوا سنين كسنى يوسف ، والغسل الردىء ٠

(٥) المغيث المنقذ، وارىء : السائغ ٠ (٦) خصبا، اى يكسب الارض خصوبة

(٧) السجل النصيب الدلو المملوءة كعظيمة ، فالسجال العظيم والتداول الذى ينال كل بلد منه نصيب ، كما يقال حرب سجال أى ينال كل من صاحبه مرةو يهزم أخرى ٠

(٨) الغزير الكثير ٠ (٩) يطبق الارض ويملؤها ٠

(١٠) أى يدوم حتى يروى ٠

دررا (١) ، تحيى به الأرض وتنبت به الزرع ، وتـدر به الضرع ، واجعله سقيا نافعة ، عاجلا غير رائث (٢) ·

فما رد رسول الله ﷺ يده الى نحره حتى ألقت السماء أوراقها (٣) وجاء الناس يضجون : الغرق الغرق يا رسول الله ·· فقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » · فانجـاب (٤) السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالاكليل · فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (٥) ·

قبس من البـلاغة النبوية

بجانب ما ذكرنا من خطبه ﷺ القصيرة ، نذكر بعضـا من أحاديثه البليغة الموجزة ، ففيها بجانب التبرك بكلامه مدد للخطيب ، ونماذج بلاغية تحتذى ، وبعض هذه الأحاديث يمكن أن يكون وحده موضوع خطبة ، وليحاول دارســو الخطابة أن يتخذوا بعضا منها موضوعا للتدريب ، ومحاولة لانشاء خطبة محورها بعض هذه الأحاديث ·

١ ـ قال ﷺ للانصار :

« انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » ·

يريد أنهم كانوا يأتون كثرا عنـد النداء للحرب ، وحين اشـتداد المعركة ولكنهم عند توزيع الغنـــائم كانوا يبدون العفة فلا يحضر الا القليل · فالمراد بالفزع حالة الحرب ، والفزع فى الأصل الخوف والرهبة ·

٢ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

« خير المال سكة مأبورة ، وفرس مأمورة » ·

ومعناه أفضل ما يملك الشخص نخيل مثمر وفرس نتوج ·· فكلاهما يأتى بالخـــير الكثير على الجهـــد القليل ·

(١) جمع درة بكسر الدال ، من در السحاب · ودرته انصبابه واندفاعه ·

(٢) غير مبطىء ·

(٣) صبت مطرها غزيرا ·

(٤) تكشف وتزحزح ·

(٥) النواجذ أقصى الاضراس ·

ولا يشغل وقت صاحبه ، والسكة هى الصف الممتد من النخل ٠٠ والمأبور الملقح بطلع الذكر ٠ يقولون أبر النخل وأبره ، والمراد النخيل الصالح للاثمار ، والفرس المأمورة الكثيرة النتاج من أمر الله مال الرجل وآمره بمعنى نماه وزاد فيه ٠

٣ ـ وقريب من هذا الحديث قوله (ﷺ) :

« نعمت العمـــة لكم النخلة تغرس فى أرض خـوارة ، وتشرب من عين خرارة » ٠

فالنخل من أوفر الأشجار ثمرا ، وهـو شجر صحراوى تمتد جذوره فى الأرض ويمتص الماء من بعد ويصبر عليه ، والأرض الخوارة الرخوة السـهلة ، والعين الخرارة التى يجـــرى ماؤها أو ينطف ، والجملتان للدلالة على أنهـــا لاتكلف جهدا ٠ وسميت النخلة عمةلأنها ذات فضل تستحق به أن تكرم ٠ وجاء فيها أيضا : أكرموا عمتكم النخلة ٠

وفى حديث عبد الله بن عمر :

« ان من الشجر شجرة تشبه المؤمن وانها لا يسقط منها أبلمه » ٠

والابلمه الورقة ـ خوصة النخلة ٠ أى أنهـا كثيرة النفع لا يذهب منها شىء بغير فائدة ٠ ينتفع بجذعها وســـعفها وخوصـــها وعذقها وبلحهـــا ٠ وقال عن النخيل أيضا : المطعمات فى المحل الراسخات فى الوحل ٠

أى أن بلح النخيل يصـــلح طعاما وغـذاء ، فى أوقات الجدب ، وقلة الطعام ، ومع ذلك تمتـد جذوره فى التراب لا يكلف صاحبه اصلاح أرض ولا امدادا بماء ٠

٤ ـ وقال ﷺ :

« نهيتكم عن عقوق الأمهـــات ، ووأد البنـات ، ومنع وهات » ٠

ويروى الحديث أيضا : ان الله كره لكم عقوق الأمهات ، والمنع يراد به منع ما يعطى عادة من الصدقة والمساعدة ، وكلمة « هات » تعنى الطلب ، أى كره لكم أن تمنعوا عونكم وتطلبوا عون الآخرين ، فهذا مناف للمروءة ٠

٥ ــ ومن ذلك قوله ﷺ :

« لو أن لابن آدم وادين من ذهب لتمنى الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب » ٠

وهو تصوير لشره الناسس على جمع المال ، حتى لو كان للشخص واديان مليئان بالذهب ما قنع ولا اكتفى ، ولاتزال عينه تتطلع الى مزيد حتى يموت ويدفن ٠ ويروى أيضا : ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ٠

٦ ــ وقال عليه الصلاة والسلام :

« ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » ٠

وهو تأديب وتربية للغرائز البشرية ، فالمال القليل الذى يكفى حاجة الانسان ولا يبطره خير من الكثير الذى ينسيه واجبه نحو الله ٠

٧ ــ وقال عليه الصلاة والسلام :

« يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، يتقون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » ٠

والمراد بالعلم هنا علم الدين والسنة ، يقوم عليه فى كل جيل قوم ذوو عدل وفهم وخشية من الله ٠ فيوضحون معانيه الحقيقية ، ويبعدون تأويل المتأويل ٠ والخلف ــ بفتح اللام ــ الجيل والقوم يأتون بعد سابقهم ــ بسكون اللام ــ يكون للجيل السىء الفاسد ــ كما فى قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ٠

وفى كل عصر تجد مشاكل وتظهر تيارات فكرية كثيرة ما يلجأ الناس الى تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتتسع لها · كما نجد فى وقتنا كثيرين يحلون فائدة الاموال التى بالبنوك أو صناديق التوفير أو التأمين على الحياة ، ويتأولون لذلك عللا كثيرة ، اما غلوا منهم أو جهلا أو تعمدا لعمل الباطل ، ولكن توجد قلة تصمد للدفاع عن الحق ·

٨ ـ وقال ﷺ :

« لا يوردن مجرب على مصح » ·

والمجرب صاحب الابل الجربى ، يقولون أجرب فلان أى ظهر الجرب فى ابله ، والمصح ذو الابل الصحيحة ، أى لا يخلط ابله الجربى بالأخرى فتعديها ، ومثله من الحديث أيضا : اذا نزل الوباء بأرض فلا تدخلوه ، واذا كان أحدكم به فلا يخرج الى غيره · وهذا من نصائحه ﷺ فى اتقاء العدوى ·

٩ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

« الناس كالابل المائة لا تجد فيها راحلة » ·

ويروى الحديث كالابل مائة لا تجد فيها راحلة ، ويروى كابل مائة ت تجد فيها راحلة · أى أن خيار الناس قليلون ·· وأراذلهم هم الكثرة الفاشية · والراحلة من الابل البعير النجيب التام الخلق الجلد القوى على الأسفار ، و « أل » فى الابل للجنس ، فما بعدها صفة ـ أى هم كالابل التى بهذه الصفة ·

١٠ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

« اياكم والمشارة فانها تميت الفرة ، وتحيى العرة » ·

والمشارة : المخاصمة والمجادلة ، والفرة المنقبة والصفات الحسنة ، والعرة المثلبة التى تجلب العار ، فمخاصمة

الشخصين تدعو كل واحد منهما أن يذكر معايب صاحبه ، ويغفل ماله من مأثرة ، فأحرى بعقلاء الناس ألا يشاروا ، ولا يخاصموا ، ولما دخل السالب بن صيفى على رسول الله قال : أتعرفنى ؟ · قال ﷺ : كيف لا أعرف شريكى الذى كان لا يشارينى ولا يمارينى ؟(١) ·

١١ ـ وقال ﷺ :

« دب اليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، حالقة الدين لا أقول حالقة الشعر، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بأمر اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام وصلوا الأرحام »

والحسد أن يستكثر الشخص نعمة أنعمها الله على غيره ، فتود نفسه لو أنها زالت عنه ، وهى تسبب الكراهية ·· وهذا الخلق يعارض تعاليم الدين ويجتثها من نفس صاحبه ، كما تحلق الآلة الشعر ، وهو داء قضى على الأمم السابقة ، ومعنى دب فيكم يوشك أن يدب بينكم ، كما فى قوله تعالى : أتى أمر الله ·

١٢ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

« لو تكاشفتم ما تدافنتم » ·

ويفسر بوجهين ، قبل لو كشفتم ما تكشفونه فى أنفسكم، وأبديتم سرائركم ما استطعتم بعد ذلك أن تخفوا سرا وتدفنوه · فهو نهى عن افشاء الأسرار واذاعتها ، وقيل : لو علم بعضكم ما يكنه له الآخر وما تخفى سريرته له ، لثقل عليه أن يشيع جنازته ، وأن يوسده قبره · ومعنى هذا أننا لا ينبغى أن نكلف الناس شيئا فوق طاقاتهم ، ولا أن نحاول التعرف على ما يكنون لنا ، بل نصحبهم على علاتهم ·

(١) كان السائب شريك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الجاهلية· ولا يشارى ـ أى لا يشاور ويأتى بشر ولا يمارى لا يخاصم ويجادل ·

١٣ ــ وقال عليه الصلاة والسلام :

« انى لأعطى رجالا وأدع من هو أحب الى منهم لا أعطيه شيئا مخافة أن يكون فى النار على وجوههم » ·

وهذا يبين مدى حرصه ﷺ على هداية أمته ونجاتها من النار ، فهو يعطى ضعيف الايمان يتألف قلبه حتى يتمكن الايمان من نفسه ، ويمنع غيره وهو أحب اليه لأنه وكله الى ايمانه ودينه ، ولو منع ضعيف الايمان لأبعد عن الاسلام ومات كافرا فيكبه الله فى النار · يقال كبه بمعنى ألقاه فى النار ، فأكب هو ، أى هوى وسقط ·

١٤ ــ وقال عليه الصلاة والسلام :

« انى لم أبعث لعانا ، وانما بعثت رحمة » ·

قيل لرسول الله ﷺ : ادع على المشركين · وقيل : قيل له : ادع على بنى عامر ، لأنهم آذوه ، وكانوا مشركين ، فذكر هذا الحديث ·

هذا تأديب منه ﷺ ، لايشتم أعداءه الذين آذوه ·ولهذا جاء فى الحديث أيضا : لا ينبغى للمؤمن أن يكون لعانا · وجاء : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء ·

« ان الله لا ينزع العلم انتزاعا ينتزعه من الصدور ،ولكن ينتزع العلم بنزع العلماء ، حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس علماء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا ، وأضلوا » ·

وهذا حديث ذو أهمية للداعية الاسلامى ، لأنه يحتم عليه التثبت من علمه والاستزادة منه ·

١٥ ــ وقال عليه الصلاة والسلام :

« الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن » ···

والمراد بالفتك الاعتداء والخيانة ، والاسلام يقيد المسلم أن يفتك بغيره ، فهو مانع منه كما يمنع الدابة أن تذهب أو تمرح فى مرعى غيرها ، ولا « يفتك » برفع الفعل المضارع ـ أى ان شأن المؤمن أنه لا يفعل ذلك ٠

ومن قوله (ﷺ) عن جواد سابق : ما هو الا بحـر ، وقيل انه قال : ان وجدناه لبحرا ، أى هو يموج فى جـريه بسهولة كما يندفع ماء البحر ، وقد كان رسول الله (ﷺ) يحب الخيل فجاء فرس له سابقا ، فقال هذا الحديث ، وفيه قال عمر بن الخطاب : كذب الحطيئة حيث يقول :

وان جيـــاد الخيـــل لا تســـتفزنا
ولا جاعلات العاج فوق المعـــاصم(١)

وقال بعض العلماء لم يستفز رسول الله (ﷺ) سـبق فرسه ، ولكنه أراد اظهار حب الخيل وتعظيم شأنها ٠

---

(١)لا يرهبنا المحاربون ولا تستميلنا حسان النساء ٠

من المحاورات فى هذا العهد

كثرت المحاورات فى العهدين الاسلامى والأموى ،وذلك لكثرة المواقف الداعية لتبادل الآراء ، أو لاختلافها ، أو لمطالبة فئة من الناس بحق أو عمل لا ترضى عنه فئة أخرى، ومن هنا ينشأ الحوار ويشتد الجدل كل يدلى برأى ويستند الى حجة ، وقد كانتهذ ه المواقف موجودة فى العصر الجاهلى ، ولكن الأحداث لم تكن سريعة متلاحقة كما هى فى هذه الحقبة · واتخذت المحاورات لذلك ألوانا كثيرة ، فأحيانا تكون هادئة رزينة لا يراد منها الا التهدى الى جانب الحق والصواب ، وأحيانا تكون حادة عنيفة ، يتشبث كل جانب برأيه ويعنيه قبل كل شىء أن يسقط الجانب الآخر ، ولك أن ترجع الى الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وأصحابه قبل غزوة بدر فى استشارتهم فيما ينبغى أن يفعل ، وأيضا بعد هذه الغزوة فيما ينبغى أن يفعل بالأسرى فتجد حوارا هادئا ، لا شدة فيه ولا لجب ، ولا مغالطة ولا انفعال ، وقس على ذلك مشاوراته اياهم فى الخروج الى الحرب يوم أحد · ولكن اذا رجعنا الى الحوار الذى دار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة والى أنواع الحوار الكثيرة التى كانت تنشأ بين بنى أمية وأعوانهم من جانب، وبين بنى هاشم أعوان على من جانب آخر ، وجدت شدة فى القول وتقريعا وعنفا · وفى كل النوعين نجد جهدا فىالبحث عن الأدلة كما نجد بلاغة فى القول وجمالا فى صوغ العبارات ، هذا مع أن أكثرها عبارات مرتجلة ومواقف فوجىء بها المتحدث دون ما استعداد ·

ونختار من هذا موقف السقيفة لأنه ذو أهمية كبيرة فى التاريخ ولا بد للداعية الاسلامى من الالمام به ، ثم نذكر بعض المواقف الأخرى تحاشيا للاطالة ·

وهاك صورة ناطقة من هذا اليوم المشهود ·

يـــوم الســـــقيفة (١)

يوم السقيفة من المواقف التى نجد بها أمثلة جيدة للخطبة القصيرة والحوار أو الجدل والمناظرة ، وأود أن أنقلصورة منه نقلا عن تاريخ الطبرى مع تصرف ضئيل واختيار لبعض الروايات ، وايراده كاملا يبدى صورة حية لهذه الأمثــلة التى ذكرت ٠

سورة الموقف

غداة توفى رسول الله ﷺ مــــاج الناس واضطربوا ، وذهبت الدهشة بلب الكثيرين منهم حتى أن عمر بن الخطاب خيل اليه أنه ﷺ سيعود ثانيا ، وكان قد سبق الى ذهنه أن قوله : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شـــــهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، يؤذن ببقائه ﷺ الى نهاية الدنيا ، فلماجاء أبو بكر وثبت الناس ، وتلا عليهم قول الله تعالى : « انك ميت وانهم ميتون » وقوله : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتــل انقلبتم على أعقابكم » ٠ هدأ عمر وهدأ الناس ، وعاد أبو بكر مرة ثانية الى بيت رسول الله ﷺ مع أقاربــه لتجهيزه ودفنه ، وظل عمر وظل المسلمون بالمســـــجد ما بين باك ومحزون ينتظرون ما عسى أن يفعلوه توديعا لرسول الله هذا الوداع لا لقاء بعده ٠

ولكن عمر بن الخطاب بعد أن هدأ ، وبعد أن أقنعه حديث أبى بكر ، بدر الى ذهنه التفكير فيمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، وكان أول من فكر فى هذا من المهاجرين ، وكان حوله عدد من كبار الصحابة منهم أبو عبيدة بن الجراح فدار بخلد عمر أن هذا الرجل يصلح لامارة المسلمين ، وكان هذا عجيبا من عمر ، ولئن كان هــــذا التفكير من جـــانب

(١) السقيفة كسفينة هى الصفة والمظلة أو السقف غير الكامل ٠ وكانت سقيفة بنى ساعده فى المكان الذى به الان حديقة صغيرة عند ملتقى شارع المناخة ٠

عمر اهتماما واعيا بشأن الاسلام وشئون المسلمين عامة والدولة الناشئة التى لم تستكمل نضجها بعد ، انه لم يكن أول من فكر فيه على الاطلاق ، لقد سبقه الأنصار الى هذا التفكير وودوا لو بقى هــذا الأمر لهم دون سائر العرب ، ورأوا أنهم قد بذلوا لحماية الاسلام ما بذلوا ، وأن الاسلام لم ينهض ولم يترعرع الا فى بلدهم وتحت سيوفهم ، ولو ظل حبيسا بمكة كما كان قبـل الهجرة ، أما نال هذا النجــاح ولا علت كلمة الله ودعوة الحق على كلمــة المشركين عباد الأوثان . لذلك اجتمعوا ــ والمهــاجرون لا يعلمون ــ فى ســقيفة بنى ساعدة يتداولون الرأى ، ويتخذون الــعدة للاستيلاء على الخلافة قبل أن يسبقهم اليها المهاجرون .

واذن فقد كان هناك جمعان وان شــئت ثلاثة جموع ، الأنصــار فى سقيفتهم مشغولون بأمر الخــلافة ، وعلى وأبو بكر وعدد من بنى هاشم فى بيت رسول الله لا يشغلهم الا تجهيز النبى (ﷺ) ودفنه ، وجمع ثالث من الصــحابة بالمسجد ينتظرون ما يفعلون لتشييع هذا الجثمان الكريم، ولكل منهم شأن يشغله عدا عمر الذى ســبقهم الى التفكير فى شأن خلافة رسول الله على المسلمين ، وقد فكر واطمأنت نفسه الى أبى عبيدة ، دنا اليه وحادثه فى هــذا الشأن ثم قال له : ابسط يدك فلأبايعك ، فأنت أمين هــذه الأمة على لسان رسول الله . ! ولكن أبا عبيدة لم يمدد يده ، بل نظر الى عمر نظرة الدهش المتعجب ثم قال له : ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت ، أتبايعنى وفيكم الصــديق ، وهو ثانى اثنين اذ هما فى الغار ؟

أبو عبيدة فى نظر عمر

ويدل على هذا ما كان لأبى بكـــر من مكانة فى نفوس الصحابة لا ندرى كيف غابت عن عمر فى هذا الوقت ، وقد أبدى عمر بعد ذلك تقديرا لأبى بكر وأحقيته بالخلافة ، ولكنه

بعد استخلافه هو ظل يرى أن أبا عبيدة أصلح الناس لها ، وفى عام الوباء حين كان أبو عبيـدة بالشام اراد عمـر أن يستدعيه ليبايعه بالخلافة ، ولكن ابا عبيدة رفض ثم ذهب به الطاعون فى العام نفسه ، وحين طعن عمر ، وبحث عمن يلى الخلافة من بعده قال : لو كان ابو عبيدة حيا لوليته اياه ٠

ولكنه فى هذا الموقف تراجع ورأى ان ابا بكر أحق بهـا وأولى ٠

بينما عمر وأبو عبيدة فى حديثهم والصحابة الآخرون فى شئونهم جاءهم النبأ بأن الأنصار فى سـقيفة بنى ساعدة يوشك أن يبايعوا سعد بن عبادة سـيد الخزرج خليفة على المسلمين ، حينئذ أرسل عمر لأبى بكر أن أخرج الينـا فلم يجبه وقال : انى فى شغل ، فأعاد عمر الرسول اليه يخبره أنه قد حدث أمر لابد أن يشهده ، هنالك خرج أبو بكر دهشا الى عمر فلما أخبره بما يجرى فى السقيفة رأى أن لا مناص من الذهاب اليها لاقناع الأنصار بالعدول عما شرعوا فيه٠

هذا هو الجو الذى ألقيت فيه الخطب والمحـاورات التى نريد أن نضعها نماذج لخطب قصيرة ، ومحاورات فى حدث يعتبر من أهم الأحداث الاسلامية خطرا ٠

انطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وبعض من الصـحابة تجاه السقيفة وأنت تعلم أنها ليست بمبعدة من الحرم ،ولابد أن كل واحد من هؤلاء الكبار قد فكر وهيأ فى نفسه ما يواجه به المؤتمرين ويقنعهم به ، فهذا موقف لا يكفى فيه الارتجال ولا يهجم عليه بدون تفكير ، وانهم لفى طريقهم اذ قابلهم بعض من الأنصـار منهم عويم بن سـاعدة(١) ومعن بن

---

(١) عويم ممن شهدوا بدرا ٠ وله حديث فى تفسير المتطهرين الذين ذكروا فى الآية : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا ٠٠ » وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم المرء منهم عويم بن ساعدة » ٠

عدى (١)، وقد وصفا فى هذا الحادث بأنهما رجلان صالحان .. فقالا : أين تريدون يا معاشر المهاجرين ؟ وذكرا ماتملأ عليه القوم ، وقالا : لا تأتوهم فانه لا يكون ما تريدون ، ثم قالا : لا عليكم ألا تقربوهم يا معاشر المهاجرية واقضوا أمركم : ، وفى رواية : لا تأتوهم واقضوا أمركم .

وكان رأى هذين الرجلين الصالحين أن يفضى المهاجرون عن الأنصار وأن يختاروا خليفة من بينهم ، لكنه رأى فطير، نقد يفضى هذا العمل الى اختيار خليفتين فى وقت واحد ، فهذا تفريق للمسلمين ، واثارة للشحناء بينهم لهذا أصر المهاجرون على الذهاب الى السقيفة .

ما دار فى السقيفة قبل حضور المهاجرين

حال سعد بن عبادة

كان سعد بن عبادة سيد الخزرج (٢) وجعا فى هذا اليوم لا يقوى على الوقوف للخطابة بل ولا على الجلوس ، ولا يقوى صوته على اسماع الناس ، لهذا جاءوا به مزملا ، فأضجعوه ، ووقف بجانبه ابن له أو بعض أقاربه ليسمع

---

(١) معن بن عدى ، هو أخو عاصم بن عدى ، وهو صاحب هذا الموقف . وليس عاصما كما ظن بعض الكتاب المحدثين ، وهو من بلى حليف للانصار ذكره ابن اسحق فيمن شهد احدا ، وكان عاقلا ، لما قال الناس يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم : وددنا أنا متنا قبله ، انا نخشى أن نفتن بعده . قال هو : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا . واستشهد يوم اليمامة فى حرب مسيلمة .

(٢) سعد بن عبادة من السابقين الى الاسلام من الانصار ، شهد بيعة العقبة وكان أحد النقباء ، وهو وأبوه وابنه من الاجواد . وكان يحمل راية الانصار بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مات فى السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ودفن بقرية قرب غوطة دمشق . ولم يبايع أبا بكر بالخلافة ، وكان يحج وحده ، ولم ير أبو بكر حربه لانه فرد، ولان له فضلا سابقا فى الاسلام وحسن صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولان حربه أو قتله يؤذى شعور الانصار ، ويفرق كلمة المسلمين، ولم يبايع عمر أيضا ، ولكنه لم ينقطع عن الجهاد .

الناس ما يقول ، وكان الحباب بن المنذر الخزرجي (١) ، من أشد الناس ممالأة لسعد ، وتمسكا أن تكون له الخلافة دون غيره ٠

فخطب سعد في قومه على الطريقة التي ذكرنا فكان مما قاله ٠

خطبة سعد

يامعشر الأنصار : انلكم سابقة فيهذا الدين ، وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب ، ان محمدا ـ ﷺ ـ لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه الا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله (ﷺ) ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عموا به (٢)٠ حتى اذا أراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الايمان به ، وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه والاعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم، وأثقله على عدوه من غيركم(٣) ٠٠ حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا (٤) ،وحتى أثخن (٥) الله ـ عز وجل ـ لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين ، فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون الناس » ٠

---

(١) الحباب بن المنذر بن الجموح ، خزرجي سلمي ، شهد المشاهد كلها ، وهو صاحب المشورة يوم بدر ، وقد اطاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « قد اشرت بالرأى » ٠ وكان من ذوى الراى والفطانة حقا ، ومات فيخلافة عمر بن الخطاب وفى حديثه هناك ما يبين مدى اعتداده بنفسه ٠

(٢) الضيم هو الذل ، عموا به عمهم جميعا وشملهم ٠

(٣) من عاداه من بينكم كنتم اشد عليه من قريش ، وما عاداه من غيركم كانت وطاتكم عليه اثقل من وطاتهم ٠

(٤) دخر كمنع وفرح : دخورا ، ودخرا ذل وعفا ٠

(٥) اثخن : أى اوهن ٠ ومنه حتى اذا اثخنتموهم ، والاثخان كثرة التجريح واثخن له الارض ذللها واوهنها ٠

فأجابوه بأجمعهم أن « قد وفقت فى الرأى ، وأصبت القول ولن نعدو ما رأيت ، نوليك هذا الأمر فانك فينا مقنع .. ولصلح المؤمنين رضا » .

تحليل الموقف والخطبة :

سعد كما ترى قوى الحجة جدا ، أبدى وجهة نظرسليمة، انه لولا الأنصار والهجرة اليهم لقضت قريش على الاسلام والمسلمين ، فالذين استجابوا لدعوته بمكة من الضعاف الذين لا يحمون أنفسهم فضلا عن حماية غيرهم ، فالأنصار لهم حقا الفضل فى تثبيت الدين ثم نصره ونشره ، ومع هذا ظل رسول الله (ﷺ) راضيا عنهم حتى مات ، لماذا اذن لا تكون لهم الخلافة ؟

أثر الخطبة

ولقد وافقه القوم ورضوا رأيه ورضوه خليفة ، لكن لم يتقدم أحد لبيعته ، وهناك أمران خارجان عن نطاق الخطبة ، ألمحت الى أحدهما وتركت الآخر ، هذان الأمران هما موقف المهاجرين أولا ، ثم موقف الأوس من الخزرج ثانيا، والخطبة لم تذكر المهاجرين بالاسم ، ولكن حديثها كله يدور على أن الأنصار أولى منهم ، واذا لم يقبل الناس بعد قبولهم رأى سعد على بيعته قال قائل منهم : فان أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر ، من بعده ؟

يدل هذا القول على أن القوم لم تكن غائبة عنهم حجة قريش ، وأنهم لم يجدوا الشجاعة على الاقدام لمبايعة سعد، وقال آخرون ردا على هذا : فانا نقول : « منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا » !

وقال سعد حينئذ : هذا أول الوهن .

وكان الذين اقترحوا هذه الشركة من الأوس لا من

الخزرج ، والوهن يأتى من تسليم نصف الخلافة ، ومن انقسام الأنصار ·

حضور المهاجرين :

حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن معهم والقوم فى هذا الموقف ، فأمسك الأنصار عن الكلام ، حتى جلس الوافدون ، وأهمهم أبو بكر وصاحباه ، وأراد عمر الكلام فمنعه أبو بكر تحاشيا لشدته ، وسكت عمر لأنه لم ير من الصواب أن يخالفه مرتين فى يوم واحد · فدار الحوار على هذا النحو ·

أبو بكر : حمد الله وأثنى عليه ثم قال فيما قال :

··· ان الله بعث محمدا (ﷺ) رسولا الى خلقه وشهيدا على أمته، ليعبدوا الله ويوحدوه، وهم يعبدون دونه آلهة شتى ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وانما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور ، يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والايمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم اياهم(١) وكل الناس مخالف لهم زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم(٢) وشنف(٣) الناس لهم ، واجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبدوا الله فى الأرض ، وآمنوا بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه(٤) وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك الا ظالم ·

---

(١) يريد صبروا قبل الهجرة على العذاب الشديد · والتكذيب فحفظوا جرثومة الدين ·

(٢) لم يرهبوا الاعداء ويتركوا الدين بسبب قلتهم ·

(٣) عداوتهم وبغضهم ·

(٤) أحباؤه وذووه ·

وأنتم يا معاشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم فى الدين، ولا سابقاتهم العظيمة فى الاسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ولرسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ٠٠ فليس بعد المهاجرين الأولين عنـــدنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشـــورة ، ولا تقضى دونكم الأمور ٠

أحد الأنصار (١) : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الاسلام ، وأنتم يامعاشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة (٢) من قومكم ، واذا هم يريدون أن يختزلونا (٣) من أصلنا ويغصبون الأمر منا ٠٠»

ابو بكر ـ (ثانيا) :

أيها الناس نحن ـ المهاجرين (٤) ـ أول الناس اسلاما، وأكرمهم احسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحســـنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله ٠٠ أسلمنا قبلكم ، وقدمنـا القرآن عليكم ، فقال تبـــارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم باحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، اخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء (٥)، وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ٠

اما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجـــدر

---

(١) لم يذكر اسمه ، ولعله الحباب بن المنذر ، وجاءت هـذه القالة أيضا قبل كلام ابى بكر ٠

(٢) الجماعة تاتى من البادية ، والجماعة تسير برفق ٠

(٣) يقطعونا ، ويروى يحتازونا ، اى يستولوا علينا ٠

(٤) آثرنا هذه الرواية ، رواية نصب المهاجرين على الاختصاص ، وهى اقوى من رواية الرفع ، التى تجعل للمبتدأ خبرا بعد خبر ٠

(٥) الغنـــــائم ٠

بالثناء من أهل الأرض جميعا · فأما العرب فلا تعرف (١) هـــذا الأمر الا لهذا الحى من قريش فمنـــا الأمراء ومنكم الوزراء (٢) فلا تنسوا (٣) على اخوانكم المهاجــرين ما منحهم الله من فضله ·

الحباب بن المنذر بن الجموح ـ (من الخزرج) ·

··· يا معاشر الأنصـــار : املكوا عليــكم أمركم فان الناس فى فيئكم (٤) ، وفى ظلكم ولن يجترى مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس الا عن رأيكم ، أنتم أهل العــز والثروة ،و أولوا العــدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وانما ينظر الناس الى ما تصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقص عليكم رأيكم ، أبى هؤلاء الا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير ·

عمر بن الخطاب (وكان أمسك عن الكلام) :

··· هيهات هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن (٥) ، والله لا ترضى العــرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجـــة الظاهرة والسلطان المبين ، منذا ينازعنا سلطان محمـــد وامارته ـ ونحن أولياؤه وعشيرته ـ الا مدل ببـــاطل ، أو متجانف (٦) لاثم ، أو متورط هلكه ·

---

(١) فى اكثر الروايات ، لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش · يريد أن العرب ألفوا أن تكون هذه الاعمال الدينية لقريش ، فاذا ولى منكم الخليفة تفكك العرب ·

(٢) يروى فنحن ·

(٣) لا تحسدوهم ·

(٤) فى ظلكم وتحت حمايتكم ·

(٥) فى حبل : يريد لا يصلح للخلافة اثنان ·

(٦) مائل له ·

الحبـــاب ...

... يا معاشر الأنصـــــار ، املكـــوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فان أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد .. وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكك (١) وعذيقها المرجب (٢) ، أما والله ان شئتم لنعيدنها جذعة (٣) .

عمر بن الخطاب :

اذن يقتلك الله .

الحباب : بل اياك يقتل .

(انتضى الحباب سيفه ، فضرب عمر على يده فسـقط السيف ، فأخذه عمر وهم أن يضرب سعد بن عبادة) .

أبو عبيدة الجراح :

يا معشر الأنصـــــار : كم كنتم أول من نصـــر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .

بشير بن سعد : (٤) (خزرجي) .

« انا والله وان كنـا أولى فضيلة فى جهـــاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا الا رضا ربنـــا ، وطاعة

---

(١) الجذيل : مصغر جذل ، وهو عود تحتك به الابل لتستريح ، ويضرب مثلا للرجل ذى الرأى الشافى .

(٢) العذيق مصغر عذق ، يراد به النخلة نفسها ، والمرجب الذى يسند بالحجارة والدعم ـ يكنى به عن الرجل الشريف ، يعنى به قومه .

(٣) يريد نبعث الحرب ، والجذعة الناقة الشابة .

(٤) ابن ثعلبة جلاس : بدرى ، وهو والد النعمان . استشهد بعين التمر مع خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ ، وبعثه النبى صلى الله عليه وسلم فى سرية الى فدك ، والى وادى القرى . واستعمله على المدينة فى عمرة القضاء ، وكان يكتب بالعربية فى الجاهلية . تهذيب التهذيب ٤٦٣/١ ، الاصابة ١٦٣/١ .

نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي من الدنيا عرضا ، فان الله ولى النعمة علينا بذلك ، الا ان محمدا (ﷺ) من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم فى هذا الأمر أبدا ٠٠ فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » ٠

أبو بكـر :

٠٠٠ هذا عمر ، وهذا عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا :

عمر : (وهو يمد يده ليبايع أبا بكر) ٠

ابسط يدك يا أبا بكر ٠٠ ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفة رسول الله ، فنحن نبايع خير من أحب رسول الله منا جميعا ٠

أبو بكر : انت أقوى منى يا عمر ٠
عمر : أنت أتقى ٠
أبو بكر : ولكنك أقوى ٠
عمر : لك قوتى مع تقواك ٠

أبو عبيدة : انك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟

(عمر وأبو عبيدة يبايعان)
(بشير بن سعد يبايع أيضا)

الحباب بن المنذر :

عققت يا بشير بن سعد ، عققت ، ما أحوجك الى ماصنعت؟ أنفست الامارة على ابن عمك ؟ (يريد سعد بن عبادة ، وكلاهما خزرجى) ٠

بشير بن سعد :

لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم ·

أسيد بن حضير (١) (زعيم الاوس) : يبايع ثم يتجه الى قومه يخاطبهم :

والله لئن وليتهـا الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، قوموا فبايعوا أبا بكر ·

وتكاثر الحاضرون على أبى بكـــر يبايعونه ، وكادوا يطأون سعد بن عبادة ·

عمر : (مشيرا الى سعد) :

اقتلوه قتله الله ···

أبو بكر : الرفق هنا يا عمر أبلغ ·

سعد : أما والله قبل ان ارميكم بما فى كنانتى من نبل ، وأخضب سنان رمحى ، وأضربكم بسيفى وما ملكته يدى، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى فلا أفعل ·

عمر : لا تدعه يا أبا بكر حتى يبايع ·

بشير بن سعد :

لا انه قد لج وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشـــيرته فاتركوه ، فليس تركه بضاركم ، انما هو رجل واحد ·

ــ وتمت البيعة لأبى بكر ــ ·

---

(١) اسيد من بنى عبد الاشهل ، كان أبوه رئيس الاوس وفارسهم يـوم بعاث ، وهو من السابقين الى الاسلام ، واحد النقباء ليلة العقبة ، وكان بين الانصار ثلاثة لا يجازون فضلا ، كلهم من بنى عبد الاشهل ، عباد بن بشير ، وسعد بن معاذ ، واسيد · وهو أسلم قبل سعد بن معاذ ، مات سنة عشرين فى خلافة عمر · والاشهل الذى يقل سواد عينه حتى تميل الى الحمرة · وبنو عبد الاشهل ينتمون الى صنم كان لهم بهذا الاسم ·

نظـرة فى هـذا الموقف

آثرت أن أنقل صورة من هذا الموقف أدنى الى الحقيقة، وفى كتب التاريخ والسير روايات أخرى ، وزيادات كثيرة أعرضنا عنها ، لأن هذه الصورة كافية فى اعطاء صــورة واضحة ولا حاجة بنا الى البحث او الموازنة بين الروايات العديدة · ونحن فى مقام التحدث عن الخطابة القصيرة ، والمحاورات الخطابية نؤثر أن نضع أمام الداعية الاسلامى هذه الصورة ، وفى مضابط البرلمان صــور عــديدة من المحاورات السياسية والخطب القصيرة ، ولكن صــورتنا هذه تعكس منظرا اسلاميا تاريخيا ، وبلغة عربية سليمة ·

وندع للقارىء بعد هذا أن يحلل مواقف الأشــخاص ، ما بين متحمس بدنو حماسه من الثورة كعمر والحباب ، وبين مترو يحرص على صيانة الوحدة بين المسلمين ، وجمع شملهم مثل أبى بكر وبشير بن سعد وأســيد بن حضير ، ولكن يعنينا أن نبحث طريقة كل فريق فى دعــوته لرأيه ، وتأتيه لجذب الناس حوله ، فهذا ما يحتاج اليه الخطيب فى دعوته الناس الى مبدأ ما ، وقد نظرنا فى خطبة سعد ·

أما أبو بكر ، فبدأ ببيان ما كان عليه العرب من وثنيــة ومدى تمسكهم بها وحرصهم عليها، وقد سبب هذا للمسلمين الأولين فى مكة متاعب كثيرة وشاقة ، ومع كل ذلك صمدوا وصبروا على ما أوذوا به ،ومعنى هذا انهم وان لميستطيعوا نشر الدين وشهره ، لهم فضل احياء مبادئه ثلاثة عشر عاما ولولاهم لوئد هذا الدين طفلا — وبهذا أثبت للمهاجــرين الفضل الأول ، بل اكبر فضل فى حماية هذا الدين وليدا . ثمكا ن من لباقته وذكائه انه لم يهمل جانب الأنصار ، بل أثبت لهم فضل ايواء المهاجرين ونصر النبى ﷺ — وبهذا

انتهى الى أن المهاجرين هم الأمراء والحكام ، والأنصار وزراؤهم ، لا يقضى أمر حتى يستشاروا فيه ٠

وحكمة أبى بكر فى هذا الموقف تستحق كل تقدير ، وأنت ترى أن خطبتيه معا تدوران على محور واحد ، ولكن الخطبة الثانية جاءت بأدلة جديدة ، وألمعت الى تخويف الأنصار لا من قوة المهاجرين ، بل من انفلات العرب منهم ، فالعرب لم يألفوا الأنصار زعماء دين ولا حماة بيت الله ، وانما ذلك أمر ثابت لقريش ، وكان ذلك ردا قويا على المتحمسين من الأنصار ، ولا شك أنه ترك فى نفوس السامعين أثرا عميقا ، لهذا لم يقدم أحد على مبايعة سعد ، بل تكاثروا على مبايعة أبى بكر ٠

وأما كلام عمر ، فقد دار أخيرا على ما دار عليه كلام أبى بكر ، وتكاد الحجة تكون واحدة ، أو أن عمرا شقق حججا من كلام أبى بكر ٠

وجاء فى كتب التاريخ قول عمر : انى كنت زورت (١) كلاما فى نفسى ، فلما هممت بالكلام منعنى أبو بكر ، فلما تكلم لم يدع شيئا كنت أعددته الا ذكره ٠ ونفهم من هذا أن كلا الرجلين فى لحظات قصيرة أعد فى نفسه حديثا ، وكانت أفكارهما متحدة أو متقاربة ، ولكن عمر يواجه الموقف فى ثورة لم يكن يتوقع لها ان تأتى بما يريد ، بينما كان أبو بكر فى هدوئه ورزانته أدنى الى النجاح ٠

من هذا تجد ان الاقناع والاستمالة معا يتوقفان على طريقة الالقاء وعلى حال الخطيب ، ومقدرته على النفاذ الى قلوب سامعيه ٠

---

(١) اعددت وزينت ٠

١ ـ خطب أبى بكـر :

خطب أبى بكر كما وردت الينا شديدة الايجاز شـديدة التركيز على الجانب الدينى ، ومعظمها بدون مقـدمات طويلة ، ولكن هناك له خطب قليلة ـ وكل ما وصـلنا من خطبه قليل ـ أطال فيها الحمد والتشهد والثناء على الله ورسوله حتى كان ذلك عدلا فى الطول لما جاء بعده ، وهذه المقدمة كانت أيضا دعوة للعبادة والطاعة ٠

وأشهر خطبة ـ بعد خطبة يوم السقيفة ـ خطبتـه أول ما ولى الخلافة ، وهى أول خطبة يخطبها زعيم المسلمين بعد رسول الله ، وقد وضح فيها منهجه فى الحكم ، ووعد بالتزام سنة رسول الله ﷺ ، ووفى فى الواقع بما وعد به خـير وفاء ، وهى :

الخطبة الأولى لخلافته :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ٠٠٠

أيها الناس : فانى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الصدق أمانـة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عنـدى حتى أريح عليه حقه ان شاء الله ، والقوى منكم الضعيف حتى آخـذ الحق منه ان شاء الله ٠ لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل ، ولا تشـيع الفاحشة فى قوم الا عمهم الله بالبلاء ، اطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسـوله فلا طاعـة لى عليكم ، (١) ٠

(١) هذه رواية الطبرى ، وتروى الخطبة بغير ذلك ٠

ومن خطبـــه :

الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه ، واستهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ومن الشك والعمى · من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ·

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو حى لا يموت ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ·

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركـــون — الى الناس كافة ، رحمة لهم وحجة عليهم ، والناس يومئذ على شر حال فى ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فرية فأعز الله الدين بمحمد ﷺ ، وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النـــار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتـــدون ، فأطيعوا الله ورسوله فانه قال عز وجل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا » ·

أما بعد أيها الناس : انى أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كل أمر وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فانه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير ، من يكـذب يفجر ، ومن يفجر يهلك · واياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب والى التراب يعود ؟ · هو اليوم حى وغدا ميت ! فاعملوا وعدوا انفسكم فى الموتى ، وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله ، وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه محضرا ، فانه قال عز وجل : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا

وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمـــدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » ·

فاتقوا الله عباد الله وراقبوه ، واعتبـروا بمن مضى قبلكم ، واعلموا انه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم – صغيرها وكبيرها – الا ما غفر الله ، انه غفـــور رحيم ، فانفسكم أنفسكم والمستعان الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله، « ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين امنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ·

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك ، وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به ، واحشرنا فى زمرته ، وأوردنا حوضه ·· اللهم أعنا على طاعتك ، وانصرنا على عدوك ·

٢ ـ خطب عمـر :

وفى هذه الخطبة بعض الاطالة فى المقدمة ، وموضوعها هو الأمر بالتقوى · ولا تخرج خطب عمر رضى الله عنــه عن هذا المنهج ، ونختار له هاتين الخطبتين ··

خطبته أول ما تولى الخلافة :

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، انى داع فأمنوا · · اللهم انى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم · اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير

ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني ابتغي بذلك وجهك والدار الآخرة · اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين اللهم اني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال وذكر الموت في كل حين ، اللهم اني ضعيف عن العمـــل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون الا بعونك وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منـــك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، واصـلاح الساعات والحذر من المشبهات ،اللهم ارزقني التفكـــر والتدبر لـما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له والمعـــرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمـل بذلك ما بقيت ، انك على كل شيء قدير ·

خطبته عـام الرمادة :

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال :

« أيها الناس استغفروا ربكم انه كان غفارا :

اللهم اني استغفرك وأتوب اليك ، اللهم انا نتقرب اليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله فانك تقول وقولك الحق: وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، اللهم اغفر لنا انك كنت غفارا·

اللهم انت الراعي لا تهمل الضالة ولا تدع الكســيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع (١) الصغير ورق الكبـير (٢) وارتفعت الشكوى ، وانت تعلم السر وأخفى ، اللهم اغنهم

---

(١) هزل وضعف ·

(٢) وهن ·

بغياثك قبل ان يقنطوا فيهلكوا (١) ، فانه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون •

فما برحوا حتى علقوا الحذاء ، وقلصوا المآزر (٢) ، وطفق (٣) الناس بالعباس يقولون : هنيئا لك يا ساقى الحرمين •

وهذه الخطب تمثل ما كانت الخطبة عليه فى عهد هذين الخليفتين ، وكانت كذلك فى عهد عثمان . ثم طرأ عليها تغير واسع بعد مقتله •

وهى ايضا غاية فى الصراحة وتصوير شخصيتهما ، فأبو بكر رضى الله عنه كان صادقا كل الصدق فى هذا الدستور الذى رسمه فى خطبته الاولى ، ودلت الاحداث على انه أحرص الصحابة والناس جميعا على اقتفاء سنة رسول الله ، وانه كان حقا ناصرا للمظلوم الضعيف مذلا للظالم القوى •

وعمر فى خطبته الاولى أعطى صورة عن الرجل الذى يخشى حساب ربه ، وهو لا يبعد عن أبى بكر فيما وعد ، غير ا نابا بكر قطعه على نفسه عهدا ، وعمر ضرع الى الله ان يجعله كذلك ، وهو شديد الاحتياط فى كل دعاء ، يطلب ان يكون سخيا ولكن فى غير اسراف ، لينا لأهل الطاعة على ألا يجاوز الحق ، غليظا على أهل النفاق على ألا يظلمهم ، وفى كل ذلك يسأل الله ان يكون حسن النية يعمل عمله لله وحده •

وخطبته الثانية دعاء وتوسل ، والضراعة والذلة لله تعالى فيه بادية •

---

(١) حتى لا يدركهم اليأس من رحمتك فيهلكوا بسبب قنوطهم من رحمة خالقهم •

(٢) كناية عن كثرة المطر حتي وحلت الطرق فخلعوا أحذيتهم وشمروا عن سيقانهم •

(٣) اطلقوا .ه •

خصائص الخطابة فى هـذا العصر

استمرت للخطابة اغراضها التى كانت لها فى الجاهلية عدا خطب المنافرات التى حرمها الاسلام ، وقد رأينا قبـل أنها بقيت منها صورة بوجه ما ، وحلت محلها المناظرات، وهى فى جملتها محاجات لامر ما ، أو دفع لاتهام ، وفى هذا قد يقف شخص ما ليقاطع الخطيب ويحـاوره . واكتسبت خطب الحرب والحض عليه صورة الجهاد المقدس لأجـل الدين ، وجدت ايضا خطب ولايات العهد وولايات الاقاليم. والاستخلاف ، واتسمت خطب الزواج أيضا بسمات اسلامية وشاركت الكتابة فى بعض هذه الاغراض . وليس من همنا ان نستقصى كل انواع الخطبة ، ويكفى ان نقدم منها ما يمكن أن يكون فيه عون الداعية فى رسالته ومرشده الى ما ينبغى ان يعمل ، وأهم ذلك كله الخطب الدينية .

الخطب الدينية وسيادتها

كانت الخطبة الدينية من أهم اغراض الخطابة فى هذا العهد ، وهى ايضا من أهم ما يعنى الداعية الاسلامى ، ونعنى بالخطبة الدينية هنا ، كل خطبة تدع والى عمل دينى بحت ، كالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة الى اقامة ركن من اركان الدين ، كالصلاة أو الحج أو قراءة القرآن ، أو التعريف بحـكم شرعى ، أو الاصـلاح بين متخاصمين أو التذكير بالموت والدار الآخرة ، وهكـذا . وحقيقة الخطبة الدينية أنها تشمل كل شئون الحياة . لأن الدين الاسلامى ، يقوم على العقيدة . والعبادة . والمعاملة. وبه قانون شامل لكل ما يقابل الناس فى حياتهم من زراعة

وصناعة ، وبيع وايجار وشركات وهكذا • ولكن لأننا افردنا للشئون الاخرى أبوابا خاصة ، نقتصر فى هذا الباب على الشئون الدينية الخالصة •

هذا النوع من الخطابة لم يكن موجودا فى العصر الجاهلى فيما نقدر ، وخطبة المأمون الحارثى التى سبقت، وخطبة قس بن ساعدة ، مما نرجح انه من الأدب المصنوع، ونحن نجد الأدب الجاهلى خاليا من العنصر الدينى عدا ما كان من شعراء اليهود والنصرانية ، وكان أمية بن أبى الصلت ممن عرفوا النصرانية ، وكان يرجو ويطمع ان يكون النبى العربى المنتظر ، وجاء فى شعره أحاديث عن الدار الآخرة والأنبياء السابقين • أما الشعراء الوثنيون فلا نجدهم يتحدثون عن آلهتهم أو يذكرون شيئا عن أصنامهم وكل ما جاء فى شعرهم ، لمحات تذكر بالموت ، أو بأن الناس سيحاسبون على أعمالهم وكان ذلك قليلا جدا ، كما فى قول طرفة :

لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخى وثنياه باليد (١)

متى ما يشأ يوما يقده لحتفه
ومن يك فى حبل المنية ينقد (٢)

وكقول زهير :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم حساب أو يعجل فينقم

---

(١) الطول : الحبل ، وثنياه طرفاه •
(٢) الحتف : الموت •

وخلو الشعر الجاهلى على كثرته وتشتت اغراضه عن الحديث الدينى يؤذن أيضا بخلو الخطابة منه ، والخطبتان اللتان سبقتا على فرض صحتهما ، لا تتحدثان عن تعاليم دينية ، وانما تنذران بفساد عبادة الأوثان ، وتوجهان الى عبادة الخالق القادر ، وأن نبيا سيظهر ، وينسب لكعب بن لؤى الجد الثامن لرسول الله ﷺ خطب من هذا النوع ٠

وخطب النبى ﷺ هى المثل الذى يحتذيه الخطيب الدينى الموفق ، وهى فى جملتها تهون من شأن الدنيا ، وتذكر بالآخرة ، وتحث على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة ،وهى خليقة أن تكون دستور المسلمين وقانونهم الذى لا يخالف أى شىء منه ، وهى فى واقعها بناء للامة وسعادة لها ورفع شأن لأبنائها ، ولا يزال علماء الأخلاق وزعماء الاصلاح يجدون فيها مددا لهم ، ويتخذون منها هاديا ومرشدا ٠ وقد كان لرسول الله ﷺ خطب فى الشئون الاخرى وكلها تتسم بأنها عمل لله تعالى وقربى اليه ٠ وللخلفاء الراشدين والخلفاء والحكام بعدهم خطب دينية ومواعظ من هذا النوع وكثير منها مما يصل أعماق القلوب ، ويترك أثرا عميقا فى النفوس ، فيستقيم به السلوك المعوج، وتأنس الغرائز الجامحة ، ويعدل العصاة عن ارتكاب الذنوب ، وتكون هذه الخطب أبلغ فى النفس اذا كان صاحبها مقتنعا بها ذا رغبة فى نشرها واذاعتها بين الآخرين ، وقد قالوا : ما خرج من القلب وصل الى القلب ، وما كان من اللسان لا يجاوز الآذان (١) وهو كلام حق لا جدال فيه ٠

والعنصر العام الفعال فى هذه الخطب المؤثرة هو التذكير بالموت وانه حتم على كل حى ، وأن متاع الدنيا

(١) البيان والتبين ٨٣/١ ٠

زخرف موقوت ، وعرض زائل وانه من يفعل خيرا يجز به خيرا ، ومن يفعل الشر يلق عقوبته فى الدنيا والآخرة ٠

وقد كانت الخطب فى هذا العصـــــر مجملة وقصيرة . ويستطيع الواعظ الحديث ان يولد منها خطبا مطولة بمـــا يدخل عليها من الشرح والتحليل . وأمثلة هذه الخطبكثيرة جدا تجدها فيما جمعه ابن قتيبة فى «عيون الأخبار» وأورده الجاحظ فى « البيان والتبين » . وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » وقد سبقت أمثلة لذلك من خطب رسول الله ﷺ ٠

تطور الخطبة منذ مقتـل عثمان

لكى نلم بتطور الخطبة وتنوعها فى عهد الخليفتين عثمان وعلى ، وفى العهد الأموى بعد ذلك ، نلقى نظرة عاجلة على أهم الأحداث السياسية التى فجرت الخطابة وانقسـم المسلمون بسببها أقساما كل له رأيه ومذهبه الذى يدافع عنه ، وكل يتخذ من الدين له عضدا وساعدا ٠

لمحة تاريخية

ونرجع بهذا الى نهاية الخليفة عمر بن الخطاب ، فانه وهو على فراش موته نظر فى الستة الذين رشحهم للخـلافة ، فوجد فى كل واحد منهم صفة تحول دون اختياره خليفـة وايثاره بها على الآخرين ، ولكن ما أخذه على على بن أبى طالب ، كان أهون مما أخذ على اصحابه ، فقد قال لـه : ما يمنعنى منك يا على الا حرصك عليها ، وانك احرى القوم اذا وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم (١) بينما أخذ على الآخرين صفات شخصية ، فسـعد بن أبى وقاص رجل حرب فيه شدة وغلظة ، والزبير بن العـوام مؤمن الرضا كافر الغضب ــ يعنى انه لا يملك نفسه فى وقت غضبه ــ وعثمان بن عفان ذو عصبية ، وهو يحب قومـه وأهله ٠ ثم قال وهو يغالب سكرات الموت : لقد قومت لكم الطريق فلا تعرجوه ، ثم قال لعلى : لعل الناس يعرفـون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله ﷺ ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين ٠٠ فان وليت هذا الأمر فاتق الله فيه ولا تحمل أحدا من بنى هاشم على رقاب الناس ، ثـم التفت الى عثمان وقال : لعل هؤلاء القوم يعرفون لك كذا

---

(١) الامامة والسياسة ، ص ٤٢ وما بعدها ، وتقيم على الحق : لا تنحرف عنه ٠

وكذا ، فان وليت هذا الأمر فلا تحمل أحدا من بنى أمية على رقاب الناس ، وأوصى ألا يغير أحد من ولاته على الاقاليم قبل اربعة اعوام ٠

عمل عثمان

وآلت الخلافة الى عثمان ، فأنس الناس الى ما فيه من لين ودعة لم يكن شيء منهما في عهد عمر ، وشهدت السنوات الأولى من حكمه رخاء نعم به الناس وفرحوا ، وأبقى عثمان ولاة عمر اربعة اعوام ثم استبدلهم بآخرين كانوا أقل كفاية وبدأت أصابع بنى أمية تلعب فى السياسة العامة ، وبدأت محاباة عثمان لهم تسفر عن وجهها ، وظهر على الناس منذ السنة السابعة تذمر واستنكار ، ولم يكن لهذا الخليفة الحيى من الشدة ما يكبح به هذا التذمر ، ولا من القوة الشخصية ما يرد به بنى أمية عن الطريق الذى انحدروا فيه ، بل كان بينهم من هو أحصف منه رأيا ، وأبقى على سمعته ، فقد كان عمر بن الخطاب صادر أموالا لأبى سفيان ابن حرب ، فأراد عثمان أن يردها اليه ، فلم يقبل ، وأشفق عليه من مخالفة عمر ورده عملا عمله (١) ، ذلك لما يعلمه أبو سفيان من اطمئنان الناس الى عدل عمر ، ثم استفحل الأمر بالخطاب الذى كتبه مروان بن الحكم ، وفيه الأمر بقتل محمد بن أبى بكر ، وكان الأمر يقضى أن يعاقب عقوبة تطفىء ثورة الثائرين ، لكن عثمان لم يفعل ٠ وانتهت الثورة بقتله قتلة شنعاء ، والمصحف بين يديه ٠

بيعة على

بايع الناس بعده على بن أبى طالب بالخلافة ، وامتنع معاوية عن بيعته ، وقال حتى يسلم قتلة عثمان ٠ ووقف أهل الشام وراء معاوية ، ووقف أهل العراق وراء على ، فلما التقى الجمعان فى صفين وهزم جيش معاوية الذى كان

(١) العقد الفريد ، جـ / ١ ص ٤٠ ، ٤١ ٠ ونجد هذا قد حدث غير مرة ٠

يقوده عمرو ، وبه معاوية ايضا ، رفعوا المصاحف على أطراف الرماح وقالوا : نحكم كتاب الله ، وطلبوا التحكيم ، فانشق جيش على قسمين ، قسما قبله وآخر رفضه ، والذين رفضوا هم الخوارج ، ثم انتهى التحكيم الى ما آل اليه من الخدعة الشنعاء ، فاذا الأمة الاسلامية قد تقسمت الى خوارج وشيعة وأمويين ، ورأى آخرون ان يعتزلوا هذه الفتنة ، ودبر الخوارج مقتل معاوية وعمرو وعلى ولم يصب القتل الا عليا ، ونصب ابنه الحسن خليفة ، فتنازل سنة ٤١ هـ عن الخلافة لمعاوية على شروط لم يرع معاوية منها شيئا ٠

وبعد استقرار الأمر لمعاوية بايع ابنه يزيد ، لم يكن فى نظر الأكثرين يصلح للخلافة ، فقام الحسين بن على يطالب بحقه فى الخلافة ، ولما قتل بكربلاء ، كان مقتله مثيرا لمشاعر الشيعة ومغضبا لجمهور المسلمين ، وقام بعده عبد الله بن الزبير يطلب الخلافة ، وكادت تتم له بيعة عامة ، ثم قام بعده المختار وثقفى واتخذ من الشيعة عونا له ، وفى أواخر القرن الأول الهجرى قام محمد بن عبد الرحمن بن الأشعث فانضم اليه عدد كبير من الأنصار الساخطين على بنى أمية ثم قام يزيد بن المهلب بن أبى صفرة بثورة أخرى ، كل هذا والخوارج منذ موقعة صفين يجاهدون فى سبيل مبدئهم ٠

وفى أواخر العهد الأموى تولى خلافة المسلمين خلفاء لم يقدروا موقفهم فى الحكم ولا جلال الخلافة ، مما هيأ للخراسانيين والأعاجم بوجه عام أن يجهروا بدعوتهم السرية فظهر أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٩ هـ ، ثم قضى على الدولة الأموية نهائيا سنة ١٣٢ هـ ٠

بهذا نجد ان الدولة الاسلامية منذ مقتل عثمان كـانت أتونا من الحروب التى لم تكن تهدأ الا لتقوم ، وكانت تشب قبل كل شىء بوقود الخطابة ، فأثرى هذا العهد حقل الخطابة ثراء لم يظفر التاريخ الاسلامى بمثله ، واتخذت فيه الخطابة مظهرا لم يكن لها من قبل ٠

ونضيف الى هذا ان الفتوحات التى امتدت شرقا وغربا كانت تعتمد ايضا على الخطابة ، ولكننا لن نقف لديهـــا طويـلا ٠

ونستعرض بايجاز مواقف الأحزاب وآثارها الخطابية ٠

خصوم الامويين

هذا هو الحزب الحاكم ، والأحزاب الأخرى جميعـــا خصوم له ، ولكن أقوى حزب كان يعارض الأمويين هــو حزب الشيعة أنصار على ، وهو الذى قوض أخيرا عرش بنى أمية وقضى عليهم ، ولا ترجع هذه الخصومة الى بداية النزاع على الخلافة بين على ومعاوية ، ولكن جذورها ترجع الى أعماق بعيدة فى التاريخ ٠

جذور الخصومة

ففى ألفاف الماضى قبل الاسلام نجد عنصرين أساسيين لهذا النزاع ، أولهما ما كان من التنافس بين عبد المطلب، وبين حرب بن أمية ، هذا التنافس الذى انتهى الى نفى حرب الى الشام ، فاستطاع أن يكون له هناك أتباعــه ٠ وثانى امرين ما كان من التنافر بين العراق والشام ، وهذا بدوره يرجع أصلا الى العداء بين الفرس والروم ، وكان بنـــو المنذر أتباعا للفرس ، وكان الغسانيون اتباعا للروم ، وكان هذان الجذمان العربيان بعضهم لبعض عدو ، وقد غضب النعمان بن المنذر على النابغة الذبيانى لأنه رحـــل الى الغسانين ومدحهم ، ثم ظل العراق الفارسى والشام الرومى على عداء أيضا ، ولما انتقل على الى الكوفة كانت الحرب واضحة جدا بين الشام والعراق ، وقد جاء فى خطـــاب معاوية الى على هذا البيت :

أرى الشـــام تكـــره ملك العـــــراق

وأهـــل العـــراق له كارهينـــا

وبسبب التنافس القديم بين بنى هاشم وبنى أمية كان وقوف أبى سفيان ضد النبى محمد ﷺ ومحاربته دعوته ،

وقال مرة : تنازعنا الشرف وبنى هاشم ، اطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا حتى اذا صرنا كركبتى البعير قالوا ، منا نبى يوحى اليه · وهو كلام صريح فيما كانوا يرغبون فيه من ازالة هذا السبب الذى رفع بنى هاشم عليهم ، بل نجد معاوية يقول :

بنو هاشم أشرف واحدا ، ونحن أشرف عددا ، فما كان الا كلا ولا حتى جاءوا بواحدة بذت الأولين والآخرين (١) ·

موقف الأمويين من الخلافة

ولم يتطلع بنو امية للخلافة بعد رسول الله ﷺ مع شرفهم فى قريش لأنهم لا سابقة لهم فى الاسلام . ولكنهم كانوا يرقبون أحداثها عن كثب ، لم يذكر لهم شىء يوم السقيفة ، فلما أوصى أبو بكر بالخلافة الى عمر قال أبو سفيان : فما فعل المستضعفان ؟ · يريد عليا والعباس · ولما اختير عثمان من الستة الذين عينهم عمر قال على : والله ما هذا أول يوم تآمرتم علينا فيه · وقال أبو سفيان لبنى أمية : تلقفوها تلقف الكرة ولا تدعوها تفلت من أيديكم (٢) ، فهم بهذا ظفروا بشىء كانوا يتطلعون اليه من زمن بعيد ·

وما اخذ على عثمان

وقد حابى عثمان أقاربه محاباة طمست فى أذهان الناس ما كان له من فضل وتضحية فى سبيل الاسلام حتى نجد كبار الصحابة يجابهونه بخطئه · قال له عمرو بن العاص: انك ركبت بالناس نهابير (٣) من الأمر ، فتب يتوبوا · وقام

---

(١) أنظر العقد الفريد ٣/٢٦٢ · وأراد بالواحد عبد المطلب بن هاشم، وبالواحدة التي بذت رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

(٢) كان فى بيت عثمان ، وقد ذهبت عيناه كلتاهما فسأل بنى امية حوله: أفيكم أحد من غيركم قالوا · لا · قال يا بنى أمية تلقفوها تلقف الكرة، لو الذى يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة · (مروج الذهب ٢/٢٥٣) ·

(٣) مهالك : المفرد نهبرة ونهبورة · والنهابر جهنم ·

رجل من الأنصار فأنكر عليه اعطاءه المال لمن لم يغزوا ، فاستغفر الله ، قال فما بال هذا الشارب لا تقيم عليه الحد ـ وهو يشير الى الوليد بن عقبه بن أبى معيط ـ وكان قد صلى الصبح بالناس وهو سكران ، فصلاة أربع ركعات ثم التفت الى الناس وقال : ان شئتم زدتكم · فقال عثمان لعلى : دونك ابن عمك فأقم عليه الحد ، فجلده عبد الله بن جعفر اربعين ، وأمسك ، وقال : جلد رسول الله وأبو بكر أربعين ، وكملها عمر ثمانين ، وكل سنة · كذلك نجد طلحة يجابهه وهو محاصر ممنوع من الماء . فيقول له : أنت غيرت وبدلت ·

ولعثمان فى شدته وحصاره محاورات وخطب نذكر شيئا منها :

١ ـ محاورة على بن أبى طالب

كان عثمان قد جمع عددا من ولاته وفيهم معاوية وعبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص · ليشاورهم فى أمره ، وما بلغه عنهم، وقال لهم :

شده عمرى علي عثمان

« ان لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رايتم وطلبوا الى أن أعزل عمالى ، وان أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون ، فاجتهدوا رايكم واشيروا على » فأشار كل برأيه ، ولكن لم ير واحد منهم ان يعزل هو أو غيره ، ولكن عمرو بن العاص قال له : « أرى أنك قد ركبت (١) الناس بما يكرهون » ، فاعتزم أن تعدل ، فان أبيت فاعتزم أن تعتزل ،

---

(١) سلطت عليهم وقهرتهم ·

فان أبيت فاعتزم عزما وأمض قدما » ــ ولم يكن عمرو من ولاته بعد أن عزله عن مصر وولى مكانه عبد الله ابن أبى سرح ، ورد عثمان عماله الى أعمالهم ولم يعد الاجتماع بفائدة ٠

خطبة الرعية

ولما كانت سنة ٣٤ هـ قدم الناس وكثروا على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد والصحابة لا ينكرون عليهم شيئا الا أفرادا معدودين منهم زيد ابن ثابت ، وحسان بن ثابت ، فاجتمع الناس حول على بن أبى طالب يكلمونه ، فدخل على عثمان فقال :

عظة علي

« الناس ورائى وقد كلمونى فيك ، والله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، انك لتعلم ما نعلم (١) ما سبقناك الى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء (٢) فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ، ونلت صهره، وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ٠٠٠

فالله الله نفسك ، فانك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وان الطريق لواضح بين ، وان أعلام الدين لقائمة ٠

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله امام عادل ، هدى وهدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة ٠٠٠ وان شر الناس عند الله امام جائر ضل وضل ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى

(١) ما علمنا شيئا قبل أن تعلمه ٠

(٢) عملناه على انفراد ٠

يوم القيامة بالامام الجائر ، وليس معه ناصر ولا عاذل(١) فيلقى فى جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم ، وانى أحذرك الله ، وأحذرك سطوته ونقماته ، فأن عذاب الله شديد وأليم ، وأحذرك أن تكون امام هـذه الأمة المقتول ، فانه يقال : يقتل فى هذه الأمة امام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعا ، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيها موجا ، ويمرحون فيها مرحا » ٠

دفاع عثمان عن نفسه

فقال عثمان : « قد علمت والله ليقولن الذى قلت ، أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك : والله ما جئت منكرا أن وصلت رحما ، وسددت خلة ، وآويت ضائعا ، ووليت شبيها بمن كان عمر يولى ، أنشـدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ، وتعلم أن عمر ولاه ؟ » ٠

قال على : نعم ٠

قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته؟

قال على : سأخبرك ، أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فانما يطأ على صماخه (٢) ، ان بلغه عنه حرف جلبه (٣) ثم بلغ به أقصى الغاية ، أنت لا تفعل ! ضعفت ورفقت على أقربائك ٠

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضا ٠

قال على : لعمرى ان رحمى منهم لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرها ٠

---

(١) ليس هناك من يلومه أو يدافع عنه ٠

(٢) الصماخ : الاذن ، كنى بها عن الرأس ٠ يريد انه يخضعه لامره ٠

(٣) سحبه من وظيفته أو استحضره اليه ٠

قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها .؟ فقد وليته ·

فقال على : أنشدك الله هل تعلم ن معاوية كان خوف من عمر من « يرفأ » غلام عمر منه (١) ·

قال عثمان : نعم ·

قال على : فان معاوية يقطع الأمور دونك وانت تعلمها . فيقول الناس هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغـــير على معـاوية ·

ثم خـــرج على ·

فى هذا الحوار أن عليا يتغلب على عثمان . ويبدو الخليفة تحليل الموقف وهو يحاول أو يروغ فيقول له ان أقاربى أقاربك . كمـا يخفق فى التسوية بينه وبين عمر ·

أما ما جبهه به عمرو بن العاص حين اجتماعه بعملائه، فلا تبدو فيه النصيحة بقدر ما يبدو فيه الدعاء . وقـــد اعتذر عمرو بعد خروج الولاة عذرا عجيبا اذ قال انه انما قال هذا ليبلغ كلامه الناس فيثقوا به . فيقود لعثمان خيرا، أو يدفع عنه به شرا ، وعمرو رجل جرىء لا يبالى أن يقول ما يقول : وهو موتور لعزله عن مصر ·

---

(١) كان يخاف عمر اكثر مما يخاف منه هذا الخادم

٢ ـ خطبة عثمان بالمسجد

خرج عثمان عقب هذا الحوار الى المسجد فألقى فى الناس خطبة جاء فيها : « أما بعد ٠٠ فان لكل شىء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وان آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ، ويسرون ما تكرهون ٠ يقولون لكم ويقولون، أمثال النعام يتبعون أول ناعق ٠ أحب مواردها اليها البعيد (١) ، لا يشربون الا نغصا (٢) ، ولا يردون الا عكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، وتعـــذرت عليهم المكاسب ٠

ألا فقد عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كنفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على ٠

أما والله لأنا أعز نفرا ، وأقرب ناصرا وأكثر عددا (٣)، وأقمن (٤) ان قلت هلم أتى الى ، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى وأخرجتم منى خلقا لم أكن أحسنه ، ومنطقا لم أنطق به فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم (٥) ، فانى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هـــذا ٠

---

(١) النعام تترك الماء القريب لتشرب من آخر بعيد ، يريد انهم يكرهـونه ويحبون غيره ٠

(٢) عكـــرا ٠

(٣) يريد أن قومه وأنصاره أقوى من أنصار عمر ٠

(٤) أقمن :معنى أحرى وأحق ، اذا دعوت لنصرة أتاني الكثيرون ٠

(٥) يريد ولاته فى الاقاليم ، وكل اقليم عاب مواليه ٠

ألا فما تفقدون من حقكم ، والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فضل فضل من مال ، فما لى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فلم كنت اماما » ؟

فقام مروان بن الحكم فقال : ان شئتم حكمنا ـ والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم
معارسكم تبنون فى دمن الثرى (١)

فقال له عثمان : اسكت لا سكت (٢) دعنى وأصحابى، ما منطقك فى هذا ؟ ألم أتقدم اليك ألا تنطق ؟ فسكت مروان ونزل عثمان ·

وهذه الخطبة القصيرة على حظ كبير من المنطق والسداد وهى مقسمة الى عناصر مميزة :

بين أولا أن هناك أعداء له ، يعيبون أعماله ويطعنونه من خلف ، ويمنون الناس بما لا يحققونه لهم ، ـ وهو بهذا يردهم عن اتباع هؤلاء العيابين ويوئسهم مما يعدونهم به، يريد بهذا ان يرد جماح الثائرين ، وأن يجعلهم يصمون آذانهم عن دعاة الثورة · وأشار الى ان هؤلاء يخدعون أنفسهم أيضا اذ يتوقعون فيمن بعده خيرا مما عنده ، وشبههم بالنعام الأحمق ·

وفى العنصر الثانى بين لينه ورفقه بهم بجانب شدة عمر عليهم ، ثم هدد فى غير شدة بما لأسرته من قوة لم تكن

---

(١) معارسكم مفعول به مقدم ، أى تبنون معارسكم فى دمن الثرى · والمعارس جمع معرس‌ما يـ نزل فيه المسافر · أى أبيتم الفراش اللين ولن يكون لكم بعده الا الخشن ·

(٢) لا سكت ، لا سمع لك صوت حتى تسكت · يدعو عليه بالموت ·

لأسرة عمر ، وذكر انهم ان اثاروا حربا غده أو خرجوا على طاعته ، فان لديه جنودا على استعداد لحربهم ،واعتذر عن ذلك بأنه لا يريده وليس هذا فى طبعه ولكنهم هم الذين حملوه على هذه الشدة ، وكان لبقا جدا اذ قرن هذا التهديد بأنه أعطاهم أعطياتهم ولم ينقصهم شيئا ، وانه لم يقصر فى حق لهم · وكان عثمان ــ رضى الله عنه ــ صادقا كل الصدق فيما وصف به نفسه من حب الرفق وان الانتقام والشدة واراقة الدماء ليست من خلقه ، فعثمان حقا حيى أقرب الى الضعف ، ومع قوة أتباعه لم يجنح الى استعمال القوة ، ولم يقبل حتى الخروج الى الشام ، ومن ميله الى اللين والرفق أنه انتهر مروان وأسكته ·

كان عثمان يحابى أقاربه بالوظائف وغير الوظائف ، وحين أمر عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ان يفتح افريقية، جعل له خمس الخمس من الغنيمة ، وعملا بالآية القرآنية ــ تقسم خمسة أقسام ، أربعة للغزاة ، وخمسا لبيت المال، فأعطاه عثمان خمسة ، ثم قسم الاربعة الاخرى التى ارسلت اليه بين بنى الحكم ، وقيل بين بنى مروان ، وقد أثار هذا عليه الناس مع الأسباب الاخرى ، وهو يعتذر بأنه مال زائد عن الحاجة ومن حق الخليفة أن يتصرف فيه ·

وضاعت خطبة عثمان هباء لأن الثورة كانت قد أخذت تشب ، وكان هناك عوامل اخرى اكبر من ان تطفئها خطبة، والخطبة فى بداية تطور لأنها اصبحت سياسية ، وليست دينية بحتة كخطبته التى سبقت ·

ومنذ ذلك الوقت تفجر النزاع بين على ومعاوية ، حتى أدى الى الحرب المسلحة ، ثم كانت خدعة عمرو ، ثم انقسام الأمة الى شيعة وأمويين وخوارج · ثم نشأ حزب ابن الزبير ··· وكل أولئك اعتمدوا على الخطابة ، فأصبح لها سوق رائجة ونهضت نهضة لم تكن لها فى عصر آخر ·

ثالثا : الخطابة فى العصر الأموي

هذا العصر من أزهى عصور الاسلام خطابة ومحاورات ولم يكن حظ الخطبة من الرواج والنقاء فى أى عصر من عصور الأدب العربى كله مثل ما كان فى هـــذا العصر . خصوصا فى أول قيام الدولة ، وأثناء بذل جهودها العديدة فى تثبيت أقدامها ودحض خصومها ·

سبب هذا الرواج أن دواعى كثيرة للخطابه كانت متوفرة الحرية مكفولة ، واللغة حية سليمة ، والطبيعـــة موفورة للمتكلمين ، وظروف السياسة العامة تدعو الى كثرة الخطب وتثير الحماس فى نفوس الخطباء ، والأحزاب المتنافســة تعتمد على الخطبة قبل كل شيء ·

تعددت الأحزاب وظلت تتعدد لمدة طويلة ، وجد فى أول الأمر حزبان كبيران ـ حزب معاوية وحزب على ، ثمسرعان ما ظهر الخوارج وبرزت أيضا فجأة موقعة الجمل ، ثم ظهر حزب الشيعة بعد مقتل الحسين ، كما ظهر حزب الزبيريين ثم حزب ابن الأشعث ثم المختار الثقفى ، واعتمدت كلها على الخطابة ، ومع ما كان يلجأ اليه كل حزب من التحاف الدين والتستر بوشاحه ، كان كل حزب ينتقص خصومه ويذكـر معايبهم ، وقامت لذلك محاورات ومناظرات كثيرة وعنيفة، وهى فى جملتها لم تخرج عن منهج الخطـابة ، ولم يقف هؤلاء جميعا ضد الحزب الأموى فقط ، فقد كان الامام على يحارب فى جبهات متعددة ، ثم استقر الأمر لابن الزبير ، كان يحارب العلويين كما يحارب الأمويين ، وقد عاقب منهم من عاقب ، وناظر من ناظر ، وله مع ابن عباس وابن الحنفية مواقف معلومة ، كل هذه الخصومات والثورات اعتمدت

على الخطابة واتخذتها وسيلة دعاية يدافع بها كل عن نفسه ويشهر بخصومه ٠

ساعد على هذا أيضا أن المستمعين كانوا لا يزالون عربا خلصا ، يفهمون اللغة ويقدرون الكلام الجيد البليغ ، وكان ذلك مما يشجع الخطيب ويبعث فيه الهمة والنشاط على تجييد الخطبة وتجويد عباراتها ٠

وقد كثر فيها الاقتباس من القرآن رغبة فى جعل الدعوة دينية ودفاعا عن مبادىء الاسلام ٠

ولما هدأت كل هذه الخصومات واستقر الأمر لبنى مروان انبعث فى الشعر نشاط قلل من نشاط الخطابة وأهميتها ، ولكنها لم تنقطع ، وقد كان الخوارج حتى آخر الدولة مسعرا للخطابة ، وسنذكر موقف يزيد بن الوليد من ابن عمه الوليد بن يزيد وخطبته التى قالها بعد قتله ٠

وهناك خطب دينية بحتة ليس فيها شىء من السياسةفمن خطبة لمعاوية :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم فى كر الجديدين (١)، ثم ارجعوها كلية عن بلوغ الأمل (٢) ، فان الماضى عظة للباقى ، ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز عن الجد ، فتنقطع حجتكم فى موقف الله سائلكم فيه ومحاسبكم عليه فيما أسلفتم ٠

أيها الناس : أمس شاهد فاحذروه ، واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغدا رسول فأكرموه (٣) ٠

(١) الجديدان : الليل والنهار ٠ والسفر بالابصار : ابعاد التأمل ، أى تأملوا فى تقلبات الازمان ٠

(٢) عاجزة عن الوصول الى ادراكه ٠

(٣) الماضى سجل أعمالنا وهو شهيد علينا ، والحاضر مجال اختبارنا ، والمستقبل رسول لما يصل ٠

وهذا الايجاز كان يفهم فى عصره ، أما الآن فلا يلقى الا بالشرح المستفيض ·

ولبنى أمية الآخرين مواعظ لا تقل عن هذه تأثيرا ،وكانت هذه الخطب الدينية مما يثبت هيبتهم ويقوى ملكهم ، ويظهرهم أمام الناس فى مواقف تشبه مواقف الخلفاء السابقين ، وربما طالت خطبة الجمعة حتى يدخل وقت العصر ، أو حتى تكاد الشمس تصفر ، وبدأ هذه الاطالة الوليد بن عبد الملك وحاكاه أخوه يزيد ، وكان الحجاج يطيل أيضا حتى يسأم الناس ويتلفتون الى الشمس المائلة نحو الغرب ، فيهيب بهم ويوبخهم أن سئموا الوعظ ، وكان الحسن البصرى يعيب الحجاج لهم وقال عنه : « واعجبا من أخيفش أعيمش جاء ففتننا عن ديننا ، يصعد على المنبر فيخطب والناس يتلفتون الى الشمس ، فيقول : ما بالكم تتلفتون الى الشمس ، انا والله ما نصلى للشمس ، انما نصلى لرب الشمس ، أفلا تقولون له : « يا عدو الله : ان لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل؟» · ثم يستدرك فيقول : كيف» يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم علج قائم بالسيف (١) ·

وقد راجت الخطبة الدينية فى عصر بنى أمية رواجا شديدا ، لكثرة مناوئى الدولة الأموية ، ولهذا دخلها كثير من الطول ، فقد كان الخلفاء الأمويون وولاتهم ، يدخلون فى خطب الجمع والأعياد والحج المسائل السياسية ، ويوهنون من شأن أعدائهم ، فتطول الخطبة ، وكان الناس يسأمون خطبهم فيتخلفون عنها فى صلاة الجمع ، وينصرفون عنها فى صلاة الأعياد ، ولذلك رأى مروان بن الحكم أن

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن ابى الحديد ٣/ ٤٧٠ ·

يقدم خطبة العيد على صلاته كيلا ينصرف النـــاس دون سماعه (١) • واســتمر ذلك متبعا حتى قــام أبو مســلم الخرساني بدعوته وأمر سليمان بن كثير أن يصلى بشيعة على صلاة العيد على النحو الذى نراه الآن •

وليس للخلفاء الراشدين خطب مطولة ، بل كلها تتسم بالايجاز ، وينسب للامام على خطب مطولة سميت بأسماء خاصة ، كالغراء والزهراء • وكلتاهما فى نهج البلاغة ، وفى العقد الفريد ، وما فيهما من دقة المعانى ، والاسراف فلأ طول التحميد والصلاة على النبى ﷺ يحمل على الشك فى نسبتهما للامام ، ونحن نعلم أن الشريف الرضى صنع خطبا كثيرة مما فى نهج البلاغة ، وأن معظم الكتــاب من عمله ، ولعل هذه الخطب مما صنع •

وكان هناك خطباء وعاظ ربما أطالوا الخطبة وحشوها بالمواعظ المؤثرة ، وهم أنفسهم لا يعملون بما يقولون ، ولا يعرفون بالتقوى والورع ، ومن هؤلاء الحجاج بن يوسف، وخالد بن عبد الله القسرى • وجلس معاوية ابن أبى سفيان يوما يقص فأبكى السامعين • فقال له عمرو بن العاص ، وكان فى مجلسه : أحرقت قلبى بمواعظك ! أترانا حاربنا عليا لأنه كان على باطل ونحن على حق ؟ • ان هى والله الا دنيا تكالبنا عليها ، فاما قبست لى من دنياك والا نابذتك(٢)! وكان الحسن البصرى يعجب من الحجاج فيقــول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتك الجبارين ! ويوافق الله فى قوله ويخالفه فى عمله » •

---

(١) انظر صلاة العيدين فى البخارى •

(٢) فى العبارة شىء من التغير كتبتها من الذاكرة •

وكل هؤلاء كانوا يقتبسون من كلام رسول الله ﷺ ونهجه ، فى تهوين الدنيا والتذكير بالموت . وتساعدهم مقدرتهم الكلامية على صوغ عبارات قوية تقرع القلوب ، وتثير الاشفاق من الحساب فى الدار الآخرة ، ومن كلام الحجاج فى هذا المقام :

أيها الناس :

« قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ (١) ، رب دائب مضيع (٢) ، وساع لغيره ، والموت فى أعناقكم، والنار بين ايديكم ، والجنة امامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم . ومما فى أيديكم لما بين أيديكم (٣) ، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن (٤) وكان الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فانه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ،وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم .. أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله، والصراط منصوب ، وجهنم تزفر (٥) ، وأهل الجنة ينعمون فى روضة يحبرون ، جعلنا الله واياكم من الذين اذا ذكروا بأيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » .

وهذا وعظ قوى يبعث على الزهد . استفاد قائله من خطب النبى ﷺ ، ونهج القرآن فى المزاوجة بين النعيم والعذاب ، وحال أهل الجنة وأهل النار .

---

(١) الاعمار تنقص بمرور الايام ، وأعمالنا محصية علينا .

(٢) رب شخص لا ينقطع عن العمل وهو فقير او لا أجر له عند الله .

(٣) ما فى أيدينا هو الدنيا ، وما بين ايدينا الدار الاخرة لانها مستقبلة .

(٤) مضى سريعا ولم نتعظ به .

(٥) تتصاعد انفاسها المحرقة .

والحق أن أمثال معاوية والحجاج لم يكونوا عصاة ولا جاحدين لتعالم الاسلام ، وكانوا يرون ان أعمالهم السياسية انما هى لخدمة الاسلام ، وأكبر أخطاء معاوية توليته يزيد ابنه عهده على ما كان فيه ٠ أما الحجاج فعلى شدة قسوته وجبروته خدم الاسلام ، وقطع دابر الفتن والثورات ، ولو ان الأمة الاسلامية ظلت على تفرقها ومطالبة كل حزب بالخلافة لنفسه لقضى ذلك عليها ، أو على الأقل عاق فتوحاتها ، ووقفت الدعوة الاسلامية فى محيط محدود ٠

★ ★ ★

ونستعرض من الآن بايجاز بعضا من خطباء كل حزب وليس من الممكن أن نستقصى جميع الخطباء ، وفيمن نذكرهم كفاية ٠

خطباء الحزب الأموى

كان هذا الحزب أكثر الأحزاب خطباء ، لأنه وهو الحزب الحاكم انضم اليه خطباء ممن كانوا فى حزب على ، وممن كان يمكن ان يكونوا تبعا لأى حزب آخر ، وقد كان كل من المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من أنصار على ثم انضما الى معاوية ، وبعد القضاء على حزب الزبيريين انضم الى بنى أمية آخرون من شعرائه وخطبائه ٠ وكان فى بنى أمية عدد من الخطباء خلفاء كما فى ولاتهم عدد من الخطباء المشهورين أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى وعمرو فالثقفى ونصر بن سيار ٠٠ وهكذا كا نخطباء هذا الحزب كثيرين ومشهورين ٠ ونذكر منهم ٠

١ ـ معاوية بن أبى سفيان

من معاوية ؟

معاوية من كبار الخطباء فى قومه ، وقد مرت خطب له، وهو أيضا من دهــاة العرب ، ومن أحكم الناس سياسة ، وأبصرهم بعلاج المشكلات ، وبدت عليه مخايل السيادة منذ طفولته ، وتوقعت ذلك له أمه غير مرة (١) ، أسلم عام الفتح وكان كاتبا حاسبا سديد الرأى بادى الفطنة ، وهو منكتاب الوحى ، سئل ابن عباسعن صلاة له فقال انه فقيه ، وقال عنه عمر انه كسرى العرب ، ولاه عمر الشام بعد أخيـــه يزيد ثم أقره عثمان فكانت ولايته عشرين عاما ، وتنازل له الحسن بن على عن الخلافة عام الجماعة فكان خليفة لمدة عشرين عاما أيضا الا قليلا ، وهو فى الواقع تسمى بأمير المؤمنين عقب حادث التحكيم ٠

وهو فى نظر المستشرقين والكتاب الأوربيين المؤســس الثانى للدولة الاسلامية بعد أبىبكر ، ذلك بسبب انتصاراته العظيمة على البيزنطيين برا وبحرا ، وبسبب جمعه شــمل الدولة ولم شعث العــرب ٠

مقدرته الخطابية

وكان معاوية خطيبا مفوها يجيد تشقيق الكــلام ويأتى بالعبارات البليغة الموحية ٠ وقد قال فيه الشاعر :

ركوب المنـــابر وثابها معـــن بخطبتــه مجهـــر
تريع اليه هوادى الكلا م اذا ضل خطبته المهذر(١)

---

(١) قالت احدى جليساتها ان ابنك هذا سيسود قومه ، قالت هند : ثكلته ان لم يسد العرب جميعا ٠

(٢) معن : عميق مبالغ ، وهو أدى الكلام نوازعه وغروعه ، جمـــع هاديــة والمهذر ، الذى يكثر هذر الكلام ، ولا يصل أعماق مراده ٠

وكان يعين معاوية على اجادة خطبه أمور كثيرة أهمها جراءة قلبه وذكاء جنانه ، ثم طواعية الكلام له ، وقد فخر بنو أمية بميزاته الخطابية وقالوا انه « أخطب الناس قائما وقاعدا ، وعلى منبر وفى خطبة نكاح » ولم ترد عنه خطب كثيرة تناسب هذه الشهرة ٠ وأكثر خطبه بعد مقتل عثمان٠ ودخوله مع على فى محاورات وجدل سياسى ٠

سعة حيلته

لم يكن معاوية وهو وال فى الشام بحاجـــة الى خطب كثيرة أو طويلة ، فقد كان جيشه أطوع جيش ، وقومه أطوع قوم ٠ وكان معاوية أكثر من أى حاكم أموى ، وربما أكثر من أى حاكم فى عصره ـ بصرا بالسياسة وقـــدرة على الاستيلاء على قلوب أتباعه ، وقد استعمل المال تارة واللين أخرى ، وتأويل النصوص والأحكام ثالثة وهكذا ، وكان جوده بالمال وجود الأمويين من بعده من أهم الأسباب التى ألفت قلوب رعاياهم وجمعهم حولهم ، فقد كان على بن أبى طالب حريصا على ألا ينفق شيئا من بيت المال فى غـــير وجهه الشرعى ، فيعدل الناس الى معاوية ٠

قدم عقيل بن أبى طالب على أخيه على يشكو تأخر العطاء وغلاء الأسعار وثقل الدين ، فقال له على : والله ما لى مما ترى شىء الا عطائى ، فاذا خرج فهو لك ٠ فقال عقيل : ٠٠ وماذا يبلغ منى عطاؤك ، وما يدفع من حاجتى ؟ فقال على: هل تعلم لى ما لا غيره أم تريد أن يحرقنى الله فى نار جهنم فى صلتك بأموال المسلمين ؟ ٠٠

فخرج الى معاوية فقص عليه ما حدث ، فرحب به معاوية وأكرم نزله وقال ، يا أهل الشام ، هذا ســيد قريش وابن سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فثاب الى أهل الدعاء الى الحق ٠٠ ان جميع ما تحت يدى لى ،

فما أعطيت فقربة الى الله ، وما أمسكت فلا جناح على فيه ٠ وأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، وقال : مائة الف تقضى بها ديونك ، ومائة ألف تصل بها رحمك ، ومائة ألف توسع بها على نفسك (١) ٠

ولما قتل عمار بن ياسر أبدى عمرو بن العاص أسفه ، وذكر الحديث أنه تقتله الفئة الباغية فقال له معاوية : قبحك الله من شيخ ، فما تزال تنزلق فى قولك ، أو نحن قتلناه ؟ انما قتله الذين جاءوا به ! ثم التفت الى أهل الشام فقال : انما نحن الفئة الباغية التى تبغى دم عثمان (٢) ٠

وهكذا كان يجد من التأويل والسخاء ما يستميل به قومه وقد أعفاه ذلك من الخطب ، فلم تكن له الا كلمات قصيرة يوجههم بها فيتجهون ويأمرهم فيطيعون ، ولكن كثرت خطبه منذ خلافه مع على ولم تنقطع بعد عام الجماعة (سنة ٤١هـ) حين تنازل له الحسن بن على ، وقد قدم المدينة فى هذا العام فقال له رجال من قريش : الحمد لله الذى أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فلم يرد عليهم بكلمة حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أول خطبة له بالمدينة

أما بعد :

فانى والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ، ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر فنفرت منى نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت

(١) انظر الامامة والسياسة ، ١٣٦/١ وما بعدها ٠

(٢) المصدر نفسه ، ٢٠٣ ٠ وفى ابن ابى الحديد والعقد ان قائل الحديث هو عبد الله بن عمرو ٠

على فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة ، مواكلة حسنة، ومشاربة جميلة ، فان لم تجدونى خيركم فانى خير لكم ولاية والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وان لم يكن منكم الا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، وان لم تجدونى أقوم بحكقم كله فاقبلوا منى بعضه ، فان أتاكم منى خير فاقبلوه ، فان السيل اذا جـاد يثرى وان قل أغنى ٠

وایاكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة ٠٠

★ ★ ★

تحليل هذه الخطبة

كاشف معاوية مستمعيه من أهل المدينة بأنهم لم يختاروه حاكما ولكنه قهرهم على قبوله ، وهى مقدمة يعرفهم بهـا أنه غير مخدوع بهم ، ولا بما يسمع منهم من كلمات المجاملة ولكنه مع هذا لم يفته أن يطمئنهم فى أثناء خطبتـــه أنــه لا يؤاخذهم بما فى نفوسهم من كراهة له ٠ وانتقل من هذا الى أنه لا يستطيع ان يتقشف تقشف الخليفتين الأولين ، ولعلهم ربما نفروا من هذا التقشف ورضوا بما ينالهم من عطائه ، أما سنيات عثمان التى ذكرها ، فانما أراد بهـا الثناء عليه ، فعثمان لم يكن متقشفا ، ولكنه كان يجود بماله الخاص ، وكان من الأثرياء ٠٠ ثم مناهم بالمؤاكلة الحسنة والمشاربة الجميلة ، وهى طريقته فى الاستمالة بالمـال ٠ وهو يعلم أن أهل المدينة لا يقرون له بسهر الليل تهجـدا وقراءة قرآن ولا يميزه من العبادة ، فذكر انه ان لم يكن خيرهم فى هذا فحكمه خير لهم من حكم غيره ٠

ومن سياسته ان أعلن انه لن يؤاخذ عدوا له بعـداوته ما دام لا يثير عليه فتنة ، ولا يشن حربا ، وهى سياســـة نجدها فى خطب زياد والحجاج ٠

ولعلم معاوية بعدم الرضا عنه حذر من الفتنة ٠

خطبة غير طويلة ولكنها جامعة لكل جملة منها غـرض مستقل ٠

ولمعاوية خطب أخرى أكثرها قصير ، وبعضها فى مثـل هذا الطول أو أكثر قليلا وله خطب دينية خالصة فى مثـل هذا الأسلوب ٠

سياسته كما يصورها :

كان معاوية يدرك أن الخلافة من حق على وأبنائه ، وأن الناس لهم أميل ، ولكنه كان يرى أنه قدر منهم سياســة ، وأبصر بطرق الحكم ، ودفعه طموحه لهذا أن يأخذ الحـكم منهم ، وقد أرسل الى الحسن بن على رسالة صريحــة فى هذا جاء فيها :

« ٠٠٠ أما بعد فأنت أولى بهذا الأمر منى لقرابتك ، ولو علمت أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيــد لبايعتك ، فسل ما شئت » ! ٠ ووقع على ورقة بيضاء وأرفقها بالرسالة ، وهى كياسة منه وحسن تأت لما يريــده (١) ٠ وكان يقول : لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو كان بينى وبين النــاس شعرة ما انقطعت ، اذا مدوها خليتها ، واذا خلوهــــا مددتها (٢) ٠ وكان أنصار على يثنون عليه أمامه فيصفونه بالتقوى والورع وقيام الليل ، فيترحم عليه ويقول : لقـــد كان كذلك ٠ وهكذا كانت سياسته قائمة على استمالة الناس بالحيلة واللين والدهاء ٠

---

(١) الطبرى : ٢/٥ ٠
(٢) العقـد : ١٣٠/٥ ٠

بيعة يزيد

وعندما أراد أخذ البيعة لابنه يزيد لم يشأ أن يطلبها من الناس بنفسه أو يظهر اقتراحها عليهم ، ولكنه أوعز بها الى آخرين من الشعراء والخطباء ، ويقال أن المغيرة بن شعبة هو صاحب الفكرة ومزينها فى رأس معاوية ، وكان المغيرة على الكوفة ، وعلم أن معاوية يريد عزله ليولى مكانه سعيد ابن العاص ، فتقرب الى معاوية بهذه الفكرة، وقال له : « وأنا أخاف ان حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان » (١) · ولكن يبدو أن الفكرة كانت موجودة قبل ذلك ، لأنا نجد زوجة معاوية فأخته أم ولده عبد الله تصده عن هذا العمل فيجهد جهده فى انجازه ، أوصى صفيه الضحاك بن قيس الفهرى أنيقترحه على ملأ من الناس ، وأوصى آخرين أن يؤيدوا الضحاك ففعلوا (٢) ، ورغم معارضة من عارضوا ولى معاوية الضحاك على الكوفة مكافأة له ، وولى عبد الرحمن بن عثمان الثقفى على الجزيرة لأنه كان أول من أيد الضحاك بايعاز معاوية ، ثم عزل مروان بن الحكم عن المدينة لأنه كتب له أن قريشا تأبى بيعة يزيد ، ثم هدد معارضيه أبناء الصحابة بالقتل ، وكذب على أهل الشام فأخبرهم أن

---

(١) الامامة والسياسة ١ / ٢٦٣ · تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٠ وما بعدها ·

(٢) اوحى معاوية بهذا أيضا الي مسكين الدارمى الشاعر فوقف فى المسجد وأنشد :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر
ومروان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلا فانا
يسيرها الرحمن حيث يريد
اذا المنبر الغربى خلاه ربه
فان أمير المؤمنين يزيد

فقال معاوية : اجلس يا مسكين ، وننظر فيما تقول . متظاهرا بان ذلك اقتراح الشاعر وليس بايعاز منه ·

هؤلاء بايعوا ، فى قصص معروف ، وكل هـذا الحماس ينبىء أن الفكرة لم تكن طارئة ، ولا يبعد أن يكون معاوية أوحى بها الى المغيرة ، على أننا نجد المغيرة يبذل جهدا بالكوفة لاستمالة الناس بالمال ٠

ونجد معاوية أيضا يجد فى الاتصال بولاته ليرسـلوا اليه وفودا يؤيدون ترشيح يزيد لولاية عهده ، ثـم يخطب فى المدينة مزكيا ابنه معتلا لتوليته بعلل شتى ٠

ويقول صاحب العقد الفريد (١) : انه لما مات زياد أظهر معاوية عهدا مفتعلا فقرأه على الناس فيه عقد الولاية لزياد بعده ، وانما أراد أن يسهل بذلك بيعـة يزيـد ، فلم يـزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ٠٠ حتى استوثق له من أكثر الناس ٠ فلما كانت سنة خمس وخمسين ، كتب الى سائر الأمصار فوفد عليه من كل قطر قوم ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمر ابن حزم ، فكان مما قاله لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، ان الله سائل كل راع عن رعيته، فاتق الله وانظر من تولى أمة محمد ، فأخذ معاوية بهر(٢) حتى تنفس الصعداء (٣) ، وذلك فى يوم شات ، ثم قال : انه لم يبق الا ابنى وأبناؤهم ، فابنى أحب الى من أبنائهم٠

بوجه عام كانت سياسة معاوية مجاراة لوصية أبيه — غداة تولى عثمان الخلافة : « تلقفوها تلقف الكرة ، ولا تدعوها تفلت من أيديكم » ، فكان حريصا على بقائها فى عقبـــه ٠

والمشهور بين المؤرخين أن المغيرة بن شعبة هو صاحب

---

(١) جـ ٥ ، ص ١٣٠ ٠
(٢) البهر : انقطاع النفس ٠
(٣) كبرحاء : تنفس طويل ٠

هذه الفكرة ، فان صح هذا فهو اقتراح صادف هوى وعزما سابقا من معاوية ، يدل على ذلك هذا التصميم البالغ الحد ويذكر ابن الاثير أن معاوية ذهب الى المدينة فى الف من رجال الشام ليرغم أبناء الصحابة المعارضين على البيعة ليزيد ٠

ومعنى هذا أن معاوية يحسن التأنى لما يريد ، ويهيىء للامر الذى يريده مختلف الاسباب ، فاذا دعا الامـر الى استعمال القوة استعملها ، ولكن بعد استنفاد حبل السلم٠

أما وصيته التى تركها لابنه يزيد عندما مرض مرضه الأخير فهى تنبىء حقا عن معرفته بالناس ودرسه نفسياتهم وهى ترد فى كتب الادب والتاريخ باختـلاف يسـير فى عباراتها (١) ٠ ويقال انه لم يشافهه بها ، ولكنه طلب من كل من الضحاك بن قيس الفهرى ، ومسلم بن عقبة المرى ليبلغاها اياه اذ كان هو غائبا ، ويقال انه دعا يزيد نفسه وألقاها عليه ٠ ولكنها رواية مرجوحة تدحضها ظـروف موت معاوية ودفنه ٠ فمن الثابت تاريخيا أن الذى تولى غسله ودفنه هو الضحاك بن قيس ، وانـه خطب الناس فقال :

« ان ابن هند قد توفى ، وهذه أكفانه على المنبر ، ونحن مدرجوه فيها ، ومخلون بينه وبين ربه ، ثم هو البرزخ الى يوم القيامة » ولو كان يزيد حاضرا لم يكن الضحاك ولا لغيره أن يفعل شيئا من هذا ٠

وقع موته عند خصومه :

ليس عجيبا أن يبكى معاوية بعض خصومه مثل عبد الله بن الزبير وابن عباس ، ذلك أنهم كانـوا يقدرون دهاءه

(١) انظر الأغانى ، جـ ١٧ ، ص ١١١ ، طبعة دار الكتب ٠

ومقدرته السياسية ، كما كانوا يتوقعون آثارا سيئة من يزيد الذى أخذ له أبوه البيعة كرها عنه ٠

أما عبد الله بن الزبير فجاء عنه أنه صلى بالناس الصبح ثم انفتل من الصلاة ونشج ثم قال :

« رحم الله معاوية ان كنا لنخدعه فيتخادع لنا ، وما ابن أنثى بأكرم منه ، وان كنا لنعرفه يتفارق لنا (٢) ، وما الليث المجرب بأجرأ منه » وأنشد البيتين السابقين عن خطابته ثم قال : « والله لودى أنه يبقى بقاء أبى قبيس لا يتخون له عقل ، ولا تنقص له قوة » ٠

وأما ابن عباس فجاء عنه روايتان ، جاء أنه استأذن على معاوية ليزوره فى مرضه ، فأخذ معاوية يهيىءنفسه قبل أن يدخل عليه ، فلما دخل وجلس تمثل معاوية :

وتجلدى للشامتين أريهم . أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فأجاب ابن عباس :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فما خرج حتى سمع الصراخ على معاوية ، وهى رواية فى كثير من كتب الأدب ٠ وجاء فى الأغانى أنه أتاه نعى معاوية وولاية يزيد ، وهو يأكل مع أصحابه ، فألقى اللقمة وأطرق ، ثم قال : جبل تدكدك ، ثم مال بجميعه فى البحر، واشتملت عليه الأبحر ، لله در ابن هند ما كان أجمل وجهه وأكرم خلقه ، وأعظم حلمه ، ولما استنكر عليه بعضسامعيه قال له : « ويحك : انك لا تدرى من مضى عنك ، ومن بقى عليك ، وستعلم » ٠

وهذا واضح فيما يتوقع من يزيد ٠

---

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢١٣ ٠

نص الوصـــية :

وردت هذه الوصية بصيغ مختلفة قليلا فى كتب التاريخ والأدب ، وننقل هذه الصورة من الامامة والسياسة :

« يا بنى انى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبـــد الرحمن بن أبى بكر ٠

فأما عبد الله بن عمر فرجل وقذته (١) العبادة « فخل بينه وبين دينه يخل بينك وبين دنياك » (٢)، واذا لم يبق أحد غيره بايعك ٠ وأما الحسين فان أهـــل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ٠ وأما ابن أبى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليس له همة الا فى النساء واللهو ٠ وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير فان هو فعلها لك فظفرت عليه فقطعه اربا اربا » (٣) ٠

وهناك رواية أخرى تذكر شيئا عن أهل الأقطار العربية، جاء فيها : « انظر الى أهل الحجاز ، فانهم عصابتك وعترتك فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ٠ وانظر الى أهل العراق ، فان سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم،

(١) أنهكته وذهبت بقوته ٠

(٢) ليست فى الطبرى ٠

(٣) فى رواية : فانه خب ضب ، فان ظفرت به فاسحق رأسه ، فانه رأس الافعى ٠ والخب « كبثر » الماكر الخبيث ٠

فان عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف، ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم (١) . ثم انظر الى أهـل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار (٢) فأن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فان أظفرك الله فاردد أهل الشام الى بلادهم لا يقيموا (٣) فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم ولست أخاف أن ينازعك هذا الأمر غير عبد الله ابن عمر .. الخ » .

وفى رواية ثالثة : لست أخاف عليك من قريش الا ثلاثة .. ولم تذكر هذه الرواية عبد الرحمن بن أبى بكر . وهناك رواية رابعة تجعل هؤلاء خمسة وتزيد عبد الله بن عباس.

تحليل الوصية

هذه الوصية تعكس صورة واضحة من سياسة معاوية ومعرفته بالناس ، وبالشعوب ، وما ينبغى أن يعامل به كل قطر وكل شخص . وربما زيد فى هذه الوصية ما لم يكن فيها ، ولكن هذه الزيادة ليست بعيدة عن رأى معاوية ولا عمن قيلت فيه ، ولكننا نستبعد ذكر ابن عباس ، لأنه لم يكن متطلعا للخلافة ، ولا بدا فى محاوراته مع معـاوية أنه يريد الحكم لنفسه ، بل كان يراه حقا للحسين ، وحكم معاوية على أهل العراق هو أصدق حكم وأصوبه ، فهم خذلوا الحسين فعلا بعد ان استحثوه ، وحكمه على ابناء الصحابة حكم خبير بنفسياتهم ، وعبد الله بن الزبير يتهم من كثيرين بأنه هو الذى حرض الحسين على الخروج الى العراق ، وزين له المطالبة بالحكم ، وكان يعلم أن العراقيين لن ينصروه ، ولكنه يريد أن يخلو له الجو بعد الحسين ، ولم يكن بعد الامام على من هو أقوى من حزب الزبيريين،

---

(١) لا تدرى ما يكون لك ولا ما يصيبك منهم .

(٢) الشعار ما يلى الجسم من الثياب ، والدثار ما فوقه .

(٣) العبارة انشائية صيغة نهى ، ولذا جزم الفعل .

وكان عبد الله خليقا أن يقضى على الحزب الأموى كله للكثرة التى التفت حوله ، ولكن بنى أمية كانوا أبصر بالسياسة، وأقدر على تأليف القلوب بما يبذلون من الأموال ٠

ولمعاوية ويزيد ابنه خطب دينية بعيدة عن شئون السياسة وخطب يزيد الدينية تصور قدرته على الخطابة أكثر مما تصور نفسيته ٠

وهناك جانب آخر يبرز سياسة معاوية ودهاءه ومقدرته السياسية وجرأته الشديدة ، ذلك هو كتاباته الكثيرة لعلى نفسه ولأتباعه من مثل قيس بن سعد وأبى أيوب الأنصارى وقد استطاع أن يستميل زيادا اليه بهذه الطريقة ٠

معـاوية فى نظـر التاريخ

خلاصة القول فيه أنه رجل سياسة وليس رجل دين ، وهو فضلا عن رغبته العظيمة فى تولى الحكم يرى نفسه أولى به من بنى هاشم ، كما قال للحسن بن على : أنتم أهل عبادة ولكن لا علم لكم بالحكم ٠ ولحبه الحكم حرص على توريثه يزيد ابنه مع علمه بما فيه ٠ وقد لامه عليه الكثيرون حتى السيدة عائشة أم المؤمنين لامته عليه ، ومن الناحية الثانية وحد معاوية الدولة تحت حكمـــه ثم قادها قيادة ناجحة ، وسع حدود الدولة الاسلامية وأنشأ أول أسطول اسلامى واقتص أطـــرافا من الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، كل هذا والأمة الاسلامية تتمتع برخاء ، ولم يقصر فى نشر العلم وبث الوعظ والثقافة الدينية ٠

٢ ـ يزيـــد بن معـــاوية

كانت أم يزيد هى ميسون بنت بجـدل من قبيلة كلب ، وهى قبيلة كبيرة أصهر إليها هو وعمرو بن سعيد وعثمان ابن عفان وغيرهم ٠ ولعل معاوية التمس بهذا الإصهار أن يكون له سند من هذه القبيلة البدوية ، وإلى ميســون هذه يرجـــع أكبر الأثر فى تكوين يزيد ، وقد كانت كثيرة الحنين إلى حياة الصـــحراء ، وكانت تذهب اليها كثيرا وتصطحب يزيـد معهـــا ، وكـانت قبيلتهـا نصرانـية ، أسلم منهـــا بعض وبقى أخـــرون على نصـــرانيتهم وباختلاط يزيد بهم تعلم الشـــرب كما تعلم الفروســـية والفصـــاحة ، وكان الأمويون يبعثون بأبنائهم الى هذه الصحراء ـ صحراء تدمر أو صحراء الشام كما ســـميت بعد ـ ليتعلموا اللغة ويسلم لســـانهم من اللحن ، ولما لم يرسل عبد الملك ابنه الوليد إليها نشأ لحانة ٠ كان يزيد مع ميله للمجون وحبه للغناء (١) والشراب ، فارسا شجاعا وعينه أبوه قـائد حملـة بحرية لفتح القسطنطينية ، وقـد أحرزت هذه الحملة نجاحا وان لم تفتح القسطنطينية،وأطلق على يزيد بعدها اســـم فتى العـــرب ، وكان ذلك تمهيدا لتقليده ولاية العهد ٠

وليزيد خطبة شهيرة قالها عقب وفاة أبيه وافضـــاء الخلافة اليه منها : « ٠٠٠ ان معاوية كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من قبله وهو خير ممن بعده ، ولا أزكيه عند ربه وقد صار اليه ٠

---

(١) كان مسلم بن عمرو أبو قتيبة بن مســلم مغنى يزيد (عيون الاخبار ٥ / ٢١٣) ٠

وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا آسى على طلب علم (١) ، وعلى رسلكم اذا كره الله أمرا غيره »٠

٣ ـ عمرو بن العاص

هذا رجل مشهور بلسنه وطموحه ودهائه ، وكان عمر ابن الخطاب اذا رآه ماشيا يقول : ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض الا أميرا ٠

وقد رأى معاوية بثاقب بصيرته أن يضمه اليه ، وأعطاه مصر طعمةله وكان مدرها (٢) فصيحا قوى الحجة بعيد مرامى الكلام ، وكان عمر اذا تلعثم أمامه شخص يقول : أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد ٠ وعمرو قريب الشبه من زياد ابن أبيه فى خسة نسبه ، وأمة قريبة الشبه من سمية ، وكانت تدعى النابغة ، قيل هو اسمها ، وقيل اسمها سلمى ، وسميت النابغة لأنها كانت بغيا ، وقد عيره الحسن بن على فقال له : وضعتك أمك مجهولا من عهر ـ أى من فجور ٠

كانت أم عمرو أمة لرجل من عتره ، فنالها سبى وبيعت بمكة فاشتراها الفاكهه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله ابن جدعان ، من أجواد قريش وأعلام تيم ، والذى كان فى بيته حلف الفضول ، فأعتقها وكانت بغيا فوقع فى طهر واحد خمسة من رجال قريش هم : أبو لهب بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب ، وأمية بن خلف الجمحى ، وهشام بن المغيرة المخزومى ، والعاص بن وائل السهمى ، فولدت عمرا هذا وكل منهم ادعاه لنفسه ، لكن النابغة نسبته للعاص

---

(١) عبارة عيون الأخبار : ولا اشتغل بعلم ٠ وآثرنا رواية العقد الفريد ، وهو يعنى أنه مستكمل ثقافته ٠

(٢) بليغا ٠

ابن وائل (١) ، ويقال ان ذلك لأنه كان ينفق عليها أكثر ، وكان عمرو شديد الشبه بأبى سفيان بن حرب ، وقد هجاه أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب فقال :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت
لنا فيك منه بينات الشمائل

واشتهر عمرو بسعة الحيلة وقوة الشخصية وحب الرياسة ، وجراءة القلب ، وكان يعهد اليه بحل مشكلات الأمور ثقة فى ذكائه وسعة حيلته ، وهو سفير قريش الى النجاشى ليرد المسلمين المهاجرين ، ثم هو فاتح مصر ، وأحد الدهاة الأربعة المشهورين ٠

محاورته الحسن بن على

بعد انضمامه الى معاوية كان شديد الهجوم على العلويين مولعا بالنيل منهم ، وله محاورات كثيرة معهم خصوصا الحسن بن على وابن عباس ٠

قال عمور مرة لمعاوية : ان الحسن أفه (٢) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من أعينهم ، ففعل معاوية ، فتكلم الحسن وأجاد ثم قال : أيها الناس ، لو طلبتم ابنا لنبيكم ما بين لابتيها لم تجدوه غيرى وغير أخى ، وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ٠ فساء ذلك عمرا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد ٠ أتصف الرطب ؟ ٠

مواقفه مع ابن عباس

قال الحسن : أجل ٠٠ تلقحه الشمال ، وتخرجه الجنوب وتنضجه الشمس وتصبغه ٠ فغاظ ذلك عمرا أكثر ٠

وله مع ابن عباس مواقف كهذا ، ولكن ابن عباس كان

---

(١) كان هذا من طرق الزواج عند العرب ، يطأ الرجل المرأة فاذا ولدت منه صارت له زوجا ونسب الولد اليه ، وقد كرهت النابغة با سفيان لبخله ٠

(٢) من الفهاهة وهى العي والعجز عن الكلام ٠

يعيره بأمه ، ويهربه يوم صفين ، وكشفه عورته أمام على ليتقى بها سيفه ، وكان عمرو يقول له : والله ما فى قريش أثقل على مسألة ولا أمر جوابا منك (١) ٠ وقال له مرة : انى والله لمسرور بك ٠٠ فهل ينفعنى عندك ؟ فقال ابن عباس حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا ٠

وكذلك له مواقف كهذه مع عبد الله بن الزبير ، ولكنهم جميعا كانو يقطعونه بسابقتهم فى الاسلام ، وشرف نسبهم ولم يكن ذلك كله يوهن عمرا ، لأنه كان بعيد الهمة محبا للرياسة ، وكان يقول : عليكم بكل أمر مزلقة مهلكة ، أى اطلبوا الأمور الشاقة التى تعرض للزلق وللهلاك ٠

أبرز صفاته

وهو قائد شجاع موفق فى حروبه ، ولكنه طموح يحب الرياسة ويأنف أن يكون تابعا ، وكان معاصروه يلجأون اليه فى حل مشكلاتهم العويصة ، ويعرفون مكانته العقلية والسياسية ، ولما طلب مصر من معاوية طعمة له تلكأ معاوية ، فقال له أخوه عتبة : « أما ترضى أن تشترى عمرا بمصر أن هى صفت لك ؟ ٠ ليتك لا تغلب على الشام » فأعطاه اياها ٠ وكان معاوية فى مأزق ، اذ كانت ثورة بمصر قادها ابن أبى حذيفة ، وهجوم من قيصر الروم لطلب الشام ، وتهيؤ على ابن أبى طالب للحرب ، فوجد لديه الحل الملائم من مهادنة القيصر ، وقتل ابن حذيفة والتفرغ لحرب على ، وقد كتب لابن عباس خطابا جاء فيه :

خطابه الى بن عباس

« فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا، واعلم أن الشام لا تهلك الا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك الا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد أعدادكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت ،

---

(١) العقد الفريد وشرح ابن أبى الحديد ١٩٦/١ ٠
وأمر من المرة والقوة : اى لا أجد جوابا أصعب من جوابك ٠

ولكنا نقول ليتها لم تكن . وان فينا لمن يكره البقاء كما فيكم » .

وجاء فى رد ابن عباس عليه :

رد ابن العباس

« انى لا أعلم رجلا أقل حياء منك فى العرب ، مال بك الهوى الى معاوية وبعته دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطت الناس فى عشواء طمعا فى هذا الملك ، فلما ترامينا أعظمت الحرب اعظام أهل الدين ، وأظهرت فيها كراهية أهل الورع ، لا تريد بذلك الا تمهيد الحرب وكسر أهل الدين ، فان كنت تريد الله فدع مصر وارجع الى بيتك ... » .

رجل سياسة وحب جاه

وعمرو كمعاوية رجل سياسة أكثر مما رجل دين ، وكان وهو وال على مصر فشت له فاشية من مال ونعم ، وكانت له تجارة فانكر عليه عمر ذلك فأجابه : ألى يوجه اللوم فى ذلك .. لقد كان جدى وائل يلبس الجبة سداها الذهب ولحمتها الفضة .. يريد أنه لم يكن مقلا قبل ولاية مصر . لكن عمر أرسل اليه رسولا حاسبه وقاسمه ثروته ، وضم ما لم يره حقا له الى بيت المال .

وجاء فى النجوم الزاهرة أنه ترك اردبين من الذهب ، فتورع ولداه عبد الله ومحمد عن أخذ شىء منهما وردا المال كله الى معاوية .

وأبرز عمرو فى حكومته بمصر خير مثال للتسامح الدينى ، وخير مثال للعدل الاجتماعى ، خفف الضرائب عن الزراع ، وساعدهم على تنشيط الزراعة ، ولما طلب عمر منه الخراج والح فيه استمهله وأبى أن يرسل اليه شيئا حتى ينتهى الحصاد حرصا على الزراع أن يبيعوا شيئا من ماشيتهم ، أو أن تضعف زراعتهم . وأحبه المصريون كما لم يحبوا أى وال آخر عليهم . رضى الله وعفا عنه .

٤ ـ عتبة بن أبى سفيان

ولاه أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ ، وكان قد حج بالناس سنة ٤١ ، ٤٢ ، وولى المدينة والطائف لأخيه غير مرة ، وشهد موقعة الجمل مع السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وفيها ذهبت عينه ، ولنجاح سياسته بمصر جمع له معاوية الصلاة والخراج ، وعتبة قريب الشبه من أخيه فى سياسته ، كان يعلم أن أهل مصر فيهم كثرة من أتباع على ، فأخذهم بالشدة حينا واللين حينا حتى أرغمهم على الخضوع لبنى أمية ، وكان أخطب من معاوية ، بل من أخطب بنى أمية ، حتى قال الأصمعى : الخطباء من بنى أمية عتبة وعبد الملك ، وأقوى خطبه ما كان بمصر ، وهى خطب مليئة بالتهديد ، وقد نجح فى تهديده حتى انه خطب مرة فقال :

« ... قد وليكم من ان قال فعل ، فان أبيتم درأكم (١) بيده ، فان أبيتم درأكم بسيفه ... لنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل : فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . » فصاح المصريون من جنبات المسجد سمعا سمعا ، فناداهم عتبة : « عدلا عدلا »(٢) .

ومن خطبه ذات التهديد :

« يا أهل مصر : خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونه ، كالحمار يحمل أسفارا أثقله حملها ولم ينفعه علمها ! وانى والله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما اكتفيت بالسوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرة ، ولا أبطىء عن الأولى ان لم تصلحوا على(٣) الأخرى » .

---

(١) دفعكم .
(٢) النجوم الزاهرة ، ١/١٢٣ .
(٣) اذا لم تصلحوا على الأمر الهين أسرعت الى العقوبة الشديدة .

ولا نقف بعد ذلك عند كل خطيب منهم ، ولكننا نذكر عبد الملك ، وقد قدمنا أنه كان يحسب للخطبة حسابا حتى كانت سبب شيبه ، وكان سليمان ابنه خطيبا ويحب كلام الأعراب وأوصاف السماء والمطر ، ومن خطبائهم عمر بن عبد العزيز ، والوليد بن يزيد ، ولكن أسقطه مجونه وكلفه بسعدى وسلمى ، ويزيد الناقص وله خطب قوية بليغة ٠

ومن الخطباء المنتمين الى هذا الحزب ولا يجدر بدارس الخطابة أن يغفلهم عمرو بن سعيد الأشدق ، وعمرو بن العاص ، وزياد والحجاج ، وخالد بن عبد الله القسرى وأخوه أسد ، ومن خطباء ولاتهم قتيبة بن مسلم الباهلى ، والنعمان بن بشير الأنصارى ، والضحاك بن قيس الفهرى ، ونصر بن سيار ٠٠ وغيرهم ٠

والحق أن أكثر ولاة بنى أمية وقوادهم كانوا خطباء ، وقد قلنا من قبل ان دواعى الخطابة كانت متوفرة ، واللغة كانت طيعة ، ولهذا كثر الخطباء جدا فى هذا العصر ٠ وهناك أيضا قبائل اشتهرت بالخطابة ، فكنت تجد الرجل وابنه وأباه وجده وبعض حفدته كلهم خطباء ، ومن أشهر القبائل فى اجادة الخطابة تميم واياد ، ثم ثقيف وأزد اليمن ، وكان القرشيون لكثرة شعبهم وعددهم وللفصاحة المتأصلة فيهم أكثر القبائل خطباء ٠ ولا يتسع الحديث هنا لذكر كثرة من أولئك أو هؤلاء ولكنا نذكر بعضا ، لنضع أمامك بعض المثل ، فاذا شدوت حظا من ذلك فارجع الى المصادر الأصلية من كتب التاريخ والأدب لتشبع رغبتك من المزيد وادنو من الكمال ٠

٥ ـ زياد ابن أبيه

اهمية شخصيته

شخصية زياد تستحق أن نقف لديها أكثر مما نقف لدى أى شخصية أخرى من خطباء هذا العصر ، فعرض سيرته

لا يقف عند مقدرته الخطـــابية ، ولكنه ظهر جـوانب من محاولات السياسة وتأويل الفقه ، وتيـــارات الأحـزاب والجماعات ، كما يظهر جوانب أخرى من بعد النظر وعمق التفكير وتقدير الأحداث المتوقعة · لهذا نقف أمامه وقفة لا نرى أن تكون قصيرة ولكنها غير مسرفه فى طولها ·

نشـأته وأصـله :

ولد زياد بالطائف ، فى السنة الأولى من الهجرة ، أو ربما بعدها بقليل ويقال أيضا انه ولد عام الفتح ، وأمـه كانت تدعى سمية ، كانت لدى الحـــرث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور · قيل انها كانت أمـة لكســـرى ، فأعطاها أبا الخير بن عمرو الكندى ، فوهبها أبو الخيـر الحرث بن كلدة لأنه أصحه من مرض كان يشكوه ، وقيـل بل كانت لدهقان فارسى كافأ بها الحرث لابرائه من مرضه، وولدت سمية للحرث نافعا ونفيعا ، وكان نفيع أسود اللون فأنكره الحرث وانتفى منه ، وقيل له ان سمية بغى فانتفى من الولدين جميعا وترك سمية ، وزوجها عبدا روميا(١) كان لا بنته فولدت له زيادا هذا ، وكان الاخوة الثلاثة على حظ من الذكاء والحكمة ، وهم جميعا موضـــع شـــك واضطراب فى أنسابهم ·

ولما فتحت الطائف نادى منادى رسول الله ﷺ أن من نزل وانضم الى المسلمين فهو عتيق وولاؤه لله ورسوله ، فنزل نفيع متدليا بحبل فى بكرة فسمى أبا بكرة مولى رسول الله ﷺ ، وكان يعتز بهذا الولاء ، وانضم نافع الى أبيه ، ثم أذعنت كلها ودخلت الاســلام فأصـــبح زياد وأخواه مسلمين ·

---

(١) قيل ايضا أنه عبد عربى من ثقيف ·

وحين أنشيء معسكر البصرة فى عهد عمر استقر بها كثير من الفاتحين والعرب ، وفى سنة ١٤ هـ أو نحوها عين عتبة بن غزوان عاملا عليها، وعتبة كان زوجا لبنت الحرث ابن كلدة فاصطحب معه أقرباءه وأصهاره وعبيدا وسمية وأبناءها الثلاثة نافعا وأبا بكرة وزيادا ، ولما فتح عتبة الأبلة(١) أصاب بها غنائم كثيرة ولم يجد بين المسلمين من يحسن الكتابة ويحسب هذه المغانم غير زياد ، وكان يومئذ غلاما فى رأسه ذؤابة ، فجعل له كل يوم درهمين ويقال انه كان فى الرابعة عشرة من عمره(٢) ، ثم ظل يصحب الجيش فى فتوحاته فى الشرق يكتب الحساب ويدون أسماء المحاربين ·

ويبدو أن زيادا لذكائه الخارق تعلم الحساب والكتابة ممن كانوا يعرفونها بالطائف ، ثم كانت شخصيته هى التى مكنت له أن يظهر أمام القواد ، وجعلتهم يثقون به على صغر سنه ويولونه الأعمال ·

صلته بأبى سفيان :

كانت البغايا فى الجاهلية لهن رايات يعرفن بها ،وكان لهن مكان أو أمكنة خاصة ، وكان الفتيان ينتحون هذه الأماكن، وكان من العرب من يكرهون فتياتهم على الذهاب الى هذه الأماكن طلبا للمال وابتغاء لعرض الحياة الدنيا ، وكانت سمية ممن يغشينها فيقال ان أبا سفيان خرج الى بعض الأماكن وهو ثمل فسأل صاحبة الراية عن فتاة ، فلم يجد غير سمية فقال هاتها على نتن ابطها ، فوقع عليها فولدت له زيادا على فراش عبيد ·

(١) بلدة على شاطىء دجلة غرب البصرة ، وكان نهر الأبلة يعد من جنان الدنيا ·

(٢) الطبرى ٣/٩٥ ·

هذه رواية جاءت فى كتب التاريخ والأدب ، ذكرها ابن عساكر وصاحب العقد الفريد وابن أبى الحديد وغيرهم ٠ ومع هذه الكثرة نجد بها هنوات تبعث على عدم الاطمئنان الى تفاصيلها ، فسمية كانت فارسـية جميلة ، وكان زياد أحمر اللون(١) ، والفارسيات أرقى وأنظف من العربيات، فكيف تكون سمية نتنة الابطين ؟ ٠ ثم ان علم أبى سفيان بصفاتها يدل على أنه كان يعرفها من قبل ، وفى مثـل هذا الموضع يتردد على الفتاة عدد من الشبان ٠ واذن فميلاد زياد ليس مقطوعا أنه نتيجة هذا اللقاء ، ولا أنه ابن أبى سفيان دون غيره ٠

خطبته واعتراف أبى سفيان به :

قيل انه لما فتح سعد بن أبى وقاص جلولاء أرسل زيادا بحساب غنائمها الى عمر بن الخطاب ، فأدى مهمته بكفاية بالغة ، وحدث عمر عن فتوحات الجيش الاسلامى ببلاغة لفتت نظر الخليفة ، فأمره أن يخطب الناس من فوق المنبر بما حدثه به ، فخطب وأبدع حتى وصفه عمر بأنه خطيب مصقع ٠ فقال زياد : «ان جندنا أطلقوا بالفعال ألسنتنا»(٢) وكانت هذه الخطبة أول ما ظهر من مقدرته الخطابية ولفتت الأذهان نحوه ، وبها استلحقه أبو سفيان(٣) ٠

ويقال ان عمر أرسله الى اليمن لاصلاح فساد كان قد نجم بها ، فلما عاد خطب خطبة لم يسـمع الناس مثلهـا ، فقال عمرو بن العـاص : « لله در هذا الفتى ، لو كان من قريش لساق العرب بعصاه » ٠ فأخبره أبوسفيان أنه ابنه وأنه هو الذى ألقى به فى رحم سمية ٠

(١) الطبرى ٤/٢١٦ ٠
(٢) المصدر السابق ٣/١٣٦ ٠
(٣) العقد ٥/٢٩٠ ٠

ويقال أيضا : ألقى خطبته وأبو سفيان وعلى أبى طالب عند أصل المنبر ، فقال أبو سفيان لعلى : ايعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟ • قال : نعم • قال : انه ابن عمـــك ، أنا قذفته فى رحم سمية • قال على : فما يمنعك أن تدعيه ؟ • قال : أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد على اهابى ؟• وهو يريد أنه يخشى عمر أن يقيم عليه حد الزنا ، ويقـال انه قال انه لم يستلحقه جهرا أنفة منه •

والرواية الأولى تبدو عليلة جـدا ! فمن ناحية أن أبـا سفيان لم يكن يجهل أن الاســـلام يجب ما قبله ، ويمحو أعمال الجاهلية • وقد شـــهد رســول الله ﷺ يقول ذلك لكثيرين ، ولم يحاسب أبا سفيان نفسه على ما عمل قبـل اسلامه ! • ومن ناحية أخرى أنه ارتكب هذه الفعلة وهو متزوج ، لأنه متزوج قبل عام الهجرة الذى ولد فيه زيـاد بمدة طويلة ، فاذا كان حقا يخشى الحد فحـــده الرجم ، وليس مجرد افساد الاهاب ، ومن ناحية ثالثة هذا الاقرار لا يلحق زيادا به ، فقد حكم رســـول الله ﷺ بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر • واذا كان هذا ممـا يخفى على أبى سفيان فانه لم يكن ليخفى على الامام على ، وهو من المتازين فى الفقه والقضاء ، ولكن معاوية استلحق زيادا بعد ذلك بهذا الاقرار •

اتصاله بالولاة :

بسبب نجابة زياد واجادته الكتابة والحساب لم يستغن عنه ولاة البصرة فظل على صلة بها فى عهد عمر وعثمان وعلى حتى استلحقه معاوية •

كان يكتب للمغيرة بن شعبة ، وكانت بينهما مودة ، ثم كتب لأبى موسى الأشعرى ، وكان له منزلة عنده • وقال

أبو موسى وجدت له نبلا ورأيا فأسندت اليه عملى ، ورأى عمر حدة ذكائه فعزله عن عمله عند أبى موسى ، وقال انه لم يصرفه عن خيانة ولا تقصير ، ولكنه كره أن يحمل فضل عقله على الرعية ·

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وحين كان والى البصرة عبد الله ابن عامر بن كريز ، كان زياد شديد الصلة به ، فكان واليا على الديوان وبيت المال ، وكان ابن عامر اذا شخص عن البصرة يستخلفه عليها ، ولكن ساء ما بينهما بعد ذلك ، وظلت العلاقة بين أولادهما سيئة أيضا ، ذلك لأن زيادا حفر نهر الأبلة فى غيبة ابن عامر ·

وفى عهد على رأى أن يعتزل الفتة ، وأراد على أن يوليه البصرة فلم يقبل ، فولاها ابن عباس وولى زيادا الخراج وبيت المال ، وكان ابن عباس يستثيره ويستطلع رأيه فى مشكلاته ، ويسند اليه عمله اذا شخص عن البصرة ، وقد جره قيامه بهذه الأعمال الى الاتصال بالحزب العلوى أكثر فأكثر ·

سياسة زياد :

كان زياد داهية بعيد الغور بعيد النظر حصيف الرأى فى معظم مواقفه ، والقاعدة البارزة فى سياسته أنه يسلط بعض أعدائه على بعض ، ويضرب طرفا منهم بطرف آخر · فيريح نفسه وجنده ويكسب موقفه ·

أراد معاوية أن يخرج البصرة من طاعة على فأرسل اليها ابن الحضرمى ليؤدى رسالته ، وكان ابن عباس غائبا وزياد قائما على البصرة ، ونزل ابن الحضرمى على بنى تميم ، فذهب زياد الى ربيعة يستعينهم ، فلم يجد لديهم عونا ، فلجأ الى الأزد ــ وزعيمهم يومئذ صبرة بن

شيمان ـ فحماه ، واستطاع أن يشب المنافسة بين القبيلتين حتى كادت الحرب تقع بين الأزد وتميم(١) ٠

ولما وجهه على الى بلاد فارس ليطفىء فتنتها ، وكانت قد خلعت طاعته ومنعت الخراج وطردوا عمـــال على ، ووضع أهل كل ناحية أيديهم على ما لديهم . ولعـــل هذا أشق موقف صادف زيادا ، بل هو أصعب ما يصـــادفه حاكم أيـا كان ، ولو أن زيـادا اذ ذاك لجـأ الى السـلاح لنشبت حرب كبيرة تســتنفذ جـزءا أكبر من طاقة على وتطمع معاوية أكثر فيه ، أو تخرج الاقليم كله اليه ، ولكن زيادا لجأ الى الحيلة واســتعمال اللين وربـح الموقف بالسياسة لا بالحرب ٠ قال الطبرى : « بعث الى رؤسائهم فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوما وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ٠٠ وقتـل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعـا ولا حربا »(٢) ويبدو أن هـذا العمل كان من أهم مـا لفت نظر معـاوية اليه وجعلـه يفكر فى فصله عن عـلى حتى وأتته فكرة استلحاقه ٠

استلحاق زياد :

حاول معاوية استلحاق زياد عقب هذا الحادث ٠ فوجه اليه خطابا جاء فيه : «ان العش الذى ربيت فيه معلوم عندنا، فلا تدع(٣) أن تأوى اليه ، كما تأوى الطيور الى أوكارها ولولا شىء الله أعلم به لقلت كمـا قال العبد الصـالح :

---

(١) الطبرى ١٠٦/٤ ٠

(٢) راجع تفاصيل هذا الحادث فى ابن أبى الحديد ، جـ٤ ، ص ٤١ وما بعدها ٠

(٣) لا تهجره ولا تترك انضمامك اليه ٠

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون »(١) ٠

ثم كتب أبياتا منها :

تنسى أباك وقد حقت مقـالته
اذ تخطب الناس والوالى لنا عمر
فافخر بوالدك الأدنى ووالدنا
ان ابن حرب له فى قومه خطـر

ولم ينل الخطاب ما كان معاوية يتوقعه ، ولكنه ترك فى نفس زيـاد أثرا أعلن الخطـاب عـلى الناس وسـخر من معاوية ، وذكر أنه ابن آكلة الأكباد ، ولم ييأس معاوية منه، واهتم على لما علم به ٠ فبعث الى زياد بخطاب أيضا جاء فيه :

« وانه كانت من أبى سفيان فلتة فى أيام عمر من أمانى الباطل وكذب النفس ، لم تستوجب بها ميراثا ولم تستحق بها نسبا ، وان معاوية كالشيطان الرحيم يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شـماله ، فاحذره ثم احذره » ٠

وكانت نتيجة الخطاب على غير ما رجا على أيضا ، فقد التقط زياد شهادته باقرار أبى سفيان وقال : شـهد بها ورب الكعبة ٠

ولما مات على كان زياد فى بلاد فارس وبيده أموالها ، وجندها له طائعون ، فبعث معاوية اليه بخطـاب يتهدده ويخيفه ، فلم يعبأ وقال : يتهددنى وأمامه ابن بنت رسول الله ﷺ فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار ٠ ثم ما لبث الحسن ابن على أن صالح معـاوية ، فأصـبح زياد بين أمرين : اما أن يستقل بفارس ويبحث عن أحد الشيعة أو

---

(١) يريد انه قادر على حربه ولكنه يحترم اخوته ٠

عن أى شـــحص متطلع للخلافة فينضـــم اليه ، واما أن يستسلم · ولكن لم يكن ثم شخص ظاهر للخلافة فى حياة الحسن ، يضاف الى ذلك أن نفس زياد مالت الى النسب القرشى · حقا انه كان يسمى نفســه « زياد بن عبيد » ، وفى رسالة له بعث بها الى الامــام على قال من زياد بن عبيد ، لكن يبدو أنه كان معروفا أن أمه من البغايا ، وأنه مطعون النسب ، فادراك واحدة منهما بنسب شريف أولى والى هذا الحد لم يبد منه عمل ايجابى للانضـــمام الى معاوية ، ومعاوية يخشاه(١) ·

لجأ معاوية الى احتيال آخر ، فكتب اليه يطلب أن يدفع ما لديه من الخراج ، فرد زياد بأنه أنفق مـــا أنفق واستبقى للمستقبل ما استبقى وســـائر الخراج دفـع الى على ، واستراح معاوية الى هذه الاجابة لأنها لم تنكر أنه أميـر المؤمنين الآن ونبت له حق المطالبة بالخراج ، فأرسل اليه بطلب قدومه عليه ، وأبى زياد أن يحضر ·

لجأ معاوية الى التهديد فحبس أبناء زياد :عبد الرحمن، وعبيد الله ، وعبادا ، وكتب اليه أنه سيقتلهم ان لم يحضر، فلم يهتم زياد أيضـــا ، ولكن أخاه أبا بكرة ســعى لدى معاوية ليطلقهم فأطلقهم · ولعل معــاوية لم يكن يريد الا تعريفه أنه قادر على النيل منه بوجه مـــا ، ولاحظ لمعاوية فى قتلهم الا اشعال فتنة لا يريدها أن تشعل ·

استدعى معاوية المغيرة بن شعبة ليسفر لدى زياد فى اقناعه بالانضمام اليه ، فرمى داهية بداهية ، وباختصار نجح المغيرة فى استمالة زياد واقناعه وكان بينهما صداقة،

---

(١) انظر العقد الفريد ٢٩٣/٣ ·

ولزياد عند المغيرة يد تجعله يطمئن الى أنه لا يخدعه ، فخدعه(١) ٠

كان معاوية قد أرسل معه خطابا وعده فيه ومناه ، لكن زيادا كان يخشى غدره فاستوثق لنفسه أولا ثم قدم عليه بما معه من أموال فارس ، فقبلها معاوية ، ثم استدعى شهودا شهدوا أن أبا سفيان أقر به قبل موته(٢) ، ثم خطب زياد فكان من كلامه :

« هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لى بآخره ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع منا ما وضع الناس ، وحفظ منا ما ضيعوا ، وأما عبيد فانه والد مبرور أو ربيب مشكور »(٣) ٠

وولى معاوية زيادا البصرة وخرسان وسجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعمان ، ثم ضم له الكوفة ، فأصبح بذلك واليا على العراقين ، وهو أول من جمع له بينهما ٠

---

(١) اتهم المغيرة وهو وال على البصرة أنه ارتكب الفاحشة ، وشهد عليه ثلاثة منهم أبو بكرة وأخوه زياد ، وتجلج زياد ، فأقام عمر الحد علي الثلاثة الذين شهدوا ، وحلف أبو بكرة لا يكلم زيادا ما عاش ٠ وبذا قامت علاقة بين المغيرة وزياد ٠

(٢) تم هذا الاستلحاق سنة ٤٤ هـ ٠ جلس معاوية على المنبر وزياد بين يديه فى جمع من الناس وقام جماعة من الناس فشهدوا أنهم سمعوا أبا سفيان يقرر أنه أبوه ، ثم قام أبو مريم السلولى وكان خمارا فى الجاهلية بالطائف ، فذكر ان ابا سفيان قدم عليه مخمورا وطلب أن يلتمس له بغيا فالتمس له سمية ، فرضيها علي نتن رائحتها ، وكان زياد ثمرة التقائه بها فى تلك الليلة ، كما بين أن سمية كانت من ذوات الرايات وكانت تنزل منازل البغايا وتؤدى من بغائها مالا للحرث بن كلدة ٠

(١) العقد ٣/٣٩١ ٠
(٣) العقد ٣/٣٩١ ٠

حكـــــومته :

ولى زياد على البصرة وهو يعرف ما بها ـ كما بالعراق كله ـ من تفرق الكلمة وتشعب الرأى واختلاف الأهواء، كما انه يدرك حرج موقفه بعد تحوله من جانب على الى جانب معاوية ، وربما خفف هذا الأمر ان الحسن تنــازل عن حقه ، ولكن زيادا لم يصبح محايدا ، بل اصبح امويا، لهذا رأى أن الشــدة أجدى فى هذه الحالــة ، فاشــتط فى العقوبة حتى عاقب على الظنة ، وأخذ بالشبهة وملأ قلوب الرعية بالرعب منه ، فشمل البلاد أمن عام ، ومع ذلك لم ينقص من أحد أعطية ولا أيأس أحدا من عدله ، وكتب فى مجلسه عنوان سياسته فى غير عنف ، واللين فى غـــير ضعف ، والمحسن يجازى باحسانه ، والمسىء يعـــاقب باساءته » . وكان يقول « لو ضاع حبل بيى وبين خراسان لعرفت آخذه » .

وبهذه الحكومة كفى زياد معاوية مشقة اخضاع العراق ودل اختياره على دهاء معاوية وحصافة رأيه ، فقــد ظل يراوده ولا ييــأس من نفــوره حتى لان لــه فربح به ربحــا عظيما ، وكان زياد بدوره فرحا بهذا النسب الجديد .وقد جاءه مرة رجل بخطاب من السيدة عائشة رضى الله عنها فى أوله : « من عائشة أم المؤمنين الى زياد بن ابى سفيان» فقال له زياد : اذا كان الغد فجئنى بكتابك ، فلما جاءه جمع الناس وأمر بقراءة الخطاب أمامهم ، ليعلموا ان أم المؤمنين تشهد بصحة نسبه ، وكان عمر بن عبد العزيز اذا ذكره قال عنه : صاحب البصرة ، والكثيرون يقولون «ابن أبيه». وكان فى تثبيت هذا النسب تثبيت له وقطع للالسنة الساخرة منه والضائقة به .

ولم يترك زياد فى حكومته وسياسته الداخلية ما ألفه من ضرب بعض خصومه ببعض ، وعمل فى العراق على تفتيت وحدة القبائل فقسمها ارباعا ، وكان سعد بن ابى وقاص قد جعلها اسباعا ، وكانت قبله أعشارا ، ونقل بعضا من الكوفة الى البصرة ليقلل عدد القبيلة الواحدة، ويفل شوكة المتآمرين ، والصبغة البادية على حكمه هى الشدة البالغة ، وقد تؤدى الى ظلم ولكنه لا يبالى بذلك فى سبيل اقرار الأمن والقضاء على الاضطرابات · وقد نجح فى هذا الى حد ان المرأة كانت تبيت وباب بيتها مفتوح ، والتاجر يدع بضائعه فى السوق ولا يجرؤ أحد أن يدخل بيتا أو يأخذ شيئا من مال غيره ·

وكان يمزج شدته بما يخففها ويحول بين الناس وبين الوقوع فى عقوبته ، أمر أهل البصرة أول قدومه ان يلزموا بيوتهم ليلا ، ولا يفارق أحد منزله بعد صلاة العشاء فكان الناس يهرعون الى بيوتهم عقب صلاتهم العشاء وربما تركوا نعالهم بالمسجد خوفا ان يتأخروا فيقتلوا ، أما هو فكان يؤخر صلاته حتى يكون آخر من يصلى ، ثم يأمر قارئا بترتيل سورة طويلة من القرآن ، ثم يقول للحارس : اخرج فان صادفت شخصا فاقتله (١) ، فهو شدد ولكنه أعذر الى الناس بهذا الامهال ·

وكان يقبل أن يناقش فى رأيه ، ولكنه لا يقبل تطاول مناقشيه عليه ، عندما ألقى خطبته البتراء بالبصرة اعترض عليه أبو بلال الخارجى ، فقال : ان الله تعالى يقول : « ولا تزر وازرة اخرى » وانت تأخذ البرىء بالظالم ، والمحسن بالمسىء ! · فأجابه : « انا لا نبلغ ما نريد فيك وفى اصحابك حتى نخوض اليكم الباطل خوضا » · ولما سأله

---

(١) راجع الطبرى ١٦٧/٤ ·

شخص عن أبيه قتله (١) ، وألقى فى الكوفة أول ما دخلها خطبة كتلك التى ألقاهـا بالبصرة فحصبوه ، فأمر باغلاق ابواب المسجد ، واخذ الذين حصبوه فقطع ايديهم ٠

وذكر المبرد فى كامله (٢) انه كان يبعث الى الجماعة من الخوارج فيقول : ما أحسب الذى يمنعكم من اتيانى الا الرجلة(٣) ، فيحملهم ، ويقول : اعشونى الآن واستمروا عندى ، فبلغ عمر بن عبد العزيز فقال : قاتل الله زيادا ، جمع لهم كما تجمع الذرة (٤) ،وحاطهم كما تحـوط الأم البرة (٥) ، وأصلح العراق بأهل العراق (٦) ، وترك أهل الشام فى شأنهم ، وجبى الشام ألف ألف ، وثمانية عشر ألفـا (٧) ٠

وليس لزياد أثر بارز فى صلاح الارض وتنمية الزراعة حتى قال عنه الاصمعى انه أقام تسع سنين على العـراق لم يضع لبنة على لبنة ، ولم يغرس شجرة (٨) ، وسـبب ذلك أن البصرة والكوفة أنشئتا معسكرين للجند المحاربين والفترة التى حكمها زياد كانت فترة حروب وانشـغال بالخوارج على الأخص ، ولكنه حفر نهر الأبـلة وكان خورا يجرى فيه ماء المطر ، وماء النهر حين مده ثم يجف عند جزره ، وقد كان عمر بن الخطاب أمـر أبا موسى

---

(١) المصدر نفسه ٠

(٢) ص ١٦٣ ، جـ ٢ ٠

(٣) الرجلة : المشى علي الارجل ٠ وحملهم أرسل اليهم ما يركبونه ٠

(٤) النملة ٠

(٥) كما تحوط أولادها . يريد أحسن تأديبهم ٠

(٦) سلط بعضهم على بعض . والعبارة لعمرو بن معد يكرب فى وصف سعد بن أبى وقاص ٠

فتوح البلدان ، ص ٢٧٨ ٠

(٧) ساق لهم ربما من غيران يكلفهم مشقة حرب ٠

(٨) ابن عساكر ٥/٤١٤ ٠

بحفره ، ثم طم منه نحو فرسخ . فأشار زياد على عبد الله بن عامر بن كريز بحفره فلم يفعل ، ثم شخص الى خراسان وولى زيادا البصرة فحفره ، فأغضب ذلك ابن عامر اذ اتهمه أنه يريد أن يذهب بهذا الفخر دونه ٠

موقف أبى بكرة منــه :

قاطع أبو بكرة زيادا منذ تراجعه عن الشــــهادة على المغيرة بن شعبة ، وظل مقاطعا له ما عاش ، ومع ذلـك لم يكن أى منهما يتراجع عن خدمة الآخر اذا سـنحت لـه فرصة ، وقد رأينا توسل أبو بكره لدى معــاوية لاطــلاق أولاد زياد من سجنه ، وولى زياد ابناء أبى بكر امــــارة مدن كبيرة ٠ ولما قبل زياد استلحاق معاوية انكره ابــو بكرة وقال : ان أمنا لم تكن بغيا ، ثم حدث أن استأذن زياد معاوية فى الحج فأذن له ، فذهب أبو بكرة الى بيته وقــد أجلس له أولاده ، فسلم أبوبكرة عليهم دون زياد ثم قال لهم : ان اباكم ركب أمرا عظيما فى الاسلام بادعائه الى أبى سفيان ، فو الله ما علمت سمية بغت قط ٠٠ وهو مار بالمدينة ، وبها أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى ﷺ ، ولا بد له من الاستئذان عليها ، فان أذنت له فقعد منها مقعد الأخ من أخته ، فقد انتهك من رسول الله ﷺ حرمة عظيمة، وان لم تأذن له فهو عار الأبد ٠ ثم خرج ٠ فقــال زياد : جزاك الله خيرا من أخ فما تدع النصيحة على حال ، ورجع عن حجه ٠

ولما مرض أبو بكرة مرض موته أرسل زياد اليه أنس بن مالك ليصلحه فقال له : اتق الله فى زياد أخيك ، فان الحاية يكون فيها ما يكون ، فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدكما لصاحبه ، والله ما علمت انه لوصــول للرحم ٠

هذا عبد الرحمن ابنك على الأبلة ، وهذا داود على الرى، وهذا عبد الله على فارس كلها ، والله ما أعلمه الا مجتهدا ٠ فقال أبو بكرة : وأهل حروراء (١) قد اجتهدوا فأصابوا أو أخطأوا ، والله لا أكلمه أبدا ولا يصلى على ٠ فرجع بها أنس الى زياد ، وقال له : انه قبيح أن يموت بالبصرة وأنت بها ولا تصلى عليه ، ولا تقوم على قبره ، فاركب دوابك والحق بالكوفة ففعل ٠ ومات أبو بكرة فصلى عليه أنس ٠

ونحن من قبلنا نرى ان قبول زياد انتسابه الى ابى سفيان كانت زلة جللته بعار أكثر مما حلته بشرف ، وحقق على أمه تهمة حفظها لها التاريخ ، كما أذل أباه عبيدا ووسمه بخزى وعار ، وقد كان له من مواهبه وصفاته ما يكفيه ذلك كله ، ولم يكن معاوية وهو يرى حاجة اليه ليعزله عن ولايته او يقصر فى اسناد ولاية اليه ٠ وقد ربح معاوية منه كثيرا ولم يستفد هو منه ولم يأخذ بقدر ما أعطى ٠

٦ ـ الحجاج

من أعظم ولاة بنى أمية وأشهرهم ، وأشدهم أثرا فى أحداث التاريخ الاسلامى ، وهو خطيب وجرىء ، وذو قسوة وجبروت ، ومع ذلك له مواقف رحيمة وتسامح ، وفى كل ذلك يتسم بالذكاء والحصافة ، أوصى عبد الله بن مروان أولاده به وهو فى مرضه ، فقال : أكرموا الحجاج فانه الذى وطأ لكم المنابر ، وهو وطأها لهم بقتله منافسيهم وعلى الأخص عبد الله ابن الزبير ، وابن الأشعث ، ولولاه ما استطاع المهلب أن يفعل بالخوارج ما فعل ، لأن العراقيين كانوا يتقاعدون عن الغزو معه ٠

(١) الخوارج : الذين اجتمعوا فى هذه القرية قريبا من الكوفة ٠

قبيلتـه ووالـداه :

الحجاج ثقفى ، وبنو ثقيف قبيلة كبيرة تضارع قبيلة قريش ، وكانت تقيم بالطائف ، ولم تكن منقطعة الصلة بمكة ، وكانت على صلة بقريش ونصارى الحيرة ، وكان أمية بن أبى الصلت قرأ كتب النصارى واستفاد من أخبار الحيرة وكان يتوقع أن يكون نبيا ، وقد رثى قتلى قريش فى بدر وهجا المسلمين · وكان الحرث بن كلدة قد تعلم الطب فى جنديسابور ، وبعد وفاة رسول الله ﷺ هموا بالردة ومنع الزكاة فقام عثمان بن أبى العاص عامل النبى عليهم فقال : يا بنى ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من يرتد ، فثبتوا على الاسلام ، فلماكانت فتوحات أبى بكر كان لهم فيها يد وجهاد ، ولما كانت خلافات على ومعاوية كان المغيرة بن شعبة ممن خاضوا نارها ، ثم قام بعد ذلك المختار الثقفى بثورة ضد عبد الملك بن مروان· وهكذا كان لهذه القبيلة نشاط سياسى عوضت به ما فاتها من السبق الى الاسلام ·

ولم يكن الحجاج من ذوائب ثقيف ، ولكن همته البعيدة وتكوينه الشخصى مما هيأه لهذا المجد الذى تبوأه · كان أبوه معلم صبيان بالطائف وكان هو كذلك أيضا ، وقد هجاه الشعراء فقال :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف
كما كان عبدا من عبيد اياد

زمان هو العبد المقر بذله
يراوح صبيان القرى ويغادى

وكان أبوه يدعى يوسف بن الحكم بن أبى عقيل ، وأمه تدعى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى ·

قيل انها كانت زوجة للمغيرة بن شعبة فدخل عليها بعد صلاة الصبح فوجدها تتخلل · فقال لها ان كان تخللك من طعام امس انك لقذرة ، وان كنت تتخللين من طعام اليوم انك لنهمة ، كنت فبنت · فقالت له : والله ما فرحنا اذ كنا، ولا أسفنا اذ بنا ، وما هو لشيء ظننت ولكنى استكت فأردت أن أتخلل بسواك ، فندم المغيرة على ما بدر منه ، وخرج فلقى يوسف بن أبى عقيل فقال له : انى نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها تنجب لك ، فتزوجها يوسف فولدت الحجاج هذا وكانت سمته كليبا ولكن غلب اسم الحجاج ·

ويقال أنها كاذ تتحت الحرث بن كلدة طبيب العرب ، فلما وجدها تتخلل على ما ذكرنا بعث اليها بطلاقها ، وجرى بينهما الحوار السابق (١) ·

وقالوا عن الحجاج انه ولد مشوها لا دبر له ، وأنه كان يأبى الرضاع حتى خشى عليه فطب له الحرث اذ نقب عن دبره وجعله يقبل الرضاع (٢) ·

وترك الحجاج مهنة التعليم ولحق بروح بن زنباغ الجذامى وزير عبد الملك ومستشاره فعمل فى شرطته ثم بدأ نشاطه ونجابته فكان رئيس الشرطة ·

---

(١) يقال انها هي التى سمعها عمر ليلا تقول :

هل من سبيل الى خمر فأشربها　　او من سبيل الى نصر ابن سياد

ويقال ان تلك هي جدته لأمه ، وكان يعير بانه ابن المتمنية · وقصة نصر معروفة لا نرى داعيا لاعادتها · وقد ذكر الميدانى أن المتمنية ليست أمه ولكن مصعب بن الزبير قال له مرة : يا ابن المتمنية فظن الناس أنها هى ·

(٢) انظر وفيات الأعيان ترجمة الحجاج · ومروج الذهب ١٣٢/٣· والعقد الفريد ٢٩٨/٥ وما بعدها ·

بداية ظهوره :

شكا عبد الملك الى روح انحلال عسكره وأنهم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له : ان فى شرطتى رجلا أو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله ، وذكر له الحجاج فقلده شرطته • فلم يكن أحد يتخلف الا أعوان روح بن زنباغ ، فوقف عليهم يوما وقد أرحل الناس وهم على طعام يأكلون • فقال لهم : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ قالوا له : انزل يا ابن اللخناء فكل معنا • فقال لهم : هيهات ، قد ذهب ما هنالك ، ثم امر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر باحراق خيمة روح نفسه • وشكا روح الى الخليفة • فلما أحضر الحجاج قال : ما أنا فعلت وانما فعله أمير المؤمنين ، انما يدى يدك وسوطى سوطك ، وما على أمير المؤمنين أن يصرف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له • فأخلف عبد الملك لروح ما ذهب وتقدم الحجاج فى منزلته •

فى حرب الزبير :

بعد ان قضى عبد الملك على مصعب بالعراق وجه الحجاج لقتال عبد الله بمكة ، وكان قد تحصن بها وسمى نفسه العائذ ، فحاصرها الحجاج مدة حتى انفض أتباع عبد الله ، واضطر أن يبرز اليه بنفسه ، فقتل وصلب جسده أياما ، ثم ولاه عبد الملك العراق ، وكان اذ ذاك يموج بالفتن ويغلى بالشر وتدبير المكايد ، فقضى على ذلك كله بالشدة والعنف ، وسفك الدماء حتى ملأ قلوب الناس بالرهبة وأذلهم بسلطانه ، وبذا توطد الملك لبنى أمية واطمأنت أحوالهم الداخلية • ولم يبق ممن يناوشونهم

سوى الخوارج ، وهؤلاء ظل المهلب بن ابى صفرة وأولاده يحاربونهم حتى أوهنوا عزمهم وفلوا شـــباتهم ، وكان الحجـاج وراء ذلك اذ هـو الـذى يبعث الأمـداد للمهلب ولا يستطيع أحد أن يتخلف خوفا من سيف الحجاج ٠

الحجـاج وزيـاد :

هذان الواليان أقوى ولاة بنى أمية وأشدهم بأسـا . والعرش الأموى مدين لهما بما لا يدينه به أى وال أو قائد٠ كلا الرجلين يمتاز بالذكاء والشدة ، ولكن الحجاج اعتمد على قسوته أكثر مما أعتمد على سياسته ، بينما كان زياد على العكس من ذلك ، وكانت مهارته أنه يضرب عـدوه فيوهن خصومه ويريح جيشه ٠ وقد سأل عبد الملك عباد بن زياد عنهما فقال عباد : « ان زيادا قدم العراق وهى جمرة تشتعل ٠ فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهـل العراق ، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد القلوب ، ولم يضبطهم بأهـل الشام فضلا عن أهل العراق ، ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفجأك الا على قعود يوجف به » ٠

وهذا واضح فى أن زيادا أبعد بصرا بالسياسة وأقوم رأيا ، ويقولون أن زيادا أراد أن يتشبه بعمر بن الخطـاب فظلم ، وأن الحجاج أراد أن يتشبه بزياد ففجر ٠ وانضمام زياد لبنى أمية سد ثغرة كان معاوية يخشى ألا تسد اذا فتحت ، وحال دون فتن لولاه لاضطرمت ٠ أما الحجاج فقد واجه الفتن وهى مضطرمة ، وخاض حـروبا لم يكن ثم مناص من خوضها ٠

وخلاصة القول فيهما أن زيادا أقوى وأحزم وأكيس ، وأن الحجاج أدى لبنى أمية ما لم يؤد زياد لهم ٠

خطبتـه بالكـوفة :

هذه الخطبة أشهر خطب الحجاج لأنها أولى خطب والي ولأنها هى التى ثبتت مكانته وبثت مخافته فى نفـــوس العراقيين ، وهى فى كثير من كتب التاريخ والأدب . وننقلها هنا عن كتابى البيان والتبين ، والكامل للمبرد (١) ٠

بينما الناس فى المسجد الجامع بالكوفة ، وأهلهـــا يومئذ فى حال حسنة يخرج الرجل منهم ومعـــه العشرة والعشرين من مواليه (٢) اذ أتى آت فقال : هذا الحجــاج قد قدم أميرا على العراق ، فاذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفه ، متنكبا (٣) قوسه يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمر ابن ضابىء البرجمى : ألا أحصبه (٤) لكم ؟ فقالوا :أمهل حتى ننظر ، فلما رأى عيون الناس اليه حسر (٥) اللثـام عن فيه ونهض فقال :

وذكر الجاحظ عن رواته :

خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها فى اثنى عشر راكبا على النجائب حتى دخل الكوفة فجأة حـــين انتشر النهار ، وقد كان بشـــر بن مـــروان بعث المهلب الى

---

(١) انظر البيان والتبيين ٣٠٧/٢ ٠ والكـــامل ٢٢٤/١ المكتبـــة التجارية ٠ وصبح الأعشى ٢١٨/١ وتاريخ الطبرى ٢١٠/٧ ، وغريب الحديث لابن قتيبة جـ ٣

(٢) كانوا فى ثراء ، ولديهم كثير من الموالى ٠

(٣) يحملها على منكبيه ٠

(٤) أرميه بالحصباء وهي الحصا الصـغير الذى تغطى به أرض المسجد ٠

(٥) رفعه وكشف وجهه ٠

الحرورية (١) · فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء . فقال : على بالناس : فجسبوه وأصحابه خوارج ، فهموا به . حتى اذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفونى (٢)

أما والله انى لأحتمل الشر بحمله (٣)، وأحذوه بنعله(٤) وأجزيه بمثله ، وانى لأرى رؤوسا قد أينعت (٥) وحان قطافها ، وانى لصاحبها (٦) ، وانى لأنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ·

(قد شمرت عن ساقها فشدوا) (٧)

ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
قد لفها الليل بسواق حطم (٨)

---

(١) الحرورية : الخوارج الذين كانوا بحر وراء ـ قرية على بعد ميلين من الكوفة ·

(٢) من قصيدة لسحيم بن وثيل ـ بوزن كريم ـ الرياحي : أى ابن رجل جلا الأمور ووضحها ، وطلاع الثنايا تعنى أنه صلب قوى يقتحم الشدائد ، والثنايا جمع ثنية ، وهى ما التوى من الأرض ·

(٣) بكسر الحاء ـ أى بثقله ·

(٤) أتبعه وأقابله بمثله ·

(٥) أينعت الثمرة نضجت واستحقت الجنى ·

(٦) يريد أنه متولى قطع هذه الرءوس كما يقطف الثمار صاحبها، ولا ينازعه أحد ـ فهو سيقطع هذه الرءوس غير مسئول عن قطعها ·

(٧) جاء هذا الشطر فقط فى البيان والتبيين ، وذكر المبرد الرجز الآتى كله ·

(٨) الرجز لرويشد بن رميض العنبرى ، الشد : الجد والاجتهاد ، وزيم اسم الناقة ، وحطم هو شريح بن ضبيعة · وكان رويشد غزا اليمن وفى عودته ضل الطريق فساق شريح الابل بشدة حتي أدرك الماء ، فقال فيه رويشد الرجز فسمى « الحطم » وهو الذى لا يبقى من السير شيئا . والأكول الذى يقضى علي الطعام . والنار الحطمة التى لا تبقى ··

ليس براعى ابـــــل ولا غنـــــم

ولا بجـــزار على ظهـــر وضم (١)

ثم قال :

قـد لفهـا الليـل بعصلبى

أروع خــــراج من الدوى (٢)

مهاجر ليس بأعرابى

وقال :

قد شمرت عن ســاقها فشـدوا

وجدت الحـــرب بكم فجدوا (٣)

والقوس فيهـا وتـــر عـــرد

مثل ذراع البكـــر أو أشـد (٤)

(لابد مما ليس منه بد)

انى والله يا أهل العراق (والشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق) (٥) ما يقعقع لى بالشنان (٦) ، ولا يغمز جانبى

---

(١) الوضم : الخشبة التى يقطع عليها اللحم ، ونحوها ، يريد أنه سواق جاد ، لا توكل اليه صغائر الامور .

(٢) العصلبى : الشديد ، والكريم ذو الجسم والجهارة ، وقيل الجميل الرائع الحسن ، والدوى الصحراء الملساء ليس بها علم ولا امارة ، يريد انه يستطيع الخروج من الشدائد والمشكلات ، ويقال ايضا داوية ، وهى المتسعة التى يسمع لها دوى بالليل .

(٣) شمرت عن ساقها ، يريد الحرب أو الحالة ، اى جد جدها ـ كما فى الآية يوم يكشف عن ساق .

(٤) عرد بوزن عتل شديد ، والبيت الاخير لا بد مما ليس منه بد ، ليس في الخطبة ، وزادها الاخفش في الكامل لتمام الشعر ، وهذه الابيات لم تات فى البيان والتبين .

(٥) مما زيد فى البيان والتبين وليس بالكامل ولا صبح الاعشى ولكنه بالعقد الفريد ايضا .

(٦) الشنان جمع ش ، جلد القربة ، كانوا يحركونه فيحدث قعقعة تنفر منها الابل فتجرى ، وبها كانوا يستخدمونها على السير ، يريد انه لا يخوف مما لا يخيف .

كتغماز التين(١) · ولقد فررت(٢) عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وأجريت الى الغاية القصوى(٣) وأن أمير المؤمنين أطال الله بقاؤه بنر كنانته(٤) بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني أمرها عودا(٥) وأصلبها مكسرا فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم(٦) في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال · والله لأحزمنكم حزم السلمة(٧) ولأضربنكم ضرب غرائب الابل(٨) ، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأيتها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ·

اني والله ما أقول الا وفيت ، ولا أهم الا أمضيت ، ولا أخلق الا فريت(٩) فاياى وهذه الجماعات ، وقال وقيل وما تقولون ، وفيم أنتم وذاك ؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده(١٠) وان أمير المؤمنين أمرني باعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم

---

(١) لا أحتمل أن اجس وأختبر ·

(٢) فر الرجل الفرس نظر في اسنانه ليعرف سنه ، ويعرف الجواد من عينه فيقال : الجواد عينه فرارة ، والذكاء تمام السن وحدة القلب ، يريد ان الخليفة اختاره بعد فحص دقيق ورأى حصيف ·

(٣) الي نهاية الشوط حيث توضع قصبة يستولي عليها السابق · تسمى الغاية ·

(٤) الجعبة التى توضع فيها السهام ، وعجم العو جسه بأسنانه لمعرفة مدى صوبته ·

(٥) أمر من المرة وهى القوة ·

(٦) أوضع أسرع وجرى

(٧) واحدة السلم ، وهو شجر ذو شوك ـ يحزمه الراعى بحبل ثم يضربه بالعصا فيقع ورقه لتأكله الماشية ·

(٨) الابل التى تدخل بين ابل أخرى،فيضربها صاحبها حتى لا تزاحمها على الماء ·

(٩) خلق الجلد قاسة وقدره ، وفراء قطعه ـ يريد أنه لا يرجع عن شيء هم به ·

(١٠) اوجعته بآلام تشغله عن غيره ·

لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ، وانى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضـــربت عنقه(١) يا غلام اقرأ كتاب امير المؤمنين ٠

قال المبرد : فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك امير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المســلمين ، سلام عليكم ، فلم يقل أحد منهم شيئا ، فقال الحجاج : اكفف يا غلام ، ثم أقبل على الناس فقال : سلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا : هذا ادب ابن نهية ، ـ (وهو رجـــل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج) ـ أما والله لأدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن قناتكم ٠ اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ الى قوله « ســـلام عليكم » لم يبق فى المسجد أحد الا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ٠

وأسرع الناس حتى كان الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزادة ٠

بلاغة الحجاج :

كان الحجاج لأية فى البلاغة والفصاحة ، كـان يخطب فيطيل فلا يتعلثم ولا يتجلج ولا يخطىء ، وعـد الأصـمعى أربعة لم يلحنوا فى جدولا هزل ، الشعبى وعبـد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج أفصحهم وقال مالك بن دينار ما رأيت أحدا أبين من الحجاج ان كان ليرقى المنبر فيذكر احسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم ، واساءتهم اليه حتى انى لأحسبه صادقا واظنهم كاذبين ٠

ونحن نتبين خطب الحجاج فنلمس فيها أســبابا هى أساس بلاغتها وقوتها ، أهمها ذكاؤه وقدرته على تصوير

---

(١) فى البيان والتبين:الا سفكت دمه ، وانتهبت ماله ٠ ثم دخل منزله٠

الأسباب التى تؤيد رأيه وتدحض لآراء معارضيه ، ومنها جرأته وشجاعته النادرة على مواجهة الصعاب حتى ليتحمل نعي ابنه وأخيه فى يوم واحد ، ومع ذلك يجد جلدا وقوة ليقف بين العراقيين وهو يعلم أنهم أعداؤه وشامتون به ، ولكنه يدير كلامه على وجه يجعله يرى أن الخلاص من العيش بين العراقيين نعمة • وثالث هذه الأمور تكوينه الأدبى ، وانظر كيف حشا هذه الخطبة بالأمثال والأشعار والعبارات المجازية •

ولهذه الصفات نفسها كان الحجاج سديد الاجابة عندما توجه اليه لائمة أو يسأل سؤالا محرجا . وقد رأينا كيف أجاب عبدالملك حين سأله عن احراقه فسطاط روح بن زنباع وسخر منه مرة خالد بن يزيد بن معاوية وهو يخطر متبخرا فى المسجد عليه سيف محلى ، فقال بخ بخ : هذا عمرو ابن العاص . فمال اليه الحجاج فقال : والله ما سرنى أن العاص ولدنى ولا ولا ولدته . أنا ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ، والذى ضرب بسيفه هذا مائة من قريش يشهدون على أبيك بالكفر وشرب الخمر حتى أقروا أنه ولى •

وكان من عادته اذا صعد المنبر أن يتلفع بمطرفه ، ثم يبدأ كلامه متأنيا هادئا حتى ما يكاد يسمع حتى يتزايد فى الكلام فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى من فى المسجد •

ظلم الحجاج :

كان الحجاج ظالما قاسيا مسرفا فى سفك الدماء لا يبالى أن يقتل الرجل لسبب واه لا يستدعى قتله ، ولا يبالى أن يقتل جماعة كثيرة لمثل هذا السبب ، وقد رأينا عويمر بن

ضابىء البرجمى وهو شيخ كبير . وكان ذلك بالكوفة ، وفى البصره جاءه ذو الكرسفة (١) ، وكان شيخا كبيرا أيضا ، فقال : أصلح الله الأمير ان بى فتقا وقد عذرنى بشر وقد رددت العطاء ، فقال : انك عندى لصادق ، ثم أمر به فضربت عنقه (٢) ، وقدم رجل من سليم رجلا الى الحجاج وقال : انه عاص ، يريد ألا يذهب للحرب · فقال الرجل : انشرك الله أيها الأمير فى دمى ، فوالله ما قبضت ديوانا قط ولا شهدت عسكرا ، وانى لحائك أخذت من تحت الحف(٣)، فقال : اضربوا عنقه ، وكتب الى المهلب : من خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله ، فانى قاتل من قبلى ، ومن كان عندى من ولى من هرب عنك فأعلمنى مكانه ، فانى أرى أن آخذ الولى بالولى والسمى بالسمى (٤) وقد أحصى الذين قتلهم صبرا (٥) فكانوا مائة وعشرين ألفا ، وعرضت السجون بعد موته فكان بها ثلاثة وثلاثون ألفا لم يجب على وأحد منهم قتل ولا صلب ، ووجد فيهم أعرابى كان قد شرع يبول فى أصل مدينة واسط ، فلما أطلق سراحه أخذ يقول:

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط

خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

وقتل فيمن قتل سعيد بن جبير (٦) العالم العابد وابن القرية · كما كان كثير الشتم للامام على ·

---

(١) هو رجل من يشكر كانت له عين عوراء يضع عليها صوفة فلقت بذى الكرسفة ·

(٢) انظر الكامل ٢/٢٣١ تجارية ·

(٣) الحف المنسج ·

(٤) من يحمل اسم الآخر ·

(٥) من قتل فى غير معركة ·

(٦) من موالي بنى أسد ، كتب لعبدالله بن مسعود حين كان على قضاء الكوفة ، ثم لابى بردة بن ابى موسى الاشعرى ، ثم خرج مع ابن الاشعث ضمن القراء الذين صحبوه ، وهرب بعده الى مكة فقبض عليه خالد القسرى وارسله الى الحجاج فقتله ·

جرأته على المأثورات الاسلامية :

كان الحجاج جريئا على آيات القرآن والأحـاديث تارة يؤولها تؤويلا بعيدا ، وتارة يخالفها دون مبالاة ، وكانت الفكرة السائدة لديه أن تنقطع الثورات والفتن ويستتب الأمن لتهدأ الأحوال أمام الخليفة الاموى ، وفى سبيل ذلك استباح ما لم يستبحه غيره ٠

أراد مرة أن يحج فاستخلف ابنه محمدا على البصرة ، خطبهم فقال :

« ٠٠٠ استخلفت عليكم ابنى محمدا ـ وما كنتم له بأهل وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله (ﷺ) فى الأنصار ، فانه أوصى أن يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم ، وأنا أوصيته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ٠

وخطب مرة فتحدث عن عثمان فقال : ان مثل عثمان عند الله كمثل عيسى ابن مريم،قال الله فيه : «انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » وكان أبو البخترى جالسا بالمسجد ، فقال : كفر ورب الكعبة ، ويعزى اليه أنه رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله (ﷺ) ومنبره فقال : انما يطوفون بأعواد ورمة ٠

وكتب مرة الى عبد الملك يقول : ان الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين ، لأن الله خلق آدم بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه جنته ثم أهبطه الى الأرض وجعله خليفة ، وجعل الملائكة رسلا اليه ، فأعجب

عبد الملك بهذا الخطاب وود لويجد خارجيـــا يحاجه به ، فاستأمنه « حوار يزيد الضبى » وكان هاربا من ســـجن الحجاج ، فأمنه فقال : قد جعلك ملكا ونبيـا وخليفة ، ان كنت ملكا فمن أنزلك وان كنت نبيا فمن أرسلك ، وان كنت خليفة فمن استخلفك ؟ أعن مشـورة من المســلمين ، أم ابتززت الناس أمورهم بالســيف ؟ فقـــال عبد الملك : لا نجاورنى فى بلد أبـدا ٠ فذهب الى مصـــر حتى مات عبد الملك (١) ٠

وكان عجيبا حقا من الحجاج أن يضرع الى الخليفة الى هذا الحد مع طغيانه البالغ على من هم تحت يده،وقد وصف نفسه مرة لعبد الملك بأنه لجوج حسود حقود ، فقال عبـد الملك ما فى ابليس شر من هذا ٠

آراء العلماء فيه :

كان الحسن البصرى يبغضه جدا ويقول انه عقوبة من الله ، ولما أخبر بموته خر ساجدا ، وكان القاسم بن محمد يقول انه ينقض عرى الاسلام عروة عروة ، وكان عمر بن عبد العزيز يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون ذلك أشد الى عذابه فى الآخرة ، ولما بلغه موته خر ســاجدا أيضا ، وكان يقول : لو جاءت كل أمة بمنافقتها وجئنــا بالحجاج لفضلناهم جميعـا ، وكانت له دراهم ضـــربها تسمى الدراهم الحجاجية ، فكان أنس وابن ســيرين لا يبيعان ولا يشتريان بها ٠

الحجاج والوليد :

ظل الحجاج واليا على العراق طوال عهد عبد الملك ،

(١) انظر الحديث مستوفى في العقد الفريد ٥/٣٣٣ ٠

وكان الحجاج يرى أن عبد الملك قد بوأه منزلا لم يكن يطمع فيه ولا يتوقعه ، وكان يدرك كراهة أهل العراق له ، ويعلم لهذا أنه اذا نزعت منه ولاية العراق شمت به الأعداء ، ونال منه الخصوم الكثيرون ، ولعله لهذا تحمل من عبد الملك كثيرا من ألوان المهانة ، وقد رأينا بعضا من ذلك • ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويقلدها ولده الوليد كان الحجاج ممن زينوا له ذلك وشجعوه عليه ، ومات عبد العزيز قبل أخيه فاستقر الأمر للوليد استقرارا لا مشاحة فيه ، ولكنه ظل يحفظ للحجاج مسعاه لدى عبد الملك ، ثم أراد الوليد بدوره أن يخلى أخاه سليمان من ولاية العهد ويولى ابنه فشجعه الحجاج أيضا ، ولكن فى هذه المرة مات الوليد قبل أن يخلع سليمان ، ومات الحجاج قبل الوليد •

كان الحجاج أيام عبد الملك خادما مطيعا يترضى سيده ويرتكب فى سبيل مرضاته ما لا يرتكبه غيره ، وكان عبد الملك يقدر عمله ولكن لا يسمح له بالزيادة عن كونه واليا ، ولما دنت منيته أوصى أولاده بالحجاج وقال انه جلدة ما بين عينى ، فلما تولى الوليد كان للحجاج عليه دالة ، وفوضه أمر العراق كله ، بل وغير العراق أحيانا ، فكان مطلق اليد يفعل ما يريد •

وكان والى المدينة أيام عبد الملك هو عمر بن عبد العزيز ابن أخيه وزوج بنته ــ وكان يحكمها بمجلس شورى مكون من فقهائها ، وكان يأسى لما يعانيه أهل العراق من عسف الحجاج وقهره ، فكتب الى الوليد يخبره بذلك ، فاضطغنها الحجاج عليه ، ثم كتب الى الوليد يخبره أن المارقين من أهل العراق يجلون الى مكة والمدينة وأن ذلك مما يسبب

وهن الدولة ، وأشار عليه أن يوليهما عثمان بن حيان وخالد بن عبد الله القسرى ، فعزل الوليد عمر وولى خالدا مكة وعثمان المدينة (١) ٠

وقد كان منطق الواقع يقضى أن يأمر الوليد عمر أن يرد يرد الفارين من أهل العراق الى موطنهم ، لا أن يعزله ، ولكنه استشار الحجاج وعمل بمشورته ، وخالد بن عبد الله متهم فى دينه ، أما عثمان فأخرج العراقيين جميعا تجارا ولاجئين وفارين ، ليقتص الحجاج منهم أو ممن يرى الاقتصاص منه ٠

بهذا ترى أن الحجاج لم يعد فى عهد الوليد كما كان فى عهد أبيه عاملا أو واليا ، وانما أصبح شريكا فى ادارة الدولة ومستشارا لدى أمير المؤمنين ومطلق اليد فى عمل ما يريد ٠

صفحة بيضاء من حياته :

لكل انسان حسنات وسيئات ، وقد ذكرنا من مساوىء الحجاج ما ذكرنا فلنلق نظرة على أعماله الحسنة ٠

استطاع الحجاج أن يقضى على الفتن والثورات ، وبارهابه الناس أصبح لواء الأمن يرفرف على البلاد كلها، وله الفضل فى نشر الأمن الداخلى ومد الفتوح والقضاء على الثورات الخارجية زمن الوليد وزمن أبيه أيضا ، وهو الذى وجه العراقيين الى الحرب مع المهلب أبى صفرة كما رأينا ، وهو الذى بعث قتيبة بن مسلم الباهلى لحرب خراسان وجعله عامله عليها بعد يزيد بن المهلب ، ففتح

---

(١) راجع تفاصيل ذلك كله في تاريخ الطبرى ٤٨/٦ وما بعدها ٠

منطقة ما وراء النهر ، حتى قارب حدود الصين ، وهو الذى سير محمد بن القاسم الثقفى القائد الشاب للحرب فى الهند ففتح حوض السند ، فالحجاج أحسن اختيار القواد بذكائه ، وحمل الجند على طاعتهم والعمل معهم بشدته ، وكان يعنى بتجهيز الحملات ويزودها بكل ما تحتاجه حتى الخيوط والمال،وكان لا يبالى بما ينفق فى تجهيز حملاته ثقة منه أن ما يناله بيت المال من خمس الغنائم يعوض ما أنفق ٠ أنفق ستين مليون درهم على الحملة التى خرجت مع محمد بن القاسم ، وكان خمس غنائمها اثنى عشر مليونا ٠

وللحجاج أعمال داخلية عظيمة أيضا :

أشاع الأمن ولجأ اليه الضعاف المظلومون حتى كانت المرأة اذا اعتدى عليها هتفت به فيلبى دعوتها ٠ وفى عهده ضربت النقود العربية لأول مرة وكان العرب قبل ذلك يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، وعنى بتعمير الاراضى وتجفيف المستنقعات وزرع الأراضى البور وشق الترع واصلاح ما طم أو احتاج الى اصلاح منها ، وتنظيم الرى وتحسين الضياع فعاد ذلك كله على الأمة بالرفاهية والرخاء ٠

ومما عمله للنهوض بالزراعة أنه أمر باعادة الفلاحين الذين نزحوا منقراهم الى المدن الىمواطنهم ليعمروا الأرض كما منع ذبح الثيران كى تستخدم فى حرث الأرض وريها ٠

ومع ما شتهر به من القسوة والظلم كان يعفو عن الكثيرين ، وخصوصا المهزومين المستسلمين من ثوار البصرة ومحاربى دير الجماجم ، ويبدو أنه كان يجنح الى القسوة البالغة اذا رأى فيها اسكان فتنة ، فهو يرهب بها

الناس ، أو اذا كان يرى الشخص المعاقب ذا خطـر على الدولة ويستحق العقوبة ـ وهو فى هذا لم يبـال أن يأخذ البرىء بذنب المجرم • وهذا ـ فيما يبدو ـ هو الذى سوغ له رمى الكعبة بالحجارة وقتل عبد الله بن الزبير وصـلبه مدة طويلة حتى قالت له السيدة أسماء بنت الصديق : أما أن لهذا الفارس أن يترجل ؟

وقد صادف يوم حصاره الكعبة ورميهـا بالمنجنيق أن أبرقت السماء وأرعدت • فتخوف الناس وظنوا ذلك نذير غضب من الله ، فقال لهم أنا ابن نجد وأعرف صواعقها (١) •

ولكننا نقول ازاء هذا : هل كان ابن الزبير أقل صلاحية لولاية المسلمين من عبد الملك ؟ أو لم يكن أحـــرص على قوانين الاسلام وأحكام القرآن من كل بنى أمية ؟ ان ابن الزبير كابن أبى طالب ـ حرص على ابقاء مال المسـلمين للمسلمين بينما استعمله هؤلاء لتثبيت ملكهم ، ثم نجـــد الحجاج يقتل فقهاء العراق وقراءه ، ومـا كانوا يقولون غير ما يعتقدون •

وأروع صفحة من أعمال الحجـــاج هى أمــــره بنقط المصاحف وشكلها فسهل قراءتها من ناحية ، وطور الخط العربى كله من ناحية أخرى ، وهو بانى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة ، وأخذت اسمها من هذه الوسطية •

---

(١) خطب فيهم خطبة جاء فيها : « لا يهولنكم هذا ، فانى أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربى ، فلو ركبنا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامة لم تزل الصواعق تنزل بها • ثم صاح باهل الشام ان قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين فكانوا يرمون الكعبة وبرتجزون :

خطارة مثل الفريق المزبـد   يرمى بهـا عواذ أهـل المسجد

وانظر الطبرى ٦/٤٤٨ ، والعقد ٥/١٨٠ •

نهاية الحجـاج :

مات الحجاج فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان عمره ثلاثا وخمسين أو أربعا وخمسين سنة ، ورأينا ما كان من العلماء والصالحين من ابتهاج بموته ، وسأله أحد عواده وهو على فراش موته : كيف تجدك ؟ فقال : سفر طويل ، وزاد قليل ، فويلى ان لم يرحمنى الجبار · وقال الوليد : مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبى مسلم ــ وهو كاتب الحجاج ــ فكنت كمن سقط منه درهم فأصاب دينارا ، وكان يقول : ألا ان أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : الحجاج جلدة ما بين عينى وأنفى ، وأنا أقول انه جلدة وجهى كله، وقد أقر عماله بعد موته على مـا هم عليه ولم يغير منهم أحدا ·

ولم يترك الحجاج بعده تركة تذكر ، بل كانت مصحفا وسلاحه وبضع مئات من الدراهم ·

٧ ــ خالد بن عبد الله القسرى (١)

من ولاة هشام بن عبد الملك على العراق ، ومن خطباء بنى أمية المشهورين وهذه أجود صفاته وأكرم مناقبه ·

نسب خالد

ينتمى خالد الى القحطانيين ، وأبوه هو عبد الله بن يزيد ابن أسد بن كرز ، قال أبو الفرج : وهم أهل بيت شرف فى بجيله لولا ما يقال فى عبدالله بن أسد فان أصحاب المثالب ينفونه عن أبيه ، وعلى ما قيل فيه كان له ولابنـــه خالد سؤدد وشرف وجود ·

كان الجد الأعلى كرز يدعى كـرز الأعنـــة ، ويدعوه

(١) انظر اخباره مستوفاة فى الاغانى ٥٢/٢ وما بعدها ، ووفيـــات الاعيان ٢٢٦/٢ ·

الجاهليون رب بجيلة وكان ممن حرم الخمر فى جاهليته تنزها عنها • وقدم أسد وابنه يزيد على رسول الله (ﷺ) فأسلما ، وروى يزيد عنه (ﷺ) حديثا واحدا هو وصية له وهو : « أحب للناس ما تحب لنفسك » • وكان من محاربى الشام فى عهد عمر وكان سيدا مطاعا بين اليمنيين ، وبعثة معاوية فى أربعة آلاف من جند الشام لنصرة عثمان فوصل المدينة بعد مقتله فرجع ولم يحدث شيئا ، وحضر مع معاوية موقعة صفين وله بها خطبة حكيمه(١) •

آباؤه

أما عبد الله والد خالد فانه لم يكن من ذوى النباهة والشأن ، ويتهم بأنه دعى وليس من هذه القبيلة ، وتتصاعد هذه التهمة الى كرز فيقال انه كان عبدا لعبد القيس فى هجر فأبق منهم ، وتقلب بين أماكن وقوم كثيرين حتى أخذته بنو أسد فزوجوه مولاة لهم يقال انها كانت بغيا ثم اشترى نفسه ونزل على بجيلة بالطائف فانتسب اليهم ، ويقال ان أصله من يهود تيماء •

وكتب عبد الله بن يزيد لحبيب بن مسلمة الفهرى فى عهد عثمان ، وكان كاتبا قديرا فنال حظا وشرفا ، وكان خطيبا مفوها ولكنه كان يسمى خطيب الشيطان ، وتزوج عبد الله فتاة رومية نصرانية وهبها له عبد الملك بن مروان

---

(١) منها •• « قد كان من قضاء الله جل وعز ان جمعنا واهل ديننا في هذه الرقعة من الارض • والله يعلم أنى كنت لذلك كارها ، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ، ولم يدعونا نرتاد لديننا ، وننظر لمعادنا حتي نزلوا فى حريمنا وبيضتنا ، وقد علمنا ان بالقوم حلماء وطغاما ، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ، وقد كنا لا نحب ان نقاتل اهل ديننا فاحرجونا حتى صارت الامور الى ان يصير غدا قتالنا حمية ، فانا لله وانا اليه راجعون • والذى بعث محمدا بالحق لوددت انى مت قبل هذا ، ولكن الله تبارك وتعالى اذا أراد أمرا لم يستطع العباد رده • فنستعين بالله العظيم » ثم انكفأ •

فأنجبت له خالدا هذا ، فخالد اذن سيء النسب من قبل والديه جميعا ·

كان عبد الله مع عمرو بن سعيد الأشدق على شرطته أيام عبد الملك ، فلما قتل عمرو هرب عبد الله واختفى حتى سألت اليمانية فيه عبد الملك فأمنه عام الجماعة ، ونشأ خالد بالمدينة نشأة ماجنة خليعة ، فكان في حداثته يتخنث (١) ويتبع المغنين والمخنثين ويمشي بين عمر بن أبي ربيعة وبين النساء في رسائلهن اليه ورسائله اليهن وكان يسمى الخريت(٢) والجرىء · وكان يجمع بين عمر ومعشوقاته ·

وفي عهد هشام بن عبد الملك تولى امارة العراقين بعد عمر بن هبيرة ، فبدت له صفات حميدة وأخرى ذميمة جدا ·

فمن صفاته الحميدة أنه كان جوادا معطاء ، وأنه شجاع جرىء القلب على الخليفة أحيانا ، وكان خطيبا مفوها ·

مساوئ خالد

ومساوئه عديدة جدا منها أنه بنى لأمه النصرانية كنيسة في ظهر قبله المسجد بالكوفة ، فكان اذا أراد المؤذن أن يؤذن ضرب لها بالناقوس ، واذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءاتهم،وكان أهل الكوفة يكرهونه ويقولون ابن البظراء (٣) ، ويقال انه ختن أمه على الكبر وهي كارهة ، وكان أعشى همدان يعيره بذلك · ويقال ان الأسرة كلها كانت توصف بالكذب ، وأن يزيد بن أسد كان يلقب خطيب الشيطان لكذبه · وكان أكذب الناس في كل شيء ، معروفا بذلك · فسلك ابنه عبد الله منهجه في ذلك

(١) يتكسر ويبدى اللين في كلامه ومشيته ·
(٢) العالم بمسالك الطرق · (٣) لانها نصرانية لم تختن ·

وحمل أيضا لقبه خطيب الشـيطان ثم جاء خالد فـاق الجماعة ولكن رياسته وسخاءه ستر بعض أمره ٠

وكان خالد يكره المضـرية ويكره على بن أبى طالب ، وقد طلب من المدائنى أن يكتب له السيرة النبوية وألا يذكر عليا الا أن يذكره فى سـواء الجحيم ، ورأى يوما عكرمة مولى ابن عباس وعليه عمامة سـوداء ، فقال بلغنى انه يشبه عليا سود الله وجهه كما سود ذاك ، وكان يلعنه فى خطبه ٠

وكان يتهم بالزندقة ، وله أعمـال كثيرة تدل على رقة دينهوزيغ عقيدته ، وكان يتقرب الى الخلفاء بما يضـر بدينه ٠ ولم ينفعـه ، كان يقول : لو أمرنى أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجرا حجرا ، ونقلتها الى الشـام ٠ وكان يولى النصارى والمجوس على المسـلمين ، ويأمـرهم بامتهانهم وضربهم ، وكان أهل الذمة يشـترون الجوارى المسلمات ويطئونهن ، وهو أمر يحرمه الاسلام ، ولكنـه كان يبيحه لهم ٠ وكان يستهين بتعاليم الاسـلام ويتطاول على الله تعالى وعلى أنبيائه ٠ فلما حفر الوليد بئرا عذبه الماء قريبا من الحجون ـ كان خالد ينقل ماءها فيوضع فى حوض الى جنب زمزم ، ويقول وهو يخطب : ان ابراهيم خليل الله استسقى ماء فسقاه الله ملحا أجاجا ، وان أمير المؤمنين استسقى فسقاه الله عذبا نقاخا (١) وكان يرى أن حفظة القرآن من الحمقى ٠

وما من حسنة من حسناته الا ردت بصفة أخرى سيئة٠ ما سخاؤه بالمال فكان يقابله بخله بطعـامه ٠ فقد كان لا يطبق أن يؤكل طعـامه ٠ وشـجاعته فى بعض المواقف يقابلها جبنه وخوفه أمام خصومه ، فلما خرج عليه المغيرة

(١) النقاخ العذب الصافى البارد ٠

ابن سعيد العجلى وهو على المنبر دهش وتحير وقال : أطعمونى ماء : وقد قال الكميت الأسدى يمدح يوسف بن عمر الذى ولى العراق بعد خالد :

وما خالد يستطعم الماء فاغرا
بعدلك ، والداعى الى الموت ينعب

وعيره يحيى بن نوفل بهذا فقال :

بل السراويل من خوف ومن هلع
واستطعم الماء لما جد فى الهرب
وألحن الناس كل الناس قاطبة
وكان يولع بالتشديق فى الخطب

وقد رأينا من قبل كيف أرتج عليه .

ووقف مرة يخطب وأراد أن يستشهد بآية قرآنية فأرتج عليه ولم يجد فى رأسه شيئا من القرآن ، فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وظل يكررها ، ثم قال لصديق له زنديق افتح على ، فقال له : لا يهولنك ذلك فما رأيت عاقلا يحفظ القرآن وانما يحفظه الحمقى . قال : صدقت .

موقف هشام منه

وكان شديد الصلة بهشام فمازالت هنواته تلقاءه وسيئاته تتوالى حتى تغير عليه قلبه فأبغضه ولم يجد بدا من عزله . قال عنه مرة : ابن الحمقاء ، فبلغته ، وقال فى خطبة له : والله ما امارة العراق مما يشرفنى ، فغاظت الكلمة هشام بن عبد الملك فكتب اليه :

« بلغنى ياابن النصرانية أنك تقول . ان امارة العراق ليست مما يشرفك ، صدقت ، والله ما شىء يشرفك ، وكيف تشرف وأنت دعى الى بحيلة القليلة الذليلة ... »(١) .

(١) راجع ترجمة خالد فى وفيات الاعيان .

ولما عزله هشـــام قتل ابنه يزيد بن خلدون ، وعذبه هو فشد فى رجله شريطا رجعل الصبيان يجرونه · وكان قـد كتب الى يوسـف بن عمر وهـو باليمـن أن يلى العـراق ويحاسب خالدا فحبسه وعماله وحاسبه ثم أودعه السـجن حتى قتل فى أيام الوليد بن يزيد قتلة شنيعة · قيل وضـع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى تقصفتا ، فرفع الخشبتين الى ساقيه وفعل بهما ذلك ، ثم رفعهما الى وركيه ثم الى صلبه ، فلما انقصف صلبه مات ·

مثل فى تصرفه الكلامى

ولما كان واليا عـلى مكة خطب يوم جمعـه فأثنى على الحجاج خيرا وذكر طـاعته ثم ورد عليه كتاب من سليمان ابن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه واظهار البراءة منه · فلما كانت الجمعه التالية قال :

· · · ان ابليس كـان ملكـا من المـلائكة ، وكـان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكـة ترى له فضلا ، وكان قـد علم الله من غشه مـا خفى عـلى الملائكة ، فلمـا أراد فضـيحته ابتلاه بالسـجود لآدم فظهر لهم مـا كان يخفيه عنهم ، فلعنوه · وان الحجـاج كان يظهر من طاعـة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قـد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه ما خفى عنا ، فلمـا أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين · فلعنه فالعنوه لعنة الله ·

وهذا تأت حسن لتحوله واتيانه بشىء يعارض ما سبق أن قاله ·

وقال مرة لعمر بن عبد العزيز : من كانت الخلافة زانته فقد زنتها ، ومن كانت شرفته فقد شرفتهـا ، فأنت كما قال الشاعر :

وتزيدين أطيب الطيب طيبـا
أن تمسـيه ، أين مثلك أينـا

واذا الـدر زاد حسن وجـوه

كان للـدر حسن وجهك زينـا

فقال عمر : ان صـاحبكم أعطى مقـولا ، ولـم يعط معقولا (١) ، وهو تواضع من عمر ، ولكنه ثناء على خالد بحسن القول ٠

وخطب مرة فذكر الله وجلاله ، ثم قال ٠

« ٠٠٠ كنت كذلك ما شئت أن تكون ، لا يعلم كيف أنت الا أنت ، ثم ارتأيت أن تخلق الخلق ، فماذا جئت به من عجائب صنعك !! الكبـير والصـغير من خلقك ، والظـاهر والباطن من ذرعه من صنوف أفواجه وأفراده وأزواجه ، كيف أدمجت قوائم الذرة والبعوضة الى ما هو أعظم من ذلك من الأشباح التى امتزجت بالأرواح ٠

وخطب يوما فسقطت جرادة على ثوبه فقال : سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوق جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها ٠

خطباء آخرون من هذا الحزب

هناك خطباء آخرون من الحزب الأموى يستحق الكثيرون منهم أن نقف لديهم ونذكر لهم خطبا نشرحها ، ولكن حسبنا ما ذكرنا ، ونشير اشـارات عـابرة الى بعضـهم ، منهم عمرو بن سعيد الأشدق ، وكان ممن أيدوا بيعـة لأبنه يزيد فقـال :

« ان يزيد أمل تأملونه ، وأجـل تأملونه ، ان استضفتم

---

(١) مفعول بمعني المصدر فيهما ، أى أعطى قولا ولم يعط عقلا ٠

الى حلمه وسعكم ، وان احتجتم الى رأيه أرشدكم ، وان افتقرتم الى ذات يده أغناكم ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه » ٠

فقال له معاوية : أوسعت أبا أمية فاجلس ٠

ومنهم عتبة بن أبى سفيان ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن العزيز ، وولاة بنى أمية كانوا خطباء أيضا ، منهم عدا من ذكرنا : قتيبة بن مسلم ، ويوسف بن عمر ، ونصر بن سيار ٠ ومن مشهورى الخطباء فى هذا الحزب الضحاك بن قيس ، وهو أول من تكلم فى شأن تولية يزيد بايعاز من معاوية ، وجاء فى هذه الخطبة :

« أصلح الله الأمير وأمتع به ٠٠ انا قد بلونا الجماعة والألفة ، والاختلاف والفرقة ، قد رأينا من دعة يزيد ابن أمير المؤمنين وحسن مذهبه وقصد سيرته ويمن نقيبته ، مع ما قسم له الله من المحبة فى المسلمين والشبه بأمير المؤمنين فى عقله وسياسته ٠٠ ما دعانا الى الرضا به فى أمورنا ، والقنوع به فى الولاية علينا ٠ فليوله أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عهده ، وليجعله لنا ملجأ ومفزعا بعده » ٠

وقد كثر الخطباء المنتمون الى هذا الحزب لنجاحه فى الاستيلاء على الحكم ولطول مدته ، فبعد استقرار معاويه لم يعد ثم الا خطباؤه وخطباء الخوارج ، وخطباؤه أكثر ، لكن خطباء الخوارج أبلغ وأخلص ٠

مقاصد الخطبة الأموية

كان المقصد الأساسى للخطبة الأموية هو تثبيت الحكم الأموى ، وللوصول الى هذا الغرض كانت تحوم حول عناصر معينة ، أهمها ذكر مزايا الامويين وما لهم من فضل على رعاياهم ، ثم الحط من شأن على وانصاره ، وفى عهد معاوية لم يكن له خصوم غير الشيعة والخوارج ، ولكن الخوارج لم يكن نبه شأنهم ولا أصبحوا ذوى خطر يهدد العرش الأموى ، لهذا كان معاوية يعنى بالتركيز على اهانة على والحط من قدره ،وكانوا يتخذونى من ذكر عثمان وظلمه ممن اعتدوا عليه ودمه الضائع وسيلة للنيل من على وبيان أنه هو المسئول عن هذا الدم المهدور والخليفة المعتدى عليه، ويستدعى هذا أيضا أن يذكروا ما كان لعثمان من أياد على الاسلام ، وما كان له من قربى لرسول الله ، وما أثنى النبى ﷺ عليه به · كل هذا ليتخذوا من تعظيم قدره وجليل مكانته وسيلة لبيان فظاعة الاعتداء عليه ثم لابراز على فى صورة الآثم المرتكب لهذا الاثم العظيم ·

توصية معاوية للمغيرة ابى شعبة

وقد ذكر الطبرى وصية أوصى بها معاوية المغيرة بن شعبة الثقفى حين ولاه الكوفة عام الجماعة جاء فيها : «أما بعد : فان لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا (١)، وقد قال المتلمس » :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا
وما علم الانسان الا ليعلما (٢)

---

(١) « ما » فى « ما تقرع » مصدرية ، أى لذى الحلم وحده قرع العصا، والحلم : الذكاءوالعقل ، ومن الامثال العربية : « ان العصا قرعت لذى الحلم » ـ قيل كان عامر بن الظرب أحد حكام العرب الحصفاء ، فلما شاخ أنكر من عقله شيئا ، فأوصى بنيه أن يقرعوا له العصا بالمجن اذا حاد فيفطن ·

(٢) علم ليستفيد من علمه ·

وقد يجزى عنك (١) الحكيم بغير التعليم ، وقد أردت ايصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادا على بصرك (٢) بما يرضينى ، ويسعد سلطانى (٣) ، وتصلح به رعيتى ، ولست تاركا ايصاءك بخصلة : لا تتحم (٤) عن شتم على وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب على أصحاب على ، والاقصاء لهم (٥) ، وترك الاستماع منهم »٠

سب على واهل الكوفة

فمعاوية يعلن فى هذه الوصية أنه ترك أشياء كثيرة تستحق أن يوصيه بها ، ولكنه تركها اعتمادا على فطنته وذكائه ، أما شتم على وأصحابه وتزكية عثمان وعمله فمما لا يفوته أن يذكره به ، ثم كان هذا دستورا للأمويين جميعا ، ونجد المغيرة بن شعبة شديد الالحاح فى سب على واهانته والحط منه ، هذا مع علمه بأن الكوفة تحوى أنصار على ، ومنها نبت المذهب الشيعى ، ثم نجد الأمويين خلفاء وولاة يلعنون عليا فى خطب الجمعة ، ووقف ذلك عمر بن عبد العزيز زمن حكمه ، لكنهم رجعوا اليه بعده ، ويتغالى ولاة الأمويين أحيانا فيسبون البلاد والشعوب التى كانت تساعد عليا ، وهذا أكثر وضوحا فى خطب الحجاج وزياد ٠ وكانت اهانة هذين تقترن بالتهديد والوعيد ، ومن ذلك قول الحجاج : « انى لأرى رؤوساء قد أينعت وحان قطافها ، وانى لصاحبها ، وكأنى أرى الدم بين العمائم واللحى ٠

وقد مرت خطبة زياد البتراء ، وما فيها من تهديد مزلزل للقلوب ٠

وربما كان معاوية — واضع دستور الأمويين — من شتم على وتهديد الرعية ان خرجت على الحاكم ، أقل تهديدا من

(١) الخطاب لكل شخص ، أى قد يؤدى عن المرء شخص لم يوصه بشىء
(٢) علمك بما أحب ٠ (٣) يجعل حكومتى قوية ٠
(٤) بوزن تتعدى ، بمعنى لا تحد ولا تتحاش ٠
(٥) ابعادهم اهانة لهم ٠

الآخرين ، وقد قال لزياد : لا ينبغى أن نسوس الناس سياسة واحدة ، ولكن تشتد أنت وألين أنا · لهذا نجد تهديده عاما اذ يقول مثلا : اياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة · ويقول عتبة بن أبى سفيان لأهل مصر : « اياكم أن تكونوا للسيف حصيدا ! » ·

ومن المقاصد الشائعة فى الخطبة الأموية أن يذكر الخليفة أنه دون ما يرجو منه وما يرجو من نفسه · ودون ما تتطلب المثالية ، ولكنه أفضل من غيره ، وأحسن ما يمكن أن يكون فى وقته · ولعل بنى أمية كانوا يفعلون ذلك قطعا لألسنة الناقدين ، فهم يسلمون بأنهم دون الكمال ولكنهم خير من غيرهم ، نجد هذا فى أول خطبة ألقاها معاوية اذ قال : فان لم تجدوا فى خيركم ، فانى خير لكم ولاية ، وفى آخر خطبة له قال : لا يأتيكم بعدى الا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى الا من كان خيرا منى ·

وفى جميع عناصر الخطبة ومقاصدها تستند الى جانب دينى ، وأسلوب وعظى يرغب فى الآخرة وينفر من الدنيا أو يهون من شأنها ، هذا ليظهروا أمام الناس أنهم يعملون فى حقل الدين ولا يبتعدون عن حظيرة الاسلام ·

تطور الخطبة الاموية

اذا نحن وازنا بين الخطبة الأموية وخطب الخلفاء الراشدين وعهد النبوة نجد أن التطور الذى نال الخطبة واسع جدا ، طالت بعض الاطالة ومع اشتمالها على عنصر دينى لم تعد دينية الا نادرا ، وسنجد هذا يستمر حتى آخر العهد الأموى ، وينتقل أيضا الى العهد العباسى ·

وقد ذكرنا هذه الميزات ونحن لما نتجاوز عهد معاوية لنرى أنه رائد هذا المنهج ، وانها سياسة له قلده فيها خلفاؤه ·

خطبة يزيد بن الوليد بعـد قتل الوليد بن يزيد

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعـد أيها الناس ٠٠٠

انى ما خرجت أشرا ولا بطرأ ، ولا حرصـا على الدنيا ولا رغبة فى الملك ، وما بى اطراء نفسى ، ولا تزكية عملى، وانى لظلوم لنفسى ان لم يرحمنى ربى ، ولكنى خرجت غضبا لله ودينه ، وداعيا الى كتابه وسنة نبيه ، حين درست معالم الهدى ، وأطفىء نور أهـل التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة ، والراكب البدعة ، والمغير السنة ٠ فلما رأيت ذلك أشفقت اذ غشيتم ظلمـة لا تقلع ، عـلى كثير من ذنوبكم ، وقسوة من قلوبكم ، وأشـفقت أن يدعو كثيرا من الناس الى ما هو عليه ، فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله فى أمرى ، وسألته ألا يكلنى الى نفسى ، وهو ابن عمى فى نسبى ، وكفئى فى حسبى ، فأراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ولاية من الله وعزما ، بلا حول منا ولا قوة ، ولكن بحول الله وقوته ، وولايته وعزته ٠

أيها الناس ٠٠٠

ان لكم على ــ ان وليت أموركم ــ ألا أضع لبنة على لبنة، ولا حجرا على حجر ، ولا أنقل مالا من بلد الى بلد ، حتى أشد ثغرة وأقيم مصالحه ، مما تحتاجون اليه وتقوون به ، فان فضـل شىء رددته الى البلد الذى يليـه ، وهو أحوج البلدان اليه ، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ، ولا أحمركم فى بعوثكم فتفتنوا وتفتن أهاليكم ، فان أردتم بيعتى على الذى بذلت لكم فأنا لكم به ، وان ملت

فلابيعة لى عليكم ، وان رأيتم أحدا أقوى عليها منى فأردتم بيعته فانا أول من يبايعه ، ويدخل تحت طاعته ٠

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ٠

وقد كان الوليد بن يزيد على شاكلة أبيه يزيد بن عبدالملك، مجونا وتفانيا فى الشراب وحب الغناء ، وكرهه الناس وأغروا به يزيد ، وقتل بقرية كانت تدعى البخراء ، على بعد ثلاثة أيام من مدينة تدمر ، ومع أن عددا كبيرا من الناس كانوا قد بايعوا يزيد أو اتفقوا معه على البيعة سرا قبل أن يقتل الوليد يبدو عليه التردد ، ومحاولة استجلاب الناس نحوه ٠

وفى هذه الخطبة تبدو ثلاثة عناصر أساسية ٠

تزكية عمله وتبرير ثورته على الوليد ، وفى هذا وصفه بأنه بدعى خارج عن السنة ، وأنه كان يخشى منه أن يفسد الآخرين ، ثم بذله الأمانى للشعب من ذكره توفير حاجياتهم واستشارتهم فى كل أموره وعدم تجميد الجيش ـ المحارب ـ أى عدم اطالة غيبته ، حرصا عليه وعلى ذويه ، وأخيرا اظهاره عدم التهافت على الخلافة ، وأنه على استعداد لأن ينخلع عنها اذا رأوه قد حاد عن حدود الدين ، أو كان هناك من هو أليق لها منه ٠ ولعله لم يكن فى حاجة لكل ذلك ، لأن الناس كانوا قد كرهوا الوليد وملوه ٠ وكان يزيد يشتهر بالنسك ويؤمل الناس فيه الخير ٠

ومع ذلك أنقص رواتب الجيش ـ وكان يلقب بالناقص لهذا ـ وكانوا يقولون : «الأشج والناقص أعدلا بنى أمية » ٠ والأشج هو عمر بن عبد العزيز ٠

ويزيد بن الوليد ابن أميرة فارسية ، هى ابنة كسرى يزدجرد ، لم تلد للوليد غيره ، وكانت ولايته خمسة شهور وأياما · توفى سنة ١٢٦ هـ ·

وكانت الدولة قد آذنت بالشيوخة والضعف ، فقد بايع يزيد هذا لأخيه ابراهيم بن الوليد ، فلم تطل مدته الا شهورا ثم جاء بعده مروان ابن محمد بن مروان ، وكان حازما شهما بليغا ، ولكن الدولة كانت قد أدبرت عن بنى أمية ، وانتشرت الدعاية والفتن ضدهم ·

ولسنا بحاجة للبحث عن خطب أخرى فى هذا العهد ، وحسبنا ذلك من العصر الأموى أزهى عصور الخطابة العربية جميعا ·

سبب قيام الاحزاب

لكى نتعرف منهج الخطباء الذين كانوا يناوئون بنى أمية نستعرض أسباب قيام هذه الأحزاب ، والمبدأ الذى قام عليه كل حزب ، لأن خطبهم كانت تدور حول هذه المبادىء لتزكيها وتشرحها ثم تدحض مبادىء الآخرين وتهونها فى نفوس الناس ، ونحن قد رأينا من قبل عناصر العداء القديم المستحكم بين بنى أمية وبنى هاشم ، وقد ظل هذا العداء قائما بين أبى سفيان وبين رسول الله ﷺ أكثر من عشرين عاما حتى أكره أبو سفيان على الخضوع للدين الجديد ولنبيه يوم فتح مكة وحتى اللحظة الأخيرة كان من الصعب عليه أن يقر بنبوة محمد ﷺ ، ولما محا الاسلام من نفوس الأمويين وأنصارهم آثار الشرك ظلت نفوسهم تتطلع الى الرياسة وتصبو الى المناصب العليا ،ولكن لم يكن لأى منهم ــ وقد دخلوا الاسلام آخر من دخل ــ أن يكون خليفة للمسلمين ، وكانوا دائما يتشبثون بعثمان بن عفان لسابقته فى الاسلام وصلته برسول الله ﷺ ٠ فلما آلت اليه الخلافة فرحوا بها وحرصوا على بقائها فيهم،وهذا كله بينما كان على بن أبى طالب يتطلع الى الخلافة منذ وفاة رسول الله ، وكان عمه العباس يسانده فى هذا،حتى انهما دخلا على رسول الله ﷺ فى مرض موته،فأدرك العباس أنه ميت،فلما خرجا طلب من على أن يسئله لمن الأمر من بعده،ولكن عليا استحيا ولم يفعل، فلما اختير أبوبكر خليفة تردد فى بيعته(١) لأنه كان يرى أنه أحق بها لقرابته وصهره لبنى الاسلام،ثم بايع أبو بكر عمر فصدم على ثانيا ٠ وقال أبو سفيان عنه وعن عمه العباس : ما فعل المستضعفان ؟ ٠ ولما قلدهما عثمان قال على : والله

التطلع الى الخلافة

(١) الامامة والسياسة ٤٨/١ ، ومروج الذهب ٣٠٩/٢ ٠

ما هذه أول مرة تتآمرون علينا ، ولما غضب الناس على عثمان وقامت حوله الثورات قدم معاوية من الشام فأتى مجلسا فيه من كبار الصحابة على وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر فهددهم وأوصاهم بعثمان وقال : « لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا » • ثم عرض على عثمان أن يقتل هؤلاء أو يشتتهم ، فنفر عثمان • فقال له : اجعل لى طلب بدمك ان قتلت • قال عثمان :نعم هذه لك ، ان قتلت فلا يطل دمى(١) • فلما بويع على بالخلافة بعد عثمان امتنع معاوية عن البيعة وقال : ابلعونى ريقى ، انها ليست بخدعة الصبى عن اللبن ، ثم قامت الحرب بين على وبينه ، فكان أبرز ما فيها أن عليا يمتاز بالشجاعة والصراحة واللين،وأن معاوية يمتاز بالدهاء والعمق ، وكان جيش معاوية طيعا يؤمر فيأتمر ، وينهى فينتهى ، لا يسأل لماذا أمر ولا لماذا نهى ، بينما كان جيش على شريكا فى الرأى منقسما فى وجهات النظر حتى أفسد عليه رأيه بالعصيان وعقب هزيمة معاوية يوم صفين رفعوا المصاحف على الرماح وقالوا : نحكم القرآن ، وأدرك على أنها خدعة ولكن فريقا كبيرا من قومه أصروا على التحكيم ، بينما قال جماعة منهم انه كفر ، هذا لأنه خليفة شرعى ولا يصح أن يحكم فى أمر ثبت له بحكم الشريعة ، وانتهى التحكيم بخدعة ثبت فيها عمرو معاوية بعد أن خلع أبو موسى الأشعرى عليا ، وعلى اثرها تسمى معاوية أمير المؤمنين ، وعادت الحرب جذعة،ولكن أصبح لعلى خصمان ، لأن الذين رفضوا التحكيم من أول الأمر اعتبروا عليا كافرا وحاربوه ، وربح معاوية بهذا الموقف ربحا مضاعفا •

موقف معاوية

---

(١) الامامة والسياسة ص ٥٣ ــ وطل دمه أى أهدر بدون دية أو قود •

ولما بايع معاوية ابنه يزيد ، أبى أبناء الصحابة الكبار : الحسين بن على ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عباس، وعبدالرحمن بن أبى بكر أن يبايعوا ، ثم قام الحسين بثورة قتل فيها ، فقام بعده عبدالله بن الزبير يطالب بالحكم ، وأقرأ لـه بالخلافـة أكثر المسلمين وأكثر أقاليم الدولـة ، لكنه كان كعلى بن أبى طالب رجل شجاعـة وسنة ولم يكن رجل سيأسة ودهـاء ، وكان خصـمه عبدالملك بن مراون صنو معاوية فى دهـائه وعمق سياسـته ، استعمل ـ كما فعل معاوية ـ المال فى تأليف الرجال ، ورمى ابن الزبير بالحجاج فقتله ، وقام ابن الأشعث بحركة أخرى فانضم أولا الى ابن الزبير ثم اعلن المطـالبة بدم الحسين فانضم لـه عـدد من الشيعة ، ثم دعا لنفسه ، وكانت حركته اقل من حركـة ابن الزبير اثرا ولكنها ضايقت الخليفة الأموى فترة من الزمن ثم قضى عليه · وبقى الخوارج اذا قضى على داعية منهم قام آخر وحديثهم متشعب طويل ·

توليد يزيد العهدواستهواء بالمال

من هذا العرض السريع نتبين وجهة الخطابة لكل فريق· والعناصر الهامة التى يمكن أن يدور عليها حديث كل خطيب·

وقد كان حزب على أقوى الأحزاب ولكنه قضى عليـه سريعا ، وظل حزب الخوارج هو الشوكة الدامية وأيضـا السيل المتدفق من الخطابة ، ولم يقض عليه الا فى العصر العباسدلأ ·

(أ) الحـزب العـلوى

آلت الخلافة الى على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان ، وبعد الثورات التى قامت ضد عثمان فى أواخـر أيامه ، وكان قتله متوقعا ، ويتحمل الأمويون أقـاربه مسئولية الموقف المتأزم بين عثمان والثائرين عليـه · فمروان بن الحكم هو الذى زور الخطاب بقتل محمد بن أبى بكـر ،

وأثار ثائرة الناس على الخليفة ، وقد حضر معاوية من الشام ولم يعمل له شيئا سوى أن حمل عليا ومن معه مسئولية دم عثمان ثم عاد الى الشام ٠

وبعد قتل عثمان دعا الزبير بن العوام الى مبايعة على وذهب اليه مع جمع فى بيته فأبى على أن يقبل البيعة ، وقال : ليس ذلك اليكم ، انما هو لأهل الشورى وأهل بدر، فرجعوا ، ولكنهم قالوا يمضى قتل عثمان ولا خليفة فيثور كل رجل فى ناحية ، ولو صارت تولية على مع قتل عثمان أمنت الفتنة ، فأصروا على مبايعة على وضموا اليهم ابشتر النخعى وعادوا الى على يخوفونه الفتنة حتى قبل ومد يده ٠ ثم أتوا طلحة فأبى بيعته وقال حتى يجتمع أهل الشورى ، فأخذوا به الى على فبايع بلسانه ومنعه يده ٠ ثم ذهبوا بعلى الى المسجد ، فكان طلحة أول من مد يده لبيعته ، وكانت له أصابع مشلولة فتطير منها على ، ثم غضبت عليه عائشة (رضى الله عنها) وكانت غاضبة على عثمان من قبل ، وكتب سعد بن أبى وقاص لعمرو بن العاص اذ سأله عمن تولى كبر عثمان : انه قتل بسيف سلته عائشة وصقله طلحة ، وسمه ابن أبى طالب ، وسكت عنه الزبير وأشار بيده وأمسكنا نحن ولو شئنا دفعنا عنه٠

وكان الكثير يتوقعون معارضة معاوية اذ جاءت بيعة على من كل مكان الا الشام ولم يقبل معاوية تولية على اياه الشام ولا وجد على من يتولاه ، ثم انتكث عليه الزبير وطلحة ، ثم نجمت الفتنة تحرك قرونها ، وكان مع على كثرة ، ولكن معاوية كان أكثر دهاء وأعمق سياسة ، ويرى الكثيرون أن معاوية ما ترك عثمان فى ورطته الا وهو يتوقب الخلافة لنفسه ٠ وانضم الى على عدد كبير من الصحابة وكان الأنصار معه الا أفرادا ، ولكن لما قامت

الحرب كان معاوية أحزم وفى جيش أطوع، وكان على ألين وفى جيش متفرق الكلمة متشعب الرأى، واستدعت المواقف الكثيرة المتضاربة من على بيانات وتوجيهات وردودا على المعارضين ، لهذا كثرت خطب الامام ، وكان رضى الله عنه بالغ القدرة فى الخطابة حوله عدد ممن يجيدون الخطـابة أيضا ، ولم يمت هذا الحزب باستيلاء معاوية نهائيا ، بل الشيعة يعملون سرا تارة وجهرا أخرى ، وانضـم اليهم بنو العباس حتى تقوض العرش الأموى فظفر العباسـيون بالحكم دون العلويين ، وظل الشيعة يناضلون مرة ثانيـة حتى قامت لهم فى القرن الرابع دولة صدقها بعض وكذبها بعض وهى دولة الفاطميين •

خطباء الحزب العلوى

١ ـ على بن أبى طـالب

أشهر هؤلاء على الاطلاق هو على بن أبى طالب ، بل هو أشهر خطباء هذا العصر كله ، كان رضى الله عنـــه فصيح اللغة قوى التعبير واسع المعانى قوى الحجة ، وقد تعرض لمواقف خطابية عديدة لكثرة خصومه ومعــارضيه ولازدحام الأحداث فى حياته ، ما كادت تتم بيعتـــه حتى عارضه طلحة والزبير ، واستثارا أم المؤمنين عائشــة ـ رضى الله عنها ـ فكانت موقعة الجمل التى استنفدت قدرا من طاقته ، وفيها ألقى عددا من الخطب · ثم كانت حــرب معاوية فى صفين ، ثم حروب الخوارج · وفى كل ذلك ألقى الامام عديدا من الخطب ، ثم له خطب أخرى دينية ووعظية وهكذا نجد له خطبا كثيرة وبليغة · وقد جمعت خطبه فى كتاب نهج البلاغة جمعها الشريف الرضى ـ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى ـ وضم اليها كتبه ومواعظــه وحكمه · وقدم لكتابه بمقدمة قال فيها ان مجموعة هـــذا « يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ،وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ، مالا يوجـــد مجتمعا فى كلام ولا مجموعا فى كتاب » ·

وحقا لا يوجد لأحد من مأثور الخطب والمكاتبات مايصل الى هذا الحد ، والكتاب ليس كل كلامه ، ولكنه مختار من آثاره الأدبية · لهذا أبدى الكثيرون شكوكا واتهامات لهذا الكتاب ، قيل ان الشريف الرضى ألف كثيرا من هذه الخطب ونحلها للامام · وقيل ان عديدا من الشيعة صنعوا ذلك فى أوقات مختلفة قبل مجىء الشريف الرضى ، وقد شرح

هذا الكتاب ابن أبى الحديد شرحا واسعا وأفاض فى الثناء على بلاغة الامام وفصاحته ، وتعرض لنسبة نهج البلاغة اليه فأنفق جهدا غير قليل فى تأكيد نسبته اليـــه ، ولكن هناك خطبا تبعد كل البعد عن ذوق العصر الذى عاش فيه الامام ، ومهما يكن من شأن هذا الوضع فان القدر الصحيح المقطوع بصحته أو الذى لا مجال للطعن فيه قـــدر كبير لا يوجد مثله لأى خطيب آخر فى هذا العصر ٠

ومقدرة على فى الخطابة معروفة ، وقال عنه الحارث الأعور : والله لقد رأيت عليا وانه ليخطب قاعدا كقائــم ومحاربا كمسالم ٠ يريد بقاعد خطبة النكاح (١) ٠

وخطب الامام ناصعة الأسلوب قوية الحجة عميقــة المعانى ٠ وخطبه الدينية أو الصوفية ذات أثر قــوى فى نفوس قارئها ٠ قال ضرار الصدائى : انه رآه فى بعض لياليه ماثلافى محرابهيتململ تململ السليم(٢)،ويبكى بكاء الحزين وهو يقول : « يا دنيا غرى غيرى ألى تعرضت أم الى تشوقت ؟ هيهات هيهات ٠ لقد طلقتك ثلاثا لا رجعــة بعدها ، أملك طويل وأجلك قصير ! آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !! ٠

وورع على وتقواه وحرصه على اقامة السنة فىمقابلة ما يبذل الأمويون من بيت المال لاستجلاب الأنصارواسكات الأعداء كان ذا أثر كبير فى فقد على عـــددا من رجاله وخسرانه المعركة وكانت له ٠ فالصوفية أو الدعــوة الى العمل للدار الآخرة كانت فى على خلقا وطبعا ، وتعبيره عنها يفيض بالصدق وحرارة العاطفة ٠

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١١٨ ، ـ والحرث الأعور من رجـال علي فى صفين كان جهير الصوت كالعباس بن عبد المطلب ٠

(٢) السليم الملدوغ ٠

والامام على ينسب اليه شعر حكيم قوى ممـــا يؤيـد مقدرته الكلامية وأصالة البلاغة فى لسانه ، ولكن كثيرا من هذا الشعر مصنوع ٠

ومن مكوناته «الأدبية أنه من قراء القرآن ومفسريه ، وكان الصحابة الكبار يلجأون اليه لحل المشكلات الفقهية والقضائية ، وكان يحلها معتمدا على درسه القرآن وفهمه أسراره ، وكان من أقضى الصحابة وأبصرهم بمســـائل الحدود ، ولا يفضله فى علم الميراث الا زيد بن ثابت الذى قال فيه رسول الله ﷺ : أفرضكم زيد (١) ٠

هذا وقد قدمنا نموذجا للخطبة الكاملة من كلام الامام، وخطب أصحابه يوم صفين فقال :

---

(١) كان الامام سريع البديهة جدا فى حساب الفرائض ، وقد جاءته فتاة وقالت له : مات أخي عن ستمائة دينار فلم أعط منها الا دينارا واحدا فقال ــ رضى الله عنه ــ لعله مات عن زوجة وبنتين وأم واثنى عشر أخـا وأنت ، قالت : نعم ، فقال ذاك حقك الذى يخصك ٠ وأنت اذا قسمت هذه التركة بين الورثة عدا الأخوة وجدت للزوجة ١ / ٨ ، وللبنتين ٢ / ٣ وللأم ١ / ٦ ، وبقى ١ / ٢٤ للاخوة ولكى تحوله الى عدد صحيح للذكر ضعف الأنثى ضربت المقام ٢٤ × ٢٥ فيصر ٦٠٠ للأخت منها ١ / ٦٠٠ ٠

وهناك مسألة أخرى تسمى الحيدرية نسبة اليه اذ كان يسمي حيدرة، كما تسمى المنبرية ، فقد سئل وهو علي المنبر عن ميراث زوجة وأبوين وابنتين ، وكان قد بدأ خطبته فقال : الحمد لله الذى يحكم بالحق قطعا ، ويجزى كل نفس بما تسعى ، واليه المآب والرجعى ، فوقف بعض الناس وسأله هذه المسألة ، فقال على الفور : صار ثمنها تسعا ، لأن المســألة عالت الى سبع وعشرين بدلا من أربع وعشرين ، فيصير نصيب الزوجة ٣ / ٢٧ بدلا من ٣ / ٢٤ ــ فصار نصيبها وهو الثمن ١ / ٩ ٠

وقال الشعبى فى هذا : ما رأيت أحسب من علي ٠

بعثه النبى ــ صلي الله عليه وسلم ــ الى قاضـــيا الى اليمن وهو شاب ، فقال : ما أدرى ما القضاء ، فضرب رسول الله فى صدره وقال : اللهم اهد قلبه وسدد لسانه ، قال على : والله ما شككت بعد فى قضــاء اثنين ٠

أيها الناس : ان الموت طالب لا يعجزه هـــارب ، ولا يفوته مقيم ، أقدموا ولا تنكلوا ، فليس عن الموت محيص ، والذى نفس ابن أبى طالب بيده ان ضربة سيف أهــون من موت الفراش ٠

أيها الناس : اتقـــوا السيوف بوجوهكم ، والرماح بصدوركم ، وموعدى واياكم الراية الحمراء ٠

ولما دبر الخوارج قتل على ومعاوية وعمرو ، كان عبد الرحمن بن ملجم هو المنوط به قتل على ، وكان للاشـعث الكندى أصبع فى مقتله ، فقد رتب ابن ملجم أن يقتله عند خروجه من بيته لصلاة الصبح ، فقضى ليله عند الأشعث، وقد سمعه حجر بن عدى يستنهضه ويقول له : فضـــحك الصبح ، فلما أشيع قتل الامام قال حجر للاشعث : أنت قتلته يا أعور ٠

وآخر كلام للامام على وهو وصيته أبناءه بعد أن ضرب فقد أغشى عليه وهم بجانبه ، فلما أفاق التفت الى الحسن والحسين ، وبجانبه محمد ابن الحنفية فقال لهما :

« أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخـير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عـــونا » ٠ ثم التفت الى محمد فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى٠ قال فانى أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما ، ثم أقبل ثانيا على الحسن والحسين فقال : أوصيكما به خيرا ، فانه أخوكما وابن أبيكما ، وانتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه ٠

على فى نظر معاوية :

كان معاوية يقر لعلى بكل فضائله ، ولكنه كان يحرص على انتقاصه حتى بعد موته ، وذلك كيلا يذكـــــر الناس محاسنه ومزاياه فيتعاطفوا مع شيعته ، كان معاوية صادقا كل الصدق حين قال للحسن بن على : انكم أهل علم وعبادة ولكن لا علم لكم بالحكم ·

وقد قدم عبد الله بن أبى محجن الثقفى على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين انى أتيتك من عند الغبى الجبان البخيل ابن أبى طالب · فقال معاوية : لله أنت ، أتدرى ما قلت ؟ ·

أما قولك الغبى فوالله لو أن ألسن الناس جمعت فجعلت لسانا واحدا لكفاها لسان على · وأما قولك : انه جبـــان فثكلتك أمك ! هل رأيت أحدا قط بارزه الا قتله · وأما قولك انه بخيل · فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن لنفد تبره قبل تبنه ·

فقال الثقفى : فعلام تقاتله اذن ؟ ·

وسأل معاوية ضرارا الصدائى ان يصف عليا ، فوصف ورعه وتقواه وطول تهجده · فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، لقد كان كذلك ·

فمعاوية لا ينكر من صفاته الا صلاحيته للحكم ، فيرى نفسه أصلح منه ، وكثيرون من أتباع على جبهوا معـــاوية بأنه طالب دنيا وعلى طالب آخرة ، وبأنه حاد عن قانون الله ، حتى السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت له مثل ذلك · ولكن معاوية كان يحسن الى اتباع على ولا يـــرى

داعيا لاهانتهم أو للانتقام منهم ، ولا يكف عن شتم على ولعنه من فوق المنبر ، وكان هذا عملا من أعمال السياسة .

وكان معاوية فى هذا كله أذكى من عبد الله بن الزبير الذى انتقص بنى هاشم وسجن جماعة منهم ، كما سيأتى ذلك بعد .

٢ ـ الحسن بن على

ولد الحسن ـ رضى الله عنه ـ فى السنة الرابعة من الهجرة ، نشأ وتربى تحت يد رسول الله ﷺ وسمعه وبصره وكان يحبه هو والحسين حبا جما ، وكان الحسن أشبه الناس بجده ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وروى عن الحسن عدد من الصحابة ، وممن روى عنه أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ . وقال عنه النبى ﷺ: ان ابنى سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين وتوجد نصائح مأثورة مما لقنه أبوه الامام على ، وكان الحسن هادئا رزينا صائب الرأى بليغ العبارات .

لما قتل الامام على أقبل الناس يبايعون الحسن فقال : أبايعكم على السمع والطاعة ، وأن تحاربوا من حاربت وتسالموا من سالمت . فارتابوا وأمسكوا أيديهم ، وقبض هو يده ، فذهبوا الى الحسين فقالوا : نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب الضالين أهل الشام . فقال : معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحسن حيا . فانصرفوا الى الحسن ولم يجدوا بدا أن يبايعوه على ما اشترط (١) . وتمت بيعته فى رمضان سنة أربعين ، وكتب اليه عبد الله ابن عباس رسالة جاء فيها : « اشدد عن يمينك وشمر للحرب،

---

(١) انظر الامامة والسياسة ١ / ٢٨٥ .

وجاهد عدوك واستر من الظنين ذنبه بما لا يثلم دينك ، واستعمل أهل البيوتات تستصلح عشائرهم ... » .

وكان الحسن أكره الناس للفتنة ، ولهذا كره استمرار الحرب مع معاوية ، فعقد معه صلحا ، ولم تهرق فى عهده محجمة من دم ، التقى جيشاهما فنظر اليهم الحسن أمثال الجبال فى الحديد . فقال أضرب بعض هؤلاء ببعض فى ملك من الدنيا لا حاجة لى به ؟ فبايع معاوية على أن يجعل له العهد من بعده، فنفر أصحابه .فقال لهم : أنتم بايعتمونى على السمع والطاعة ، فكانوا يقولون له : يا للعـــار . فيجيب : العـار ولا النار . وما زال بآله وأصحابه حتى قبلوا ما عاقد عليه معاوية .

ومات الحسن فى السنة الخمسين . وكان قد أوصى أن يدفن مع جده فى بيت عائشة ، فمنعه مروان بن الحكم. وكان الوالى على المدينة سعيد ابن العاص ، فصلى عليه ودفن بالبقيع . وقيل أنه مات مسموما .

ولما تم صلحه مع معاوية صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس : ان الله هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وكانت لى فى رقابكم بيعة تحاربون من حاربت ، وتسالمن من سالمت ، وقد سالمت معاوية وبايعته ، فبايعوه، وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين .

وأشار الي معاوية .

وحاول سليمان بن صود (١) سيد أهل العراق ورأسهم

---

(١) هو سليمان بن صرد بن أبي الجون . من خزاعة . كان اسمه يسارا . فغيره النبى (صلي الله عليه وسلم) ، شهد صفين مع على =

ـ وكان غائبا عن الكوفة وقت البيعة ـ أن يغرى الحسن بالنكوص فى بيعته ، ولامه على أنه لم يأخذ عليه كتابا ويشهد عليه . وقال : ان معاوية سيقول ما كنت أردت بذلك الا اطفاء الفتنة . وأراد الذهاب الى الكوفة لاخراج عامل معاوية ، فقال الذين حضروا جميعا : ابعث سليمان وابعثنا معه ، فلم يوافقهم الحسن رغم حماسهم واستعدادهم للحرب ، ولكنه قام فخطبهم فقال :

... أما بعد فانكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة ، والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ولو كنت بالحزم فى أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأسا ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيى غير ما أردتم ، ولكنى أشهد الله واياكم أنى لم أرد بما أردت الا حقن دمائكم ، واصلاح ذات بينكم . فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر لله والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم ، حتى يستريح بر ، أو يستراح من فاجر ، مع أن أبى كان يحدثنى أن معاوية سيلى الأمر ، فوالله لو سرنا اليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ، ان الله لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ... » .

ولم يؤثر عن الحسن خطب كثيرة ، لأنه لم تطل خلافته الا شهورا سبعة وسبعة أيام ، وظل معاوية طوال حياته يكرمه ، بينما ظل الأمويون ومن تبعهم ، وخصوصا عمرو ابن العاص يتحرشون به ، ولكنه كان فصيحا قوى الحجة

= وهو الذى قتل جيوشا مبارزه . وكاتب الحسين بعد ذلك ثم تخلف عنه، ثم كان من الذين خرجوا يطلبون دمه ، وكانوا اربعة آلاف ، وكان ممن قتلوا بعين الوردة سنة ست وخمسين . وكان عمره ثلاثا وتسعين ، وحمل راسه الى مروان ابن الحكم .

يتغلب عليهم كما ترى فى الحوار الذى دار بينهم • على ان معاوية كان يتمنى موته كى يتم بيعة ابنه يزيد •

ولما مرض الحسن مرضه الذى مات فيه ــ وكان ذلك فى السنة الخمسين ، أى بعد تنازله لمعاوية بعشرة أعوام ــ كتب عامل المدينة الى معاوية يخبره بشكاته ، فكتب اليه معاوية : ان استطعت ألا يمر يوم الا يأتينى فيه خبر عنه فافعل ، فلم يزل يكتب اليه بحاله حتى توفى •

وهذا يبين مدى ما كان لمعاوية من رغبة فى التخلص منه ، فلما أتاه خبر موته خر ساجدا ، وكان عبد الله بن عباس بالشام ، فحضر الى معاوية أو هو استدعاه ، فقال: « قد بلغنى الذى أظهرته من الفرح والسرور لموت الحسن، أما والله لا ينسأ موته فى أجلك ، ولا يسد حفرتك ، وما أقل بقاءك وبقاءنا بعده ! » • ثم خرج ابن عباس ، فرأى معاوية أن يبعث اليه يزيد يعزيه ، فجلس يزيد بين يديه واستعبر لموت الحسن ، فلما قام أتبعه ابن عباس بصره وقال : « اذا ذهب آل حرب ذهب الحلم من الناس » • يتعجب من دهائهم •

ومن خطب الحسن المعروفة خطبته حين اختلف الناس على أبيه بعد واقعة التحكيم ، قال له أبوه : قم يا حسن فقل فى هذين الرجلين ــ عبد الله ابن قيس ، وأبى موسى الأشعرى ــ وعمرو بن العاص ، فقام الحسن فقال :

« أيها الناس : انكم قد اكثرتم فى هذين الرجلين ،وانما بعثا ليحكما بالكتاب دون الهوى فحكما بالهوى دون الكتاب ومن كان هكذا لم يسم حكما ، ولكنه محكوم عليه • وقد أخطأ عبد الله بن قيس اذ جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ

فى ثلاث خصال : واحدة أنه خالف أباه اذ لم يرضه لها و لاجعله من أهل الشورى ، وأخرى أنه لم يستأمره فى نفسه ، وثالثة أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الامارة ويحكمون بها على الناس ٠ وأما الحكومة فقد حكم النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سعد ابن معاذ فى بنى قريظة ، فحكم بما يرضى الله به ولا شك ، ولو خالف لم يرضه رسول الله ٠

فأخذ بهذا الحديث أقطار المعارضين ، بين جواز التحكيم وخطأ المحكمين ٠

وكان الحسن بعيد النظر فى السياسة . ولعل والده لو أخذ برأيه أثناء الفتنة لكان للاحداث مجرى غير الذى حدث ، ولرجحت كفة العلويين دون نزاع ٠ فقد أشار عليه أولا أن يركب راحلة ويلحق بمكة فلا يتهم بشىء من أمور عثمان ، وهذا ما فعله معاوية اذ رجع الى الشام ، ولب الحسن من أبيه ألا يبايع الا على بيعة جماعة ، كما أمره حين خالف عليه طلحة والزبير ألا يكرههما على البيعة ، ولا يحارب من أجلها ، بل زاد أن طلب منه أن يتخلى عنها ويقبل الناس من بيعتهم ٠ وقال له : لو تشاوروا عاما ما زويت عنك ولا وجدوا منك بدا ، ولكن عليا لم يطعه ٠ وقال : أحارب من عصانى بمن أطاعنى ٠

وكان رضى الله عنه مقدرا من ذويه وأعدائه على السواء ٠

خطباء علويون آخرون

هناك خطباء عديدون ينتمون الى حزب الامام على ، لكنهم جميعا تنبهم خطاباتهم بجانب خطب الامام الكثيرة

البليغة ، ومن ناحية أخرى لم يستقر لعلى ولاة قواد فى الاقاليم لمدة طويلة ، وكانت معاركه ومواقفه الخطابية مركزة فى المواقع التى شهدها بنفسه . فكان هو الخطيب الأول بوصفه رئيس الحزب وموجهه ، لكننا نستعرض أتباعه فنجد بينهم عددا كبيرا من ذوى الخطابة واللسن ، ونذكر فى مقدمتهم أبناءه ثم من الصحابة هؤلاء الاشخاص :

١ ـ الأشتر النخعى

هو مالك بن الحرث ـ كان رئيس قومه مطاعا فيهم ، وكان محبا للامام على ، شهد معه صفين وموقعة الجمل، ويقال انه شهد خطبة عمر بالجابية ، وشهد موقعة اليرموك وأصابته ضربة فسال منها القيح الى عينه فشترها ، فسمى الأشتر ، وكان من المحرضين على عثمان ، وشهد حصره . وولاه على على الجزيرة ، ثم ولاه مصر بعد صرف قيس بن سعد عنها ، وقيل بعد صرف محمد بن أبى بكر ، لكنه مات قبل دخولها ، وأكثر الأقوال أنه مات مسموما ، ولكن يختلف المؤرخون فى طريقة موته وكيف دس له السم ، فيقال ان معاوية كتب الى الخانسيار ـ وهو رجل من أهل الخراج فى العقبة ـ ان يخلصه من الأشتر ويترك له خراجه ، فدس له سما مات به . وأبلغ معاوية وعمرا موته فقال عمرو : ان لله جنودا من عسل . وقيل صحبه مولى لعثمان بن عفان يدعى نافعا ، أظهر له الود وقال انه مولى لعمر بن الخطاب ، فأدناه الأشتر ووثق به وولاه أمره فصحبه الى عين شمس فتلقاه أهل مصر بالهدايا والترحاب فسقاه نافع هناك سما .

كان الأشتر شجاعا جريئا . اشتبك مع عبد الله بن الزبير في موقعة الجمل فكان كل واحد منهما اذا قوى على الآخر جعله تحته وركب صدره ، فعلا ذلك مرارا وعبد الله يقول:

اقتـــــلانى ومالكـــــا واقتلا مالكا معى

فصارت مثلا ، وهو يريد انه مصر على قتله حتى ولو مات معه ، ولكنهما انصرفا من غير ان يقتل أحدهمـــــا الآخر ، وجاء عن ابن الزبير أنه قال : ما ضربته ضربة الا ضربنى ستا أو سبعا ، ثم أخذ رجلى وألقانى فى الخندق وقال : لولا قرابتك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو الى عضو ابدا ، وترك فى رأسه بركة لو صبت فيها قارورة لاستقرت بها وكان الأشتر شاعرا أيضا ٠

٢ ــ قيس بن ســعد

هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ، كان من ذوى الرأى والحكمة والدهاء ، كان من رسول الله ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ، وقد خـدم رسول الله ﷺ عشرين عاما ، وكان شريف النفس سيد قومه غـــير مدافع ، وكذلك كان أبوه وجده ، وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله ﷺ ويوم فتح مكـــة انتزع رسول الله ﷺ الـراية من أبيه وســلمها ايـــاه (١) ، وكـــان قيس طوالا ضـــخما حسن الهيئة ، اذا ركب حمـــارا خطت رجلاه بالارض،وكان يقول : اللهم ارزقنى مالا فانه لا يصلح الفعال الا بالمال ، وكان جوادا متلافا حتى انه كان يستدين ويطعم ، وشهد غزوة العسرة ، فكان يطعم ويستدين حتى نهاه أبو عبيدة أمير الجيش ، واستدان منه رجل ثلاثين ألفا، فلما ردها عليه أبى أن يقبلها ٠ وقال عنه النبى ﷺ : الجود من شيمة أهل ذلك البيت٠ وقال عنهأبو بكر وعمر : انتركنا

(١) ذلك لأن سعد قال : اليوم يوم الملحمة ، يوم تقط الرقبة ٠ فشكا ابو سفيان ذلك الى رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ٠ فقال : بل اليوم يوم المرحمة ، وأمر ان تكون الراية مع قيس ٠

هذا الفتى أهلك مال أبيه ، فمشيا فى الناس ، فصلى النبى ﷺ يوما فقام سعد بن عبادة خلفه فقال : من يعذر من ابن أبى قحافة وابن الخطاب ؟ يبخلان على ابنى ٠

شهد مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها ، ومع على مشاهده أيضا ، وحضر فتح مصر واختط له فيها بيتا ٠ وكان ــ كشريح وعبد الله بن الزبير ــ سناطا ليس فى وجهه شعر، وكان الأنصار يقولون : وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا ٠

ولاه الامام على مصر ، وأعطاه خطابا قرأه على الناس أول ما دخلها ، وفيه أنه ممن يرضى هدية ويرجو صلاحه ونصيحته ، وقد أحسن قيس سياسة المصريين ، وأعطى أتباع معاوية فهدأت الحال فى مدة حكمه حتى قلق معاوية وخاف سياسته فاحتال لاخراجه منها ، أرسل اليه رسلا ودس على على حتى أخرجه من مصر ، فساءت حالها بعده ، وقد أوصى محمد ابن أبى بكر بحسن معاملة المنتمين الى بنى أمية حتى تظل مصر هادئة ، لكنه لم يستجب له ، فساءت حالها وقامت بها ثورات ٠

وهناك مكاتبات متبادلة بينهوبين معاوية، حاول فيهامعاوية أن يستميله فلم يفلح ٠ ومن سياستة أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قام بمصر فنعى عثمان وطالب بدمه ، فأرسل اليه قيس : ويحك ! أعلى تثب ؟ ٠ فو الله ما أحب أن لى ملك مصر الى الشام وأنى قتلتك ، فبعث اليه مسلمة : انى كاف عنك ما دمت والى مصر ٠

وحديثه مستفيض فى كتب التاريخ ٠ وتوفى سنة ٨٥ هـ٠ وانظر مروج الذهب جـ١ ، ففيه مزيد يستحق أن يذكر ٠

(ب) حزب ابن الزبيـر

لابد لنا من المامة عـابرة بموقف عبدالله بن الزبير من أحداث السياسة فى عهد معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك، لنبرز بها صورة من صور النضال لأجل الخلافة أولا ، ثم لنرى من هذه الصـورة موضوعـات الخطـابة الزبيرية ، ومواجهتها للاحـداث التى واكبتها ، ونعرض لجـذور هذه الأحداث بدءا من عهد معاوية وبيعته ابنه يزيد ٠

معارضـة البيعة :

رأينا من قبل كيف عرض معاوية هذة الفكرة ، وكيف احتال لها ، وذكرنا أن جماعة من كبار أبناء الصحابة ومن الصحابة رفضوا هذه البيعة ، وكان على رأسهم الحسين ابن على ، وعبدالله بن العباس ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالله ابن الزبير صـاحب الدعـوة الزبيرية والحزب الزبيرى ، وقد حاج هؤلاء معاوية بحجج قوية ، كان منها ما جاء على لسان ابن الزبير ، وهو :

« ان رسـول الله ﷺ قبض فترك الناس الى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر وهو أقصى قريش منه نسبا ، ورأى عمر أن يجعلهـا شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنة عبدالله ، وهو خير من ابنك ، فان شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وان شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف ابو بكر خير من يعلم ، وان شـئت أن تصـنع مثل مـا صـنع عمر ، تختار رهطـا من المسلمين ، وتزويها عن ابنك فافعل » ٠

وكان معاوية فوق المنبر فنزل ، ولكنه أسرها فى نفسة حتى يدبر الأمر من وجهة أخرى ٠

وكان الآخرون قد تحدثوا أيضا برأيهم . وأدلى كل بوجهة نظره ، وكان من أشد المتكلمين عبدالله بن جعفر والحسين ابن على ، ولكن يبدو أن ابن الزبير كان من أكثرهم اخافة لبنى أمية ، يدل على ذلك وصية معاوية ليزيد عند موته — وقد ذكرناها — كما يدل عليه ما كتب به سعيد بن العاص الى معاوية حين كان والى المدينة وطلب معاوية منه أن يدعو الناس لبيعة يزيد ، اذ قال : « ان الناس عن بيعة يزيد بطاء، لاسيما أهل البيت من بنى هاشم ، فانه لم يجبنى منهم أحد ، وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته ، وابائه لهذا الأمر فعبدالله بن الزبير » .

وعقب موت معاوية أرسل يزيد الى خالد بن الحكم — وكان عامل المدينة (١) — أن يأخذ له البيعة من هؤلاء ، ولم يكن موت معاوية قد فشا ، فاستدعى الحسين بن على وابن الزبير فى بيته ليلا ، وطلب منهما البيعة ، فقال ابن الزبير : قد علمت أنا كنا أبينا البيعة اذ دعانا اليها معاوية ... ومتى ما نبايعك على هذه الحال نرى أنك أغضبتنا على أنفسنا ، دعنا حتى نصبح وتدعو الناس الى البيعة ، فنأتيك فنبايعك ببيعة سليمة ، ثم خرجا كلاهما الى مكة ، وكان ذلك فى سنة ٦٠ هـ .

وفى سنة ٦١ هـ كانت فاجعة كربلاء التى قتل فيها الحسين ، وكان الوالى على العراق هو عمرو بن سعيد الأشدق فأرسل برأسه الى يزيد ، وبموت الحسين أصبح ابن الزبير أبرز من يتجه اليه الغاضبون على يزيد بالخلافة، وهو من قبله قام بمكة ينعى على أهل الكوفة وعلى العراقين

(١) هذا من كلام ابن قتيبة وفى الطبرى ٥ / ٣٢٧ ان عامل المدينة كان الوليد بن عتبة بن أبى سفيان .

عامة تفريطهم فى نصر الحسين ، كما ذكر سيئات يزيد وذميم أخلاقه ، وبدأ ليزيد أن يسأله ويتألفه ، ولكنه كان أكبر من أن ينخدع له ، وكان أيضا بعض من بنى أمية شجعوا ا بن الزبير ودعوا الى بيعته ، فلم يسع يزيد الا أن يأمر عمرو بن سعيد أن يعبىء جيشا لحرب ابن الزبير بمكة، فعبأ جيشا جعل على رأسه عمرو بن الزبير ليحارب أخاه ، فأسره عبدالله وهزم الجيش (١) ٠

وفى سنة ٦٣ هـ اشتد الأمر على يزيد ، اذ قرر أهل المدينة خلعه أيضا ، ولما طلب من عمرو بن سعيد أن يذهب الى الحجاز ليخضع العصاة هناك ، أبى وقال انه لا يريد أن تراق دماء قريش على يديه ، ولعله بعد قتل الحسين أنف أن يلوث بدماء أخرى ، فأرسل يزيد « مسلم بن عقبة المرى » ، وهو سيد من سادات العرب وبطل من أبطال الحرب ، فتردد أولا ثم قبل ، وسخا بالعطاء لمن يذهب معه ، فكثر جنده حتى بلغوا اثنى عشر ألفا ، وكان أكثرهم من بنى كلب أخوال يزيد ، فاقتحم هذا الجيش المدينة ، ويقال انه استباحها ثلاثة أيام (٢) ، واشتهرت هذه الموقعة الحرة لأنه المكان الذى عسكر فيه مسلم قبل دخوله المدينة ٠

واتجه مسلم بعد المدينة الى مكة فمات فى الطريق ، وخلفه على الجند رجل يقال له الحصين بن نمير السكونى، وأوصاه مسلم وصية جاء فيها :

« اسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعم الأخبار ، ولا تمكن قريشا من اذنك » وأضافت رواية أخرى : « ولا تردن أهل

(١) انظر تفاصيل هذا الحادث فى الطبرى ٥ / ٣٤٤ وما بعدها ٠
(٢) المصدر نفسه ٤٨٦ ٠

الشام عن عدوهم ، ولا تقيمن الا ثلاثا حتى تناجز ابن الزبير الفاسق » (١) ٠ ووصل الحصين الى مكة فحاصرها ورمى الكعبة بالمجانيق ، فوصلهم نعى يزيد وهم على هذه الحال ، وعلم ابن الزبير بموته قبلهم فتنادى قومه : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ، وكان توفاته سنة ٦٤ هـ ٠

أثر موت يزيد :

أحدثت وفاة يزيد اضطرابا كبيرا فى أنحاء الدولة اذ رغب الكثيرون أن يتخلصوا من حكم هذه الأسرة ، أما معاوية الثانى فأ عتكف فى بيته على ما سبق مدة أربعين يوما أو شهرين ٠ جمدت خلالها شئون الأمويين ، ولما مات تولى قيادة الناس فى دمشق الضحاك بن قيس الفهرى الذى تولاها من قبل عقب موت معاوية بن أبى سفيان حتى يحضر يزيد ، وأثناء هذا الجمود تقدمت دعوة ابن الزبير وزاد أنصاره ، ولعل أكبر نصر له كان انضمام زفر بن الحرث مع قومه القيسيين اليه ، فهؤلاء كانوا يكرهون بنى كلب ويكرهون يزيد لتقديمه أخواله الكلبيين عليهم ، وفى العراق نما الهرج والمرج ، اذ انشق الخوارج على أنفسهم، وكانوا من أعوان ابن الزبير فاستقلوا عنه ، فأسأمت حالهم أهل العراق ورأوا أن ابن الزبير هو الملجأ الوحيد لهم ، فعظم بذلك شأنه ٠

ووجد الأمويون أنفسهم أمام مأزق شديد لأن الضحاك الفهرى ــ فت فى عضدهم كثيرا ــ بانضمامه الى ابن الزبير، وكانت شئون الأمويين فى يدى رجلين بارزين هما مروان بن الحكم شيخ القبيلة حينئذ ، ومالك بن بحدل خال يزيد ،

---

(١) المصدر نفسه ٢٩٦ ٠

فرأى مروان أن يبايع ابن الزبير أيضا ، لكن مالكا والاخرين رأوا أن يجمعوا كلمة الأسرة وأن يولو عليها مروان أكبرهما سنا ، فبايعوه على أن يكون الأمر بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد الأشدق ، وكانت بيعة مروان سنة ٦٤ هـ ـ فى الجابية ولم تطل مدة مروان أكثر من عشرة أشهر فمات سنة ٦٥ هـ ٠ ولكنه نكث بعهد الجابية اذ جعل ولاية عهده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ونحى خالدا وسعيدا ، ثم ترك الدولة وليس مع بنى أمية غير الشام ، والشـام منقسم أيضـا ٠

عبد الملك وابن الزبير :

دلت الأحداث اذ ذاك على مهارة عبد الملك السياسـية ، وأنه ينهج نهج معاوية فى دهائه وسخائه وحيلته ٠

اتجه أولا الى زفر بن الحرث الكلابى فعقد معه صلحـا وأرضاه ، فهد بذلك ركنا من قوة ابن الزبير ، ثم اتجه الى العراق فحارب مصـعب بن الزبير وقضى عليه ، واضطر قبائلها المختلفة المتناحرة أن تبايعه،ثم ولى الحجاج بنيوسف الثقفى حرب ابن الزبير ، فذهب هذا أولا الى الطائف موطن قبيلته ومنها ناوش ابن الزبير فترة ، ثم اتجه الى مكة فأقام المجانيق عـلى جبل أبى قبيس ورمى الكعبة بالحجـارة ، ولم يتركه عبد الملك بل أرسل له مددا كبيرا من الشام ، فلما اشتد الحصار والرجم تفرق أنصار ابن الزبير وقتل قتلتـه المعروفة ، وحمل رأسه الى الحجاج ثم الى عبد الملك ثم طيف به على الناس والأقاليم تهديدا لهم وشماتة ، وصلب جسده على أسوار مكة ، وكانت نهايته سنة ٧٣ هـ ٠

وهذه هى الحركة الزبيرية سردناها بنظرة عابرة ، ثم نتجه بعد هذا الى بعض المواقف الخطابية التى صاحبتها ٠

عبد الله بن الزبير خطيبا

أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله (ﷺ) ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين ، وكان ميلاده عام الهجرة ، وهو أول ولدا للمسلمين بالمدينة ، وقد فرح به المسلمون جميعا لأن اليهود أرجفوا أنهم أخذوا المسلمين فلا يولد لهم بالمدينة . وقد حنكه رسول الله (ﷺ) ، وكان ريق رسول الله (ﷺ) أول شىء دخل جوفه ، وهناك حادث آخر يعزى اليه وهو أن رسول الله (ﷺ) احتجم مرة فقال لعبدالله : اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد ، فلما بان عن النبى شرب الدم ورجع ، وقال جعلته فى أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ، قال له رسول الله (ﷺ) لعلك شربته . قال نعم ، قال ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس ، فكانوا يرون أن ذلك سبب ما به من قوة وشجاعة ، وكان مع هذا ذكيا عابدا فقيها ، فما رأى الناس أحسن من صلاته ، كان يقف كأنه عمود لما يطيل من القراءة، ولما فى صلاته من الخشوع ، وما ترك بابا من أبواب العبادة الا تكلفه .

وقد شهد مع أبيه موقعة اليرموك وموقعة الجمل ، كما شهد فتح افريقية ، ذكر ابن عذارى أن عبدالله بن أبى سرح كان اذا احتاج أن يفكر فى أمر دخل خيمته وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد بالدخول عليه ، فلما أعياه أمر البربر فى افريقية فعل ذلك ، فجاء عبدالله ابن الزبير يريد مقابلته فمنعه الحاجب ، فأخذ يدور حول الخيمة فرآه ابن أبى سرح من خصاصها فدعاه ، فأخبره ابن الزبير أنه اهتدى الى ثغرة فى صفوف العدو يمكن أن يهجم عليهم منها ، وأطلعه عليها فتم بها الفتح للمسلمين (١) .

---

(١) انظر البيان المقرب ص ٤٢ وما بعدها .

وكان عبدالله بشـيرا بفتح آخر الى عثمان ، فلما قـدم المدينة ذهب الى الخليفة قبل أن يدخل على أبيه وحدثه بهذا الغزو فأعجبه حديثه فقال له : هل تستطيع أن تخبر الناس بمثل هذا يا بنى ، قال : أنا أهيب لك منهم ، فقام عثمان فى الناس خطيبا ، وقال : أن الله قد فتح عليكم افريقية ، وهذا عبدالله بن الزبير يخبركم خبرها ان شاء الله ، وكان عبدالله الى جانب المنبر فقام خطيبا ، وكان أول من خطب الى جانب المنبر ، فأعجب به الناس ، فلما سـكت نزل عثمان ، وقـام عبدالله الى أبيه ، فقبله أبوه بين عينيه وقال « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » والله يا بنى مازلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صـمت ، ثم قال : اذا أردت أن تتزوج امرأة فانظر الى أبيها وأخيها ، قبل أن تتزوجها (١) ٠

ولعل هذه الخطبة كانت أول ما بدأ من نجابته فى الخطابة فقد كان مايزال شابا حتى أشفق عليه أبوه ، ووجد عـلى عثمان أن يوليه هذا الأمر وهو فى هذه السن ، هكذا ذكر ابن عبد الحكم ، ولا نراه جيدا لأن أفريقيا فتحت سنة ٢٧هـ٠ أى أن ابن الزبير كان فى هذه السن ، فهو ليس حدثا ٠

أمـا الخطبة فهى :

« الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعـد البغضة ، الذى لا تجحد نعماؤه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفســه ، وكما هو أهلــه ، انتخب محمدا (ﷺ) فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته ، فآمنوا به وعززوه

---

(١) فتوح مصر ص ٢٥٠ ٠

ونصــروه ووقــروه ، وجــاهدوا فى الله حــق جهــاده ، فاستشهدوا الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابح ، وبقى منهم من بقى لا تأخذهم فى الله لومــة لائم ٠

أيها الناس ٠ رحمكم الله ٠

انا خرجنا للوجــه الذى علمتم ، فكنا مع وال حــافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين ، كان يســير بنا الأبردين (١) ، ويخفض بنا فى الظهائر (٢) ، ويتخذ الليل جملا (٣) ٠ يعجل الرحلة من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى المنزل الخصب، فلما نزل على أحسن حال نعرفهــا من ربنا حتى انتهينا الى افريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ، ورغــاء الابل،وقعقعة السلاح ، فأقمنا أياما نجم كراعنا (٤) ونصلح سلاحنا ، ثم دعوناهم الى الاسلام والدخول فيه ، فأبعدوا منه ، فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هــذه أبعد ، فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلــة نتأناهم (٥) وتختلف رسلنا اليهم ، فلما يئس منهم (٦) قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه اذا صبر واحتسب، ثم نهضنا الى عدونا وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذلك،وصبر فيه الفريقان ، فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة ، واستشــهد الله فيهم رجالا من المسلمين ، فبتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى بالقرآن كــدوى النحــل ، وبات المشركــون فى خمــورهم

(١) اول النهار وآخره ٠
(٢) جمع ظهيرة ٠
(٣) يركب الليل فى سفره ٠
(٤) نريح ابلنا ٠
(٥) نتأني ونتريث ٠
(٦) يريد الوالى ٠

وملاعبهم · فلما أصبحنا أخذنا مصافنا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وأنزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعا ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف (فصفق عليها مروان ابن الحكم) ــ فتركت المسلمين قد قرت أعينهم وأغناهم النفل (١) وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين ، أبشره واياكم بما فتح الله من البلاد ، وأذل من الشرك ·

فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين ·

خطبته بعد قتل الحسين :

تقدم أنه قام خطيبا بمكة بعد قتل الحسين فلام أهل الكوفة خاصة ، وأهل العراق عامة ، ومن هذه الخطبة :

« ان أهل العراق غدر فجر الا قليلا ، وان أهل الكوفة شرار أهل العراق ، انهم دعوا حسينا لينصروه ويولوا عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا اليه فقالوا له : اما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك الى ابن زياد بن سمية سلما ، فيمضى فيك حكمه ، واما أن تحارب ــ فرأى والله ــ وأصحابه قليل فى كثير ، وان كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحدا ــ أنه مقتول ، ولكنه آثر الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسينا ، وأخزى قاتل حسين ، لعمرى لقد كان خلافهم اياه وعصيانهم ما كان فى مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنه ما حم نازل (٢) ، واذا أراد الله أمرا لن يدفع ·

---

(١) ما نالوا من الغنيمة ·

(٢) الذى قدر واقع ·

أفبعد الحسين نطمئن الى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا ؟ لا ، ولا نراهم لذلك أهلا ٠ أما والله لقـد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامـه ، أحق بما هم فيه منهم (١) وأولى فى الدين والفضل ٠

أما والله مـا كان يبذل بالقرآن الغنـاء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب (٢) الصـيد ، فسوف يلقون غيـا ٠

فثار اليه أصحابه قائلين أظهر بيعتك ، فانه لم يبق بعـد الحسين أولى بها منك ٠ وكان عبدالله اذ لجأ الى مكة وقال انى عائذ بها يدعو لنفسه سرا ويبايع الناس ٠

وفى هذه الخطبة نجد أن الحسين قد وجد نفسه مضطرا أن يواجه جيش ابن زياد مع علمه أن سيقتل ، وأهل الكوفة هم الذين ألجـأوه لهذه التضحـية ، والشـيعة يقولون ان الحسين خرج الى العراق عالما أنه سيقتل مؤثرا الاستشهاد فى سبيل الحق ، ورأى الشيعة بعيدا جدا ، لأن معاوية جعل على رأس كل واحـد ممن امتنعوا عن البيعـة جنديا يقتلـه اذا عارض معاوية فيما يعلن من البيعة ، وأعلن هو من فوق المنبر أن هؤلاء بايعوا ، فلم يجـرؤ واحد منهم أن يجيب بكلمة ، أو يبدى أية معارضة ، ولـو كان يرى من الواجب أن يستشـهد لفعل ، ولكان قتلـه فى المسـجد أدعى للثورة وذهاب بيعة يزيد الى الأبد ٠

---

(١) احق منهم بالخلافة والملك ٠

(٢) تطلاب بمعنى طلب ٠ من مصادر سماعية مفتوحة الاول دائما ، والفقرة كلها تعريض بيزيد بن معاوية فقد كان صاحب لهو وشراب ٠

خطبته لما بلغه قتل مصعب :

لما بلغ عبدالله قتل أخيه أمسك عن ذكره أياما حتى تحدثت به اماء مكة فى الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس مليا لا يتكلم ، والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقا ٠ فقال رجل الى من بجانبه : ما له لا يتكلم ! أتراه يهاب المنطق ؟ والله انه للبيب الخطباء ، قال لعله يريد أن يذكر مقتل أخيه سيد العرب فيشتد ذلك عليه وهو غير ملوم ، ثم تكلم عبدالله فقال :

« الحمد لله له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والاخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ٠

أما بعد ٠ فانه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وان كان معه الأنام طرا ، ولم يذل من كان الحق معه ، وان كان مفردا ضعيفا ، ألا وانه قد أتانا خبر من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعبا قتل ــ رحمة الله عليه ومغفرته ــ فأما الذى أحزننا من ذلك فان لفراق الحميم لذعة ، ولوعة ، يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى (١) من بعد ذو الرأى والدين الى جميل الصبر وكريم العزاء ، وأما الذى سرنا منه فانا قد علمنا أن قتلة شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة(٢) انشاء اللهتعالى٠

أسلمه الطغام (٣) الصم الاذان ــ أهل العراق ــ اسلام

---

(١) يفىء ويرجع ٠

(٢) الخير فى الدار الآخرة لأنه قتل مجاهدا سبيل الله ٠

(٣) العوام الذين لا عقل لهم ولا تعليم ٠

النعم المخطمة(١) وباعوه بأقل من الثمن الذىكانوا يأخذونه منه ، فان يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين · أنا والله لا نموت حتف أنافنا (٢) · ولكن قعصا (٣) بالرماح ، وموتا تحت ظلال السيوف وليس كما يموت بنو مروان · والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا اسلام قط ، ألا وانما الدنيا عارية (٤) من الملك القهار ، الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد (٥) ملكه، فان تقبل الدنيا على لم آخذها الأشر البطر (٦) وان تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق (٧) المهين ·

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ·

هذه خطبة ليست طويلة ولكنها ليست قصيرة أيضا ، واذا وازنت بينها وبين خطبة الحجاج حين نعى اليه أخوه وابنه تجد تقاربا فى المنحى ، وكلتا الخطبتين تقوم على فكرة سياسية ، واحتياط من الخطب للمستقبل ، غير أن الحجاج كان يهدد ويشتم لأنه مالك ، أما الزبير فلاين مستمعيه ليستعين بهم فى المعارك المقبلة ، وقد أظهر التجلد، واعتذر عن بكائه بأنه للعاطفة التى يجدها كل حبيب لفراق حبيبه ، ولكنه يعلم أن أخاه مات فى سبيل الله شهيدا ، وفى هذا ما يشجع الاخرين على الحرب وعلى نيل هذه الشهادة ·

---

(١) الخطام ما يوضع على انف البعير من الحبال ليقاد به ـ ويقال خطمه اذا وضع فيه هذا الحبل ·

(٢) يقال للذى يموت على فراشه مات حتف انفه · أى خرجت روحه من انفه دون معركة ·

(٣) دفعا ·

(٤) عارية بالتشديد سىء معار ·

(٥) يفنى ·

(٦) المتكبر الفرح ·

(٧) الاحمق ·

آل الزبير :

أما أبوه فهو الزبير رضى الله عنه ، انصرف من موقعه الجمل فتبعه ابن جرموز فقتله وهو قائم يصـلى فى مكان يسمى وادى السباع ، وأما عمه فهو عبد الرحمن بن العوام ـ أخو الزبير ـ قتل يـوم اليرموك ، كمـا قتل ابنه عبدالله من قبل ، « فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه وأخوه » فابن عمه هو عبدالله بن عبد الرحمن قتل يوم الدار دفاعا عن عثمان، وأما أخوه المنذر ، كان قد شهد موقعة الحرة ، ثم انحـاز الى أخيه بمكة ، فلما سار اليهم جيش يزيد الى مكـة خرج اليه المنذر فقاتلهم ساعة قتالا شديدا ، ثم دعاه رجل من أهل الشام الى المبارزة ، فخرج اليه فضرب كل صاحبه ضربـة مات منها ، فماتا معا ٠

هذا وخطب ابن الزبير كثيرة ولكن مناظرته مع معـاوية وأتباعه أكثر ونورد بعضا منها ، وله أيضا مناظرات مـع عمرو ومع بعض الهاشمين ٠

أمـا ولاته فمنهم أخوه مصـعب ، وكان شجاعـا ذكيا وخطيبا قويا ومنهم عبدالله بن يزيد الأنصارى ٠ وابراهيم ابن محمد بن طلحة ، وعبدالله بن مطيع ٠

خطبة لمصعب بن الزبير :

ولمصعب خطبة أول ما ولى العراق ليست الا آيات من أول سورة القصص هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم ، تلك آيـات الكتاب المبـين ، نتلـوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقـوم يؤمنون ، ان فرعـون علا فى الأرض وجعل أهلها شـيعا ، يستضـعف طائفة منهم يذبح

أبناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين (وأشار بيده نحو الشام) ٠

ونريد أن نمن على الذين استضعفوافى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (وأشار بيده نحو الحجاز) ٠

ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (وأشار بيده نحو العراق) ٠

صورة من محاورات ابن الزبير والأمويين

هذه المحاورات كانت كثيرة متكررة ، ونكتفى بعرض هذه الصورة ، وهى جميعا تدور على محور واحد ، ابن الزبير يذكر صلة أبيه وجدته صفية برسول الله،وقرابتهم من السيدة خديجة ، وما كان لهم فى الاسلام من سابقة وجهاد ، مع قرن ذلك بما كان لبنى أمية من عداء لرسول الله (ﷺ) وشنهم الحروب ضده ، ومحاربتهم الاسلام ، أما معاوية فكان يلجأ الى أن الرياسة فى الجاهلية والاسلام كانت لبنى عبد مناف ، ذلك ليجمع بنى أمية مع بنى هاشم تحت جد واحد ، وأن بنى زهرة لم يكن لهم من الأمر شىء ، وكل ما لهم من مفاخر انما جاء بسبب صلتهم برسول الله (ﷺ) وهو من بنى عبد مناف ـ فكان يقول له مثلا :

« عمتك أم المؤمنين ـ يعنى خديجة ـ فبنا شرفت وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهى أدنتك من الظل ، ولولاها لكنت ضاحيا ٠ ـ يريد أن زواج العوام والد الزبير من صفية قربة من بنى هاشم ، وهكذا كانت طريقهما(١) ٠

واليك هذه الصورة ٠

قدم عبدالله بد الزبير على معاوية فرحب به وأدناه حتى أجلسه على سريره ثم قال :

(١) راجع العقد الفريد ٤/٩٥ وما بعدها ٠

ـ حاجتك أبا خبيب ـ (وهى كنية عبدالله لأن خبيبا أكبر ولـــده) ٠

ـ ترد على المهاجرين والأنصار فيئهم ، وتحفظ وصـــية نبى الله فيهم تقبل من محسنهم وتتجاوز عن مسيئتهم ٠

ـ هيهات ، هيهات ٠ لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقــد أكل أليتها(١) ٠

ـ مهلا معاوية ، فان الشتاة لتدر للحالب وان المدية فى يده ، وان الرجل الأريب ليصانع ولده الذى خرج من صلبه ، وما تدور الرحاء الا بقطبها(٢) ، ولا تصـــلح القوس الا بعجبها (٣) ٠

ـ يا أبا خبيب ، لقد أجرت الطروقة قبل هباب الفحل(٤) ، هيهات هيهـــات ، وهى لا تصـــطك لحيائها اصطحاك القروم السوامى(٥) ٠

ـ العطن بعد العل ، والعل نعد النهل ، ولابد للرجا ٠ من الثفال(٦) ٠٠ ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العشاء ، وأخذت قريش مجالسها ٠

---

(١) ما تسميه نحن لية ـ ذنة الشاة أو عجزها ٠

(٢) قطب الرحا عمود صغير يكون فى وســطها ٠ والرحا يمـــد ويقصر ٠

(٣) مؤخرها ـ وهو يريد انه لا يصلح الا بهؤلاء ٠

(٤) الطروقة : الناقة استحقت ان يطرقها الفحل ٠ واجرها جذبها من رسنها وهباب الفحل وهبيبه قيامه للطرق ٠

(٥) يقال سما الفحل سماوة اذا اندفع الي انثاه فهو سام وجمعه سوام ـ والقروم جمع قرم وهو الفحل ٠ وتصطك تضـــطرب وتتحرك ، يريد أنك تعجلت أمورا قبل موعدها وجرأة الناس ٠

(٦) العطن مبرك الابل ، والعل او العلل ، هو الشرب الثانى للابل ، والنهل هو الشرب اول مرة ، والابل تشرب ثم تعود للشرب ثانيا ، فاذا ارتوت ذهبت الى مبركها ، والثفال ما يفرش تحت الرحاء ليقع عليـــه الطحين ٠ يريد ان معاوية لم يؤد لهؤلاء اوليات الأمور التى يطمئنون بها ويانسون اليه ٠

وكان بينهم عمرو بن العاص ، قال لهم معاوية : أفيكم من يكفينى ابن الزبير ؟

قال عمرو : أنا يا أمير المؤمنين ، قال : ما أظنك تفعل ، قال : بل والله لأربدن(١) وجهه ، ولأخرسن لسانه ، ولأردنه ألين من خميلة(٢) ·

قال دونك فأعرض له حين يدخل ·

وبلغ هذا الحديث عبدالله ، فذهب لمجلس معاوية وجلس نصب عينى عمرو ، ومر الحديث ساعة ، ثم قال عمرو :

وانى لنار مـا يطلق اصطلاؤهـا
لدى كلام معضـل متفـاقم(٣)

فأطرق ابن الزبير ساعة ثم رفع رأسه وقال :

وانى لبحر مـا يسـامى عبابه(٤)
متى يلـق بحرى حـر نارك تخمـد

فقال عمرو أولا وأجابه عبدالله على هذا النحو ·

ـ والله يا ابن الزبير انك مـا علمت لمتجلبب(٥) جلاليب الفتنة ، متأزر بوصـائل(٦) التيـه ، تتعـاطى الذرى الشاهقة ، والمعالى الباسقة · ومـا أنت من قريش فى لباب جوهرها ، ولا مونق حسبها(٧) ·

ـ أما ما ذكرت من تعاطى الـذرى ، فانه طـال بى اليها وسما ما لا يطول بك مثله · أنف حمى(٨) ، وقلب ذكى ، وصارم مشرفى(٩) فى تليد فارع(١٠) وطريف مانع ،

---

(١) لأجعلن وجهه اربد مغبرا · (٢) الخميلة القطيفة ·
(٣) عظيم منتشر · (٤) عباب البحر معظم موجه ·
(٥) ملتف بالفتنة كالجلباب الذى يحيط بالجسد ·
(٦) جمع وصيلة وهى ثوب يمان مخطط ، والتيه العجب ·
(٧) المونق المعجب من آنفه الشيء بمعنى اعجبه ·
(٨) بريد انه غيور يأبى الضيم ·
(٩) الصارم السيف القاطع والمشرفى المنسوب الى مشارف اليمن·
(١٠) التليد القديم والفارع العالي ـ يريد أنه ذو أصل ونسب ·

اذا قعد بك انتفاخ سحرك (١) ووجيب قلبك · وأمـــا ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جوهرهـا ، ومونق حسبها ، فقد حضرتنى واياك الأكفاء العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك ·

فقال القوم : قد أنصفك يا عمرو ·

قال عمرو : قد فعلت ·

قال ابن الزبير :

ـ أما أمكننى الله منك فلاربدن وجهك ، ولأخرسن لسانك، ولترجعن فى هذه الليلة وكأن الذى بين منكبيك مشدود الى عـروق أخـدعيك(٣) · ثم قـال : أقسـمت عليكم يا معشر قريش : أنا أفضل فى دين الاسلام أم عمرو ؟·

فقالوا : اللهم أنت · قـال : فأبى أفضـل أم أبواه ؟ ·

قالوا : أبوك حوارى رسول الله ﷺ ، وآله ، وابن عمته ·

قال : فأمى أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق وذات النطاقين ·

قال : فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سـلمى بنت العوام ، صاحبة رسول الله ﷺ وآله أفضل من عمته ·

قال : فخالتى أفضـل أم خـالته ؟ قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ·

قال : فجدتى أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ·

قال : فجدى أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعـد رسول الله ﷺ ، فقال :

---

(١) السحر الرئة أو أعلى الصدر · يقال انتفخ سحر فلان اذا عدا طور ·

(٢) يريد ذليلا مطاطىء الراس ، والذى بين منكبيه راسه أو عنقه ، والأخدعان عرقان على جانبى العنق واذا شد راسه الى اخدعيه انخفض·

قضـت الغطـارف من قريش بيننا
فاصبر لفضل خصامها وقضائها(١)
واذا جـريت فـلا تجـار مبـرزا
بذ الجياد على احتفال جرائها(٢)

أما والله يا ابن العاص : لو أن الذى أمرك بهذا واجهنى بمثله ، لقصرت اليه من سامى بصره(٣) ، ولتركته يتلجلج لسانه ، وتضطرم النار فى جوفه ، ولقد استعان منك بغير واف ولجأ الى غير كاف ٠

بين ابن الزبير وبنى هاشم

يردد بعض المؤرخين أن عبدالله بن الزبير هو الذى دفع بالحسين الى الخروج على يزيد ٠ وأنه هو الذى زين لـه الخروج الى العراق ، وكان يدرك عـاقبة الحسين ، ولكنه غرر به كى يخلو لـه الجو ويكون أولى الناس بها ، فان الناس لا يقدمونه على الحسين ، ويستأنس بعضهم لهذا بالجفوة التى كانت بينه وبين بنى هاشم،وامتناع بعضهم عن مبايعته بالخلافـة ٠ ولسنا ندرى حقيقـة هـذا الموقف ، ولكن من المعروف حقا أن بعض بنى هـاشم أظهروا الطعن على ابن الزبير وأبوا مبايعته ، وكان هـو يشتمهم ويسبهم من فوق المنبر حتى انه أسقط ذكر النبى ﷺ من خطبته ، وعـاتبه الناس على هذا فقال : انى أذكره سرا وأصلى عليه ، ولكنى رأيت هذا الحى من بنى هـاشم اذا سمعوا ذكره اشرأبت قلوبهم وأبغض الأشـياء الى ما يسـرهم ٠ وكان عبدالله

(١) الغطاريف جمع غطريف ٠
(٢) المبرز الذى يفوق أقرانه ٠ وبذفاز وغلب ، والاحتفال الاجتماع٠ والجراء المجاراة ، أى يفوق من يسابقه رغم اسـتعداده وجمعه قواه للمسابقة ٠
(٣) اذللته حتي يغض بصره ٠

ابن عباس ، ومحمد ابن الحنفية على رأس معارضيه ، وكان معهم جماعة من بنى هاشم ، فجمعهم ابن الزبير وهددهم ان لم يبايعوه أن يحرقهم بالنار ، فلم يبايعوه ، فسجن محمد ابن الحنفية وخمسة عشر من بنى هاشم فى سجن كان يسمى عارم ، فظلوا أياما غير أن المختار بن أبى عبيد عبأ حملة من الشيعة سرا استطاعوا أن يكسروا السجن وأن يخرجوهم منه ٠

وهذا الموقف من المواقف السيئة فى حياة ابن الزبير ، وهى ذات دلالة واضحة على ضيق أفقه السياسى ، وكان أولى به أن يسلك معهم مسلك معاوية ، وأن يعطيهم أعطياتهم ويقربهم اليه ٠ ثم يحول بينهم وبين الانسياح فى البلاد حتى لا يكونوا جبهة ضده ، وكان مخطئا كل الخطأ بقطعة ذكر رسول الله ﷺ أو اسرار ذكره فى خطبته ، وقد زاد ذلك أعداءه ، وأغضب أتباعه عليه ، وهذا موقف له مع عبدالله بن عباس ٠

خطب مرة أمام الناس وعبدالله بن عباس بينهم ، وكان قد كف بصره فقال ابن الزبير :

أيها الناس : ان فيكم رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، قاتل أم المؤمنين وحوارى رسول الله ﷺ ، وأفتى بتزويج المتعة ! ٠

فقام ابن عباس ، وقال لعكرمة : أقم وجهى نحوه ثم قال :

ان يأخذ الله من عينى نورهما ففى فؤادى وعقلى منهما نور

وأما قولك يا ابن الزبير أنى قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك(١) ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها(٢) ، وقاتلت أنت وأبوك عليا ، فان كان على مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وان كان كافرا فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف ٠ وأما المتعة فانى سمعت على بن أبى طالب يقول : سمعت رسول الله ﷺ رخص فيها ، فأفتيت بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ، وأول مجمر سطع فى المتعة مجمر آل الزبير ٠

وبهذا ترى أن ابن عباس أمه وتغلب عليه ، فهو كان أجدر به اذ لم يستطع ضمه اليه أن يعرض عنه ويتقى رده عليه ٠

وقد جاءت هذه المحاورة فى الطبرى برواية مطولة ، واكتفينا برواية العقد الفريد ٠

بين الزبير والخوارج

مواقف للولاة الزبيريين :

بعد قتل المختار الثقفى ، ولى ابن الزبير عبدالله بن يزيد الأنصارى أميرا على الكوفة ، وجعل معه ابراهيم بن محمد ابن طلحة أميرا على خراجها ، فقدما اليها ، وقد علم ابن يزيد أن الشيعة يريدون أن يخرجوا بها ، وكانت قيادتهم حينئذ لسليمان بن صرد ٠ فارتقى ابن يزيد المنبر وألقى هذه الخطبة :

---

(١) يريد عبد الرحمن بن أبى بكر ٠

(٢) يريد عليا بعد الظفر بها أعادها معززةمكرمة ٠

خطبة عبدالله بن يزيد

حمدالله وأثنى عليه ثم قال:

« ... أما بعد . فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ،فسألت عن الذى دعاهم الى ذلك ما هو ، فقيل لى : زعموا أنهم يطلبون دم الحسين بن على ، فرحم الله هؤلاء القوم(١)،قد ــ والله ــ دللت على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ، ابدأهم قبل أن يبدأوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : ان قاتلونى قاتلتهم ، وان تركونى لم أطلبهم، وعلام يقاتلونني ؟ . فوالله ما أنا قتلت حسينا(٢) ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله ــ رحمة الله عليه ــ فان هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ، ولينتشروا ظاهرين ، ليسيروا الى من قاتل الحسين ، فقد أقبل اليهم وأنا لهم على قاتله ظهير(٣) .

هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه اليكم عهد العاهد به (٤)، على مسيرة ليلة من جسر منبج(٥) فقتالته والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ــ فيقتل بعضكم بعضا ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رققتم (٦) ، وتلك ــ والله أمنية عدوكم ــ وانه قد أقبل اليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، وهو الذى قتلكم ومن قبله أتيتم (٧) ،والذى

---

(١) يرثى لهم ولخطأ تصرفهم .

(٢) قتله غيرى .　　(٣) معين ومساعد .

(٤) كان ابن زياد بعد موت معاوية الثانى ذهب الي الشام ، وصد مروان عن التسليم لابن الزبير . فلما استقر له الأمر وجه عبيد الله الى العراق وامره بنهب الكوفة . وكان ابن زيادة فى طريقه اليهم .

(٥) بلد بين حلب والفرات .

(٦) ضعفتم .　　(٧) من جهته جاءتكم الذلة .

قتل من تثأرون بدمه (١) قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم (٢) ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم (٣) انى لم آلكم (٤) نصحا ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا » ٠

خطبة ابراهيم بن محمد بن طلحة

كان ابراهيم هذا من الشجعان حتى سمى أسد قريش ، ومات سنة ١١٠هـ فى العام الذى مات فيه ابن سيرين والحسن البصرى ٠ أما أبوه محمد بن طلحة فقد قتل يوم الجمل ٠

قام ابراهيم فى هذا الموقف فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه :

« أيها الناس : لا يغرنكم من السيف والغشم (٥) مقالة هذا المداهن (٦) الموادع (٧) ، والله ان خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ، ولنأخذن الحميم(٨) والعريف (٩) بما فى عرافته ، حتى يدينوا (١٠) للحق ويذلوا للطاعة » ٠

رد المسيب بن نجيه :

وثب المسيب بن نجيه فقطع على ابراهيم منطقة ، فقال : يا ابن الناكثين (١١) ، أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ » ٠

---

(١) الذى قتل الحسين ٠ (٢) بقوتكم كاملة ٠
(٣) اجعلوا الواقعة تنزل به لا بكم ٠
(٤) لم اقصر فى نصحكم ٠ (٥) الشم الظلم والاخذ بالقوة والعنف٠
(٦) المنافق ٠ (٧) الذى يميل الى الموادعة وعدم الحرب ٠
(٨) نعاقب الشخص بذنب صديقه ٠
(٩) العريف رئيس القوم ، لانه معروف وبارز فيهم ٠
(١٠) يخضعوا ٠
(١١) الذين ينقضون العهد ، وهو يشير الى ان طلحة بايع عليا بالمدينة ثم نكث وقال : بايعت والسيف على عنقى ٠

أنت والله أذل من ذلك ، انا لا نلومك على بغضنا ، وقد قتلنا أباك وجدك ، والله انى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانى أهل المصر ، حتى يثلثوا بك جدك وأباك (١) ، وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولا سديدا ، انى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحا لك ، وقابلا قولك ٠

فقال ابراهيم : « اى والله ليقتلن ، وقد أدهن ثم أعلن » (٢) ٠

رد عبدالله بن وال التيمي :

قام عبدالله وال فقال :

ما اعتراضك يا أخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ، فوالله ما أنت علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! انما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلعمر الله لئن كنت مفسدا ، ما أفسد أمر هذه الأمة الا والدك وجدك الناكثان فكانت بهما اليدان (٣) ، وكانت عليهما دائرة السوء ٠

أما رأيك أيها الأمير فوالله انا لنرجو أن تكون به عند العامة محمودا وأن تكون عند الذى عنيت واعتريت مقبولا ٠

★ ★ ★

وفى ربيع الاخر سنة ٦٥هـ قام سليمان بن صرد يدعو الشيعة الى حرب ابن زياد ، فعسكر بالنخيلة (٤) ، ولكن تخلف عنه الكثيرون ، فخطب هذه الخطبة ٠

(١) حتى تكون ثلثهم في القتل ٠

(٢) اتبع المداهنة والمدارة أولا ثم جهر بما كان يكنه ٠

(٣) من تعبيرات العرب كانت به اليدان أى أصابة الشر الذى بيته لغيره ٠

(٤) ضاحية من ضواحى الكوفة تجمع بها الخوارج من قبل ٠

خطبة سليمان بن صرد

« ٠٠٠ أيها الناس : من كان انما أخرجته ارادة وجه الله وثواب الاخرة فذلك منا ونحن منه ، فرحمة الله عليه حيا وميتا ، ومن كان انما يريد الدنيا ، وحرثها (١) ، فوالله ما نأتى فيئا نستفيئه ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير، وما هو الا سيوفنا فى عواتقنا ، ورماحنا فى أكفنا ، وزاد قدر البلغة (٢) الى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصبحنا » ٠

خطبة ضحير بن حذيفة

ثم قام ضحير بن حذيفة بن هلال المزنى ، فرد على سليمان بهذه الخطبة :

« ٠٠٠ آتاك الله رشدك ولقاك حجتك ٠ والله الذى لا اله غيره ما لنا خير فى صحبة من الدنيا همته ونيته ٠

« ٠٠٠ أيها الناس : انما أخرجتنا التوبة من ، ذنبنا والطلب بدم ابن ابنة نبينا ﷺ ، ليس معنا دينار ولا درهم، انما نقدم على حد السيوف ، وأطراف الرماح » ٠

فتنادى الذين حولهم من كل جانب : « انا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا » ٠

من تتمة هذا الحديث أن نذكر أنه بينما يتهيأ القوم لمقابلة ابن زياد قام عبدالله بن سعد فطلب أن يهجموا على الكوفة لأن بها قتلة الحسين بينما لا يوجد فى الجيش القادم من الشام من قتلة غير ابن زياد ، لكن سليمان بن صرد ، أصر

(١) متاعها ٠

(٢) ما يتبلغ به الشخص عن الطعام ، أى ما يمسك حياته فقط ٠

على وجهته ، وقال اننا ان قتلنا الذين بالكوفة « ما عـدم رجل أن يلقى رجلا قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجـلا لم يكن يريد قتله ، ان الذى قتل صاحبكم هو هذا الفـاسق ابن الفاسق ابن مرجانه ، عبيد الله بن زياد ، فان يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه » ، وكان هؤلاء يسمون التوابين ، لأنهم تابوا من اثم الحسين ٠

وانضـم اليهم عبدالله بن يزيد ، وابراهيم بن محمد بن طلحة فى جماعة من أصحابهما وتلاقوا مع جيش الشام فى عين الوردة ٠ فى وسط الجزيرة فأصاب هؤلاء الأحـلاف من جيش ابن زياد مقتلة عظيمة ، ولكن قتل سـليمان ابن صرد ، والمسيب ابن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل، وعبد الله ابن وال ٠ ورأى من بقى من التوابين أن لا طاقة لهم بجيش الشام فارتحلو تحت امارة رفاعة بن شـداد البجلى ، فلما وصلت هذه البشرى عبد الملك صعد المنبر وألقى هذه الخطبة :

خطبة عبد الملك

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ٠٠٠ أما بعد فان الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح(١) ، فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألا وان السيوف تركت رأس المسيب ابن نجبة خذاريف(٢) ، ألا وقد قتلنا(٣) من رءوسهم رأسين ضالين مضلين، عبدالله بن سعد أخا الأزد ، وعبدالله بن وال أخا بكر بن وائل ٠ فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع » ٠

(١) مثير ومنشيء ٠ من القح النحلة ٠ والقح الفحل الناقة ، وبدون اللقاح لا تثمر الشجرة ولا تنتج الناقة ٠

(٢) جمع خذروف ــ وهو شيء كالنحلة التى يلعب بها الصبيان ٠ يريد هشم رأسه وتركه قطعا صغيرة ٠

(٣) الأصل قتل ــ والضمير يرجع لله ــ فى قوله فان الله قد أهلك ولا يجوز قراءته بالبناء للمفعول ٠

٣ ـ المهلب بن ابى صفرة وابناؤه

المهلب بن أبى صفرة من الأزد ، وبيته وبنوه من البيوت والأسر الشريفة التى ينتمى اليها كثيرون من ذوى الأمجاد والشجاعة والكرم ٠ وأبو صفرة اسمه ظالم بن سراق ، ولكنه كنى بابنة له كانت تدعى صفرة ٠ كانوا من قرية يمنية تسمى « دبا » أسلم أهلها عام الوفود قبيل وفاة رسول الله ﷺ ، ثم ارتدوا ضمن المرتدين أول خلافة أبى بكر ، وقد حاربهم عكرمة بن أبى جهل وأرسل أسراهم الى الخليفة فأطلق سراحهم وقال : اذهبوا حيث شئتم ، فنزل أبو صفرة البصرة ، وكان يقال بصرة المهلب ٠

وقيل هذا الحديث غير جيد ، وان أبا صفرة لم يرد على أبى بكر ، ولكن ورد على عمر وهو شيخ أشيب(١) ٠

ولد المهلب ـ وهو أصغر أبناء أبيه ـ قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين ، ونشأ شجاعا كريما ذا بأس وبصر بالحروب ، اتصل بعبدالله بن الزبير أيام خلافته فخلا به وحادثه ، ثم جعله واليا له على خراسان ، ولما اشتد قتال الخوارج وأهل العراق بعد موت يزيد كتب أهل البصرة الى ابن الزبير أن يعين عليهم واليا من قبله ، فولى عليهم المهلب وتولى ابنه يزيد خراسان ، وقد استطاع المهلب أن يقهر الخوارج فى مواقع متعددة ، وقتل نافع بن الأزرق وخلقا كثيرا من الخوارج ، ولما انتصر عبد الملك على عبدالله بن الزبير ولى أخاه بشر بن مروان الكوفة ، وولى

---

(١) انظر ابن خلكان ٥/٣٥٠ وما بعدها ٠ وارجع الى الفصل الذى عقده المبرد فى كامله للحديث عن الخوارج ٠

البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد (١) ، فلم يفلحا فى حرب الخوارج وعهد عبدالملك للمهلب من جديد بحربهم، وكان بشر قد مات وتولى الحجاج العراق كله · وتولى المهلب خراسان وظل بها حتى مات بها سنة ٨٢هـ ، فتولاها ابنه يزيد ·

وعلى الرغم من أن الحجاج كان يرسل الوفود المحاربة من العراق لتعمل تحت امرة المهلب ـ على نحو ما مر فى خطبته ـ وعلى الرغم من أنه تزوج هند بنت المهلب ، كان يكره يزيد ويحقد عليه ، لأنه كان يخشى أن يتولى العراق ، ومما ذكر فى هذا أن الحجاج نزل مرة بدير به شيخ من أهل الكتب ومن المنجمين ، فسأله الحجاج عمن يلى العراق بعده · فقال له شخص يسمى يزيد ، فاقتنع الحجاج بنبوءته ولم يجد من يصلح لهذا غير يزيد بن المهلب ، فوشى بالمهلبيين الى عبدالملك ومازال به حتى عزل يزيد سنة ٨٥ وولى مكانه قتيبة بن مسلم · وحبس الحجاج يزيد واخوته وعذبهم عذابا شديدا ، وأغرمهم مغارم ثقيلة ، ولكن كان يتحمل كل ذلك بصبر وشجاعة نادرة ، فيزيد الحجاج غيظا منه ·

ثم تمكن يزيد واخوته من الهرب فلحقوا بسليمان ابن عبدالملك مستجيرين به من الحجاج ومن أخيه الوليد فأجارهم ، وما لبث الوليد أن مات وأفضت الخلافة الى سليمان سنة ٩٦ هـ ، فولى يزيد العراق مكان الحجاج فحقق نبوءة الكاهن ، وفتح يزيد جرجان وطبرستان ، وكتب الى الخليفة بالفىء الذى تحت يده وكان عظيما يبلغ ستة آلاف ألف فلما تولى عمر بن عبد العزيز ـ ولم يكن يحب المهالبة لشدتهم ويقول انهم جبابرة ـ طلب المال من يزيد فقال ان

(١) ليس هذا هو خالد بن عبد الله القسرى ·

الغنيمة كانت دون ما كتب به الى سليمان ، وأنه ذكر الستة الملايين للشهرة والمباهاة ، فلم يصدقــه عمر وسجنه وقال لــه : اتق الله وأد ما لديك فانها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها ٠ فبقى فى سجنه حتى مرض عمر مرض موته ، فهرب يزيد ثانيا الى البصرة ، فلما مات عمر سنة ١٠١هـ وتولى الخلافة يزيد بن عبدالملك ، استولى ابن المهلب على البصرة ، ذلك أنه كان بينهما عداء أيضا ، وكان ابن عبدالملك قد نزر لئن ظفر بابن المهلب ليقطعن من جســمه عضــوا ، ثم جرد حملة هزمت ابن المهلب ، وقتل سنة ١٠٢هـ ٠

هذه هى الخطوط الرئيسية لهذه الأسرة٠وكان المهلبكثير النسل حتى قيل أنه نسل ثلاثمائة ولــد ٠ وكان لــه أبناء وحفدة ذوو شجاعة وكرم وذوو عقل وأدب ، وقد ذكرنا من قبل أنهم ذوو فضــل على بنى أميــة بكفايتهم ايــاهم حرب الخــوارج ٠

وفى ضوء هذه اللمحة نذكر بعض خطبهم :

١ ـ خطبة يزيد بن المهلب بين يدى الوليد

حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ﷺ ثم قال :

« ٠٠٠ يا أمير المؤمنين ، ان بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفره فلســنا كافريه ، وقد كان من بلاءنا أهل البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام ، فى المشارق والمغارب ، مــا ان المنة علينا فيها عظيمة » ٠

وهذه الخطبة تبين مدى ما نال هذا القائد من مهــانة السجن والخوف منه ، وقد كان الوليد حين استأمنه سليمان

ليزيد طلب ان يرسل اليه ، فكان يزيد يخشى هذه المقابلة ، لهذا عد بلاء أهـل البيت من أجـل بنى أميـة منة لهم عليه وليست له عليهم ۰ واذا قرئت الكلمة المنة ـ بضم الميم ـ كان المعنى أنهم تحملوا فى ذلك مشقة كبيرة ۰

٢ ـ خطبة له يحرض أهل العراق على حرب يزيد

جرد يزيد بن عبدالملك حملة لحرب ابن المهلب تحت قيادة أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه الوليد ، وخطبة ابن المهلب تحريض على مواجهة هذه الحملة ۰

« ۰۰۰ ان هؤلاء القوم لن يردهم عن غيهم الا الطعن فى عيونهم والضرب بالمشرفية(١) على هامهم ۰

۰۰۰ انه قد ذكر لى أن هذه الجرادة الصفراء ـ يعنى مسلمة(٢) ـ وعاقر ناقة ثمود ـ يعنى العباس(٣) ـ والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه(٤) حتى كلمته فيه فأقره على نسبه ، فبلغنى أنه(٥) ليس همهما الا الالتماس فى الأرض، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعـا ـ وليس الا أنا ـ مـا برحت العرصة(٦) حتى تكون لى أو لهم ۰

(١) المشرفية ۰ السيوف المنسوبة الي مشارف الشام ـ قرى عربية تصنع بها السيوف ـ والهام جمـع هامـة وهي الرأس ـ يريد نقتلهم بسيوفنا ۰

(٢) كان نحيفا أصفر ۰

(٣) كانت أم العباس رومية وكان ازرق العينين احمر الوجه ، وهو يريد أنه ليس عربيا وأنه مشئوم كعاقر ناقة ثمود ـ ويقال أيضا أشأم من أحمر عاد والمراد بها ثمود ۰ لأنها تسمى أيضا عادا الآخرة ، وأما قوم هود فهم عاد الأولى ۰

(٤) ينفى نسبه ۰

(٥) هذا هو خبر ان قوله : « انه قد ذكر لى » ۰

(٦) الباحة والفسحة بين المساكن ـ يريد ما تركت هذه الأرض ۰

قالوا (١) : نخاف أن تعنينا (٢) كما عنانا عبد الرحمن ابن محمد (٣) ، قال (٤) : « ان عبد الرحمن فضح الذمار (٥) ، وفضح حسبه ، وهل كان يعدو أجله ؟ » ٠

ومن هذه الخطبة يتبين لنا أن أهل العراق كانوا يتقاعدون عن الحرب معه ، وهذا شأنهم مع الكثيرين الا أن يساقوا سوقا ٠ وبجانب ذلك كان الحسن البصرى يثبط الناس عن النهوض مع المهلب ، ويقول لهم : الزمر رحالكم، وكفوا أيديكم ، لا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ٠ وقد قتل يزيد فى هذه الموقعة ٠

٣ ـ مروان بن المهلب يرد على الحسن البصرى

وقف مروان يخطب أهل البصرة ليحرضهم على الذهاب مع أخيه ويرد كلام الحسن البصرى ، وكان بينهما أخذ ورد ٠

قال مروان :

« ٠٠٠ لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى (٦) يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه (٧) أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا ، وأن ننكر مظلمتنا ؟ أما والله ليكفن عن ذكرنا ، وعن جمعه الينا سقاط الأبلة ، وعلوج فرات البصرة ـ قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحد منا، أو لأنحين عليه مبردا خشنا » (٨) ٠

---

(١) العراقيون ٠ (٢) تحملنا المشقة ٠
(٣) هو عبد الرحمن الاشعث ٠ (٤) يزيد بن المهلب ٠
(٥) ما تجب حمايته من الاهل والوطن ٠
(٦) لم يذكر اسمه ٠ (٧) يسيل الدم منه ٠
(٨) أعامله بشدة ٠

فلما بلغت هذه المهانة الحسن قال : والله مـا أكره أن يكرمنى الله بهوانه لى · فقال بعض أصحـابه : لو أرادك وشئت لمنعناك · فقال لهم : أآمركم ألا يقتل بعضكم بعضا مع غيرى ، وأدعوكم الى أن يقتل بعضكم بعضـا دونى ؟ وبلغ ذلك مروان فاشتد عليهم فتفرقوا · ولكن الحسن ظل فى تثبيطـه النـاس عن بنى المهلب ، وانقطـع مروان عن شـتمه ·

واشتهر المهلب وبنوه بالسخاء المفرط ، وكان يزيد يجود حتى وهو فى محنته وسجنه ، وكان يزيد يدفع للحجاج كل يوم ألف درهم يشـترى نفسـه من عذابه ، فان لم يجدهـا عذبه ، وكان الناس يعاونون يزيد فى الحصول عليهـا ، فدخل عليه مرة بعض الشعراء·قيل الفرزدق ، وقيل الأخطل فمدحه بقولـه :

أبا خالد بادت (١) خراســان بعدكم
وصـاح ذوو الحـاجات أين يزيد

فلا مطـر المـروان بعـدك مطـرة
ولا اخضـر بالمروين بعـدك عود (٢)

فمـا لسـرير الملك بعـدك بهجـة
ولا لجـواد بعد جـودك جـود

فأعطـاه يزيد مائة الألف التى أعدها ليفتدى بها من العذاب ، فلما بلغ الحجاج ذلك قال : أكل هذا الكرم وأنت بالسجن ، وهبت لك عذاب اليوم ويوما بعده ·

---

(١) خربت ·

(٢) المروان : مر العظمى · ومرو الصغرى · كلتاهما بخراسـان وكانت الكبرى منذ عهد معاوية مسلحة للمسلمين · ومعسكرا ·

ومدحه شاعر آخر فقال :

فلم أر محبوسـا من النـاس ماجدا
حبـا زائرا فى السـجن غير يزيد

سـعيد بن عمـرو اذ أتاه أجـازه
بخمسـين ألفـا عجلت لسـعيد

وهو سعيد بن عمرو بن العاص ، كان صديقه وأراد أن يزوره وهو فى سجن عمر بن عبد العزيز · ادعى أن يزيد مدين له بخمسين ألف درهم ويريد أن يطالبه بها · فأذن له بالدخول عليه ، فلما عرفه بما احتال به ، أقسم ليدفعن له هذا المبلغ ودفعه ·

كان المهالبة مخلصين فى عملهم ، ولم يدبروا خروجا على الدولة بخراسان ، ويبدو أنهم لو فعلوا لنجحوا كما نجح أبو مسلم بعد ، لأن الخراسانيين يكرهون بنى أمية ·

٤ ـ الخـــــوارج

كان الخوارج من أشـد أصحاب علي اختلافا عليه ، كما أنهم من أقواهم أثر فى هزيمته وفشـــله أمام معــاوية ، طلعوا عليه بآراء مضطربة وبدا فى كلامهم التهديد والشدة من أول موقف لهم ، فاستنفدوا جـــزءا كبيرا من طاقتــه الحربية ، ثم آخذوه بما أشاروا به عليه ، وكان أمــر على كما قال معاوية : كنت فى أصلح جند وأطوعه وكان على فى أخبث جند وأعصاه ·

وأول ما بدأ هذا العصيان يوم صفين كان من جماعة منهم الأشعث بن قيس الكندى ، ومسعر بن فدكى التميمى، وزيد بن حصين الطائى ·· قالوا : القوم يدعوننـــا الى كتاب الله وأنت تدعونا الى السيف · وكان الأشتر النخعى يحمل على معاوية وقومه بقوة واقدام فقال هؤلاء : لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين والا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان ، فاضطر الامام الى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وما بقى منهم الا شرذمة قليلة ، فامتثل الأشتر ورجع · ثم حين قبل على التحكيم عبد الله بن عبـاس حكمـــا من قبله ، فأبى الخوارج وقالوا هو منك ، واختاروا أبا موسى الأشعرى· فلما خدعه عمرو عاد هؤلاء على على يقولون : لم حكمت الرجال ؟ لا حكم الا لله ·

وأول الخارجين بعد التحكيم هم جمـــاعة الحرورية ،

راجع اخبار الخوارج فى الكـــامل حـ ٢ / ١٠٥ إلباب ٤٩ ·
وانظر العقد الفريد · والملل والنحل للشهر ستانى ١ / ١١٥ ، وانظـــر « أدب الخوارج » للدكتورة سهير القلماوى ·

اكتسبوا هذا الاســـم من المكان الذى تجمعوا به ، وهو حروراء ــ قرية من الكوفة ــ وكان على رأسهم عبد الله بن الكواء ، وعبد الله بن وهب الراسى ، وحرقوص بن زهير البجلى الذى كان يعرف بذى الثدية ، وكان جمـــع هؤلاء اثنى عشى ألف رجل كلهم أهل صلاة وصيام ٠

والخوارج فى جملتهم من البدو الأعراب ذوى الخشونة والصراحة التى لا تعرف شيئا من اللين والتهذيب ٠ ويذكر المبرد فى كامله أن رسول الله ﷺ عندما قسم غنائم خيبر ، وكان قد جعلها لمن شهد الحديبية فقط ٠ وقف عليه رجــل مضطرب الخلق غائر العينين ، فقال : لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله ٠ وفى رواية أنه قال : ما عدلت منـــذ اليوم ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : ومن يعدل اذا أنا لم أعدل ؟ ٠ فأراد عمر بن الخطاب قتله ٠ فقال له النبى : دعه انه سيكون لهذا وأصحابه شأن ٠ وقيل : أمر رسول الله أبا بكر بقتله ، فمضى وعاد يقول رأيته راكعا ، وكذلك فعــل عمر وعلى ٠ وهى رواية لا تطمئن اليها النفس ، ورويت فى هؤلاء أحاديث منها قوله ﷺ : « سيخرج من ضيضىء هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق الســـهم من الرمية ، تحقر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى الخويصرة ٠ أو هو حرقوص بن زهير المعروف بذى الثدية ، فقد كان له ثدية بارزة كثدى الأنثى ٠

وخرج اليهم على بنفسه فناظر ابن الكواء حول موضوع التحكيم مناظرة قطع فيها ابن الكواء ، وكان يقول لعلى : أنظرنا فى هذه المسألة حتى نفكر ، ثم يقول : وأنظرنا فى هذه المسألة حتى نفكر ، ثم يقول : وأنظرنا فى هذه أيضا، ثم أسلس القوم ورجعوا الى الكوفة فصلوا بها العصـر

خلف على ، ولكنهم رجعوا ثانيا ، فأرسل اليهم عبد الله بن عباس فقهرهم فى جداله أيضا ، فقالوا انه من قوم يقول الله فيهم : بل هم قوم خصمون(١) ٠

وأول أمير عليهم كان عبد الله بن وهب الراسبى من الأزد ، وكان ذا رأى ونجدة ، ولم يكن راغبا أول أمره فى هذه الامارة ولكنهم أصروا على اختياره ، فتبرأ من الحكمين وممن رضى بقولهما ، وحكم بكفر على بن أبى الب ، وسمى هؤلاء المحكمة لأنهم قالوا : لا حكم الا لله ، واضطر على أن يحاربهم فأفنى معظمهم فى موقعة النهروان حتى لم يبق منهم الا اثنا عشر رجلا تفرقوا فى البلاد ، وكونوا فرقا جديدة(١) ، وكبار فرقهم هم : المحكمة والأزارقة والنجدات والبهسية والعجاردة والأباضية ، والثعالبة ، والصفرية ، وهى الفرق الأصلية التى انشعبت منها فروع أخرى ٠

ورأى الخوارج عامة أن الامامة لا يشترط أن تكون فى قريش ، بل يجوز أن يولاها كل من تتوافر فيه شروطها ، وكفروا عليا ، وقبلوا حكم عثمان ستة أعوام فقط ، أما أبو بكر وعمر فقالوا بصحة خلافتهما ٠

ومن رؤوس المحكمين عروة بن أدية ، وهى أمه ، ويقال أيضا عروة ابن حدير ، وهو أبو ٠ وهوأول من حمل السيف ، وجرأته وصراحته تمثل منهج الخوارج وطريقهم ، حمل على الأشعث بن قيس الكندى ، وقال له :

---

(١) يجدر بطلاب الدعوة أن يرجعوا الى كامل المبرد لقراءة ما كتب عن الخوارج ٠

(١) كان في الكوفة اذ ذاك نحو الفين آخرين لم يدخلوا معركة النهروان ٠

ما هذه الدنية ، أشرط أوثق من شرط الله · وحمل عليـه بالسيف فولى فضرب به عجز بغلته ·

وكان عروة ممن نجـــا من موقعة النهروان وبقى حتى قتله زياد ابن أبيه صبرا ، فقد سأله زياد عن أبى بكر وعمر وعثمان ، فأثنى على الأولين وقال : كنت أوالى عثمان على أحوالة ست سنين ، ثم تبرأت منه ، وشهد عليه بالكفـر ، وقال كنت أتولى عليا حتى حكم ثم تبرأت منه ، وشهد عليه بالكفر · وأما معاوية فسبه سبا قبيحا ، وسأله زيادة عن نفسه فقال له عروة : أولك لزنية وآخرك لدعوة وأنت فيما بينهما عاص ربك ، فأمر به فضرب عنقه · وكان معه مولى له فقال له زياد : صف لى أمره واصدق · فقال · ما أتيته بطعام فى نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط (١) ·

وليس هذا نادرا فى الخوارج ، فان القوم كـانوا ذوى اخلاص وعبادة ، وتشبث بما يعتقدون ، وقد مر بك وصف أبى حمزة الشارى أصحابه فى خطبته ، وليس هذا الوصف مبالغا فيه ، ولا خاصا بصـــحبه ، وقد وجه على بن أبى طالب ابن عباس اليهم أول أمرهم ليفاوضهم ، فرأى منهم جباها قرحة لطول السجود ، وأيديا كثفنات الابل ، عليهم قمص مرحضه (٢) وهو مرداس بن حدير برجل يهنأ (٣) بعيره فخر مغشيا عليه، فظن الأعرابى أنه صرع·فلماأفاق قال له : ليس بى ما خفتـــه على ، ولكنى رأيت بعيـــرك هرج (٤) من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ·

---

(١) أسند المبرد هذا الحديث مرة الي زياد وأخرى الى ابنه عبيد ·

(٢) بللها العرق ·

(٣) يضع القطران على جروحه ·

(٤) يقال هرج البعير ـ كفرح ـ اذ سدر من شدة الحر والـــملاء بالقران ·

بهذا الاخلاص للدين ، وبالشجاعة البدوية الجريئة ، واللسان العربى الفصيح ، وصفاء القريحة والذهن ، قامت فرق الخوارج ، وظلت تناضل فى سبيل فكرتها ، كلما قتل رئيس طائفة ومن معه قامت طائفة أخرى برئيسها ولم يقتصر مقامهم على العراق والأقاليم العربية ، بل انتقلوا الى بلاد فارس ، فكان لهم بها شأن كبير ، ولكن المهلب بن أبى صفرة وبنيه ظلوا يناوئونهم وينالون منهم فى المعارك العديدة حتى أضعفوهم وفلوا شوكتهم ، فهان حربهم على الذين جاءوا بعد المهلب ، ثم قضى عليهم نهائيا فى أوائل الدولة العباسية ·

ومع اتفاقهم فى آداب وآراء دينية عامة ، كانوا على خلاف فيما بينهم على آراء أخرى ، ولهذا تعددت فرقهم ، وأبرز ما كان من الخلافات بينهم أن جماعة منهم آثروا القعود عن الحرب ، وسموا القعدة · ومن أشهرهم الصفرية ، وكان عمران بن حطان رأسا فيهم ، فقد أشفق على بناته من اليتم اذا هو قتل ، ولكن ظل متنكرا يتنقل بين القبائل ويتسمى بأسماء مختلفة وينتسب الى قبائل مختلفة حتى انتهى الى جماعة من الأزد باليمن فبقى معهم حتى مات ،وله أقاصيص طريفة وشعر جميل(١) · وكان قطرى بن الفجاءة المازنى ــ وهو من شجعان الخوارج وشعرائهم ــ يقرع القعدة ويلومهم ، وكان معدن الأيادى رئيس الصفرية أو بصدد أن يكون رئيسا ، فقال شعرا جاء فيه :

سلام على من بايع الله
وليس على الحزب المقيم سلام(٢)

(١) انظر الكامل ١٤٦/٢ ·
(٢) الشارى الذى باع نفسه لله ، والحزب المقيم هم القعدة ·

فبرأت منه الصفرية ، وقالوا خالفت لأنك برئت من القعد ، يعنون خالف مذهب الخوارج فى الصدق والصراحة وقتل على بن ابى طالب رجلا منهم فقال : حبذا الروحة الى الجنة · فقال عبد الله بن وهب : ما أدرى الى الجنة أم الى النار · فقال جماعة : نرى الرجل قد شك ، وقد جئنا مغترين به ، فمال ألف منهم أو نحوهم الى أبى أيوب الأنصارى ، وكان على ميمنة على ، ولا ندرى لم قال ابن وهب هذه الكلمة ، ولا ما أراد بها ، فانه من الغالين فى الحروب ·

والخوارج بكل فرقهم يأنفوق من الكذب ، ومن ارتكاب الكبائر والمعاصى الظاهرة ، وهم أكثر ميلا الأخذ بظواهر النصوص ، وهم يمثلون الايمان الصادق العميق الذى لا يعرف تهاونا ولا تأويلا ، ويرون من الدين أن يبذل الشخص النصيحة لكل من يحتاجها ولو كان عدوا له ، لأن كتمان النصيحة من الكذب ومن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو كتمان الحق ، ووصفوا من يتستر منهم وينكر أنه من الخوارج بالردى أى الهالك ·

وأورد كل من المبرد وابن عبد ربه قصة طريفة فى هذا بين عبد الملك وبعض الخوارج لا نرى بأسا من سردها ولكن ابن عبد ربه أوردها موجزة ونسبها للوليد · وهى تذكر فى معرض فصاحة الخوارج وثباتهم معا ·

وخلاصة ما جاء بها أن أحد الخوارج قدم الى الخليفة ليعاقبه ويقتص منه · فرأى قبل أن يأمر بقتله أن يحادثة فأعجبة فهمه وعلمه وأدبه وذكاؤه ·· فرغب فيه · واستدعاه الى الرجوع عن مذهبه فحاجه ببصيرة ورأى ، فألح فى استدعائه فقال الخارجى : لتغنك الأولى عن الثانية ·· وقد قلت فسمعت فاسمع أقل · ثم أخذ يتحدث

عن مذهبهم وحجتهم حتى ظن عبد الملك كما قال : ان الجنة خلقت لهم ، وأنه أولى بالجهاد منهم ، ــ فرجع الى نفسه وقال : لست تجيب بالقول والله لأقتلنك . وقبل أن يصدر أمره بقتله دخل عليه ابنه مروان باكيا ، وكان غلاما أبيا عزيز النفس ، فشق مرآه على أبيه واخذ يهدئه فقال له الخارجي دعه يبك ، فانه أرحب لشدقه . وأصح لدماغه، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها .. فعجب عبد الملك أنه وهو موقوف للقتل لا يشغله شيء عن دعوته . فقال الخارجي : ما ينبغي أن يشغل المؤمن عن قول الحق شيء فصفح عن قتله ولكنه أمر بحبسه . وقال له أخشى أن تفسد على بألفاظك أكثر رعيتي . من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى .

أما أمثلة شجاعتهم واستهانتهم بالموت فى سبيل مبدئهم فقد يطول بنا القول اذا ذهبنا نذكر الأمثلة العديدة لمواقفهم. وقد اختلفت حالهم عن حال الشيعة كثيرا . لأن الشيعة أخذوا بمبدأ التقية والتظاهر بما ليسوا عليه . أما الخوارج فآثروا الصراحة والجهر بمبادئهم . ونذكر بعض مشهوريهم . وتجد فى سيرتهم مثلا من شجاعتهم واصرارهم وايثارهم التضحية فى سبيل مبدئهم .

١ ــ حوثرة الأسدى :

كان منتحيا بفارس . فلما علم بقتل على كتب الى حابس الطائى أن يتولى أمر الخوارج ريثما يصل اليه بجمع حتى يتعاضدا ضد معاوية . واجتمع جيشاهما مع أصحاب النخيلة بجانب الكوفة وهى المكان الذى فاوض فيه على الخوارج من قبل ــ وكان معاوية اذ ذاك قد دخل الكوفة وتمت بيعته . ورهب معاوية هذا الجمع وأراد الحسن بن

على أن يحاربهم فأبى · فاستدعى والد حوثرة وقال : اكفنى ابنك · فذهب اليه أبوه ودعاه الى الرجوع فلم يستجب له · وألح الوالد وأصر الابن · فقال : سأجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه فقال : يا أبت أنا والله الى طعنة نافذة أنقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى الى ابنى · فرجع الرجل يائسا ·

وأعد معاوية جيشا من أهل الكوفة · لأنهم اعداءه وأنصار على · ولم يسلموا له الا كرها بتسليم الحسن · وفى قتالهم كسب له · وفى نصرهم كسب أيضا · فلما راجههم حوثرة قال لهم : يا أعداء الله · أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه · واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه ! ! · فخرج اليه أبوه فدعاه الى البراز فقال : يا أبت · لك فى غيرى مندوحة · ولى فى غيرك عنك مذهب · فحمل عليه رجل من طيىء فقتله · فلما رأى أثر السجود قد لوح جبهته ندم على قتله · لما علم أنه من ذوى العبادة وقيام الليل ·

ويملك الانسان العجب والاعجاب · من اصرار حوثرة على رأيه · كما يقدر نبله وحسن مسلكه من رفضه مبارزة والده ·

٢ ـ مرداس بن أدية أخو عروة :

وأدية أمه وأبوه حدير ، وهو أبو بلال من بنى ربيعة ، ومن رءوس الخوارج وكانوا يعظمونه · وكان مجتهدا كثير الصواب فى لفظه · وكان لا يرا بأسا من الأخذبالتقية، ولما علم أن عبيد الله بن زياد يتوعد البلجاء امرأة تميمية من رهط سجاح المتنبئة ومن نساء الخوارج ـ ذهب اليها وأمرها أن تستتر فلم تقبل · وقطع عبيد الله يديها ورجلها

ورمى بها فى السوق · فمر أبو بلال والنســاء مجتمعون حولها · فلام نفسه أن تكون امرأة أزهد فى الدنيا وأطيب نفسا عنها منه · وأعلن عــداءه لعبيد الله وليزيد ، وكان الخليفة فى ذلك الوقت · فلما حبس عبيد الله عــددا منهم وبينهم مرداس ، رأى السجان اجتهاده فى العبادة وحلاوة منطقه · فعرض عليه أن يطلقه كل ليلة على أن يعود الى السجن قبل الفجر · فمكث على ذلك مدة · ثم أعلن عبيد عزمه على قتل مسجونيه جميعــا ، فاذا مرداس عائد فى موعده · وأبى أن يهرب وقال لا ألقى الله غادرا · ولكنــه نجا ولم يقتل · فلما رأى جد ابن زياد فى تعقب الخوارج عزم على الخروج الى فنزآسك ـ بين رامهرمز وأرجان ـ فأقام بمن معه فكانوا لا يقاتلون الا من قاتلهم · ونمـــا عددهم حتى كان أربعين رجلا · فمرت به قافلة تحمل مالا لابن زياد · فحط ذلك المال وأخذ منه وقومه أعطيتهم وترك الباقى وقال : قولوا لصاحبكم انما قبضنا أعطياتنا ·

ووجه الى أبى بلال أسلم بن زرعة فى ألفين فلم يقـــدر ورجع خشية الموت وقال : لئن يذمنى ابن زياد حيا خير من أن يمدحنى ميتا · وكان الصبية فى الأسواق والشوارع يصيحون به اذا مر : « أبو بــلال وراءك » ـ وانتدب ابن زياد اليه جمعا أمر عليهم رجلا يسمى عباد بن أخضــر ـ وهو عباد ابن علقمة المازنى (١) · فصـــادف وصـــوله وصول القعقاع بن عطية الباهلى خراســان يريد الحج · فانضم بمن معه الى عباد · فوقع القعقاع أسيرا · فقــال لمرداس : لست من أعدائك انما قدمت للحج فأطلقه فانضم ثانيا لعباد · وكان الجيش يزيد على أربعـــة آلاف · فلم ينالوا من الخوارج شيئا · بل قتـــل القعقاع ـ فلما كان

(١) الأخضر زوج أمه فنسب اليه · ولكن علقمه أبوه ·

وقت صلاة الجمعة نادى أبو بلال بالموادعة حتى يصلوا فرمى القوم جميعا اسلحتهم · ولكن الحرورية أطالوا الصلاة على عادتهم وفرغ عباد وصحبه قبلهم فمالوا عليهم فقتلوهم وأتى برأس مرداس الى ابن زياد حيث أرسله الى يزيد · وكان ذلك فى سنة ٦١ هـ السنة التى قتل فيها الحسين بن على ·

فهذا مثل آخر من وفائهم وشجاعتهم حتى ان ما يقرب من خمسة آلاف شخص لا ينتصرون على أربعين الا بالغدر والخيانة · وهذا على عكس ما كان يفعل نجدة بن عويمر وعبد الله بن الزبير اذ كانا يصليان معا بالحرم يوم الجمعة ويمسكان عن القتال من أجل الحرم ·

٣ ـ قطرى بن الفجاءة :

هو قطرى بن الفجاءة المازنى من الخوارج الأزارقة · خرج زمن مصعب بن الزبير عندما تولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله ، وظل بعد مصعب يحارب عبد الملك والحجاج عشرين سنة · كان أتباعه خلالها يسلمون عليه بالخلافة ويسمونه أمير المؤمنين · وكان الحجاج يسير اليه الجيوش متتالية وهو يستظهر عليهم · وله مواقف بطولية كثيرة · وكان مهيبا أمام خصومه حتى ان بعضهم خرج لمبارزته فما ان حسر قطرى عن وجهه حتى ولى الرجل · وهو يقول : لا يستحى انسان أن يفر منك ·

وفى سنة ثمان وسبعين توجه اليه جيش بقيادة سفيان ابن الأبرد الكلبى فظفر عليه وقتله · وقطع رأسه وأرسل الى الحجاج · ولم يعقب قطرى · وبقدر ما كان شجاعا مقداما كثير الحرب كان شاعرا عذب الألفاظ جيد المعانى· وكان خطيبا مفوها ذا قدرة بالغة على التأثير · ونورد شيئا من شعره وخطبه · فمن شعره :

أقول لهـا وقـد طارت شـعاعا
من الأبطال : ويحك لن تراعى (١)
فانك لو سـألت بقـاء يـوم
على الأجـل الذى لك لم تطـاعى
سـبيل الموت غـاية كل حى
وداعيـه لأهـل الأرض داع
وما للمـرء خـير فى حيـاة
اذا ما عـد من سقط المتـاع (٢)

قال ابن خلكان عن هذه الأبيات انها تشجع أجبن خلق الله ، وما أعرف فى هذا الباب مثلها . وما صدرت الا عن أبية وشهامة عربية .

ومن شعره أيضا :

لعمـرك انى فى الحيـاة لزاهـد
وفى العيش ما لم ألق أم حـكيم (٣)
لعمرك انى يـوم ألطم وجههـا
على نائبـات الدهر جد لئيم (٤)
ولو أبصرتنى يـوم دولاب أبصرت
طعان فتى فى الحرب غير ذميم (٥)
فلو شـهدتنا يـوم ذاك وخلينـا
تبيح من الكفـار كل حـريم (٦)
رأت فتيـة باعـوا الاله نفوسهم
بجنـات عـدن عنـده ونعيـم

---

(١) الشعاع كسحاب التفريق ـ يريد أن الخوف جعل خواطره متفرقة .

(٢) سقط المتاع الذى لا قيمة له . (٣) أم حكيم زوجة

(٤) نائبات الدهر كوارثه ـ يريد أنه لو ضربها لكان لئيما جدا لا يساعدها على نكبات الدهر (٥) دولاب بلده بالاهواز وكان بها المعركة التى قتل بها نافع بن الازرق

(٦) يريد بالكفار جيش المسلمين الذين ليسوا من الخوارج .

ومن خطبـــه :

حمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

« ٠٠٠ أما بعد ٠ فانى أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل (١) ٠ وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم حبرتهــا (٢) ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضـــرارة ٠ خوانة غـدارة ، حائلة (٣)زائلة، ونافذة بائدة أكالة غوالة٠ لا تعدو اذاهى تناهت الى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تــذروه الرياح (٤) ، وكان الله على شىء مقتدرا » ٠ مـــع أن امرءالم يكن منها فى حبرة (٥) الا أعقبته بعدها عبرة (٦) ، ولم يلق من سرائها بطنا الا منحته من ضرائها ظهرا (٧) ، ولم تطله (٨) فيها

---

(١) تزينت وجملت فى نظر الناس بالقليل ٠

(٢) نعمتها وجمالها ٠

(٣) متحولة متغيرة ٠

(٤) الآية من سورة الكهف ٠ والهشيم الحشيش الجاف ٠

(٥) الحبرة السرور والبهجة ٠

(٦) العبرة الدمعة ، يريد أن سرور الدنيا يعقبه حزن ٠

(٧) تلتفت وجهها عنه ٠

(٨) تطله : ينزل عليه منها بلل قليل كالطل ٠ يريد لا تنيل الانسان منها خيرا قليلا الا أعقبته بشر كثير ٠

غيثة رخاء الا هطلت عليه مزنة بلاء ·· وحـرى (١) اذا أصبحت له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وان جانب منها اعذوذب واحلولى (٢) ، أمـر (٣) عليـه جـانب وأوبى (٤) ، وان أتت أمرا من غضارتها (٥) ورفاهتهـا نعما أرهقته (٦) من نوائبها نقما · ولم يمس امرؤ منهـا فى جناح أمن الا أصبح منها على قوادم (٧) خوف · غرارة غرور (٨) ما فيها ، فان ما عليها ، لا خـير فى شىء من زادها الا التقوى · من أقل منها استكثر مما يؤمنه (٩) · ومن استكثر منها مما يوبقه (١٠) ويطيـل حزنه ويبكى عينيه ، كم واثق بها قد فجعته ، وذى طمأنينة اليها قـد صرعته ، وذى احتيال قد خدمته ، وكم من ذى أبهة (١١) بها قد صيرته حقيرا ، وذى نخوة (١٢) قد ردته ذليـلا ، وذى تاج قد كبته (١٣) لليدين وللفم (١٤)، سلطانها دول (١٥)

(١) الدنيا خليفة بذلك ، أى هو أمر متوقع منها ·

(٢) عذب وحلا · (٣) ساق المرارة جانب آخر ·

(٤) صار ذا وباء · (٥) الغضارة · نضارة الزرع وخضرته ·

(٦) أكثرت عليه واكدته ·

(٧) القوادم جمع قادمة ، وهى الريش الذى فى أطراف الجناح ، والريش الصغير تحته يسمى الخوافى ·

(٨) غرور صيغة مبالغة من غر ، كغرارة ، والشيطان يسمي الغرور لأنه يغر كثيرا ويخدع · يريد كل شىء فى الدنيا يغر ويخدع ·

(٩) من أخذ من الدنيا قليلا ، وقنع ولم يطمع توفرت له أسـباب الأمان فى الآخرة ، لأنه أحرى أن يكون بعيدا عن الحرام ·

(١٠) يوقعه فى الحرام ويهلكه · (١١) عظمة ونعمة ·

(١٢) يقال نخا ينخو نخوة اذا افتخر وتعظم كنخى ، أى أن الدنيا ردت كثيرين من ذوى العظمة الى الحقارة والذلة ·

(١٣) ألقته على وجهه · يقال : كبه فاكب ، كنسل الطائر ريشـه فانسل · من أفعال تتعدى بدون الهمزة ، وتلزم مع الهمزة ، وفى القرآن : أفمن يمشى مكبا على وجهه ·

(١٤) يداه وفمه على التراب ـ كقوله : فخرت صريعا لليدين والفم ·

(١٥) يتحول فلكل حظ وحرمان ·

وعيشها رنق (١) ، وعذبها أجاج (٢) ، وحلوها مر ، وغذاؤها سمام (٣) ، وأسبابها رمام (٤) ، وقطاعها سلع (٥) ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها (٦) بعرض اهتضام (٧) ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وضعيفها منكوب ، وجارها وجامعها محروب (٨) · مع أن من وراء ذلك سكرات الموت وزفراته وهول المطلع (٩) ، والوقوف بين يدى الحكم العدل ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ·

ألستم فى مساكن من كان أطول منكم أعمارا ، وأوضح آثارا ، وأعد عديدا ، وأكثف جنودا ، وأعتد عتادا (١٠)، وأطول عمادا ، تعبدوا الدنيا أى تعبد ، وآثروها أى ايثار، وظعنوا عنها بالكره والصغار ، فهل بلغكم أن الدنيا أسمحت لهم نفسا بفدية (١١) ، أو أغنت عنهم فيما أهلكتهم به بخطب بحيلة (١٢) ، بل أرهقتهم بالفوادح (١٣) · وضعضعتهم بالنوائب ، وعفرتهم للمناخر ، وأعانت عليهم ريب المنون ، وعفرتهم بالمصائب ، وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها ، وآثرها وأخلد اليها ، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد الى آخر الأمد ، هل زودتهم الا السغب (١٤) ، أو

(١) مكدر · (٢) ملح · (٣) جمع سم ·
(٤) حبالها متقطعة ـ أى لا تؤمن ·
(٥) القطاع الصرام والحصاد ، والسلع شجر مر أو سام أو نبتة خبيثة ·
(٦) الحصين · (٧) ظلم ·
(٨) مصاب بالحروب وهو الويل والدمار ·
(٩) ما يطلع عليه ـ يريد من شون الآخرة · (١٠) اقوى عدة ·
(١١) هل سمحت نفس الدنيا التى آثروها بشىء يفتدون به أنفسهم·
(١٢) لم تعطهم حتى ما يحتالون به لانقاذ أنفسهم ·
(١٣) الخطوب التي تثقل ولا يطاق حملها ·
(١٤) الجوع ·

أحلتهم الا الضنك(١) ، أو تورث لهم الا الظلمة أو أعقبتهم الا الندامة ؟ أفهذه تؤثرون أم عليها تحرصون ، أم اليهـا تطمئنون ؟ ٠

يقول الله تبارك وتعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » (٢) ، فبئسـت الدار لمن نهم بها ،ولم يكن فيهـا على وجل منهـا ، اعملوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لابد ، فانما هى كما نعت الله عز وجل: « لعب ولهو وزينة وتفاخـر بينكم وتكـاثر فى الأموال والأولاد » (٣) ٠ فاتعظوا فيها بالذين يبنون لكل ربع آية يعبثون ، ويتخذون مصـانع لعلهم يخلدون(٤) ، وبالذين قالوا من أشـد منـا قوة(٥) ، واتعظوا بمن رأيتم من اخوانكم كيف حملوا الى قبورهم فلا يدعون ركبانا(٦) ، وأنزلوا الأحداث فلا يدعون ضيفانا(٧) ، وجعـل لهم من الضريح أكنان (٨) ، ومن التراب أكفان ، ومن الرفات(٩) جيران ، فهم جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما(١٠) ان أخصبوا لم يفرحوا ، وأن قحطوا لم يقنطوا ، جمع وهم آحادا (١١) ، جيرة وهم أبعاد ، متناءون وهم يزارون ولا

(١) المكان الضيق ٠ (٢) سورة هود آية ١٦ ٠
(٣) سورة الحديد ٠
(٤) مقتبس من الآية ١٢٩ من سورة الشعراء ٠
(٥) من سورة فصلت الآية : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى ايام نحسات » ٠
(٦) ليس الذى فى النعش يسمى راكبا ٠ (٧) جمع ضيف ٠
(٨) الضريح القبر ، والأكنان جمع كن ، ما يستتر به الانسـان ويستكن فيه ٠
(٩) حطام وبقايا الأجسام البالية ٠ (١٠) ظلما واعتداء ٠
(١١) مجتمعون فى مكان واحد ولكن لا صلة بينهم ٠

يستزيرون ، حلماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم ، لا يخشى فجعهم ، ولا يرجى دفعهم · وهم كمن لم يكن · قال الله تعالى : « فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » (١) · استبدلوا بظهر الأرض بطنا ، وبالسعة ضيقا ،وبالآل (٢) غربة ، وبالنور ظلمة ، فجاءوها(٤) كما دخلوها ، حفاة عراة فرادى ، غير أن ظعنوا(٤) بأعمالهم الى الحياة الدائمة ، الى خلود الأبد ، يقول الله تبارك وتعالى : كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » (٥) ·

فاحذروا حذركم الله ، وانتفعوا بمواعظه ، واعتصموا بحبله ، عصمنا الله واياكم بطاعته ، ورزقنا واياكم أداء حقه ·

٤ ـ شبيب بن يزيد :

هو أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى من ذهل بن شيبان ، من مشهورى الخوارج خطابة وشجاعة ، وهو من الأبطال العالميين ، وكبار الثائرين على بنى أمية، داهية ذا طموح وعنف · قال الجاحظ : كان يصيح فى جنبات الجيش اذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد ، وكانت أمه جهيزة وزوجته غزالة من ذوات الشجاعة النادرة ، تخوضان الحروب ببسالة وجراءة · وكان ادعى الخلافة وتسمى أمير المؤمنين ·

---

(١) سورة القصص الآية ٥٨ ·
(٢) الأهل والأقارب ·
(٣) جاءوا الى الأرض ·
(٤) رحلوا وانتقلوا ·
(٥) سورة الأنبياء آية ١٠٤ ·

ظهر شبيب فى خلافة عبد الملك وحينما كان الحجاج واليا على العراق ، وظهر بالموصل ، فبعث اليه الحجاج حملات متتالية فهزمها جميعا ، وكانت خمسا قتل فيها خمسة قواد · ثم خرج من الموصل يريد الكوفة ، وخرج اليها الحجاج من البصرة ، ولكن الحجاج أغذ السير ، ولقرب مكانه دخلها قبل شبيب ، وكان شبيب يريد أن يقابله قبل أن يدخلها ، وتحصن الحجاج بقصر الامارة وأغلق أبوابه ،و دخل شبيب وأمه وزوجة صبحا ، فلم ينزل الحجاج اليه ، وقتل شبيب حرس القصر ، ولكنه لم يستطع اقتحامه لاحكام أبوابه ، وأعياه وأصحابه فتحه ، وأخذ يضربه بعمود كان بيده فنقبه فقط ولم يكسره ، ويقال ان هذا النقب ظل بالباب حتى خرب القصر ، ودخلت غزالة مسجدالكوفة فصلت به ركعتين ،قرأتفىالأولى سورةالبقرة وفى الثانية سورة آل عمران · وذلك وفاء بنذر كان لها ، وصلى معها سبعونر رجلا ، كل هذا والحجاج معتصم بالقصر لم يجرؤ على النزول اليهم ، وقد عيره بهذا عمران بن حطان ــ وكان الحجاج يطارده ــ فقال :

أسد على وفى الحروب نعامة
فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت الى غزالة فى الوغى
بل كان قلبك فى جناحى طائر

وازاء عجز الحجاج أرسل عبدالملك جيشا كثيفا من الشام عليه سفيان بن الأبرد الكلبى · فلما وصل الكوفة خرج الحجاج أيضا ، وتكاثر المحاربون على شبيب فانهزم وقتلت أمه وزوجه ، ففر مع فوارس من جيشه ، فلما كان على جسر جبيل ، وهو نهر بالأهواز نفر به جواده فألقاه فى الماء

فغاص ولم يستطع النجـاة بنفسه لثقل الحـديد الذى كان عليه ، وبعد أيام طفا وقذفت به المياه الى الشاطىء ، فحمل على البريد ويقال ان الحجاج شق بطنه وأخرج قلبه فوجده صلبا كالحجر اذا ضربت به الأرض نبا عنها ، فشقه فكان بداخله قلب صغير كالكرة ، فشق أيضا فوجد به علقة الدم بداخله ، وكان غرقه سنة سبع وسبعين ٠

ومن العجيب أن الحجاج كان اذا سمع عن غزالة يمتلىء قلبه رعبا ، وفى هذه المعركة اختلط عليه أمره وخلع فؤاده الفزع وكان أثناء هربه يخلط فى كلامه ٠ وقد كانت غزالة تتناوب قيادة الجيش هى وزوجها شبيب ، وكانت باسـلة تخوض صدور الجيش فتفرقهم وتمزقهم، وهى فى هذه المعركة لم تقتل مهزومة،بل قتلت خدعة وغدرا ٠ غافلها بعض جنود الحجاج ورموهـا من خلف بينمـا كانت تهجم عـلى جيش الحجاج ويفر منها ، وبعد موت غزالة قوض جند شـبيب ، ولحقته الهزيمـة ٠

هذا طرف من أخبار الخوارج ، وهم فرقة اسلامية ذات شأن فى تاريخ الاسلام ، ولا يجمل بالداعية المسلم ألا يكون ملما بطرف من أخبارهم ، وفى أخبار زهدهم وروعهم مـدد كبير للدعاة ٠ أما خطباؤهم فهم كثر أيضا نذكر بعضا منهم فيما بعـد ولم يكن الخوارج كلهم فرقـة واحـدة ولا مبـادئهم كلهـا متحدة ٠ بل اختلف اجتهـادهم اختلافا واسـعا ، ومرجعهم آيات القـرآن ، وقـد اختلفت نظرتهم اليها واتسـع تأويلهم ، حتى قال فيهم أبو أمامـة الصحابى الجليل : من قتلوه فهو فى الجنـة ، ومن قتلهم فهو فى الجنة ، وتلا الاية الكريمة « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ٠ يريد أنهم أولوا القرآن فزاغوا فى تأويلهم ٠ وفى المكـاتبة

التى دارت بين نافع الأزرق ونجـدة بن عويمر مثل واضح لهذا التباعد فى التأويل · ومع كل هذا كانوا صـادقى الايمان والاصرار على عقائدهم ، حتى انهم يرون أن قتل الامام على قربان يثاب عليه فاعلـه · ويقـول عمران ابن حطان فى عبد الرحمن بن ملجم :

يـا ضربـة من تقى مـا أراد بهـا
الا ليبلـغ من ذى العرش رضـوانا

انـى أفكـر فيـه ثم أحسـبه
أوفى البريـة عنـد الله ميزانا

ولم يكـن من السـهل أن ينـاظروا ويقنعـوا ، بل كان استمساكهم بعقيدتهم بالغ الحد ، على أن كثيرين منهم نفروا ابن نافع لما أحل وحرم ولما استباح من قتل النساء والأطفال ولكنهم كانوا على غير طريقة الشيعة المتسترة المخادعـة تمسكا بمبدأ التقية ، والذين أخذوا بالتقية سموا القعدة ، وكان عمران بن حطان منهم ، وقد أشرنا الى حياته · وأدب الخوارج فى جملته يمثل الأدب العربى الصريح وبلاغتهم قوية لأنهم من البـدو الخلص ، الأصـلاء فى اللغة ، وقد أفرد ابن عبد ربه مكانا فى عقدة لدعاء الأعراب ، وكلامهم وخطبهم ، وأساليبهم فيها جميعا تهز النفوس وتأخذ بمجامع القلـوب ·

ويكفى فى مقام الحديث عن الخطابة أن نتحـدث عن الأزارقة وعن بعض رجال الخوارج عدا من ذكرنا ·

١ ـ الأزارقـة :

هم أصحاب نافع بن الأزرق ، بايعوه أميرا عليهم وسموه أمير المؤمنين ، وخرجوا معـه من البصرة الى الأهـواز ،

وانضم اليهم خـوارج عمان واليمامة فصـادروا أكثر من عشرين ألفا ۰ استولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس وكرمان وجبوا خراجها ، وكان ذلك فى أيام عبدالله ابن الزبير ، فقتلوا عماله بهذه النواحى ۰ وهذه الفرقـة أشد فرق الخوارج شوكة وأكثرها عددا ، وكان بها عـدد كبـير من أمراء الخـوارج ومشـهوريهم ـ منهم قطرى بن الفجاءة المزنى ، وعمر بن عمير العنبرى ۰۰ كانوا كمـا قال الشهرستانى زهـاء ثلاثين ألف فـارس ، وكان والى البصرة من قبل الزبير هو عبد الله بن الحـرث بن نوفل ، فأرسل اليهم صاحب جيشه مسلم بن عبيس فقتلوه وهزموا أصحابه ، فأرسل اليهم آخر فقتلوه ، فأرسل ثالثا فقتلوه ، حتى خشى أهل البصرة على أنفاسهم وبلدهم ، فندب اليهم المهلب بن أبى صفرة ، فظل يناضلهم وأولاده تسـعة عشر عاما ، حتى فرغ من أمرهم فى أيام الحجاج وقتل نافع نفسه فى حروب المهلب سنة ستين هجرية ۰ فبايعوا بعده قطرى ابن الفجاءة المازنى ، وتسمى أيضا أمير المؤمنين ۰ كان هذا الحزب كله يكفر عـلى بن أبى طـالب ، ويقولـون ان الاية القرآنية « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيـاة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام » (۱) ۰

نزلت فى شأنه ، كما كانوا يزكون عبد الرحمن بن ملجم، ويقولون : ان الله أنزل فى شأنه : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » ۰ ثم كفروا أيضا عثمان وطلحة والزبير ، والسيدة عائشة ـ رضى الله عنهـا ـ وعبدالله ابن عباس ۰ وفى الواقع حكموا على سائر المسلمين بالكفر وتخليدهم فى النار ، وكفروا أيضـا قعـدة الخـوارج عن

---

(۱) سورة البقرة آية ۲۰۷ ۰

القتال ، وأوجبوا هجرة الخوارج اليهم وكفروا من قعـــد عنهـــا ٠

وأسوأ ما دعا اليه الأزارقة أنهم أباحوا قتل أطفـــال المخالفين ونسائهم ، وأسقطوا رجم الزانى المحصن لآن هذا الحد لم يذكر فى القرآن ، وأسقطوا حـــد القـــذف فى رمى الرجال المحصنين دون قذف النساء المحصنات ، وقـــالوا ان اطفال المشركين فى النار مع آبائهم ٠ وان التقية لا تجوز فى القول ولا فى العمل ٠

هذه أهم مبادئهم ولسنا بصدد درسها ، ولكننا فى مقام الحديث عن الخطابة يعنينا ذكر الحجج التى دافعوا بهـــا عن آرائهم ٠

٢ ـ النجـدات :

وهم أتباع نجـــدة بن عامر الحنفى ، ويسمون أيضـــا العاذرية لأنهم يرون أن الجهالة بأحكام الفروع عذر يرفع العقوبة، وهم على عكس الأزارقة يجيزون التقية فى الأقوال والأفعال ويرون أن لا حاجة الى امام قط ، ولكن على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فاذا رأوا أن ذلك لا يتم الا بامام فأقاموا اماما لهم جاز لهم ذلك ٠

كان نجدة قد خرج مع عسكره من اليمامة يريد اللحاق بنافع بن الأزرق فقابله جماعة أخبروه بما أحدث نافع من الخلافات ، وبايعوه هو أميرا وسموه أمير المؤمنين ، لكنه أحدث أيضا أشياء لم يرض عنها أصحابه فقتلوه سنة٦٩هـ٠ استتابه أكثر اتباعه من أحداثه ، فخرج الى المسجد وأعلن توبته ، لكنهم عادوا فخطأوا أنفسهم وندموا ، وقالوا انـــه

امام له أن يجتهد وتوبته كانت اثما منه ، فطلب منه جماعة منهم أن يتوب من توبته ، وأن يستتب الذين طلبوا التوبة منه والا نابذوه ٠

وخرج عليه اثنان من الزعماء هما راشد الطويل وأبو فديك ، وكان قد وزع جيشه الى الشام وجهات أخرى ، فاستولى أبو فديك على اليمامة ، ورأى أن يجعل بقتل نجدة قبل عودة جيشه ٠ فاختفى نجدة عند بعض القبائل ، ونادى منادى أبى فديك من دل على نجدة فله عشرة آلاف ، وأى مملوك دل عليه فهو حر ، فدلت عليه أمة كانت عند الذين اختفى نجدة لديهم فقتلوه ٠

بين نافع ونجدة

نذكر هذه المجادلة بين هذين الزعيمين من الخوارج حول مبادئهما

كتب نجده الى نافع :

« ٠٠٠ أما بعد ، فان عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البر ٠٠٠ لا تأخذك فى الله لومة لائم ، ولا ترى معونة ظالم » ٠

فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء مرضاته وأصبت من الحق فصه(١) ، وصبرت على مره ، تجرد لك الشيطان ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ٠٠ أكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه ، من قعدة المسلمين وضعفهم ٠ قال الله تعالى ، وقوله الحق ، ووعده الصدق : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله » (٢) ٠ ثم سماهم تعالى ــ أحسن

---

(١) حقيقته وعينه ٠ (٢) سورة التوبة الآية ٩١ ٠

الأسـماء فقال : « مـا عـلـى المحسـنين من سبيل » ٠ ثم استحللـت قتل الاطفـال ـ وقـد نهى رسـول الله ﷺ عن قتلهم٠ وقال جل ثناؤه :«ولا تزر وازرة وزر أخرى» (١)٠ وقال سبحانه فى القعدة خيرا ، فقال « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »(٢) ٠ فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين ، أو ما سمعت قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر »(٣) ٠ فجعلهم من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمـالهم ٠

ثم انك لا تؤدى أمانة لمن خالفك ، والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات الى أهلها ٠ فاتق الله فى نفسك ، واتق يوما لا يجزى فيه والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، فان الله بالمرصاد وحكمه العدل وقوله الفصـل ، والسلام » ٠

فكتب اليه نافع :

« ٠٠٠ أما بعد ، أتانى كتابك تعظنى فيه ، وتذكرنى ، وتنصح لى وتزجرنى ، وتصف ما كنت عليه من الحق ، وما كنت أوثره من الصواب ، وأنا أسـأل الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ٠

عبت على ما دنته به من اكفار القعدة وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة من المخالفين ، وسأفسر لك ان شاء الله٠

أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا

(١) سورة الاسراء /١٥ ٠
(٢) سورة النساء / ٩٥ ٠
(٣) الآية ٩٥ سورة النساء ٠

يجدون الى الهرب سبيلا ، ولا الى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج(٤) واضح ، وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم اذ قالوا : « كنا مستضعفين فى الأرض » فقال : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (١) ٠ وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » (٢) ٠ وقال: « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم » (٣) ، فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله ٠ ثم قال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٤) ، فانظر الى أسمائهم وسماتهم ٠

وأما الأطفال ، فان نوحا نبى الله ، كان أعلم بالله منى ومنك ، وقد قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » (٥) ٠ فسماهم بالكفر وهم أطفال ، وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا تقوله فى قومنا ؟ ٠ والله تعالى يقول : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » ٠

وهؤلاء كمشركى العرب لا تقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم الا السيف ، أو الاسلام ٠

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فان الله تعالى أحل لنا أموالهم ، كما أحل دماءهم لنا ، فدماؤهم حلال طلق(٦)

(٤) النهج الطريق الواضح ــ فذكر الوضوح بعده لزيادة الابانة والتوكيد ٠

(١) سورة النساء ٩٧ ٠
(٢) سورة التوبة ٨١ ٠
(٣) ، (٤) التوبة / ٩٠ ٠
(٥) سورة نوح ٢٦ ، ٢٧ ٠
(٦) حلال خالص ٠

وأموالهم فى المسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فانه لا عذر لك الا بالتوبة ، ولن يسعك خذلاننا والقعود عنا ، وترك ما نهجناه لك من مقالتنا ٠

والسلام على من أقر بالحق وعمل به » (١) ٠

هذان الخطابان يبينان وجهة النظر المختلفة بين هاتين الفرقتين ، وحسبنا ذلك ، ولمن أراد مزيدا أن يرجع الى كتب التاريخ ٠

---

(١) راجع كتاب الكامل للمبرد باب ٤٩ ٠

من شهيرات النساء وخطيباتهن

من تمام الحديث عن الخطابة والخطباء أن نذكر بعض الشهيرات والخطيبات من النساء ، ومكان الخطيبات دون مكان الخطباء من الرجال ، وعددهن نادر ، وهذا أمر طبيعى ٠ فالخطيب اما مدل بنصيحة ، أو محرض على حرب ، أو داعية الى صلح ، أو ما أشبه ذلك ٠ وحظ المرأة من هذا كله ضئيل ، وقد كانت المرأة العربية فى العهد الجاهلى مهضومة الحق مكبوتة الصوت مجحودة النصيب من الميراث ، لهذا لم يكن لها بروز فى مجالس الشورى وتبادل الرأى ، وهناك سيدات قليلات برزن بكلمات حكيمة أو رأى صائب ٠ وكان الجاهليون يعظمون المرأة المنجبة ، ومن أشهرهن ، فاطمة بنت الخرشب ، وهى أم الكملة وزوج زياد العبسى ٠ وأبناؤهما هم : ربيع الكامل وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس ٠ وسئلت عنهم فقالت : هذا بل هذا ٠٠ عدمتهم جميعا ان كنت أعرف فيهم واحدا دون اخوته ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ٠ ومنهن أم البنين ابنة عامر بن عمر، وزوج مالك بن جعفر ، وأبناؤها خمسة هم : ملاعب الأسنة ، وطفيل الخيل ، وربيع المقترين ، ونزال المضيف ، ومعوذ الحكماء ٠ وفيها قال لبيد بن ربيعة :

★ نحو بنو أم البنين الأربعة ★

لأنها جدته أم بيه ، وهم فى الواقع خمسة وليسوا أربعة ومنهن أسماء بنت دريم ٠ من المنجبات والحكيمات ، كان أبناؤها يرعون فيما حولها ، فمر بها وائل بن قاسط ، فنظر

اليها نظرة مريبة ، وخافته على نفســها ، فقالت : اذهب والا استصرخت عليك أسبعى ، ثم نادت : يا كلب ، يا ذئب، يافهد ، يادب ، يا سرحان ، يا أسد ـ وهذه أسماء بنيها الستة ـ فحضروا اليها جميعا • فقالت لهم : هذا ضيفكم أكرموه ، ولم تر أن تفضح نفسها أو تخزى الرجل ، ولو أنها تركتهم يفتكون به لفتحت للناس مجال القول فيها • وقد سمى هذا الوادى وادى السباع ، وهو الذى قتل فيه الزبير ابن العوام ، وسمى بهذا الاسم منذ هذا الحادث •

وكان العرب يفخرون أيضا بالمنجبات من نســائهم ، وبمن أنجبن من جداتهم ، وقد قال رسول الله ﷺ يوم حنين: « أنا ابن العواتك من سليم » • هؤلاء العواتك ثلاث ، كل واحدة عمة للتى بعدها • وهن : عاتكة بنت هلال بن عبد مناف بن قصى • وعاتكة بنت مرة ابن هــلال • وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال • وكانوا يتحدثون عنهن ، وعن الفواطم من قريش • وهن : فاطمــة بنت عبد الله بن عمر بن عمران ، جدة رسول الله ﷺ وفاطمة بنت أســد زوج أبى طالب عم رسول الله ﷺ ثم سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ • هؤلاء هن الفواطم من قريش، وكان الحسن والحسين يسميان ابنى الفواطم • ولما خطب الأشــعث بن قيس (١) الى على بن أبى طالب ابنته رده قائلا : أغرك أن ابن أبى قحافة أعطاك أخته •

---

(١) كان الأشعث الكندى ممن ارتدوا بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم جىء به الى بكر اسيرا ، فتاب فعفا عنه • ثم خطب اخته فرةفزوجه منها ، ويقال ان ابا بكر ندم بعد ذلك على مسامحته ، وقال انه لا يرى شرا الاأعان عليه ـ وكان وابنه وحفيده ـ ذوى أثر فى الفتن التي نجمت عهد على وبنى أمية •

وأكثر من هذا أننا نجد بين العربيــات الجاهليــات ملكات ، منهن بلقيس ، ومنهن زينب أو زينوبيا ملكة تدمر ٠

وفى الاسلام اشهر أيضــا بعض من النســـاء برأيهن وحسن تصرفهن ، نذكر بعضا منهن وان كن غير خطيبات، وهن :

١ ـ أمية بنت أبى قيس الغفارية :

خامر قلبها الاسلام وهى صبية لم تعد طور الحداثة ، فجاءت على بعد الشقة تبايع رسول الله ﷺ ٠ وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها ، وخرجت الى خيبــر زعيمــة النساء اللاتى خرجن لمواساة الجرحى وسقى الماء ، وكان عمرها يوم خيبر سبعة عشر عاما ٠ جاءت الى رسول الله ﷺ فى نسوة من غفار ، فقلن : قد أردنا الخروج معك الى وجهك هذا ، فنداوى الجرحى ، ونعين المســـلمين بمــا استطعنا ٠ فقال : على بركة الله ٠ وقد أحسنت أمية القيام بعملها ، فقلدها رسول الله ﷺ قلادة ، لم تفارق صدرها طيلة حياتها ، وأوصت أن تدفن معها ٠

٢ ـ أم سنان الأسلمية :

من أسلم ، وأسلم بطن من خزاعة ٠ قدمت الى المدينــة حين قدم اليها رسول الله ﷺ مهــاجرا فبايعته ، ثم جاءته وهو خارج الى خيبر فقالت : يا رسول الله ، أخــرج معك فى وجهك هذا ، أخرز السقاء ، وأداوى المرضى والجرحى، ان كان ثم جــرحى ولا يكون ، وأبصر الرجــل ٠ فقال : أخرجى على بركة الله ، فان لك صواحب قد كلمننى وأذنت لهن من قومك ومن غير قومك ، فان شئت فمع قومك ، وان

شئت فمعنا • قالت فمعك فجعلها مع زوجه أم سلمة ، فكانت معها ، وهى التى مشطت صفية بنت حيى وألبستها حين زفت الى رسول الله •

روت أم سنان أحاديث كثيرة ، وابنتها بثينة من فضليات الثقات من رواة الحديث •

٣ ـ حمنة بنت جحش :

أمها أميمة بنت عبد المطلب ـ فهى بنت عمة رسول الله ، وأخت زينب بنت جحش أم المؤمنين ، تزوجها مصعب بن عمير أول داعية اسلامى بالمدينة ، وحضرت غزوة أحد ، وكانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح من بين القتلى ، وتخرج الى المكان الملائم فتأسو جراحه ، وتهيىء له ما يريحه ، وكان عملها مما تزل دونه أقدام الرجال ، ولما عاد رسول الله (ﷺ) والمسلمون من أحد ، قام النساء يسألن أهليهن فلا يخبرهن الصحابة اشفاقا على من فقدن من ذويهن ، فلما انتهين الى رسول الله (ﷺ) جعل يجيبهن ، لا تسأله واحدة الا أجابها ، فجاءته حمنة ، فقال : ياحمنة، احتسبى أخاك عبد الله بن جحش ، قالت : انا لله وانا اليه راجعون رحمه الله وغفر له ، قال : احتسبى خالك حمزة • قالت : انا لله ، وانا اليه راجعون ، رحمه الله • ثم قال : ياحمنة احتسبى زوجك مصعب بن عمير • فقالت واحرباه!

فقال النبى (ﷺ) : ان للمرأة لشعبة من الرجل ما هى له فى شىء وتزوجها بعد مصعب طلحة بن عبيد الله الصحابى الجليل المبشر بالجنة ، والذى قتل فى موقعة الجمل • فولدت له محمدا • وعمرا ، ومحمد هو التقى العابد المعروف بالسجاد • وقد مر حديث له مع الخوارج•

٤ ـ أسماء بنت يزيد الأنصارية :

ذكرها ابن عبد البر فى كتاب الاستيعاب · باسم أسماء بنت زيد بن السكن ، بايعت النبى (ﷺ) عند مقدمه المدينة · وتلقت عنه كثيرا من الأحاديث · وتخرج عليها كثير من التابعين ، وقد عمرت بعد رسول الله (ﷺ) ، وحضرت موقعة اليرموك ، وكانت أول المعركة تسقى الظماء · وتداوى الجرحى ، فلما اشتدت المعركة وحمى وطيسها ، اقتلعت عمود خيمتها وغامرت بين صفوف الرجال تضرب من يقابلها من جنود الروم ، فصرعت بعمودها هذا تسعة منهم ·

وتمتاز هذه عن الأخريات بمقدرتها الكلامية ، فهى خطيبة نساء العرب ورسولهن الى رسول الله (ﷺ) جاءت اليه وهو بين أصحابه فقالت : بأبى أنت وأمى ، وافدة النساء اليك · وانى رسول من ورائى من نساء المسلمين ، كلهن يقلن بقولى ، وعلى مثل رأيى ، ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء محصورات مخدرات قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وان الرجال فضلوا علينا بالجمعات ، وشهود الجنائز ، وعيادة المرضى ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله ، وان أحدكم اذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم وربينا أولادكم ، وغزلنا أثوابكم افنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟

فالتفت رسول الله (ﷺ) بوجهه الى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟

قالوا : ما ظننا أن امرأة تهتدى الى مثــل هذا ! فقال : انصرفى يا أسماء وأعلمى من وراءك من النساء أن حسن تبعل احداكن لزوجها ، وطلبها لمرضــاته ، واتباعهــا لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال · فانصرفت وهى تهلل وتكبر استبشارا بما قال لها · حتى وصلت الى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهم ما قاله لها رسول الله (ﷺ) ففرحن وآمن جميعا ·

هذا حديث عابر عن أربعة من النســوة ، واذا رجعت الى كتاب بلاغات النساء لابن طيفور ، والقســم الذى خصصه ابن حجر للنساء فى كتاب الاصابة ، وابن عبد البر فى كتاب الاستيعاب والى كتب الأدب الأخرى تجد كثيرا من الأحاديث والطرف الشائقة عن المرأة العربية ·

شهيرات النساء فى معركة على ومعاوية

أبرزت هذه المعركة عددا من خطيبات النســاء وذوات الشجاعة والجرأة النادرة ، ولكن هؤلاء كن من أنصــار على ومن الخوارج ، ولا تجد فى حزب معــاوية من فعلن مثل ذلك ، وبعد استقرار امر لمعاوية ظل هؤلاء النســوة على مبدئهن ، ورحل عديدات منهن الى معاوية لنيل عطاء منه أو لغير ذلك ، فكان معـــاوية يذكرهن بما فعلن يوم صفين ، من خوضهن المعركة تارة وتحريضهن عليه تارة أخرى ، فلا يأسفن ولا يتراجعن ، وكان معــاوية لدهائه وسياسته لا يردهن بدون عطاء ولا ينتهرهن ، ولم يكن ثم ما يدعو لذلك وقد أصبحن قليلات الخطر ، وقد أفرد صاحب العقد الفريد بابا للوافدات على معاوية فذكر منهن ثمانى وافدات ، ونحن ذكرنـــا من قبـــل من الخوارج غزالة الحرورية زوجة شبيب ، وبينا مــا كان لها وله من بطولة واقدام ، ويشبهها فى هذا ليلى بنت طريف الشــيبانية ، وأخوها الوليد بن طريف وكلاهما من بقايا أبطال الخوارج ، ولكنهما كانا فى عهد الرشـــيد العبــاسى ، وكان الذى يحاربهما من قواده هو يزيد بن مزيد الشيبانى ، ونكتفى بذكر ثلاثة ممن وفدن على معاوية ·

١ ــ الزرقاء بنت عدى :

وهى الـــزرقاء بنت قيس بن عدى الهمـــدانية ، من الخطيبات الشهيرات ، أبرز مواقفها يوم صــفين ، كانت بين الصفوف على جمل تحض الناس على قتال معـــاوية وقومه ، وتدفعهم الى الثبــات والهجوم ، ومن كلامها فى هذا الموقف :

« ٠٠ أيها النـــاس ٠ ارعووا وارجعوا ٠ انكم قـد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء لا تســمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، ان المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد ٠

ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ٠

أيهـا الناس ٠ ان الحق كان يطلب ضـالته فأصابها ، فصبرا يا معاشر المهاجرين على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمـة فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى ٠٠ ؟ ٠ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ٠

الا وان خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده ، و « الصبر خير فى الأمور عواقبا » ايها فى الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين ٠٠٠ » ٠

وقد غاظ موقفها هذا معاوية وقومه،وكان معاوية وبعض أعوانه يحفظون خطبتها هذه ٠ وأشاروا عليه مرة أن يقتلها فلم يقبل ، وقال : بئس الرأى أشرتم به ٠

وكان من سياسة معاوية أن كتب الى عامله بالكوفة أن يوفدها عليه مع بعض محارمها وفرسان قومها ، وان يوسع عليهم فى النفقة ، وأن يحسن جهازها ويهيىء لها سـفرا مريحا ، ولكنها لم تكن راغبة فى الوفود على معـاوية ، فقالت لعامله : ان كان أمير المؤمنين جعل الخيار الى ، فانى لا آتية ، وان كان قد حتم ذلك فالطاعة أولى ٠

وقد أحسن معاوية استقبالها ، وأكرم وفادتهـا ، ولمـا سألها عن موقفها يوم صفين ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر » ٠

وقال لها : لقد شركت عليا فى كل دم سفكه ! ، قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسر جليســه ٠

قال : أو يسرك ذلك ؟

قالت : نعم والله ، لقد سررت بالخير ، فأنى لى بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم لعلى بعد موته أعجب من حبكم لـــه فى حياته ، اذكرى حــاجتك ، قالت : لا أسال أميرا أعنت عليه ٠

٢ ـ عكرشة بنت الأطرش :

هى عكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، كانت أيضا ذات شجاعة وبلاغة ، خاضت بنفسها معركة صفين ، تقلــدت الســيف ووقفت تخطب المحــاربين من جند عــلى فتقول : « ٠٠٠ أيها الناس ٠ عليكم أنفسكم ، لا يضــركم من ضــل اذا اهتديتم ، ان الجنة لا يرحل من أوطنهــا ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ٠ فابتاعوها بدار لا يــدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوما مستبصرين فى دينكم ، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم ٠

ان معــاوية دلــف اليكم بعجم العرب غلــف القلــوب ،

لا يفقهون الايمان ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيـــا فأجابوه ، واستدعاهم الى الباطل فلبوه فالله عباد الله فى دينكم ٠

اياكم التواكل ، فانذلك ينقض عرا الاسلام ، ويطفىء نور الحق ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى ٠

يا معاشر اهاجرين والأنصار ٠ امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غــدا وقد لقيتم أهــل الشام كالحمر الناهقة تقصع قصع البعير » ٠

وفدت على معاوية فسلمت عليه بالخلافة ، فقال لهــا : الان صرت أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ٠ اذ لا على حى ٠

وكانت تتوكأ على عكاز لها ، فقال لها معاوية : لكــأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش ٠٠٠ فان كدت لتغلبن أهل الشام لولا قدر الله ، وكأن أمر الله قدرا مقدورا ٠

وكانت قــد وفدت عليه تطلب أن يرد عــلى أهل العراق صدقاتهم ، فلما حاورته أعيته حجة ، فأمر برد صدقاتهم ٠

٣ ـ أم الخير بنت حريش :

هى أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى ، كانت من أنصــار على ، وقــد أثارها مقتل عمــار بن ياسر ، فوقفت تخطب القوم ، وترغبهم فى الجهاد بخطبة طويلة منهــا : « يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم » !

ان الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل ، وبين السبيل ورفع القلم ، ولم يدعكم فى عمياء مدلهمة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفرادا عن أمير المؤمنين ، أم فرارا من الزحف أم رغبة عن الاسلام ، أم ارتدادا عن الحق ؟ ـ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ٠

هلموا رحمكم الله الى الامام العادل ، والرضى التقى ، والصديق الأكبر ، انها احن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحدية ، وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس ٠

٠٠٠ قاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون صبرا يامعاشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غدا وقد لاقيتم أهل الشام كخمر مستنفرة فرت من قسورة ، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، وعما قليل ليصبحن نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة ولات حين مناص ٠

فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ٠ فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ٠٠٠ مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع

والناس كارهون ··· قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق بين جمع هوازن · فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا ، وردة وشقاقا ، وزادت المؤمنين ايمانا » ·

طلب معاوية من واليه على الكوفة أن يوفدها عليه ، وسألها عن هذه الخطبة فقالت انه كلام لم أكن زورته قبل ، ولا رويته بعد ، وانما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة ووصفها بعض أعوانه أنها كانت كالفحل يهدر فى شقشقته ·

قال معاوية : ما أردت بهذا الا قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك ، فقالت : والله ما يسوءنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه · قال : هيهات يا كثيرة الفضول ·

هؤلاء ثلاث من الخطيبات أنصار على ، وهناك أخريات من غير حزبه ومن غير الخوارج اشتهرن بذكائهن وحسن تفكيرهن وكلماتهن الحكيمة ، وكان الناس يسألونهن فى مشكلات الأمور ، ومعضلات المواقف ، ويذكرن عادة مع الخطباء لهذه الأسباب ·

نذكر منهن أشهرهن هند بنت الخس (١) بن حابس من قبيلة اياد ، كات ذات فصاحة وحكمة وكانت ترد سوق عكاظ ، فيسمع الناس منها ويسألونها ، وربما حاولوا اعجازها أو احراجها ، وكان لها أخت تسمى « جمعة » على شاكلتها فى ذكائها وحكمتها ولكنها دونها شهرة ، وصف الجاحظ هندا بأنها من أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ، والكلام الفصيح،

(١) بضم الخاء · ويقال الخص · وأكثر ما تحدث عنها بابنة الخس ·

والأمثال السائر ، والمخارج العجيبة ، وتسمى الزرقاء ، وقال يونس · لا يقال الا بنت الأخس ، وقال عمرو ابن العلاء : داهيتا نساء العرب الزرقاء هند الزرقاء وهى زرقاء اليمامة · وكلام هند لبداوتها ملىء بالألفاظ الغريبة ·

قيل لها : ألا تتزوجين ؟ فقالت بلى : لا أريده أخا فلان ولا ابن فلان (١) ولا الظريف المتظرف ، ولا السمين الألحم ، ولكن أريده كسوبا اذا غدا ، ضحوكا اذا أتى(٢) وأتت سوق عكاظ فجاء اليها رجل يمتحن عقلها ويمتحن جوابها ، فقال لها : انى أريد أن أسألك · قالت : هات ·

قال : كاد · فقالت : المتنقل يكون راكبا ·

قال : كاد · فقالت : الفقر يكون كفرا ·

قال : كاد · فقالت : النعامة تكون طائرا ·

قال : كاد · فقالت : السرار يكون سمرا ·

ثم قالت له هى : أسألك ، قال : هاتى ·

قالت : عجبت · قال للسباخ : لا ينبت كلؤها ولا يجف ثراها ·

قالت : عجبت · قال : للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها ·

قالت : عجبت · قال : لشفرك لا يدرك قعره ولا يدرك حفره ·

وكان هذا ايذانا بعجزه وانقطاعه ، فأراد أن ينهى حديثها بما يجرح حياءها · وقيل لها ما ألذ الأشهاء : قالت قبلة فتاة فتى ، ووالله ما ذقتها ·

وأسوأ ما كان من هند أن واقعها مولى لها · وقيل لها ذلك فقالت : انه لطول الالف وقرب الوسائد ·

---

(١) تريد انها لا تريده لنسبه ·

(٢) عيون الاخبار ٢١٤/٦ ·

نفحة أندلسية

لا نودع العصر الأموى من غير أن نذكر خطبة طارق بن زياد ، لبلاغتها وروحها الحربى · وفى الوقائع التى حدثت فى عهد الأمويين وفى الحروب التى قامت بينهم وبين أعدائهم من المسلمين وغيرهم وجدت خطب تصور أدب الحروب · وقد أوردنا بعضا منها · كما أوردنا أمثلة من خطب الخوارج ·

أما خطبة طارق فقد قيلت فى وقت مبكر من العهد الأموى أيضا · ففى سنة (٩٢ هـ ـ ٧١١ م) أرسل موسى بن نصير جيشا كثيفا بقيادة طارق ابن زياد هذا · فعبر المضيق الذى عرف فيما بعد باسمه · وكان جيش طارق نحو سبعة آلاف جندى ، لاقى بهم جيشا يبلغ مائة ألف فانتصر على عدوه انتصارا عجيبا ، ثم أغراه انتصاره بأن يتابع جولته فى تلك البلاد وهى تتهاوى أمامه مدينة بعد أخرى واقليما بعد اقليم ·

ويحيط فتح العرب الأندلس أساطير كثيرة هى أدنى الى طرف الأدب أن تكون من نسيج الخيال · ومما قيل فى هذا أن طارقا أول ما استقر بأرض الأندلس أحرق أسطوله · وخطب قومه بأنهم أصبحوا محصورين بين البحر والعدو ولا ينجيهم الا سيوفهم ·

والذى يعنينا من الخطبة هو بلاغتها ومنهجها فى تحميس الجيش · وتخويفه اياهم عاقبة الهزيمة تارة · وتمنيتهم الظفر والتمتع بخيرات الأندلس تارة أخرى ·

ومؤرخوا لأدب يبدون شـكوكا كثيرة وقوية حول هذه الخطبة ونسبتها الى طارق · لأنه لم يكن دخل الاسلام الا منذ أربعة أعوام تقريبـا · وهى مـدة لا تكفى لاجادته العربية · وكان جيشه أيضا من البربر الحديثى العهـد بالاسلام · الى أسباب أخرى لا يعنينا هنا أن نقف لديها · نترك لقرائنا تقسيم الخطبة وتمييز أجزائها · وتفحص ما فيها من عبارات قوية ، بليغـة · ومقـدرة الخطيب فى الملاءمة بين كلامه وموقفه · وقـد بر طارق بما وعد به جيشه اذ هجم هو بوصفه قائدا على قائد أعدائه فقتله كما وعد وحسبنا فقط أن ندرس الخطبة من حيث هى ولا يعنينا البحوث الأدبية الأخرى ·

خطبه طارق بن زياد

طارق هذا كان مولى لموسى بن نصير · قيل انه من بربر افريقية · وقيل من أصل فارسى · ولهذا يتشكك الكثيرون فى نسبة هذه الخطبة اليه لأنه لم يدخل الاسلام ويعرف اللغة العربية الا بعد اتصاله بمولاه موسى ، وموسى تولى قيادة المغرب سنة ٨٩ هـ فى خلافة الوليد ، ثم أرسل طارقا لفتح الأندلس سنة ٩٢ هـ فهذه السنوات القليلة لا تكفى لتكوين خطيب يؤلف مثل هذا الكلام ، وهناك أسباب أخرى غير هذا السبب لسنا بصدد عرضها ، لأن الذى يعنينا هو عرض خطبة فنية تصلح أن تكون نموذجا يحتذيه الخطيب وهناك شىء آخر لا يكاد يصدق · وهو أن طارقا حين وصل الى أرض الأندلس أحرق سفنه حتى يرى الجيش محصورا بين البحر والعدو فيستبسل فى الدفاع والحرب، ويظهر أن الفكرة أخذت من مطلع الخطبة · ونصها نقلا عن نفح الطيب هو :

« ·· أيها الناس أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم · وليس لكم والله الا الصدق (١) والصبر · واعملوا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا (٢) ، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من

(١) الصدق : الشدة ·

(٢) اذا طال الزمن وأنتم على ما انتم عليه من الفقر ولم تتقدموا فى فتوحكم استهان بكم الاعداء ·

أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينتـه الحصينة ، وان انتهاز الفرصـة فيه لممكن ان سـمحتم لأنفسكم بالموت ، وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة (١)، ولأحملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبرأ منها بنفسى ، وأعلموا أنكم ان صـبرتم على لأشـق قليلا استمتعتم بالأرفه طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى بما حظكم فيه أوفر من حظى (٢) ·

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان· من بنات الرومان (٣) الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان (٤) المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجـان (٥) ·

وقد انتخبكم الوليد بن عبـد الملك أميـر المؤمنين من الأبطال عزبانا (٦) ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا (٧) ، ثقة منه بارتياحكم للطعان · واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرســان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهـار دينه بهذه الجزيرة وليكون

---

(١) لست ناجيل منه ، والنجوة ما ارتفع من الارض ، وهو بنجوة من هذه الامور أى هو بعيد عنها ·

(٢) ليس نصيبكم من هذا الجهاد أكبر من حظي ·

(٣) يروى اليونان · وربما خلط العرب فيهما ·

(٤) الذهب ينبت نباتا ، ويدخل فى نسيج الملابس للزينة واظهـار الثراء والعظمة ·

(٥) يريد محجبات فى قصور الملوك ولسن ممن يعملن او يمتهن ·

(٦) يروى عزانا بالزاى ، جمع أعزب كأعمى وعميان ، وليست رواية جيدة اذ لا تظن أن المحاربين كانوا عزابا · ويروى عربانا بالراى · هو الاكثر ، واعترض عليه بأنهم بربر وليسوا عربانا ، ويمكن أن تحمل على المجاز والتشبيه ، أى اختاركم شجعانا كالعربان ·

(٧) جمع ختن بالتحريك · اقارب الزوجة ·

فتحها (١) خالصا لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولى انجادكم (٢) على ما يكون لكم ذخرا فى الدارين ٠

وأعلموا أنى أول مجيب لمـــا دعوتكم اليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفســـى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه ، وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه (٣) واحملوا بأنفسكم عليه ٠ واكتفـوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فانهم بعده يخذلون ٠

من اشتهروا بالخطابة وجودة الكلام

هناك قبائل اشتهرت بالفصــاحة واللســـن ، واجادة الخطب وطولها ، كما أن هناك افرادا اشتهروا بذلك أيضا٠ وأوردت كتب الأدب والتاريخ كثيرا لهؤلاء ، ونذكر بعضا منهم للتعرف عليهم وللاستئناس بكلامهم وبحسن تصرفهم فيما عرض لهم من مواقف ٠ فنذكر هؤلاء الأفراد ومـــع بعضهم ذكر أسرهم ٠

١ ــ اياس بن معاوية المزنى :

وهو اياس بن معاوية بن قرة ٠ مضرى من مزينة ، كان لأم ولد ، وكان ذكيا نجيبا حسن التأتى للأمور التى تعرض له ، عرف بجودة الفراسة وصدق الحدس (٤) تولى قضاء

(١) يروى ايضا وليكون مغنمها ، فعلى الاول يكون المعني ليكون لكم شرف ، وعلى الثانى : ليكون لكم غنائمها ٠

(٢) ارشادكم وهدايتكم ٠

(٣) فى الهجوم على لفريق ٠ (٤) الحدس : التخمين والظن ٠

البصرة لعمر بن عبد العزيز ، وظـل بها حتى مات سـنة ١٢٢ هـ ، كان فصيحا يعجبه كلامه فيطيل ، وكان يجالس عبد الله ابن شبرمه الضبى من القضاة أيضـا ، فقال له مرة : نحن لا نتفق ، أنت لا تشـتهى أن تسـكت وأنا لا أشتهى أن أسمع · وأخذ عليه الجـاحظ هذا المذهب لأن للكلام غاية ولأن نشاط السامع له نهاية · فاذا زاد الكلام عن هذا مع جماله صار ثقيلا مملولا ، وقد وصـف اياس مرة نفسه بالعى ، ولم يكن يعنى ما يقول ، وانمـا أراد التخلص من منصب القضاء الذىء رضه عليه عمـر ابن هبيرة ، فقال : لا أصـلح لأنى عيى ، ولأنى دميم ، ولأنى حديد (١) ، فأجابه قائلا : أما الحدة فان السوط يقومك ، وأما الدمامة فانى لا أريد أن أحاسن بك أحدا ، وأما العى فقد عبرت عما تريد ·

وكان اياس ذا عقل فاضل حتى قال عقبه بن عبد الرحمن ابن الحرث : رأيت عقول الناس قريبا بعضها من بعض الا ما كان من الحجاج بن يوسف · واياس بن معـاوية فان عقلولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا ·

وقد بدت نجابته منذ حداثته · اذ خاصم شـيخا كبيرا لدى بعض القضاة فى عهد عبـد الملك فتقدم خصـمه · فأنكر عليه القاضى ذلك ، وقال أتتقدم شيخا كبيرا ؟ فقال اياس : الحق أكبر منه · قال القاضى : اسـكت · قال : فمن يقوم بحجتى · قال : لا أظنك تقول حقـا حتى تقوم · قال : لا إله الا الله · أحق هذه أم باطل ! فقام القاضى من ساعته فدخل على عبد الملك فخبره الخبر · فقال : اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام · لا يفسده على ·

(١) ذو حدة ·

٢ ـ الفضل الرقاشى :

هو الفضل بن عيسى الرقاشى ، من أخطب الناس ، ومن القاصين المجيدين ، ومن المتكلمين على مذهب المعتزلة ٠ وهو رئيس طائفة منهم سميت الفضلية نسبة اليه (١) ٠ وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد أحد رءوس المعتزلة وعدد من الفقهاء ، وكان يمزج قصصه بالعظات والتأملات فيقول مثلا : « سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا » ٠

والرقاشيون أسرة اشتهرت بالخطابة كلها ، وقصة ثبات الخطابة فيهم الى زمن معين تدل على أثر الوراثة ، وانتقال صفات الآباء للأبناء ، لأنهم أعاجم كانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا تعلموا العربية وبقيت لهم صفة الخطابة فى الاسلام ، نزعهم ذلك العرق ، فكانوا وأولادهم الذين ولدوا فى الجزيرة العربية خطباء أيضا ممتازين ، وظلوا كذلك حتى أصهر اليهم الغرباء ، ففسد ذلك العرق فيهم وضعفت خطابتهم ٠

كان للفضل ابن عم يسمى يزيد بن أبان الرقاشى ، من أخطب الناس ، وأبان أيضا عم الفضل كان خطيبا ، وكان يزيد من أصحاب أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ ، وكان يجالس الحسن البصرى ، وكان يجلس مجلسه ويتكلم ويعظ فى حضوره ، وكان مع جودة كلامه وتفوقه فى الخطابة والقصص زاهدا عابدا غزير العلم ٠

---

(١) فى الخوارج طائفة أيضا تسمى الفضلية منسوبة الى الفضل ابن عبدالله وليس الي الفضل بن عيسى ٠

وكان للفضل ابن يدعى عبد الصمد أغزر من أبيه مادة وأبين كلاما وأجود خطابة ، جلس مرة يتحدث عن البعوضة ودقيق خلقها ، وعامة شئونها ، فاستغرق هذا الحديث ثلاثة مجالس ٠

وكان للفضل ابنة تسمى سوادة ، تزوجها سليمان بن طرخان أحد حفاظ البصرة الثلاثة ٠ فولدت له المعتمر بن طرخان ، وكان ثلاثهم من الفصحاء ، ومن رجال الكلام ، الا أن سليمان لم يكن على مذهب الفضل ، ولا من الطائفة الفضلية ، ولما ماتت سوادة شهد ثلاثتهم جنازتها ، فاقتضى الأدب أن يقدما الفضل للصلاة عليها ٠

فهذا خطيب من أسرة خطيبة ٠

رابعا : الخطابة فى العصر العباسى

قدمنا أن العصر الأموى هو أزهى عصور الخطـــابة العربية ، وذكرنا الأسباب التى هيأت للخطـــابة فيه هذا الرقى والازدهار • والواقع أنه منذ مقتل عثمان ، ونشوب الخلاف بين على ومعاوية نشطت الخطابة نشـاطا كبيرا ولم تهدأ باستقرار الحكم لبنى حرب أو بنى مروان ، لأن الفتن والثورات ظلت تتوالى واحدة بعد أخرى • وظل كل يوم يظهر منافســون وطلاب للحكم ، وكان أقـــرب هذه الأصوات خمودا أصوات الزبيريين وأتباع ابن الأشعث ، أما العلويون فسكتت خطابتهم ، ولكن تحولت مناهضتهم الى دعوة سرية ظلت تعمل فى خفاء وتكتم جهد المستطاع حتى أتت أخيرا على الدولة الأموية نهائيا • وأما الخوارج فظلوا يعملون فى جهد لا يعرف السرية ، وصـــراحة لا تعرف المواربة • فكان فى نضالهم المستمر حياة للخطبة العربية وشريان دافق لاستبقائها حتى آخر الدولة •

فترت الخطابة أواخر الدولة الأموية بعض الفتـــور لاستقرار الحكم، ولتولى أمر الدولة أحداث انصرفوا الى اللهو والترف ، حتى الخوارج الذين ظـل لهم صوت كان شأنهم قد قل وشوكتهم قد فلت بحروب المهلب ابن أبى صفرة وأولاده • فلمـا جاءت الدولة العباسية انبعثت فى جســم الخطابة الواهن حركة حياة ، بسبب الخصومات التى كان لابد أن تواجهها أول قيـــامها ، ولكن ما لبثت الدولة أن قضت على هذه الخصومة ، فعادت الخطابة الى همود أبلغ وركود أشد •

وقد اعتاد مؤرخو الأدب أن يقسموا العصر العباسى الى قسمين : العصر العباسى الأول · والعصر العباسى الثانى ، ذلك لأن طول العصر وتغير أحداثه جعـل للأدب والفكر ألوانا خاصة تختلف فى أحدهما عن الآخر ، والأمر كذلك فى الخطابة ، وان لم يحدث لها تغير واسـع كالذى حدث فى الشعر وجوانب الفكر الأخرى ، ولا يعنينـــا أن نفيض فى ذلك بعد الذى قدمنا ·

النشاط الوقتى :

كان نضال الحزب المعارض لبنى أمية ـ بعد انتهـــاء الزبيريين ـ يعمل لاعادة الخلافة لبنى على ، أولئك الذين أخذت الخلافة منهم قسرا وكانوا هم أحق بها وأهلها فيما يرى المعارضون · كان بنو العباس يعملون مـع بنى على يدا واحدة ضد بنى أمية ، وكانت البيعة الســرية تؤخذ لامام الرضا من آل البيت من غير أن يعين اسمه ونسبه · فلما انتهت الدولة الأموية وأفضى الحكم لبنى العبـــاس دون بنى على ، أصبح أمام العباسيين خصوم جدد من بنى عمومتهم العلويين ، وغضب الدعاة لهذه النهاية ، فقاوموا أول الأمر ، ولكن لم يطيقوا الصمود أمام قوى العباسيين، فقتل منهم من قتل وسـجن من ســجن وعذب من عذب ، وتحولت دعوتهم ثانيا الى دعوة سرية ظلت تناضـل نحو ثلاثة قرون حتى قامت لهم دولة تنتمى الى على بوجه ما ، وهى الدولة الفاطمية التى نشأت بالمغرب ثم ظلت تزحف نحو الشرق حتى قضت نهائيا على بنى العباس ·

قامت الثـورة ضد بنى أميـة فى خراسان أولا ، وكان الأعاجم هم الداعين لها والمتفانين فى قيامها ، نقمة على

بنى أمية بسبب تعصبهم للعرب ضد الموالى من جهة · وحبا لعلى وأولاده آل البيت من جهة أخـــرى ، فلما صـدموا باستئثار العباسيين بالحكم دون العلوين أعلنوا عداوتهم لها ، وأراد بعض القواد أمثال أبى سـلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى أن يســتقلوا بما تحت أيديهم ، فكانت الدولة مضطرة اذ ذاك أن تثبت حقها الشـــرعى فى هذا الحكم ، وكانت الخطابة أولى الوسائل لهذا الاثبات ، وكان السيف والمال يعملان عملهما بجانبها ، وما لبث العباسيون أن قضوا سريعا على هؤلاء المعارضين ، أعجاما وأمويين، فلم يكن ثمت ما يدعو الى الخطابة ، فانقطعت بانقطـــاع أسبابها ·

كانت هناك حروب أخرى لم تنقطع ، وهى حروب الروم، وحروب أخرى أقل شأنا فى الشـــرق ، ولكن لم تكن هذه ولا تلك مما يدعو الى قيام خطابة ، ذلك أن نظام الجند كان قد استقر وأصبح هناك محاربون موكول اليهم حماية الدولة ومد حدودها ، ولهم من بيت المال حظ مقسوم ، فلم يعـــد الأمر كما كان أمام حروب الأمويين وخصومهم ، كل يدعو الناس أن يقفوا بجانبه وينفرهم من عدوه ، بل كانت الخطب لتبشير الشعوب بالنصر أحيانا ، وتهدئة نفوســهم أحيانا أخرى ، وكلا الموقفين لا هو كثير التكرر ، ولا هو ذو اثارة خطابية ، وقد ناب الشعر عن الخطـابة فى هذه المواقف ، وهو أليق بحـــال الدولة المترفة ، وكان المتشـــيعون من الشعراء والكتاب يخفون تشـــيعهم فلا يظهـرونه الا فى ظروف مناسبة ·

وكان العصر عصر علم غرست بذوره من قبل وأورق وأثمر فى هذا العهد ، واستفاد الشـــعر من هذه الوثبة العلمية كثيرا ، واستفادت أيضـــا الخطـــابة فى بعض جوانبها دون بعض ، وتنفس النهج الخطـــابى ـ وهو أسلوب الاقناع والاســـتمالة ـ فى جوانب أخرى أهمهـا المناظرات فاستفادت الخطابة أيضا من حــركة العلم التى ظهرت فى هذا العصر ، وكثرت المناظرات بين العلماء فى مختلف فروع العلم ، فكان هناك منـــاظرات بين رجـــال الأديان كالتى كان يعقدها المأمون ، وبين رجـــال النحو واللغة ، وبين أتباع المذاهب الكلامية والفقهيـــة ، وهذه بوجه ما نوع من الخطابة ، وان كان الفرق ملحوظا بينهما .

أقسام الخطابة فى هذا العهد

قدمنا من قبل أن الخطابة أنواع منها السياسية ومنها الدينية ومنها خطب المحافل ·· ويلحق بالخطابة المناظرات والأجوبة ، ومنها وعظ النساك وكلام الزهاد والمتصوفة ، وما قدمناه عن الخطابة انما هو حكم عام يصف الخطابة السياسية أكثر من غيرها · ويحسن أن نعرض هذه الأقسام عرضا تفصيليا يتناول فى ايجاز كل قسم على حدة ·

الخطبة أول العهد

من ناحية النشاط والكثرة راجت الخطبة السياسية أول قيام الدولة على ما سبق أن ذكرنا ، وكان هذا النشاط محدود الزمن جدا ، حتى يمكن أن نقول انه بعد أبى جعفر المنصور ـ ثانى خلفاء هذه الدولة ـ وقتله أبا مسلم الخراسانى لم يبق مجال واسع للخطبة السياسية ، وشغل كل من المهتدى والهادى بالقضاء على الزنادقة والخوارج وبدرت بعض الثورات من جانب الأمويين الباقين بعد كل الذى نالهم من القتل والافناء ، ولكنها كانت حركة طفيفة قضى عليها بسرعة ، ولم يكن فى كل هذه المواقف ما يدعو الى تنشيط الخطابة أو استمرار نشاطها ، وظلت هناك عوامل انشقاق داخلى فى البيت العباسى حول تولى الخلافة ، ولكنها لم تثر حركة خطابية أيضا ·

اغراض الخطبة وعناصرها

أما عناصر الخطبة السياسية فى هذه المدة القصيرة ، فكانت تدور حول حق العباسيين فى الخلافة دون سواهم ، وكانت تبالغ فى النيل من بنى أمية وتجسم مساويهم ، وتوضح أنهم كانوا عبئا ثقيلا على عاتق الأمة ، وأنهم

خرجوا عن حدود الدين ، وهدموا قواعده ، وأساءوا حكم الرعية ، ومن هنا يثبت لبنى العباس فضل استنقاذ الأمة من هذا البلاء وتخليصها من ظلم الأمويين . وأطال العباسيون الضرب على نغمة خاصة هى قرابتهم من رسول الله ﷺ وأحقيتهم بوراثته فى اقامة الدين ودعوة الناس اليه ، وأن بنى أمية ليس لهم فضل فى الذود عن الاسلام ، بل هم كانوا أعداءه ومحاربى رسول الله ﷺ والمحرضين على قتله ، وقد ظلموا فى الجاهلية وظلموا فى الاسلام ، وكان توليهم الخلافة ظلما لا حجة له ، وهى الآن عادت الى ذويها ومن هى حق ثابت لهم .

وازاء العلويين وأنصارهم نفى العباسيون عنهم هذا الحق لأنهم يمتون الى النبى بصلة أقل من صلة العباسيين لأن الفاطميين يتتمون اما الى ابنته فاطمة ، وهى فى الميراث من ذوات الأرحام ، والعباس عمه من ذوى العصبة ، واما الى على بن أبى طالب وهو ابن عم يحجبه العم عن الميراث ، وهذه الحجة أطال فيها الشعراء الذين ينتمون الى البيت الحاكم ، وكان الخلفاء يستريحون لهذا النهج ويعجبون .

ولم يغفل العلويون أن يردوا على ذلك بأن الدعوة قامت بجهاد على وأنه كان من أوائل المسلمين ، وأن من أبناء الحسن والحسين من ينتمى الى رسول الله من قبل أبيه ومن قبل أمه معا ، فقد ولده رسول الله ﷺ مرتين ، وهناك مكاتبات بين محمد بن عبدالله بن الحسن المسمى بانفس الزكية ، وبين أبى جعفر المنصور تصور وجهة نظرهما وحجة كل منهما على صاحبه وفرع العباسون من فكرتهم عنصرا آخر ، وهو أن الخلافة قد أصبحت لهم حقا الهيا ، وأن من

نازعهم هذا الحق فقد خرج عن قانون الدين وحارب الله ورسوله ، وبذلك يستحق القتل ويهدر دمه ، وقد قدمنا خطبة أبى جعفر بعد أن قتل أبا مسلم وفيها تأكيد هذا الحق ، وفيها أن الله ينصرهم باطلاعهم على ما يدبر لهم لأنهم حماة دينه ورافعوا كلمته ·

عبارة الخطبة

أما عبارة الخطبة فانها كانت على ما هى عليه من القوة والفصاحة ، وكانت تكثر الاقتباس والاستشهاد بآى القرآن الكريم حتى لتجد الخطبة أحيانا آيات قرآنية ليس بها من كلام الخطيب الا ما يربط بين هذه الايات ·

تنوعها

وكان من الطبيعى أن تتنوع هذه الخطب وتختلف باختلاف القوم الذين تلقى عليهم · فخطب أهل العراق دون خطب أهل الشام فى وعيدها وتهديدها ، لأن أهل العراق وان كانوا قد قاموا بالدعوة لعلى ، كانوا ساخطين على بنى أمية كارهين حكمهم ، وهم قد حصلوا على جانب مما كانوا يريدون وان لم يحصلوا على كل ما كانوا يريدونه ·

أما أهل الشام — وخصوصا أهل دمشق — فهم عيبة(١) بنى أمية وأنصارهم المخلصون ، فهؤلاء لا تجدى فيهم الاستمالة ، ومهما ذكر الخطيب من أخطاء الأمويين وعيوبهم فلن يلفت قلوب هؤلاء عنهم ، لذلك كان لابد من التهديد والارهاب ، وللعباسين خطب فيهم لا تكاد تختلف عن خطب الحجاج وزياد فى أهل العراق ·

اول خطبة عباسية

وأول خطبة لخلفاء العباسين خطبة أبى العباس السفاح بالكوفة عقب مبايعته بالخلافة ، صعد المنبر الى أعلاه وصعد

(١) العيبة الكنانة والجراب توضع به الاسهم ·

معه عمه داود بن على وجلس دونه ، فألقى السفاح خطبة طويلة جاء فيها :

مقدمة الخطبة

... الحمد لله الذى أصطفى الاسلام تكرمة (٢) ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا (٢) وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوام به والذابين عنه ، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحق بها وأهلها (٣)، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ، أنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته ، واشتقنا من نبعته (٤) ، وجعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا ، حريصا علينا بالمؤمنين رءوفا رحيما ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك(٥) على أهل الاسلام كتابا يتلى ، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (٦) ، وقال « لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » (٧) وقال : « وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى » (٨) وقال واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسة وللرسول ولذى القربى والتيامى » (٩) ، فأعمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا ، تكرمه لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) كرم الله الاسلام بارتضائه دينا باقيا للناس .
(٢) هذا وما بعده تعريض بنى أمية .
(٣) تلويح أيضا بأهليتهم الخلافة واستحقاقها دون غيرهم .
(٤) تعريض بالعلويين .
(٥) انزل بوضعهم الموضع الرفيع هذه الايات الاتية .
(٦) سورة الاحزاب / ٣٣ .
(٧) الشورى اية ٢٣ .
(٨) الحشر ٧ .
(٩) الانفال ٤١ .

دفع حق الأخرين

وزعمت السبئية (١) الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ! بم ولم أيها الناس ٠ ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم ، وبصرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة الدنيئة (٢) وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم ، واخوانا على سرر متقابلين فى آخرتهم ٠

فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد (ﷺ) ٠ فلما قبضه الله اليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم (٣) ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها وخرجوا خماصا منها (٤) ثم وثب بنو حرب ومروان ، فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينا حتى أسفوه (٥) ، فلما أسفره انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ٠

وانى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا ــ أهل البيت ــ الا بالله ٠

---

(١) يريد أنصار العلويين ، ويروى أيضا الشامية أى أنصار بنى أمية ٠ ولعبد الله بن سبأ دعوة معروفة ــ زعم فيها أن عليا لم يمت ، وانه صاحب الحق بعد رسول الله ٠٠٠ الخ ، لهذا سمى ابو جعفر أتباع على السبئية ٠

(٢) الاعمال والخلال الساقطة ــ منعت بايدينا ٠

(٣) استولوا علي تراثهم ٠

(٤) يشير الى الخلفاء الراشدين وعفتهم وعدلهم ٠

(٥) أغضبوه ــ أى أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة ، فطغوا حتى أغضبوه ٠

يا أهل الكوفة : أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير ٠

وكان موعوكا فجلس ٠

تحليل هذه الخطبة :

أطال أبو العباس فى مقدمة خطبته ، ولكن المقدمة ليست بعيدة عن غرض الخطبة ، فقد حرص فيها على ادماج نفسه وأسرته فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكد أنهم آل بيته ، وانهم حماة الاسلام والمدافعون عنه ، وهذا يعنى أن حربهم بنى أمية انما هو دفاع عن رسالة رسول الله والدين الاسلامى ، ثم جعل كل ثناء على رسول الله ﷺ انما هو ثناء عليهم لأنهم « نبت من شجرته واشتقاق من نبعته » ـ وكل هذا يوحى بوجوب طاعتهم والوقوف فى صفهم ضد أعدائهم أيا كانوا ٠

وانتقل بعد المقدمة فناقش السبئية ـ أنصار عبدالله بن سبأ ـ الذى دعا لنصر الامام على وخلع عليه صفات الألوهية ، وجعل بنيه يحملون شيئا من هذه الصفات ، والسبئية معروفة لم يذكر هو مذهبهم ولكنه ناقشهم وبين أن ما جاء به رسول الله مظ اصطلاحات لهم وحدهم شرفه والفخر به ، وذكر أن الخلفاء الراشدين قاموا على شريعته من بعده حتى عهد معاوية ، ـ وفى ذكر قيام الصحابة بعد رسول الله ﷺ على شريعته ايحاء بأن بنى العباسى ارتضوا حكومتهم لهذه الاستقامة وأنهم غضبوا على بنى أمية لخروجهم عن طريقته (ﷺ) ٠

وفى حديثه عن بنى أمية بين أنهم أغضبوا الله بعصيانهم فانتقم منهم ببنى العباس وجعلهم ناصرى الحق وعاملين على اعادة حقوق الأمة التى سلبت ، فقيامهم اذن لأجل الأمة ونصر لها ٠

وختم الخطبة بتأكيد المودة بينهم وبين أهل الكوفة ـ الذين تلقى فيهم الخطبة ومناهم بالسعادة على أيديهم ، وأعلن زيادته عطاءهم ٠

وهى خطبة متكاملة الأجزاء متلائمة مع الغرض الذى سيقت له ٠

أما كلمة السفاح المبيح التى جاءت فى ختام الخطبة ، فقيل هى منسفح الدماء واباحة المحرمات أو المصونات، وجاء فى بعض رواياتها ـ المنيح ـ بدل المبيح ، أى الذى يجعل الناس ينوحون ، وقيل هى من سفح الماء بمعنى كثرة الجودة والعطاء الذى يبيح ماله للطالبين وقيل تسميته السفاح لهذا من العطاء لا من سفك الدماء ـ أما الثائر المبير ـ أى المهلك ـ فهى تهديد خفيف وليس موجها الى أهل الكوفة وانما هو مشجع لهم ٠

وانظر هذه الخطبة فلأ الطبرآ ٧/٤٢٥ ط بيروت ٠

خطبة داود بن على

كان السفاح يشكو وعكة فلم يستطيع أن يطيل خطبته السابقة أكثر مما جاء فيها ، اذا اشتدت عليه وعكته فجلس ، وقام عمه داود فألقى هذه الخطبة :

الحمد لله ـ شكرا شكرا شكرا ٠ الذى أهلك عدونا ، وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد (ﷺ) ٠

أيها الناس :

الآن أقشعت (١) حنادس (٢) الدنيا وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها (٣) ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوس باريها (٤) ، وعاد السهم الى منزعه ، ورجع الحق الى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم .

أيها الناس :انا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا (٥) . ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا ، وانما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وماكربنا (٦) من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا (٧) ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم ، وصدقاتكم ومغانمكم عليكم .

لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله ـ (ﷺ) ـ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ـ (ﷺ) .

تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على

(١) ذهبت وتجلت . (٢) ظلمات .
(٣) يريد بذلك : استقرت الامور وصار كل شىء فى وضعه .
(٤) برى القوس : أعدادها واصلاحها ، ومن لا يحسن بريها يتلفها والجملة مثل لوضع الشيء بيد الخبير به .
(٥) اللجين الفضة والعقيان الذهب .
(٦) احزننا وانزل الكرب علينا . (٧) تحرقنا .

الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأيام ، وانتهكوا المحارم ··· ومرحوا فى أعنة المعاصر ، وركضـــوا فى ميأدين الغى ··· فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمـــون : فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ···

أيها الناس :

ان أمير المؤمنين ـ نصره الله نصرا عزيزا ـ انما عاد الى المنبر بعد الصلاة ، انه كره أن يخلط بكلام الجمعـة غيره ، وانما قطعه عن الكلام بعد أن اســحنفر فيه (١) شدة الوعك ، فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعــافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشــيطان ··· المتكهل (٢) المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار ·

« فعج الناس له بالدعاء » ···

يا أهل الكوفة ! انا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأفلح حجتنا ، ··· فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام ·· ومن عليكم بامام منحه العدالة وأعطاه حسن الايالة (٣) · فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ولا تخدعوا عن أنفسكم فان الأمر أمركم ، فان لكل أهل بيت مصرا ، وانكم مصرنا ، ألا وانه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله (ﷺ) الا أميـر المؤمنين على بن أبى طالب ، وأميـر المـؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده الى أبى العباس) فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم (ﷺ) ·

---

(١) اتسع فيه ·

(٢) الذى له رأى الكهول وأناتهم · (٣) المآل والعاقبة ·

الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا (١) ٠

هذه الخطبة كما ترى على نسق الخطبة الأولى من الازراء على بنى أمية والتنديد بسوء سيرتهم ، وقد نفى أن يكونوا قاموا بهذه الحركة لمنفعة لهم ، وانما طالبوا بحق مسلوب وغضبوا لظلم ساد فى الأمة ٠ وقد استمال أهل الكوفة بذكره ما كان يساور بنى العباس من حزن ازاء ظلم الأمويين لهم ، وأكد أن ثورتهم ليست الا لانصافهم ورفع الظلم عنهم ، فهى ثورتهم ، ووعد بأن حكومتهم ستكون حكومة اسلامية ، ولهذا يجب عليهم طاعتها ، وأكد قوة الصلة بينهم ، وخلال الخطبة كلها شاع تأكيد أنهم من آل البيت وأنهم أبناء رسول الله (ﷺ) وعشيرته ٠ وختم خطبته بتأكيد أن الأمر مستقر لهم الى قيام الساعة ٠

خطبة للسفاح فى أهل الشام

حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم ذكر قتل مروان بن محمد ثم قال :

« ٠٠٠ ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار (٢) ٠ نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون

(١) نحمده علي البلاء الذى عانيناه فصبرنا ، وعلى ما منحنا من امر الخلافة ٠

(٢) آل حرب معاوية ويزيد لأنهما من ابى سفيان بن حرب ، وبعد معاوية الثانى تحولت الخلافة الي مروان بن الحكم وبنيه وظلت فيهم الى نهاية الدولة فهؤلاء آل مروان ٠

بكم الظلم (١) ، ويتهورون بكم مداحض الزلق (٢) ، يطئون بكم حرم الله وحرم رسوله (٣) ، ماذا يقول زعماؤكم غدا ؟ ٠٠٠ يقولون : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » اذا يقول الله عز وجل : لكل ضعف ولكن لاتعلمون (٤) ٠

أما أمير المؤمنين (٥) فقد ائتنف (٦) بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم الاقالة (٧) ، وعاد بفضله على نقصكم (٨) وبحلمه على جهلكم فليفرخ روعكم (٩) ولتطمئن به داركم ، ولتعظكم مصارع أوائكم (١٠) ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا (١١) ٠

ألقى السفاح هذه الخطبة فى أهل الشام بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهذا الجزء على قصره يوضح سياسته ٠ ذكر أولا ضلال هذه الدولة من أول حاكم فيها ــ فذكر آل حرب وآل مروان ، وبدأ حديثه باختيار آية تدل على أنهم ضلوا وأضلوا معهم قومهم ، ثم

---

(١) التسكع التمادى فى الباطل ، ويتسكعون بكم الظلم ــ يتمادون قيادتكم الى خوضه ٠

(٢) يرقعونكم فى الأماكن التى تزل فيها الأقدام ــ من تهور بمعني وقع وسقط ودحض بمعنى زلق ٠

(٣) يخوضون بكم ما حرمه الله عليكم ٠

(٤) سورة الأعراف الآية ٣٨ فى وصف أهل النار ــ وأول الآية « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا أخراهم لأولادهم ربنا ٠٠٠ » ٠

(٥) يعنى نفسه ٠ (٦) استأنفها وجددها ٠

(٧) العفو والمسامحة ٠

(٨) تفضل عليكم بالعفو فيما كان منكم ٠

(٩) يقال أفرخ روعه : بمعنى ذهب خوفه وهدأت نفسه ٠

(١٠) يريد مصارع بني أمية ٠ (١١) الآية ٥٢ سورة النمل ٠

أتبعها بما يؤكد معناها ، ثم ذكر آية أخرى تفيد أن أتباع الضـالين لا ينجون من العذاب ، لأنهم انقـادوا لهم فى ارتكاب الضلال ، وبهذا أثبت أنهم يستحقون العقوبة ، وهو بهذا أخافهم وأشعرهم بأنهم قد ينزل بهم ما نزل بقادتهم من العذاب أو القتل ، ولكنه انتقل من هذا الى أنه سـامحهم ويريد أن يبدأ معهم عهدا جديدا يتناسى فيه كل مـا كان منهم ـ وختم حديثه بتحذيرهم أن يحـل بهم ما حـل ببنى أمية ، وطلب أن يكون لهم من ذهابهم عظـة ، فانهم مـا أصابهم الهلاك الا بسبب ظلمهم ٠ واقتبس آية دالة على ذلك ٠

خطب لأبى جعفر المنصور

١ ـ خطبة بعد قتل الأمويين :

أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظه ، نظر امرؤ فى يومه لغده ، فمشى القصد (١) ، وقال الفصل ، وجانب الهجرة (٢) ٠

(ثم أخذ بقائم سيفه وقال) ٠

أيها النـاس : ان بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم (٣) لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ، فانما بعد الوعيد الايقاع (٤) ، وانما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله (٥) ٠

هذا جزء من خطبة ٠ وخطب المنصور فى جملتها قصيرة ، وهذه الخطبة كلها تهديد وتحذير للناس أن يتناقلوا بينهم كلمات السوء ، ان الدولة فى أول قيامها تحتاج الى دعاية حسنة ، ويضيرها أن يشيع عنها أى سوء ، وهى مع ذلك عرضة للتقول وتجسيم المساوىء الضئيلة من أعدائها ، وهو يوضح أن هذه الأراجيف قد تكون كذبا ، وأن من مشى بقالة السوء عنهم فسيقتل ، ولهذا أشار بسيفه مبالغة فى الارهاب والاخافة ٠

(١) هذه كلها صيغ خبرية يفهم منها الامر ٠ أى ليحرز كل لسان رأس صاحبه ، فرب كلمة تسبب قتله ٠ ولينتبه كل شخص لمصيره ٠ والجد الحظ ٠ وجملة فمشى القصد خبرية مترتبة على ما قبلها ٠ أى من فعل فقد مشي القصد ٠ والقصد الاستقامة ٠

(٢) الفحش ٠

(٣) كفيل وضامن ٠

(٤) انزال العذاب ٠

(٥) الآية ١٠٥ من سورة النحل ٠

٢ ـ خطبة له بالشام :

شنشنة أعرفهامن أخزم (١) ٠

من يلق أبطال الرجال يكلم (٢) ٠

مهلا مهلا روايا الأرجاف (٣) وكهوف النفاق ٠ عن(٤) الخوض فيها كفيتم ٠ والتخطى الى ما حذرتم ، قبل أن تتلف نفوس ، ويقل عدد ويدول عز ، وما أنتم وذاك ؟ ألم تجدوا ما وعد ربكم من ايراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها حقا (٥) ، والجد الجد ، ولكن خب كامن ، وحسد مكمد ، فبعدا للقوم الظالمين ٠

٣ ـ من خطبة له بمكة :

٠٠٠٠٠ أيها الناس :

انما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وحارسه على ماله ! أعمل فيه بمشيئته وارادته ، وأعطيه باذنه ٠ فقد جعلنى الله عليه قفلا ، اذا شاء أن يفتحنى فتحنى لاعطائكم ٠ وقسم أرزاقكم ، واذا شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى ، فارغبوا الى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه اذ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » أن يوفقنى للرشاد الصواب ،

(١) مثل عربى ، جاء على لسان شيخ كان ابنه أخزم يعقه ٠ ثم مات وترك أولادا عقوا جدهم فقال لهم هذا المثل ٠

(٢) يجرح ٠

(٣) الاشاعات الكاذبة ٠

(٤) متعلق بكلمة مهلا ، أى امهلوا وكفوا عن الخوض ٠

(٥) ان الله صدق وعده فاورث بنى العباس هذا الملك بعد استيلاء بنى أمية عليه ، ومن خرج عليهم فسيذله الله اذل أعداء العباسيين الآخرين ٠

وأن يلهمنى الرأفة بكم والاحسان اليكم ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ٠

وهذه الخطبة ــ كما هوواضح ــ تختلف عن الخطبتين السابقتين ، فهى لا تهدد ولا تتوعد ، لأن أهــل مكــة لم يكونوا أمويين ، بل لعلهم فرحوا بذهابهم ، ولكنه منــاهم بأن يعطيهم ، وسوغ هذا العطاء بأنه سلطان الله فى أرضه وأنه يعمل بهديه وترغيبه فاذا أعطاهم فانما هو عطاء من الله وسمى يوم انتصارهم يوما شريفا ، لأنه أزيل فيه باطل وقام حق وتمت نعمة من الله عليهم ، ومن أول الخطبة اثبت حقه الالهى وأن سلطانه سلطان الله فى أرضه ٠

من خطبة لسليمان بن على

٠٠٠ « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبــادى الصــالحون ، ان فى هذا لبلاغــا لقوم عابدين »(١) قضــاء مبرم (٢) ، وقول فصــل ما هو بالهزل (٣) ٠

الحمد لله صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعدا (٤) للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا (٥) ، والفىء ارثا ، والدين هزؤا ، وجعلوا القرآن عضين ، لقد حاق (٦) بهم ما كانوا به يســتهزئون ، فكأين (٧) ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، ذلك بمــا قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (٨) لله أمهلوا حتى نبذوا الكتاب ، واضــطهدوا

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ ٠

(٢) يريد أن ما جاء فى الآية من توريث الأرض للصالحين أمــر ثابت ٠

(٣) اقتباس من آخر سورة الطارق ٠

(٤) هلاكا ــ وهو يريد بنى أمية ٠

(٥) يعرض برميهم الكعبة بالمجانيق حين حصارهم ابن الزبير ٠

(٦) أهلكهم وذهب بهم ــ وهو اقتباس قرآنى ٠

(٧) كثير ما نرى ٠ وهو اقتباس من سورة الحج / ٤٥ ٠

(٨) من سورة آل عمران / ١٨٢ ٠

العترة (١) ، ونبذوا السنة ، واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد (٢) ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا (٣) ٠

مقـــاومة العلــــويين

ظل العلويون يقاومون سرا وجهرا أحيانا أخرى ، وقد أذاقهم العباسيون ألوانا عنيفة من العذاب ، وقتلوا بعضا منهم بطرق بشعة وقد وضحت ذلك كتب التاريخ ، ويكفى أن نشير الى محمد بن عبد الله بن الحسن النفس الزكيــة وأخيه ابراهيم ، وقد قتلهما المنصور سنة ١٤٥ هـ ، ثـــم الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ، وقد قتل بفخ سنة ١٦٩ هـ ، ثم يحيى بن عبد الله وأخيه ادريس ، وكان يحيى قد تحصن بالديلم فما زال الرشيد يستميله وكتب له أمانا حتى أمن وقدم بغداد فاستقبله الرشيد بكثير من الحفاوة ثم نقض عهده وقتله ، وأما ادريس ففر الى المغرب وكون حزبا أرهب الرشيد ، ولم يجد مجالا لحربه ولا لخديعتــه بعد خيانه أخيه،فدس لهرجلا سقاه السم ومات سنة ١٧٧ هـ ولم يكن له عقب ، ولكن كانت له أمة بها حمل فأنجبت غلاما سمى ادريس ، وتربث به اتباع أبيه حتى نما فاتخـــذوه اماما ، وقامت حوله ثانيا دولة الأدارسة فى عهد الرشيد نفسه ٠

ولم يكن هذا كل ما بقى للعلويين ، فقد كان هناك فرع آخر من أولاد وأتباع جعفر الصادق وله تاريخه المعروف٠

(١) عترة الرل نسله وأهله الأدنون ـ يريد آل رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ٠

(٢) من سورة ابراهيم / ١٥٠ ٠

(٣) من سورة مريم ٨٩ ، والركز الصوت الخفى ٠

وكان الناس على تتابع السنين يرون أن بنى على قـــد ظلموا من الحكومات ومن الأتباع على السواء ، وكان ذلك يزيدهم تعلقا بهم والتفافا حول من بقى منهم ، وقد دفعهم هذا التعلق الى اضافة صفات لهم وكرامات ، وأيضا وضع أحاديث ، ورغم ما كان بيد العباسيين من قوة ومال كان للشيعة شعراؤهم الذين يطالبون بحقهم ، ومن أشهر هؤلاء دعبل الخزاعى ، والسيد الحميرى ، وكان ابن الــرومى الشاعر البائس الحر يتشيع ويكتم تشيعه حتى نم عن مذهبه ببعض قصائده ٠

هذا النهج يوضح أن الدولة كانت دولة شعر ولم تكن دولة خطابة وأن الشعراء فى هذا الموقف هم الذين قاموا بما كانت تقوم به الخطابة فى عهد على بن أبى طالب وعهد الأمــويين ٠

فاذا رجعنا الى عهد المنصور ، ومقاومته محمد وابراهيم ابنى عبد الله نجد الخطابة ليست ذات مظهر بارز ، ونجد الكتابة شاركت الخطابة ٠

ندب المنصور عمه عيسى بن موسى ـ وكان أيضا ولى عهده ـ الى حرب محمد بن عبد الله النفس الزكية ، وكان قد تغلب على مكة والمدينة وأقام بالمدينة ، فلا نجد أيا منهما يعتمد على الخطابة ، أما عيسى فقد أرسل الى أهل المدينة كتبا يمنيهم فيها الأمانى الطيبة فخدعهم وفــرق الكثيرين منهم عن خصمه ، وأما محمد فألقى فى قومه خطبة لم يكن الغرض الأساسى منها تحميسهم ولا دفعهم للقتال وانمــا كان يختبرهم بها ، وكان من أثرها أن تسلل أكثرهم وبقى أقلهم ٠ وكانوا اختلفوا فيما بينهم ٠ أيقيمون بالمدينــة أم يخرجون لعدوهم خارجها ، وجاء فى هذه الخطبة :

يا أيها الناس :

انا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب ، وان هذا العدو منكم قريب ، وهو ذو عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده، وانه قد بدا لى أن آذن لكم وأفرج عنكم المناقب فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن ... »٠

والخطبة ـ كما نرى ـ ليست تشجيعا على الحرب ، وانما هى استشارة واستطلاع رأى ، وكان هذا التهافت فيها خليقا أن يفرق الناس عنه ٠

وقد حاول المنصور استمالة محمد هذا فبعث اليه برسالة لم تدع لها فى نفسه أثرا ، وتبادلا الرسائل فى غير طائل، وهى توضح وجهة نظر كل منهما فى استحقاق الخلافة ٠

(أ) من أبى جعفر الى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين الى محمد بن عبد الله٠

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ٠ الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم (١) » ولك على عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسول الله (ﷺ) ان تبت ورجعت أن أؤمنك وجميع ولدك واخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم ومال (٢) ، وأعطيت ألف ألف درهم ،

---

(١) سورة المائدة ٣٣ ٠ (٢) أسامحك وادع لك ما أخذت ٠

وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاء معك وبايعك واتبعك أو دخل معك فى شىء من أمرك ٠

فان أردت أن تتوثق لنفسك فوجه الى من أحببت يأخـذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به ٠

(ب) من محمد النفس الزكية الى أبى جعفر

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله الى عبد الله بن محمد ٠

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (١) ٠ وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على ٠

ان هذا الحق حقنا ، وانما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا (٢) ٠ وحظيتم بفضلنا ، وان أبانا عليا كان الوصى وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا ٠ لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ، ولا الطلقاء (٣) ٠ وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى نمت من القرابة والسابقة والفضل وانا بنو أم رسول الله ﷺ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية(٤)

وبنو بنته فاطمة فى الاسلام دونكم ، ان الله اختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ ومن السلف أولهم اسلاما

(١) سورة القصص ١ ـ ٦ ٠

(٢) يريد الخراسانيين ٠

(٣) يريد باللعين الطريد الحكم ، وبالطليق ابا سفيان ٠

(٤) أم على أبى طالب ٠ (٥) من قبل أبيه ومن قبل أمه ٠

على ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة ، وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ٠ ومن المولودين فى الاسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وان هاشما ولد عليا مرتين (١) ، وان عبد المطلب ولد حسنا (٢) مرتين ، وان رسول الله ﷺ ولدنى مرتين من قبل الحسن والحسين ، وانى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا ، ولم تعرق فى العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد ، (٣) فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات الجاهلية والاسلام حتى اختار لى فى النار ٠ فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ٠ وأهونهم عذابا فى النار (٤) ٠ وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ٠

ولك على عهد الله ان دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته الا حدا من حدود الله ، أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله بن على ، أم أمان أبى مسلم ؟ (٥) ٠

(جـ) من أبى جعفر المنصور الى محمد النفس الزكية

بسم الله الرحمن الرحيم :

٠٠٠٠ أما بعد ، فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فاذا

(١) من قبل ابيه ومن قبل امه ٠

(٢) خص الحسن بالذكر لأنه جده الأعلي ٠

(٣) يشير الى أن أبا جعفر من أولاد الاماء الأعاجم ٠

(٤) يشير الى أبى طالب ٠

(٥) معروف أن هؤلاء جميعا غدر بهم وقتلوا ٠

جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء لأن الله جعل العم أبا وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم ·

أما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فان الله لم يرزق أحدا من ولدها الاسلام لا بنتا ولا ابنا ، ولو أن أحدا رزق الاسلام بالقرابة لكان عبد الله ، أولاها بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء قال الله عز وجل : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » ·

ولقد بعث الله تعالى محمدا وله عمومة أربعة ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ « وأنذر عشيرتك الأقربين » فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما الا ولا ذمة ولا ميراثا ، وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى لمؤمن بالله يفخر بالنار ، وسترد لنعلم : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ·

وأما ما فخرت من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبى ﷺ ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم الا مرة ، ولا عبد المطلب الا مرة ،

وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا ٠٠٠

فخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولا وآخرا ابراهيم ابن رسول الله ﷺ ٠٠ وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم الا بنو أمهات أولاد ٠

وما ولد فيكم بعد رسول الله ﷺ أفضل من على بن الحسين ، وهو لأم ولده ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل أبيه جعفر ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك ٠

وأما قولك أنكم بنو رسول الله ﷺ فان الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ولكنكم بنو ابنته ، وانها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تجوز الميراث ، ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الامامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهارا ، ومرضها سرا ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس الا الشيخين وتفضيلهما ، ولقد جاء فى السنة التى لا خلاف فيها بين المسلمين ، أن الجد أبا الأم والخال والخالة ، لا يرثونه ٠

وأما ما فخرت به من على وسابقته ، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ، ولم يروا له حقا فيها ، أما عبد الرحمن فقدم عليه

عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ··· ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ··· فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ·

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعـــد النبى ﷺ غيره فكان وارثه من عمـــومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم يرضـــوا الا ولده · فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا اسلام فى دنيا ولا آخرة الا والعباس وارثه ومورثه ·

أما ما ذكرت من أهل بدر فان الاسلام جـاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ·· ولولا أن العباس أخرج الى بدر كرها لمات طالب وعقيل جوعا ، وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه (العباس) كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسغبة ، وكفاكم النفقة والمؤنة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر ·

قد أعناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأســـر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنـــا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم ·

ويتضح من هذه الأحاديث رجوع القوم الى عصبيات حرمها الاسلام ، وفخر بالآباء للاحتجاج به ، واذا رجعت الى المحاورات التي دارت بين على بن أبى طالب ومعاوية وجدت حديثا لكل منهما عن أبيه وقبيلته وأدركت الفـــرق بين الحوارين ·

الخطبة الدينية العباسية

لم ينل الخطبة الدينية ما نال الخطبة السـياسية من تدهور وفتور ، ولكن طرأ عليها تغير واسع من حيث طولها ومن حيث الأفكار التى تحويها ، أما بقاؤها واسـتمرار العناية بها فلأنها كانت حجة الحكام وسبيل سـيادتهم وتثبيت أقدامهم فى الحكم ، فخلفاء بنى العباس يعتمدون دائما على أنهم ورثة رسول الله ﷺ ، ودعاة الاسـلام ، ولهذا كان لابد أن يقوم الخليفـة فى مقـره والولاة فى الأقاليم بخطب الجمع والأعياد وغيرها من المناسـبات الدينية ، وهو أمر كان جاريا من قبل ، فلا سبيل الى تركه، وقد كانت الخطبة تتعرض للأحداث الجـارية ولأعمـال الحكام ، فتسبغ عليها لباسا دينيا ، وتذكر لها مسوغات من القرآن والسنة ، كما تتعرض لأعمال الأعداء بالزراية، وتذكر من الشواهد ما بين فسادها وخروجها عن الاسلام، ونظرا لقلة الأحداث وهدوء الأحوال السياسية أصـبحت الخطبة دينية بحتة تعنى بالدعوة الى استقامة السـلوك والترغيب فى الجنة والترهيب من النـار ، ومن ناحيـة الأسلوب طالت مقدماتها من صـيغ التحميد لله تعـالى والصلاة على نبيه ، كما طالت الخطبة أيضـا عما كانت عليه فى صدر الاسلام ٠

وكان هناك ـ عدا الخلفاء والولاة ـ خطباء متطوعون يدعون الى الاسـتقامة على الدين ويحذرون من ارتكاب المحرمات ، واشتهر من هؤلاء عدد من النساك الذين عزفوا عن متع الحياة وملذاتها ، وكانوا بسيرتهم وترفعهم عن دنايا الأمور ، واحتقارهم للمـال وعاظا عمليين ، وكان

هؤلاء ربما تطوعوا بالمواعظ يلقونها على الحكام ويجبهونهم بأخطائهم وما يؤخذ عليهم من تجاف عن روح الاسلام ، وقد رأينا مثلا من هذا فى العهد الأموى . وكان معاوية واسع الصدر لتقبل هذه العظات وخصوصا ما يتصل بذكر الامام على وعبادته وتقواه ، وكان الخلفاء ربما دعوا هؤلاء النساك ليعظوهم ، وربما أبكاهم وعظهم، وربما كافأوهم ببعض المال ، ولكن هؤلاء لم يكونوا يرجون مالا ، وكان الواحد منهم يتصدق بما يأخذه ولا يستبقى شيئا أو يستبقى ما يسد به حاجته ·

وبهذا نرى الخطبة الدينية جرت فى تيارين مختلفين ، تيار يجرى على ألسنة الرسميين ، وهو تقليدى غالبا ، وتيار يجرى على ألسنة الوعاظ وأكثره يدور حول الزهد وتهوين الدنيا وتحقير شأنها ، ولكنه كان يختلف باختلاف الوعاظ أنفسهم ودرجات ثقافتهم ومقدرتهم على صوغ الكلام ، وما يختلج فى نفس كل واحد من معان وتجارب وانفعالات ·

وكان لهؤلاء مجالس وعظ يحضرها الكثيرون ، وكان لكل واحد أتباع وعشاق ، ولكن حديث هؤلاء يدخل فى مجالس الوعظ والقصص ·

ومنذ فجر الدولة العباسية ، وبعد الرشيد والمأمون لم يكن الخلفاء يخطبون الجمعة ويؤمون الناس كما كان يفعل الخلفاء من قبل ، أو حتى هؤلاء لم يكونوا يخطبون الجمع باستمرار ، ففت هذا فى نشاط الخطابة الدينية ، ولكن الوعاظ المتطوعين كانوا ذوى تأثير وبلاغة ، لأنهم كانوا مدفوعين بعامل الاخلاص ، وحب الدين والرغبة فى نيل المثوبة من الله ·

وكان لتغلب الأتراك واستبدادهم أثر فى تنشيط النزعة الصوفية والدعوة الى الزهد ، والتنفير من ماديات الحياة الدنيا ، وللصوفية آثار خطابية وعبـارات زاهدة بليغة ، كما لهم أخبار وأقاصيص تكفلت بها كتب التصوف ، واذا رجعت الى الرسالة القشيرية وكتب التصوف الأخـرى ، وجدت فيضا من هذه وتلك ٠

ومنذ القرن الرابع نال الخطابة الدينية ركود وضعف ، ووجدت كتب أو دواوين خطب يستعملها خطباء المساجد ، واشتهر منها ديوان ابن نباتة الذى ظل يحـاكى باخراج دواوين على نسقه حتى العهد الحديث ، وهى خطب تنظم على حسب الشهور ، لكل شـــهر أربع خطب أو خمس ، ففقدت الخطبة تأثيرها ، اذ أصـــبحت بعيدة عن حيـاة الناس ٠

وشعرت الخطبة الدينية بانتعاش ضئيل أيام الرحوب الصليبية ، ولكن أسلوب الكتابة فى هذا الوقت كان مقيدا بالسجع ، ولم تكن ثم معارضة من الجانب الآخـــر ، فلم تظفر الخطابة الدينية بما يبعث فيها قوة كافية ٠

وظلت الخطبة معتمدة على الدواوين خصوصا فى عهد المماليك والعهد التركى ، فلما جاء العصر الحديث انتعشت الخطابة السياســـية والاجتماعية ، وظلت الدينية على جمودها ، ولكن ترقى أسلوبها ومنهجها بترقى الدراسة فى الأزهر ، ثم قام عدد من الجمعيات الاسلامية مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية والاخوان المسـلمين ، فجعلوا للخطبة الدينية هدفا خاصا ومنهجا ودارت كل جماعة منها فى محيطها ، فاســـتيقظت على أيديهم ونالهـا كثير من

التجديد واتساع الأفق ، وادخال جوانب اجتماعية كثيرة فيها ، ثم عادت ثانيا الى الركود ، والخطبة فى الوقت الحاضر ليست على ما كان ينبغى أن تكون ،عليه من القوة ٠

وحسبنا هذا الاستعراض العابر ، ونرجع بالنماذج التى نريدها الى العصر العباسى ٠

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ، ونؤمن به حقا ، ونتوكل عليه مفوضين اليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وادبار من الدنيا ، واقبال من الآخرة بشيرا بالنعيم المقيم ، ونذيرا بين يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ونصح الأمة ، وجاهد فى الله ، فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين ٠ فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام ٠

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فان فى التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات ، وفوزا بالجنة ونجاة من النار ، وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار ، وتبلى فيه الأسرار ، يوم البعث ويوم التغابن ، ويوم التلاق ، ويوم التناد (١) ، يوم لا يستعتب (٢) من سيئة ، ولا يزداد من حسنة « يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما

(١) كل هذه أسماء ليوم القيامة جاءت فى القرآن الكريم ٠

(٢) يقال عاتبت فلانا فأعتبنى أى قبل ما عاتبته عليه وازال ما اشكو منه ٠ واستعتبته طلبت أن يقبل اعتذارى له ٠

تخفى الصدور » (١) ، « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٢) ·

عباد الله ٠٠ ·

انكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، حصنوا ايمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع (٣) ، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء فى الخبر أن النبى ﷺ قال : « لا ايمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا زكاة له » · انكم سفر (٤) مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء الى دار بقاء ، فسارعوا الى المغفرة بالتوبة ، والى الرحمة بالتقوى ، والى الهدى بالانابة (٥) ، فان الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمؤمنين · قال الله عز وجل ـ وقوله الحق ـ « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة »(٦) وقال : « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » (٧) ·

واياكم والأمانى ، فقد غرت وأردت وأوبقت كثيرا (٨)، حتى أكذبتهم مناياهم (٩) ، فتناوشوا(١٠) التوبة من مكان

(١) من سورة غافر / ١٨ ـ ١٩ ·
(٢) من سورة البقرة / ٢٨١ ·
(٣) التنزه عن الآثام ·
(٤) مسافرون ·
(٥) الخشوع والرجوع الى الله ·
(٦) من سورة الأعراف / ١٥٦ ·
(٧) سورة طه / ٨٢ ·
(٨) أردت أوقعت فى الردى الهلاك · وأوبقت اوقعت فى الأعمال الموبقة المهلكة ·
(٩) جاءهم الموت وأمانيهم لم تحقق ·
(١٠) تعلقوا بها وحاولوها ـ والتناوش التناول والتعاطى ، أى لم يجدوا مجالا للتوبة · وهو اقتباس من آخر سورة سبأ ·

بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشـــتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلات (١) فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد وقدم اليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعـــه بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعهدتهم الآباء والأبناء والأحبـــة والعشائر باختطـــاف المـــوت اياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم ، ولا تحـــولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأســـباب ، فأسـلمتهم الى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ٠

ان أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله عز وجل : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصـــتوا لعلكم ترحمون » (٢) ٠

أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم انه هو السميع العليم ٠ بسم الله الرحمن الرحيم « قـــل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » ٠ آمركم بما أمركم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه وأســـتغفر الله لى ولكم ٠

هذا نموذج للخطبة الدينية فى هذا العصر ، وســـتجد خطب الآخرين لا تخرج عن هذا النمط ، وكلها تدور حول التذكير بالموت والحساب فى الدار الآخرة ، والتحذير من الانغماس فى الدنيا ٠ وليس ثمت فكرة خاصة تتركز فيها الخطبة ، أو الحاح على مبدأ معين أو عمـــل خاص من زكاة أو صلاة ليل ٠

---

(١) صاروا وأمثالا يعتبر بها ٠
(٢) سورة الأعراف / ٢٠٤ ٠

وقد كان هناك المعلمون والوعاظ فى المساجد وغيرها، يدعون لمثل هذا الزهد والورع ، كما كان هناك الفقهـــاء ومفسرو القرآن والمحدثون يتناولون الموضوعات الخاصة· وبذا أصبحت الخطبة الدينية من الخلفاء عملا تقليديا قل فيه الخلاف بين خطيب وآخر ·

ويلاحظ أن صيغة الحمد والشهادة فى أول الخطبة قـد طالت وهى ظاهرة بدأت فجأة فى هذا الوقت ، ويوجد فى نهج البلاغة مثل هذا ولكنه مما لا يطمأن اليه ، ولا يقطع بنسبته للامام على ·

خطب للمأمون

١ ـ خطبة فى يوم جمعة :

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومســـتوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الدين كله ولو كره المشركون ·

وأوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده (١) ، والخوف لوعيده ، فانه لا يسلم الا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه · فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا مـا يبقى بما يزول عنكم ويفنى ، وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم (٢)، واستعدوا للموت فقد أظلكم ، وكونوا كقوم صـــيح فيهم فانتبهوا ، وعملوا أن الدنيا ليست لهم بدار ، فاستبدلوا(٣)

(١) تنجز الوعد طلب قضاءه ـ يريد اعملوا صالحا يقض الله لكم ما وعد به من رحمة للصالحين ·

(٢) جد به الأمر أو العمر بمعني أسرع ·

(٣) طلبوا دار أخرى بدلا منها ·

فان الله عز وجل لم يخلقكم عبثا ولم يتركم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار الا الموت أن ينزل به ، وان غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة ، وان غائبا يحدوه الجديدان — الليل والنهار لجدير بسرعة الأوبة (١) ، وان قادما يحل (٢) بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه وقدم توبته ، وغلب شهوته (٣) ، فان أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، ويزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها (٤) ، حتى تهجم عليه منيته ، أغفل ما يكون عنها ، فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة (٥) ، أو تؤديه منيته الى شقوة ٠

نسأل الله أن يجعلنا واياكم ممن لا تبطره نعمة (٦) ولا تقصر به عن طاعة ربه غفلة ، ولا تحل به بعد الموت فزعة، انه سميع الدعاء ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ٠

٢/ — خطبة له في عيد الفطر :

ألا وان يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام، فجعله أول أيام شهور الحج ، وجعله معقبا لمفروض

(١) الرجوع — يريد أن الناس غائبون عن دارهم الأصلية وهى الآخرة ٠

(٢) أى سينزل بمكان شقوة أو فوز — فيجب أن يهيىء نفسه لمكان الفوز ٠

(٣) من فعل ذلك فقد وقى نفسه من عذاب الله ، وهو ماض بمعنى الأمر ، أى ليتق الله ٠

(٤) يرجها ويؤجلها ٠

(٥) الأيام التى عاشها لم يعمل فيها صالحا فاصبحت حجة عليه ٠

(٦) لا تحمله نعمة الله على البطر وعدم الشكر ٠

صيامكم ، ومتنقل قيامكم ، أحل الله لكم فيه الطعام ، وحرم عليكم فيه الصيام ، فاطلبوا الى الله حوائجكم ، واستغفروا لتفريطكم فانه يقال : لاكثير من ندم واستغفار ، ولا قليل مع تماد واصرار ٠

اتقوا الله عباد الله وبادروا الأمـــر الذى اعتدل فيه يقينكم ، ولم يحضر الشك فيه أحـــدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا تستقال بعده عثرة (١) ، ولا تحظر قبله توبة ، واعلمو أنه لا شىء بعده الا فوقه ، ولا يعين على جزعه وعلزه (٢) وكربه ، وعلى القبر وظلمته ، وضيقه ووحشته ، وهول مطلعه ، ومسألة ملكية (٣) ، الا العمـل الصالح الذى أمر الله به فمن زلت عند الموت قدمه ، فقـد ظهرت ندامته ، وفاتته اسـتقالته ، ودعا من الرجعة الى ما لا يجاب اليه ، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه ٠

فالله الله عباد الله ، كونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها اذ منعها الذين طلبوها ، فانه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم الا هذا الأجل المبسوط لكم ، فاحذروا ما حذركم الله ، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشـــر صحفكم الحافظة لأعمالكم ، فلينظر عبد مـا يضـــع فى ميزانه مما يثقل به ، وما يملى فى صحيفته الحافظة لما عليه وله ٠

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كل ما بها يحذر منها ، وينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو الى غيرها ، وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها

(١) اقالة العثرة اصلاح خطا سبق ٠
(٢) ما يصيب المحتضر من حشرجة الموت ٠
(٣) يريد حساب الملكين فى القبر ٠

وزوالها ثم كتاب الله لها ، والنهى عنها ، فانه يقول تبارك وتعالى : « فلا تغرنكم الحيـــاة الدنيـا ولا يغرنكم بالله الغرور » (١) وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأمـوال والأولاد » (٢) فانتفعوا بمعرفتكم بها ٠

واعلموا أن قوما من عبـاد الله أدركتهم عصـــمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائعها ، وآثروا طاعة الله فيها ، وأدركوا الجنة بما يتركون منها ٠

٣ ـ خطبة له فى عيد الأضحى :

ان يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشـــريفه وعظم حرمته ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله وفدى فيه بالذبح (٣) العظيم نبيـــه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومقدم الأيام المعدودات من النفر(٤) يوم حرام من أيام عظام ، فى شهر حرام ، يوم الحج الأكبر، يوم دعا الله فيه الى مشهده ، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه٠ قال الله عز وجل : « وأذن فى النـاس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كـل فج عميق » (٥) ٠ فتقربوا الى الله فى هذا اليوم بذبائحكم ، وعظموا شـعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم فانه يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن ينـاله التقوى منكم (٦) ٠

---

(١) سورة لقمان ٣٣ ٠ (٢) سورة الحديد ٢٠ ٠

(٣) الذبح بمعنى المذبوح ٠ وهو مقتبس من الآية : وفديناه بذبح عظيم ٠

(٤) خاتم الأيام العشر الأولى من ذى الحجة وأول أيام النفر من منى ٠

(٥) سورة الحج / ٢٧ ٠ (٦) الحج آية ٣٧ ٠

الله الله فوالله انه الجد لا اللعب ـ والحق لا الكذب ، وما هو الا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله فى الجنة ، والشر كله فى النار ٠

هذه ثلاث خطب للمأمون ، والمأمون من ذوى الثقافة والمقدرة الخطابية ولكننا نجد الخطب الثلاثة تدور حول التذكير بالآخرة والتخويف من الموت لا يميز خطبة الجمعة عن خطبة العيد الا ما أشار به من نوع العيد ، وأنه خاتم صوم أو يوم ضحية ثم يعود للتذكير بالآخرة والحساب ٠

وفى خطبتى العيدين جاء افتتاح بالتكبير كما جاء تكبير الثقافة ولهذا ظلت الخطبة الدينية خطبة تقليدية ٠

وخطبة الرشيد وخطب المأمون قريبة الشبه فى الأسلوب والمعانى وهذا يحدد مستوى الخطبة الدينية ، وليس أللذين جاءوا بعد ذلك خطب خير من هذا وقد كان المعتصم أقرب ألى الأمية لا ثقافة له ، ولم يكن الواثق أيضا واسع الثقافة ظلت الخطبة الدينية خطبة تقليدية ٠

ومن الخطب التى تبين منهج الخطبة الدينية وأسلوبها فى القرن السادس خطبة شهيرة خطبها القاضى محيى الدين بن زكى الدين (١) فى أول جمعة صليت فى بيت

---

(١) اسمه محمد بن أبى الحسن ويكنى ابا المعالى وتلقب محيى الدين ٠ وتلقب أبوه زكى الدين ، من فقهاء الشافعية المعروفين بدمشق في عهدصلاح الدين ٠ ومن اسرة علم وقضاء ٠ آباؤه وأولاده من العلماء ، وكان له منزلة عند السلطان ، وكان له شعر جيد وخطب ورسائل ٠ ولما ملك صلاح الدين حلب جعل له الحكم والقضاء بها ولما فتح بيت المقدس تطاول العلماء الى خطبة يوم الجمعة ولكن السلطان صلاح الدين جعلها اليه ٠ وكان يوم فتحه حلب قد مدحه بقصيدة جاء فيها ٠

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

ففتحت القدس فى رجب وكان الناس يتغنون هذا البيت ٠

(انظر وفيات الأعيان جـ ٤ ـ ٣٢٩ وما بعدها وجـ ٢ ـ ٣٣٢) ٠

المقدس بعد أن فتحه صلاح الدين ، وحضرها السلطان وأعيان دولته ، وهى خطبة طويلة أكثر فيها الاقتباس من القرآن الكريم وعلى منهج عصره حرص فيها على السجع ما استطاع واستعمال كثيرا من المحسنات البديعية ٠ وقد جاء فى وصف خطبته أنه بدأها بقراءة سورة الفاتحة كلها، ثم اقتبس آيات قرآنية أولها « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » ثم قرأ : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ثم « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا » ، ثم أول سورة الكهف ثم الآية : « قل الحمد لله وسلام على عبادة الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون » ٠

فاختار آيات تبدأ بالحمد وتنفى أن يكون لله ولد ، كأنه تعريض بالصليبية المسيحية التى تجعل عيسى ابن الله ، ثم بدأ خطبته ، فقال :

الحمد لله معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ٠ القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما شاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ٠

أحمده على اظهاره واظفاره ٠ واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده ٠

وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه • وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، رافع الشك وداحض الشـرك وراحض الافك ، الذى أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلا الى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى • ما زاغ البصر وما طغى • صلى الله عليـه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق الى الايمان عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسـر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان •

أيها الناس : أبشروا برضـوان الله الذى هو الغـاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضـالة ، وردها الى مقـرها من الاسلام • بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيـه اسمه ، واماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفـع قواعده بالتوحيد ، فانه بنى عليه وشيد بنيانه بالتمجيد ، فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم ابراهيم • ومعراج نبيكم محمد عليه الصـلاة والسـلام وقبلتكم التى كنتم تصلون اليها فى ابتداء الاسلام ، وهو مقر الأنبيـاء • ومقصد الأولياء • ومدفن الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل به ينزل الأمر والنهى وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين • وهو المسجد الأقصى الذى صلى فيه رسـول الله (ﷺ) بالملائكة المقـربين ، وهو البلد الذى بعث الله اليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها الى مريم ، وروحه عيسـى

الذى كرمه الله برسالته وشرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : « لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون » · كذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا · «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ،اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ·

وهو أولى القبلتين ، وثانى المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين الا اليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين الا عليه ، فلولا أنكم ممن اختاره الله ، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فيها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على يديه المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد (ﷺ) أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء وتقبل منكم ما تقربتم به اليه من مهراق الدماء وأثابكم الجنة فهى دار السعداء ، فقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا الأنبياء والمرسلون ·

فماذا لله عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذين تقوم

بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان ، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله ، وأن تكون التهانى لأهل الخضراء أكثر من التهانى لأهل الغبراء · أليس هو البيت الذى ذكره فى كتابه ، ونص عليه فى محكم خطابه ، فقال تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، أليس هو البيت الذى عظمته الملل وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل · أليس هو البيت الذى أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ؟ وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ·

فاحذروا عباد الله ــ بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل، والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ــ أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وكالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم ·

جدوا فى حسم الداء وقلع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التى أغضبت الله ورسوله ·

وتمضى الخطبة طويلة على هذا النسق ــ ترديد لهذه المعانى واقتباس من القرآن ثم ختم بهذه العبارات :

آمركم واياى بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم واياى عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه·

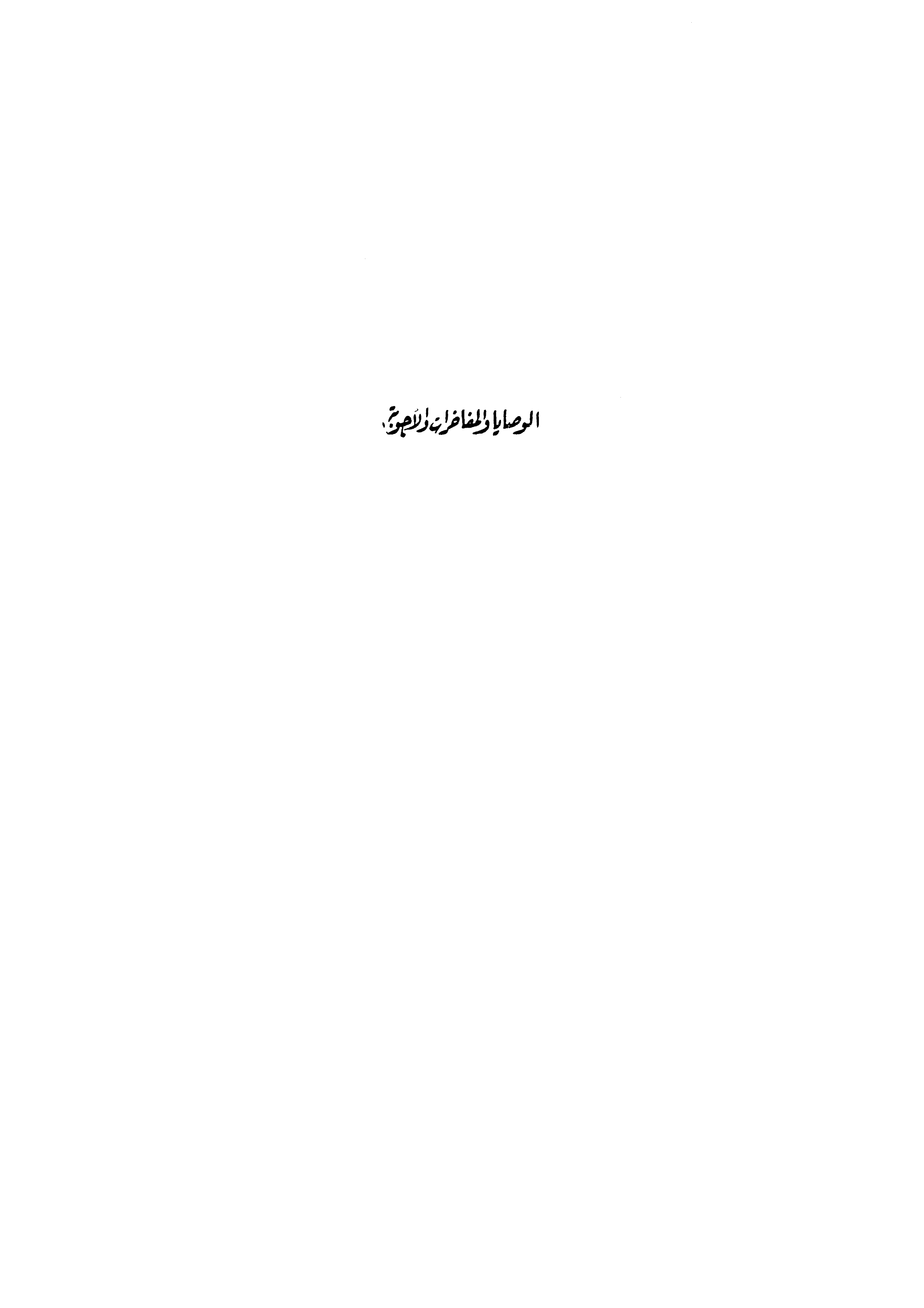
وفى الخطبة الثانية ـ كانت مختصرة على ما هو مألوف دعا للامام الناصر خليفة العصر ، ثم قال :

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشـاكر لنعمتك المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممـانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر جامع كلمة الايمـان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسـلام والمسلمين ، مطهر بيت المقدس أبى المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين ·

ثم استمر يدعو لصـلاح الدين ويثنى عليه ، ويقتبس دعوات من القرآن · ثم دعا كما قال ابن خلكان بما جرت به العادة ·

هذه الخطبة تمثل الخطابة الناضجة فى هذا العصر · لأن صلاح الدين اختار من يراه أنبغ العلمـاء المتطلعين للخطابة ·

كان أسلوب هذا العصر يعتمد على السـجع حتى فى الكتب ، وكتاب « الفتح القسى » يمثل مدى الحرص على هذا الالتزام ، وهذه الطريقة كما ترى فى هذه الخطبـة تفقد تأثيرها فى نفوس السامعين · ثم ان الخطيب فقيـر جدا فى معانية ، وقد أطال فى مقدمته طولا مملا ، وتدور الخطبة كلها على أن فتح بيت المقدس نعمة من الله وشرف لمن افتتحوه ، وزراية بالصليبية وعقيدة الصـلب ، وكان يمكن أن يكون هذا الكلام فى حجم أقـل من هذا ، وفى عبارات دارجة وأسلوب مرسل ، لكنك تشـعر أن الخطيب مجهود فى بحثه عن عبارات ملائمة ، وبحثـه عن نص يقتبسه أو يستشهد به ـ ثم نجد مبالغة فى مدح صـلاح الدين ، واطالته كان يغنى عنها بعض من العبارات المتسقة، فى اشارة أو ايجاز ·



الوصايا والمفاخرات والأجوبة

الوصـــــايا

تلحق الوصـــايا بالخطب لأنها ارشـــاد وتوجيه ، وقد تشتمل على اقناع واستمالة ، وأكثر ما تكون ألوصايا من شيخ لأولاده عندما يدنو أجله ، أو من حكيم لقومه أو من والدين لابنه لهما زوجت وهمت بفـراق بيت والدها الى بيت زوجها ٠ وأكثر الوصـــايا فى هذه الحالة من الأم ، لتجربتها ، ولأن النساء أخبر بحالات النســاء ٠ ونظرا لأن الوصـــية من شخص مؤتمن موثوق به لا يحتـاج الموصى الى مقدمة وتمهيد لما يقول ، كمـــا أن الأدلة التى يسوقها لتأييد رأيه تكون غالبا موجزة ، اذ يكفى مع هذه الثقـــة أن توجه الذهن الى ســـببها ٠ ولا داعى للالحـــاح على تعميق البراهين ٠ وأكثر الوصايا تسرد فيه صـــيغ الأمر سردا متواليا ، مـــع ذكر سبب موجـز لاختيارها ٠

هذه الوصايا قديمة جدا ، وقدمها أمــر واضـح لان كـل كبير ومجـرب يعلم من دونه ممن يعنيه شـــأنه ، وهى فى الواقع لون من التربية والتعليم ، لهذا كان وجودها مع وجود كل جماعة ، وكل أسرة ، وأحيانا تأخذ صورة الخطبةاذا كان صاحبها يلقيها على جمع من الناس ٠

ونورد بعضا من هذه الوصايا جاهليـــة واسلامية لنرى منها عادات القوم وأخلاقهم ، والصفات التى كانوا يرونها ضرورية أو هامة لديهم ، والأخرى التى يتحاشـونها ويحذرون منها ، ثم نرى طريقتهم فى صوغها ووجهــة نظرهم فى سوقها ٠

وصايا جاهلية

١ ـ وصية ذى الأصبع العدوانى

وهو حرثان بن محرث سمى ذا الأصبع لأن حية نهشت اصبعه ، دعا عند احتضاره ابنه أسيدا فألقى عليه هذه الوصية :

يابنى : ان أباك قد فنى وهو حى (١) ، وعاش حتى سئم العيش (٢) ، وانى موصيك بما ان حفظته بلغت فى قومك ما بلغته (٣) فاحفظ عنى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يودوك (٤) ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بما لك ، واحم حريمك (٥) ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، أسرع النهضة فى الصريخ (٦) ، فان لك أجلا لا يعدوك (٧) ، وصن وجهك من مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك (٨) .

(١) كبر وأدركه وهن كالموت .

(٢) مل الحياة لطولها .

(٣) صرت فى مثل منزلتى .

(٤) يجعلوك سيدا .

(٥) الحريم ما حرم فلا يمس . ويريد به هنا النساء .

(٦) الصريخ والاستصراخ الاستغاثة . ويقال أصرخه أى أجاب صراخه فأغاثه يقول : كن سريعا مهتما بمن استغاث بك .

(٧) يريد : لا تكن متهيبا خائفا من القتل . فان لك مدة معينة يوافيك فيها الموت ولا يخطئك .

(٨) السؤدد . والسودد : المجد .

٢ ـ وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى

خطب عمرو بن حجر جد امرىء القيس الشـــاعر بنت عوف بن محلم ، وهو من أشراف بنى شيبان ، وكان يقال فيه : لا حر يوادى عوف ، كناية عن شرفه وتساميه على الناس جميعا ، وابنته هذه هى التى كانت تسمى أم اياس، فلما كان بناؤه بها ، وهمت أن ترحل معه أوصتها أمها هذه الوصية الجامعة :

أى بنية : انك فارقت بيتك الذى منه خـــرجت (١) ٠ وعشك الذى فيه درجت (٢) ، الى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبـــدا (٣) واحفظى له خصالا عشرا ، يكن لك (٤) ذخرا ، أما الأولى والثانيـــة فالخشوع له بالقناعة (٥) ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك الا أطيب ريح (٦) ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعـــامه ، فان تواتر الجوع ملهبة (٧) ، وتنغيص النوم مغضبة (٨) ، وأما السابعة والثامنة ، فالاحتراس بماله (٩) والارعاء (١٠) على حشمه وعياله ، وملاك (١١) الأمر فى المال حســـن

---

(١) نشأت ونبت فيه (٢) نموت وترعرعت ٠ تريد الذى لها به ألفة

(٣) عامليه معاملة بها تواضع ولين يعاملك معاملة مثلها ٠

(٤) تكن هذه الخصال ذخير لك عنده ٠ يذكرك بها وتحفظ مكانتك فى نفسه ٠

(٥) تريد بالخشوع الرضا والطاعة ٠ أى ان تقنع ما يقدمه لها ٠ ولا تطالبه بما تشمئز منه نفسه ويتقل عليه طلبه ٠

(٦) تأمرها بالتزين له والطيب ٠

(٧) تريد أنه يثير كاللهب الذى يؤلم الجسم باحراقه ٠

(٨) باعث للغضب (٩) المحافظة علي ماله وعدم التبذير فيه

(١٠) الرعاية والمحافظة ٠ والحشم أتباع الرجل ٠

(١١) ملاك الشىء روحه وصـــميم حياته وبقائه ٠ وحسن التقدير وضع الشىء فى موضعه ٠

التقدير ، وفى العيال حسن التدبير (١) · وأما التاسعة والعاشرة ، فلا تعصين (٢) له أمرا ، ولا تفشين له سرا ، فانك ان عصيت أمره أوغرت (٣) صدره ، وان أفشيت سره لم تأمنى غدره (٤) ، ثم اياك والفرح بين يديه اذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه اذا كان فرحا (٥) ·

٣ ـ وصية عامر بن الظرب (٦) ابنته

زوج عامر بن الظرب ابنته من ابن أخيه ، فلما أراد تحويلها قال لأمها :

« مرى ابنتك ألا تنزل مفازة (٧) الا ومعها ماء ، فانه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء (٨) ، ولا تكثرن مضاجعته ، فانه اذا مل البدن مل القلب ، ولا تمنعه شهوته ، فان الحظوة فى الموافقة (٩) » ·

---

(١) حسن التصرف والتعليم ·

(٢) جملة خبرية أى أنك لا تخالفينه فيما يأمر به ·

(٣) أغضبته ·

(٤) تذهب مكانتك من نفسه · فلا يبقى على مودتك · وهذا ما أرادت بالغدر ·

(٥) اذا كان مهموما · تريد ان تشاركه في حالاته النفسية · فتانس نفسه اليها · وتقر محبتها فى قلبه ـ والخطبة خلاصة تجربة امرأة عاقلة · وقد جمعت بين وصايا مادية وأخرى معنوية ولا يوصى علم النفس والتربية الحديثة بأكثر من هذا · ومن معت هذه الخصال العشر كانت خايقة ان تنال محبة زوجها ، وكانت له نعم القرين ·

(٦) هو عامر بن الظرب العدوانى ـ من المعمرين يقال انه عمر مائتى سنة ومن حكماء العرب المشهورين · وكان يحتكم اليه ، وفيه يقول ذو الاصبع :

ومنا حكم يقضى فلا ينقض ما يقضى

ومن اقواله : « الرأى نائم والهوى يقظان فمن هناك يغلب الهوى الرأى · ان العصا قرعت لذى الحلم » انظر أمثال الميداني فى هذا المثل ·

(٧) صحراء ·

(٨) جمال لما ظهر من الجسم ونظافة لما استتر منه ·

(٩) انظر عيون الأخبار ٧٦/١٠ وقارن الأغانى ٥٧/٨ ·

ولم تلبث الا شهرا حتى عادت اليه مشجوجه ٠٠ فرد على ابن أخيه صداقه ، وخلعها ، وهى أول خلع فى العرب٠

٤ ـ وصية أكثم بن صيفى لبنيه وقومه

٠٠٠ يا بنى تميم لا يفوتنكم وعظى ان فاتكم الدهر بنفسى ، أن فى حيزومى (١) وصدرى لكلاما لا أجد له مواقع الا أسماعكم ، ولا مقار الا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية تحمدوا مغبته :

الهوى يقظان والعقل راقد (٢) ، والشهوات مطلقة والحزم معقول ، والنفس مهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التوانى وترك الروية يتلف الحزم (٣) ولن يعدم المشاور مرشدا ٠

والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل (٤) ، ومن سمع سمع به (٥) ٠ ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت الا فى مقاتل الكرم(٦) وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد (٧) أمن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويؤرث (٨) غيظه ، ولا يجاوز مضرته نفسه ٠

(١) وسط الصدر وما يلغت عليه الحزام ٠

(٢) دواعى الهوى ٠ وبواعث الشر تاتى تلقائيا ٠ ولكن التدبر والحمة انما تكون بعد تفكير ومحاولة ٠

(٣) الحزم الحكمة ، وهي تذهب بطول التباطؤ وبالاسراع وعدم التفكر ٠

(٤) مداحض : جمع مدحض ، اسم مكان من دحض بمعنى زل وسقط او انحرف عن الصواب ٠ يريد أن من يتمسك برايه ولا يصغى للشورى ، يكون على حافة الخطأ معرضا للوقوع فيه ٠

(٥) من شهر بالناس واذاع فضائحهم ٠

(٦) لو تدبرنا أين تكون المحنة ما وجدناها الا فيما يمس الكرم ، وما عدا ذلك لا يستحق أن يسمى محنة ٠

(٧) الأرض المستوية ٠ (٨) يشعله كالنار ٠

يابنى تميم · الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة (١) ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، كلم (٢) اللسان أنكى من كلم السنان ، والكلمة مرهونة(٣) ما لم تنجم من الفم ، فاذا نجمت فهى أسد محرب (٤) ، أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز (٥) ، ونفاذ الرأى فى الحرب أجدى من الطعن والضرب ·

---

(١) عندما يتحام الشخص على سفيه أو معتد يجد ذلك شيئا مرا ، ولكن تجرع هذه المرارة أهون من التسرع الي الانتقام ثم الندم بعد ذلك ·

(٢) جــرح ·

(٣) محبوســة ·

(٤) متوثب مستعد للوثوب ، من التحريب وهو التحريش ·

(٥) هو بالزاى ، أى لا يتجاوز الحد والعدل ، وبالراء لا يظلم ·

قدمنا أمثلة لوصايا الجاهلين فى مواقف مختلفة ، وفى العصر الاسلامى نجد وصايا كثيرة أيضا ، ونجد الفرق واضحا بين النوعين ، لأن وصايا الجاهليين كانت تعتمد على التجربة والفكر الشخصى بينما وصايا الاسلاميين ـ وهى لا تخلو من التجربة والخبرة ـ تعتمد على وصـــايا الاسلام وتعاليم الدين ، ولهذا تقتبس أحيانا من القــرآن الكريم والسنة النبوية ، ويكســـو هيا كلها روح الزهد والدعوة الى العمل للآخرة ، وبعض هذه الوصـــايا مما ألقى من والد لوالده أو من سابق للاحق أيا كان ، وبعضها مكاتبات جرت بين صـــديقين أو غير صـــديقين ، واليك نماذج منها ٠

١ ـ وصية أبى بكر الصديق (رضى الله عنــه) لعمر بن الخطاب

عندما عهـــد أبو بكر بالخلافة من بعده الى عمـــر بن الخطاب ، وهو فى مرض موته أوصاه وصية يبدو فيهـا الروح الاسلامى كأبرز ما يكون فى الوصايا ٠ وقد جاء فيها :

٠٠٠ أوصيك بتقوى الله ٠

ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهـــار لا يقبله بالليل ، وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض ، وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة ، باتبــاعهم الحق مع ثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يكون ثقيلا ، وانمـــا خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحق

الميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يكون خفيفا · وان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فاذا سمعت بهم قلت انى أخاف ألا أكون من هؤلاء · وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم ، وأمسك عن حسناتهم ، فاذا سمعت بهم قلت أنا خير من هؤلاء · وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغبا راهبا لا يتمنى على الله غير الحق · فاذا حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب اليك من الموت ، وهو آتيك ، وان ضيعت وصيتى فلا يكونن غائب أبغض اليك من الموت ، ولن تعجزه ·

٢ ــ من على بن أبى طالب لابنه الحسن

جاء فى نهج البلاغة وصية مطولة من الامام على لابنه الحسن ، وقد قسمها صاحب العقد الفريد ، فاقتطع منها جزءا جعله موجها الى محمد بن الحنفية ، وحيث ان كتاب نهج البلاغة كله بمدرجة الشك ، وليس من السهل أن يميز فيه ما دس عليه مستقلا أو مدسوسا بين كلام الامام ، فانا نورد الوصية على ما جاء فى العقد ، لأنها لو جعلت جزءا واحدا لكانت طويلة جدا ، ولم يكن هذا العصر مما يقبل الطول فى الخطب أو الوصايا ، على أن طول المقدمة فى أول هذه الوصية مما لا يناسب عصر الامام أيضا ، ولكننا لسنا فى مقام تحقيق الآثار الأدبية ، وانما يعنينا أن نقدم للخطيب مادة خطابية فى تفكيرها وتعبيرها ، وهى رسالة مكتوبة لا نصيحة ملقاة :

(أ) الى الحسن :

من على أمير المؤمنين ··· الوالد الفانى ، المقر للزمان ، المستسلم للحدثان ، المدبر العمر ، المؤمل ما لا

يدرك ، السالك سبيل من هلك ، غرض الأسقام ورهينة الايام ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وأسير المنايا ، وقرين الرزايا ، وصريع الشهوات ، ونصب الآفات ، وخليفة الأموات ٠

أما بعد يابنى :

فان فيما تفكرت فيه من ادبار الدنيا عنى ، واقبال الآخرة الى ، وجموح الدهر على ٠٠٠ ما يرغبنى من ذكر سواى ٠ والاهتمام بما ورائى ، غير أنه حين تفرد بى هم نفسى دون هم الناس ، فصدقنى رأيى ، وصرفنى عن هواى وصرح بى محض أمرى فأفضى بى الى جد لا يزرى به لعب ، وصدق لا يشوبه كذب ، ووجدتك يابنى بعضى ، بل وجدتك كلى ، حتى كأن شيئا لو أصابك لأصابنى ، وحتى كأن الموت لو أتاك أتانى ، فعند ذلك عنانى من أمرك ما عنانى من أمر نفسى ٠

كتبت اليك هذا يابنى مستظهرا به ان أنا بقيت لك أو فنيت ٠

فانى موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره ، الاعتصام بحبله ، فان الله تعالى يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ٠

وأى سبب يابنى أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى ان أنت أخذت به ٠

أحى قلبك بالموعظة ، ونوره بالحكمة ، وأمنة بالزهد ، وذ لله بالموت ، وقوه بالغنى عن الناس ، وحذره صولة الدهر ، وتقلب الأيام والليالى ، وأعرض عليه أخبار الصالحين ، وسر فى ديارهم وآثارهم ، فانظر ما فعلوا ،

وأين حلوا ، فانك تجدهم قد انتقلوا عن دار الأحبة ، ونزلو دار الغربة ، وكانك عن قليل يابنى قد صرت كاحدهم ، فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ٠ ودع القول فيما لا تكلف ، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك وانه عن المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله ، وخض الغمـــرات للحق ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، واحفظ وصـيتى ولا تذهب عنك صفحا ، فلا خير فى علم لا ينفع ٠

واعلم أن أمامك طريقا ذا مسافة بعيدة ، أو مشـــقة شديدة ، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد ، مع بلاغك من الزاد ، فان أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به فى معادك فاعتنمه ، فان أمامك عقبـة كؤودا لا يجاوزها الا أخف الناس حملا ٠٠٠ وانما المحروب من حرب دينه ، والمسلوب من سلب يقينه ، واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ، ولا فقر يعدل النار ٠

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ٠

(ب) الى محمد بن الحنفية :

٠٠٠ تفقه فى الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، وكل نفسك فى أمورك كلها الى الله عز وجل ، انك تكلها الى كاف ، وأخلص المسألة لربك فان بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة له ، وأعلم أن من كانت مطيته الليـــل والنهار ، فانه يسار به وان كان لا يسير ، فان الله تعالى قد أبى الا خراب الدنيا وعمارة الآخرة ، فان قدرت أن تزهد فيها زهدك كله فافعل ٠

انك لن تبلغ أملك ٠ ولن تعدو أجلك ٠ وانك فى سبيل من كان قبلك ، فأكرم نفسك عن كل دنيه ، وان ســـاقتك الى

الرغائب ، فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا ، واياك أن توجف بك مطايا الطمع .. وأمسك عليك لسانك فان تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من ادراك ما فات من منطقك . واحفظ ما فى الوعاء بشد الوكاء ، فحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير مع الفساد ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

أذك قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب ، وأعلم أن كفر النعمة لؤم وصحبة الأحمق شئوم . ومن الكرم منع الحرم . ومن حلم ساد . ومن تفهم ازداد ...

لم يهلك من اقتصد ، ولم يفتقر من زهد ، من ائتمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، رأس الدين اليقين ، وتمام الاخلاص اجتناب المعاصى ، وخير المقال ما صدقته الفعال ...

اقبل عذر من اعتذر اليك ، وأخر الشر ما استطعت فانك اذا شئت تعجلته ، لا يكن أخوك على قطيعتك أقوى منك على صلته ، وعلى الاساءة أقوى منك على الاحسان، لا تملكن المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها ، فان المرأة ريحانة ليست بقهرمانة ، وان ذلك أدوم لحاها وأرخى لبالها .

أسأل الله أن يلهمك الشكر والرشد ويقويك على العمل بكل خير ، ويصرف عنك كل محذور برحمته — والسلام عليك ورحمة الله .

(ج) آخر وصاياه :

لما ضرب — رضى الله عنه — ثم دخل منزله اعترته غشية ثم أفاق ، فدعا الحسن والحسين فقال :

« أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا » ثم دعا محمد بن الحنفية فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ، قال : بلى، قال فانى أوصيك به وعليك ببر أخويك وتوفيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما ٠ ثم أقبل عليهما فقال : أوصيكما به خيرا ، فانه شقيقكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه ٠

٣ ـ وصية الفرافصة لابنته نائلة

وهو الفرافصة بن الأحوص بن عمرو الكلبى ، كان سعيد بن العاص ـ وهو وال على الكوفة من قبل عثمان بن عفان ـ قد تزوج هند بنت الفرافصة هذا وكان نصرانيا لم يدخل الاسلام بينما أسلم أولاده ، ولهذا كان ابنه ضب هو الذى يتولى تزويج بناته ٠ فلما علم عثمان بزواج سعيد كتب اليه : بلغى أنك تزوجت امرأة من كلب ، فاكتب الى بنسبها وجمالها ٠ فكتب اليه : أما بعد ، فان نسبها أنها بنت الفرافصة بن الأحوص ، وأما جمالها فانها بيضاء مديدة، فخطب عثمان أختها نائلة ، وهى التى نشرت عليه شعرها، واتقت عنه ضربة السيف بيدها يوم الدار ٠ وحين أرادوا حملها الى عثمان أوصاها أبوها فقال (١) :

« يا بنية تقدمين على نساء قريش ، وهن أقدر على الطيب منك ، فلا تغلبى على خصلتين : الكحل والماء ، تطهرى حتى يكون ريحك ريح شن أصابه المطر (٢) » ٠

---

(١) انظر عيون الأخبار ، الجزء العاشر ، ص ٧٦ ٠ واخبار نائلة فى مختار الأغانى ٨/٥٧ ٠

(٢) الشن : القربة الخلق ٠ يريد ان تكون مغتسلة دائما ، كالقربة البالية التى تنضح بالماء ، فاذا أصابها مطر كانت اكثر بللا ٠

وكانت نائلة أحظى نساء عثمان عنده . وأرضاهم له ٠

٤ ـ وصية العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله

كان عمر بن الخطاب يجل عبد الله بن عباس ، ويجلسه على صغر سنه مع كبار الصحابة ، حتى شكوا مـرة من ذلك ٠ فسألهم عمر عن سورة « اذا جاء نصر الله والفتح ٠٠٠ » فقالوا انها تعنى فتح مكة ، سأل عبد الله فقـال : كانت نعياً لرسول الله ﷺ ٠ فنظر عمر اليهم وقال : هذا ما تعنى السورة ، فأصبحوا يقدرونه أيضا ، ولهذا أراد أبوه له أن يحتفظ بمكانته لدى الخليفة . فأوصـــاه هذه الوصية ، وقد قدرها عبد الله ، وما نحسبها الا تذكرة له ، وبغير هذه الوصية ما كان يفعل شيئا غير ما أوصى به ٠

قال العباس لابنه :

« يا بنى ، انى أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، فاحفظ عنى ثلاثا :

لا يجرين عليك كذبا ، ولا تغتب عنده مســلما ، ولا تفشين له سرا ٠ قال عبد الله : قلت : يا أبة ، كـل واحدة منها خير من ألف ٠ فقال : كل واحدة منها خير من عشرة آلاف ٠

٥ ـ وصية عمير بن حبيب لبنيه

عمير بن حبيب صحابى جليل ممن بايعوا تحت الشجرة، وكان صبيا قد بلغ الحلم ، وأشـــار ابن حجـر الى هذه الوصية وذكر أولها ، وهى :

« اياكم ومخالطة السفهاء فان مجالستهم داء ، وان من يحلم عن السفيه يسر بحلمه ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقر

بقليل ما يأتى به السفيه ، يقر بالكثير ، واذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عز وجل ، لا يجد مس الأذى » ٠

٦ ـ وصية قيس بن عاصم لبنيه

هو قيس بن عاصم بن سنان المنقرى ٠ قيل يكنى أبا على ، وقيل يكنى أيضا أبا طلحة وأبا قبيصة ، ومن حكماء العرب ، وممن حرم الخمر فى الجاهلية ٠ وفد على رسول الله ﷺ فى وفد تميم فأسلم ، وقال عنه رسول الله ﷺ : هذا سيد أهل الوبر (١) ٠ وكان الأحنف بن قيس يقول : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم ، وقد سكن البصرة ومات بها ٠ وكان له ثلاثة وثلاثون ولدا ٠ وذكرا ابن حجر كلمات من وصيته هذه ، وقال انها نافعة ، وهى :

« يابنى ٠٠ خذوا عنى فلا أحد أصلح لكم منى ٠٠ اذا دفنتمونى فانصرفوا الى رحالكم ، فسودوا أكبركم ، فان القوم اذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم ، واذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم فى أكفائهم ، واياكم ومعصية الله وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فانهم من رفعوا ارتفع ومن وضعوا اتضح ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه فانه منبهة للكريم وجنة لعرض اللئيم ، واياكم والمسألة فانها أخر (٢) كسب الرجل ٠

وخذوا عنى ثلاث خصال : اياكم وكل عرق لئيم أن تلابسوه ، فانه ان يسركم اليوم يسؤكم غدا ، واكظموا

(١) البـدو ٠

(٢) أخر : بهمزة غير ممدودة ـ كشرس ونهم ـ بمعنى أدنى وأرذل٠

الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم ، فانهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا
فلن تبيد وللآباء أبناء

٧ ـ وصية أبى طالب لوجوه قريش

أبو طالب بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، كان يحميه من أعدائه ، ولكنه لم يسلم ، وتدل هذه الوصية على أنه كان يؤمن بدعوته ، وبأنها ستلقى نجاحا ، وهو عندما مات دعا كبار قريش وأوصاهم هذه الوصية ٠ وهذه تشبه الخطبة ، وقد قدم لها بما يلين قلوب القوم ويقربها لما يريد ٠

قال أبو طالب :

« يا معشر قريش ٠٠ أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، الواسع الباع (١) ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا الا أحرزتموه ، ولا شرفا الا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به (٢) اليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب (٣) ، وانى أوصيكم بتعظيم هذه البنية (٤) ، فان فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش ، وثباتا للوطأة ٠ صلوا أرحامكم ، فان فى صلة الرحم منسأة فى الأجل (٥) ، وزيادة فى العدد ٠ اتركوا البغى والعقوق ، ففيها هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا

(١) الكريم المعطاء ٠
(٢) بهذا الذى ذكرت من احراز الشرف والمآثر ٠
(٣) بفتح الهمزة : أى يؤلبون عليكم ويحرضون ٠
(٤) بوزن فعيلة كرمية : يعنى الكعبة المبنية ٠
(٥) سعة وامتدادا ، بسبب ما ينشأ من التعاون والبركة فى الأيام٠

الداعى (١) ، وأعطوا السائل ، فان فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فان فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام (٢) ٠

وانى أوصيكم بمحمد خيرا ، فانه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن (٣) ٠ وأيم الله كأنى أنظر الى صعاليك العرب وأهل الأطراف المستضعفين (٤) من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت (٥) ، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ، واذا أعظمهم عليه أحوجهم (٦) اليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته (٧) العرب ودادها ، وأصفت له بلادها (٨) وأعطته قيادها ٠

يا معشر قريش ٠٠ كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله الا رشد ، ولا يأخذ بهديه الا سعد ، ولو

(١) المستغيث المستنجد ٠

(٢) الخاص هو الذى صدقته واديته الأمانة والعام البعيد يعلم ذلك فيحترم الأمين الصادق ويقدره ٠

(٣) الشنآن : البغض والكراهة ٠ يريد أنهم صدقوا بقلوبهم ، ولم يقروا بلسانهم خوف اثارة العداوة بين الذين عارضوه ٠

(٤) الذين ليسوا بمكة ولا من قريش ٠

(٥) جمع غمرة ، معظم الماء ومعظم الأمر وشدته ٠ خاضوا شدائد الحروب ٠

(٦) اعظمهم عليه : أشد العرب مناوأة له يصير ضعيفا أمامه محتاجا لرحمته ٠

(٧) أخلصت له الود ٠

(٨) أخلصتها لحكمه وتخلت عن رياستها له ٠

كان لنفسى مــدة ، وفى أجلى تأخيــر ، لكففت عنــه الهزاهز (١) ولدافعت عنه الدواهى » ٠

٨ ـ وصية هند وأبى سفيان ولدهما معاوية

ولى عمر بن الخطاب معاوية مكة ، فلما قدم اليها دخل على أمه فقالت له :

« يا بنى انه قلما ولدت حرة مثلك ، وقد استعملك (٢) هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه ، أحببت ذلك أم كرهته » ٠

ثم دخل على أبيه أبى سفيان فقال له :

« يا بنى ان هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم ، وقصر بنا تأخرنا فصرنا أتباعا ، وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن رأيهم ، فانك تجرى إلى أمد لم تبلغه (٣) ، ولو قد بلغته لتنفسـت فيه (٤) ! » ٠

قال معــاوية : فعجبت من اتفاقهمــا فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ ٠

---

(١) تحريك البلايا والحروب واثارة الاضطرابات ضده ٠
(٢) ولا عملا له ٠
(٣) يريد أن له مستقبلا لا ينبغي أن يقطعه بمخالفة الخليفة ٠
(٤) يريد : لو بلغت المنصب الذى ينتظرك لجاز لك أن تتبع رأيك ٠

المفاخرة والمنافرة

المفاخرة ـ مفاعلة من فاخر فلان فلانا ، أى باراه فى الفخر بأمر ما ، وكل من المتفاخرين يذكر من مزاياه وصفاته ما يفوق به صاحبه · والمنافرة كذلك أيضا ، ولكنها تقوم على رهان بين الشخصين ، كأن يدفع المغلوب للغالب مالا ، أو يخرج من الحى ، أو نحو ذلك · ثم يذهبان الى حكم من الناس يرتضيانه ، فاذا حكم لأحدهما على الآخر سقط المحكوم عليه ، وقد تسقط القبيلة كلها اذا كانت المنافرة بين قبيلتين ، وقد ظلت المفاخرات جارية حتى جاء الاسلام فنهى عنها وسوى بين الناس ، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، وهو عمل خالص لله تعالى وحده ، وهو مطلع عليه ويعلمه ، فلا يجوز التباهى به ، والتباهى به يفسده ويذهب بثوابه ، ولكن للرجل المسلم أن يباهى الكفار بمفاخر الاسلام ومزاياه ، فهذا لا يرجع الى شخصه ، وقد يكتسب الاسلام به عزة ونصرا ، وقد نادى وفد تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته ، ففاخروه بشاعر منهم وخطيب ، فرد عليهم ثابت بن قيس بخطبة (١) ، وحسان بن ثابت بقصيدة وكلا الرجلين اعتز بالاسلام ، فقال التميميون : ان هذا الرجل لمؤتى له (٢) ، خطيبه أخطب ، وشاعره أشعر ، ثم كان ذلك سببا فى اسلامهم ، وقد ماتت نعرة العصبية والتفاخر

---

(١) هو ثابت بن قيس الأنصارى الخزرجى ـ خطيب الانصار ـ خطب امام رسول الله صلي الله عليه وسلم أول مقدمه المدينة · وقال : نمنعك مما منه أنفسنا وأودنا · وبشر رسول الله بالجنة · وقتل يوم اليمامة فأخذ رجل درعه · فرأى أحد المسلمين ثابتا فى منامه يخبره بمكان درعه· وقال اخبروا ابا بكر ان على لفلان دينا قدره كذا · وعبدى فلان عتيق · فلما وجدوا الدرع بالمكان الذى وصفه ، نفذوا وصيته · الاصابة : ٩٠٤ ·

(٢) ميسر له ·

بالأحساب والأنساب عصر النبوة والخلافة الراشدة • فلما جاء العصر الأموى انبعث من جديد ، وحميت بين الشعراء وخصوصا بين جرير من جانب والفرزدق والأخطل من الجانب الآخر ، وانضم لكل طرف مؤيدون حتى ليقول جرير انه هاجى ثمانين شاعرا ، ولكن لم يتنافروا الى حكم ، لأن جريرا كان يعلم خسة نسبه ووضاعة بيته •

والمنافرة تتصل بالخطابة من جانبين ، جانب الحوار الذى يقع من المتنافسين ، وهو لون من الخطابة ، وجانب الخطبة التى يلقيها الحكم ليرجح أحد الجانبين أو يسوى بينهما •

ومن المنافرات الشهيرة تلك المنافرة التى حدثت بين هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ الثانى ، وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهى الى جانب شهرتها ذات أثر فى العلاقات بين هذين الجذمين ، وفى التاريخ الاسلامى •

وسبب هذه المنافرة ما كان من تنافس بينهما على السيادة والشهرة ، وكان هاشم قد ساد قومه بعد أبيه ، وأصبح ذا شأن بين العرب ، فحسده أمية وأراد أن يصنع صنيعه فى المكام فعجز وعيرته قريش ، فدعاه للمنافرة ، فأبى هاشم لسنه ومكانته ، ولكن قريشا لم تدعه ، فنافره على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، وجعلا الحاكم بينهما الكاهن الخزاعى ، وكان بعسفان فخرجا اليه مع كل قومه ، فلما نزلوا عليه ، وقبل أن يخبروه ، خبرهم خطبهم فقال :

« والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية الى المفاخر » •

فرجع أمية الى مكة منكسرا ، ونحر هاشم الابل بمكة ،

وأطعم الناس ، واغترب أمية الى الشام عشر سنين ، وقد كون له هناك صحبة ومعـارف ، والمؤرخون يربطون بين اقامته هذه وبين ما كان لبنى أمية من قدم فى الشام بعـد ذلك ٠

وكانت هذه أول عداوة سافرة بين بنى هاشم وبنى أمية، ثم توارثها بنوهما بعد ذلك (١) ٠

وتجددت هذه المنافرة فى صورة أخرى بين عبد المطلب بن هاشم وبين حرب بن أمية ٠

وسبب هذه المنافرة أنه كان لعبد المطلب جـار يهودى يدعى أذينه ، وكان تاجرا ميسورا ذا نشاط تجارى شـأن اليهود فى كل زمان ومكان ، وقد حقد عليه حرب ، فأراد قتله خفية كيلا يغضب عبد المطلب ، وكان عبد المطلب وحرب نديمين ، فأغرى حرب فتيانا من قريش ليقتلوه ، فقتله عامر ابن عبد مناف بن عبد الدار ، وصخر بن عمرو التيمى جد أبى بكر الصديق ، غيلة ، ولم يعرف عبد المطلب من قتل جاره ، وظل يسأل مدة حتى عرف القاتلين ، واذا هما قد استجارا بحرب وأخفاهما ، ولما طلبهما عبد المطلب لم يقبل حرب أن يظهرهما ، ولم يتحمل تقريع عبد المطلب ولومه ، فتغالظا فى القول ، واشـتد بينهما النزاع حتى أدى الى المنافرة فتنافرا الى النجاشى ، فلم يشأ أن يحكم بينهما ، فتحا كما الى نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطـاب ، فنفر عبد المطلب على حرب ، وحكم أن يدفع مائة ناقة ، وأن يغترب عن مكة عشرة أعوام ، ويقال انه حكم بأربعمائة من

(١) كان بنو عبد مناف ، هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل، من ذوى الشهرة البارزة بين العرب ، وكانوا يسمون أقداح النضار ، ويسمون المجيرين لكرمهم ، وكان هاشم أكثر شهرة ، وكان الناس يقولون لا يعرف بنو أب تباينوا فى محال موتهم مثلهم ، فقد مات هاشم بغزة ، ومات عبد شمس بمكة وقبره بأجياد ٠ ومات نوفل بالعراق ، ومات المطلب باليمن ٠

الابل فعف عنها عبد المطلب ، ولكن من الثابت أنه أخذ منه مائة ناقة دفعها دية للقتيل · ومن ذلك الحادث انقطعت المنادمة بينهما ، ونادم عبد المطلب بدلا من حرب عبد الله ابن جدعان التيمى ·

وجاء فى خطبة نفيل التى نفر بها عبد المطلب (١) :

« ··· يا أبا عمرو ·· أتنافر رجلا هو أطول منك قامة، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك ملامة، وأكثر منك ولدا ، وأجزل صفدا (٢) وأطول منك مذودا(٣)؟ وانى لأقول هذا ، وانك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت فى العرب (٤) ، جد المريرة (٥) ، جليل العشيرة (٦) ، ولكنك نافرت منفرا » ·

وغضب حرب لهذا الحكم ، وقال لنفيل : ان من انتكاس الزمان أن جعلت حكما ·

وقد عف عبد المطلب عن أخذ الابل عدا دية القتيل ، واغترب حرب فأقام بالشام ، وكان ذلك مما ربط بين الأمويين والشاميين ·

ومن المنافرات الشهيرة تلك المنافرة التى كانت بين عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وقد هاجها سبب هين جدا ، ولكنها نمت حتى شملت القبيلتين ، ودخل فيها من الشعراء لبيد بن ربيعة ، وأعشى قيس ·

روى صاحب الأغانى أن علقمة كان قاعدا ذات يوم يبول ، فبصر به عامر فقال : لم أر كاليوم عورة رجل أقبح ·

---

(١) نفره على خصمه : قضى له بالغلبة · ومن هذه الصفات التي ذكرها نفيل نجد أن الصفات الجسدية مما كان ينفر به الى جانب الصفات الخلقية ·

(٢) عطاء ·

(٣) المذود : اللسان ، ومعتلف الدابة ، فالجملة امابمعنى أطول منك لسانا ، اى أفصح وابلغ ، او اكثر منك ابلا ، أى أثرى منك ·

(٤) مسموع الكلمة ·

(٥) المريرة : عزة النفس والعزيمة ، فهو وصف بالقوة والاعتزاز بالنفس ·

(٦) الأهل والمخالطون ·

فقال علقمة : أما والله لا تثب على جاراتها ولا تنازل كناتها (١) · فتطاول الكلام بينهما حتى قال علقمة : ان شئت · والله لأنا أكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا ·

فقال علقمة : لأنا منك ليلا ونهارا ·

فقال عامر : لأنا أحب الى نسائك أن أصبح فيهن منك ·

فقال علقمة : على ماذا تنافرني يا عامر ؟ ·

فقال عامر : أنافرك على أني أنحر منك للقاح (٢) ، وخير منك في الصياح (٣) ، وأطعم منك في السنة الشياح (٤) ·

فقال علقمة : أنافرك أني خير منك أثرا ، وأحد منك بصرا ، وأعز منك نفرا ، وأسرح (٥) منك ذكرا ·

فقال عامر : أنافرك على أني أنشر منك أمة ، وأطول منك قمة (٦) ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همة ·

فقال علقمة : والله اني أعز منك ، اني لبر وانك لفاجر ، واني لوفي وانك لغادر ، ففيم تفاخرني يا عامر ؟ ·

فقال عامر : عير وتيس ، وتيس وعنز فذهب مثلا ·

فتنافرا على مائة من الابل الى مائة يعطاها الحكم ، أيهما نفر على صاحبه يخرجها · ففعلوا ذلك ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على يدي رجل من بني الوحيد ·

وكانت العرب تتحاكم الى قريش ، فذهبا الى أبي سفيان ابن حرب ، ثم الى أبي جهل ، فلم يحكم واحد منهما بينهما ،

---

(١) الكنة زوجة الابن والأخ وهو يعرض بصاحبه ·

(٢) جمع لقحة ، واللقاح الابل ·

(٣) عند الغارة على العدو · (٤) القحط المجدبة ·

(٥) أبعد : ويروى أشرف · (٦) أعلى منك مقاما ·

فذهبا الى عيينة بن حصن ورجال آخرين حتى انتهيا الى هرم بن قطبة بن سنان الفزارى ، فاستوثق أولا أن يقبلا حكمه ، وكأن يسوقان الابل معهما فامرهما ان يتمهلا عاما حتى يعمل رايه ، فانصرفا ثم رجعا اليه فى الموعد المحدد، فأقاموا أياما لديه ، ثم استدعى عامرا سرا ، فقال له : قد كنت ارى لك رايا وان فيك خيرا ، وما حبستك هذه الأيام الا لتنصرف عن صـــاحبك • فما الذى أنت به خير منه ، فأشفق عامر ، ورجاه أن يسوى بينهما ، ثم استدعى علقمة ففعل معه مثل ذلك ، ثم جمع الناس فخطبهم قائلا :

« يا بنى جعفر ، قد تحاكمتما عندى ، وأنتمـــا كركبتى البعير الأدرم (١) تقعان الى الأرض معا ، وليس فيكما أحد الا وفيه ما ليس فى صاحبه ، وكلا كما سيد كريم » فرضيا بحكمه •

ومما يذكر أن هرما أدرك الاسلام ، وأدرك خلافة عمر ، وأن عمر سأله مرة : أى الرجلين كنت مفضلا لو فضلت ؟ فأجاب : لو قلت ذلك لعادت جذعة ، ولبلغت شعاف هجر • فقال عمر : نعم مستودع السر ومسند الأمر اليه أنت (٢)!

---

(١) الكثير اللحم حتى لا تتميز عظامه ، وقد قال لهم من قبل ابو سفيان ذلك أيضا (٢) يحسن أن نعرف بهؤلاء الثرثة : علقمة ، وعامر ، وهرم

أما علقمة فانه أدرك الاسلام ، وأسلم ثم ارتد فى عهد رســول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دخل الاسلام ثانيا بعد حــروب الردة ، ومن مآثره في الجاهلية أن رد على ابى سفيان حين عاب رسول الله أمام هرقل، وكان الاعشى هجاء وفضل عليه عامرا بقصيدة طويلة فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن روايتها ، وهي التى فيها :

علقم ما انت الى عامـــر   الناقض الاوتار والواتر

وأما عامر بن الطفيل فكان قد قدم على رسول الله صلى الله عليـــه وسلم شيخا ، فقال ابايعك على ان لك الوبر ولي المدر ، وكان معه أربد ابن ربيعة ، وقف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتله ، وقصته معروفة، ومات كافرا، اذ أصابته غدة كغدة البعير ومات فى بيت امرأة سلولية

وأما هرم فهو ابن قطبة بن سنان الفزارى ــ وهو غير هرم بن سنان صاحب زهير ، اسلم وكان حسن الاسلام سيدا فى قومه •

المواعظ باب لصيق بالخطب . لأن الموعظة هى الهدف الأول للخطيب الدينى ، وهى المادة التى تقوم عليها خطبته، أو هى على الأقـل أهم ما فيهـا من المواد ، والخطيب السياسى أو القضائى او الحربى يجد من الموعظة ، ومن ضرب الأمثال ما يستهوى به قلوب سامعيه ، ويرد جماح معارضيه ، ويجمع به الأهواء الشتيتة والآراء المتضاربة، وهكذا نجد الموعظة ضـرورية للخطيب أيا كان نوعه ، وكثيرا ما استعملها غير الخطباء فى مجالس الصـلح والتوفيق بين النـاس ، وكثيرا ما اسـتعملها الزهاد والنساك ودعاة الاصلاح أمام الخلفـاء ، فالأنوا قلوبهم واكتسبوا بها العفو منهم ، وحولوا آراءهم واتجـاهاتهم من جانب الى جانب ، وكثيرا أيضا ـ ما كانت الموعظـة سببا فى حياة أشـخاص كانوا بصـدد أن يلاقوا حتفهم وتذهب السيوف برقابهم ، وهكذا ٠٠ وهكذا ٠

ولكى يجيد الخطيب الموعظة ، عليه أن يتشبع بمحفوظات ودراسة لما قال الوعاظ والزهاد فى المقـامات المختلفة ، وليست مهمته أن يعيد مـا قال السـابقون ، ولكن هذه المأثورات تهيىء له الاجترار منها : وتمكنه من الاستعانة بها ، أو من محاكاتها وتوليد معان تناسب الموقف الذى هو فيه ، فهى سبيل من سبل الدربة ، ووسيلة من وسـائل تكوين الخطبة والنهوض بها ٠

وأنت اذا رجعت الى القرآن الكريم ، تجده جاء بعديد من المواعظ ، وقص كثيرا من أحـوال الأمم التى ذهبت جزاء عصيانها ، والأخرى التى أطاعت واعتصمت بتعاليم دينه ، فكتب لها نصرا فى الأولين ، وجعل لها لسان صدق

فى الآخرين (١) ، والسنة النبوية تجرى مجرى القرآن الكريم فى هذا ، بل وتزيد عليه فى ذلك زيادات كثيرة ، ثم تروى لنا كتب التاريخ والأدب أمثلة من كلام الحكماء ومواقف الوعاظ والزهاد من أمم قديمة كثيرة ، ويوجد فى كتبنا العربية مذخور من حكم الهند والصين والفرس ، ومن كلام موسى عليه السلام ، وأنبياء بنى اسرائيل ، وكلام عسى وحوارييه وألوان مختلفة من العظات وزواجر النفس عن الحرام ، وتوجيهها الى الله تعالى ، ونجد هذه المواقف فى عصور الحكم الاسلامى المختلفة ، ونجدها متشابهة لا تختلف الا باختلاف المقام الذى تقال فيه ، أمام العامة غيرها أمام الولاة والخلفاء ، اذ يختلف حينئذ موضوعها ، ففى أكثر مواقفها عند الحكام تدعو الى العدل وتحذر من الظلم ، وتتذكر بمواقف رسول الله ﷺ حاكما وقائدا ، وقد تكون كما تكون أمام العامة لمرجد الزجر والتذكير بالحياة الآخرة ، والدفع الى الأكثار من العبادة والأعمال الصالحة ٠

وهناك رجال اشتهروا بهذه العظات وتناقل الناس كلامهم ، كما اشتهروا بشدة الورع ، والتنزه عن الدنايا ، والعزوف عن متع الدنيا ، فكانوا قدوة حسنة بسلوكهم وسيرهم ، كما كانت مواعظهم بليغة ذات تأثير على النفوس ٠ وتناقل الناس سيرهم وأحاديثهم على مر العصور ، واذا استثنينا مقام رسول الله ﷺ الذى لا يجاريه فيه أحد ، وجدنا للخلفاء الراشدين مواقف ومقامات احتذت تصرفات رسول الله ﷺ وحافظت جهدها على محاكاته واتباعه ، ولا يغيب عنا موقف أبى بكر يوم الردة

(١) جعل لهم ذكرا حسنا ٠

أو موقف عمر يوم المجاعة ، وتجهيز عثمان غزوة تبوك ، وخطب على العديدة وسنياته ٠

وبعد عصر الخلفاء وجد من غير الحكام فى كل عصر رجال اشتهروا بالزهد والورع . وظلت لهم أقوال وأعمال ترد الناس عن المعصية وتدفعهم الى صالح الأعمال ، ولا يزال الناس يجدون فى عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب. والحسن البصرى ، وابن سيرين ، والامام أحمد بن حنبل والكثيرين من أمثالهم مثلا عليا ومبادىء سامية ٠ وفى ذكر هؤلاء واستعادة مواقفهم النبيلة وانتصارهم للحق وتحملهم الأذى فى سبيله ، ما يستريح الناس لسماعه ، وما يساعدهم على كبح غرائزهم الجامحة ، ويطفىء نزعات الشر فى نفوسهم ، ولا يستغنى الواعظ عن معرفة هؤلاء ودرس حياتهم وأقوالهم ليكون له من ذلك مدد فى خطابه ، وحسن استشهاد على ما يوجهه للناس من تربية وتعليم ٠

عظات العباد والنساك

كان للعباد والنساك مواعظ وزواجر كثيرة ، بعضها يلقى فى المساجد على نحوما كان يفعل القصاص منذ العهد الأموى و على نحو ماكانت تأتى مواعظهم ممتزجة بدروس التفسير القرآنى وشرح الأحاديث فى حلقات المساجد من مثل الحسن البصرى ، أو نصائح تقدم للخلفاء كما فعل أبو حازم مع سليمان بن عبد الملك ٠ فقد ظل هذا التيار بكل فروعه بل زاد ونما كثيرا ٠ وكانت زيادته ونموه فى هذا العهد رد فعل لما فشا فى الدولة من مجون ، وتكشف وشاع بين الأثرياء وخصوصا الخلفاء والقواد من ترف وانغماس فى الملذات فقد كانت قصور هؤلاء تمتع بنعيم طائل من فراش وجوار ومغنين ومغنيات ٠ كما شاع

الشراب ، وكثر الشعر الماجن الذى يتحدث عن كـل هذه المظاهر ، وعن مظـــاهر الجوارى وزينتهن الفاتنة ومـا يستهوين به قلوب الرجال ، وهكذا نجد طائفة خاصة قـد انغمست فى النعيم والترف وملذات الجسد ، بينما كانت هناك طوائف كثيرة تعـــانى الحــرمان والذلة ، وترمق ما يتمتع به الآخرون بكثير من الحقـــد والغيظ ، واذ لم يجدوا سبيلا الى الانتقام أو الحصول على ما حرموا منه لجأوا الى العبادة والزهد ، ووجدوا فى الاتجاه متعـــة معنوية دفعت بهم الى ازدراء هذا النعيم الزائل ومتعتــه الموقوتة ، وكان الفرق واسعا بين العامة الســذج الذين ألجأهم الحرمان والظلم الى الزهـد والعبـــادة ، وبين المثقفين الذين عزفوا عن متع الحياة ، وربأوا بأنفسهم أن تنسيهم العاجلة عن الآخرة ، ويشغلهم نعيم الدنيا الزائل الموقوت عن نعيم باق لا يزول ، ورأوا أن كل هذه المظاهر لا تستحق ولا تستأهل قطرة من نعيم الآخرة فضلا عن أن نعيم الدنيا يثقل أصحابه بالأوزار ويقفهم يوم القيامة أمام حساب شديد ، لهذا آثروا السلامة وحثوا الناس عليها ، ووجدوا لهم مستمعين ومحبين ، ووجد مستمعوهم منهم ما يبرد غيظهم ، ويشفى نفوسهم من هؤلاء المترفين ، بـل ربما وجدوا فيه حظـــا من التعويض لهم والانتقــام من خصومهم جميعـــا ، وكان الحكام يجدون فى وعظ هؤلاء صمام أمن ينفس عن الرغبات المكبوتة فى نفوس الشعب ، وكان الخلفاء كثيرا ما يســـتدعون هؤلاء الوعاظ الزهاد ليعظوهم ، ولكنهم فى أحيان أخرى كانوا يكرهونهم لما فى وعظهم من تحريض الشـــعب عليهم ، ولأن منهم من كان يرى أن كل شىء يتصل بالحكومة حرام ، حتى وظائفهـا وقبول منحها ٠ وقد رفض ذو النون المصرى الصـــوفى الشهير أن يأكل من طعام العباسيين ، فكان أخوه يعمـل

ويشترى له من كسبه طعاما · وكان عبد الله بن المبارك عالم الحديث المعروف ينهى عن تولى وظيفة القضاء ، ويجاريه فى هذا كثيرون ·

ورفض الامام أحمد بن حنبل ان يأكل خبزا خبزته زوجه فى بيت ابنه لأنه قبل وظيفة القضاء ·

وهكذا بدأ نوع من التشدد فى المعاملات والعبادات ، وكان لهؤلاء العباد مواقف خطابية أو قريبة من الخطابية استفاد منها معاصروهم والذين جاءوا بعدهم ، وأروع ما فيها جرأتهم على مجابهة الحكام بأخطائهم ، ثم ما يبدو فى كلامهم من حرارة الاخلاص وصدق النية ، وكانوا الى جانب ذلك ذوى مقدرة على صوغ الكلام فى عبارة وجيزة مؤثرة · وقد سبق كثير من هذا مما وجه الى معاوية بن أبى سفيان ، وكان يمتاز عن كل أولئك بأنه يتقبل عظات الواعظين وهجومهم عليه فى حلم وأناة ، وقد رأينا فيما سبق ضجر سليمان بن عبد الملك من أعرابى عاب بعض تصرفاته ، أما العباسيون فلعل أبا جعفر المنصور كان أفسحهم صدرا لذلك ، بل كان يطلب العلماء والنساك ليعظوه ، وكان يبكى من عظاتهم · وأبو المنصور كان عالما دارسا للسنة ، حتى انه قال للامام مالك أنه لم يبق فى الناس من هو أعرف بالسنة منى ومنك · وقد شغلتنى شئون الناس · فاجمع لهم الحديث وأوطئه لهم · فجمع مالك لذلك كتاب الموطأ ، وهو بسبب هذه الثقافة كان يستريح لكلام الوعاظ · أما الرشيد فقد كره أن يسمع غلظة من واعظ جاءه ، وقال : أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها · فقال الرشيد : كلا ، ان الله أمر من هو خير منك بالانة القول لمن هو شر منى · فقال لنبيه

موسى اذ أرسله الى فرعون : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » · وكان المأمون يستمع لعظات الزهاد أيضا ·

وليس كل كلام للزهاد تظهر فيه الجرأة ، بل تجد فيه أحيانا شيئا من المداهنة والترضى مما يدل على تهيب الواعظ وتخوفه · وانظر مقالة شبيب ابن شيبة للمهدى اذ يقول له ·

« ان الله اذ قسم الأقسام فى الدنيا جعل لك أسناها وأعلاها ، فلا ترض لنفسك فى الآخرة الا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله فعليكم نزلت ، ومنكم أخذت ، واليكم ترد » ·

تجد الموعظة كلها وصية بتقوى الله ، وبقية الحديث ثناء عليه ، وشتان بين هذا الموقف ومواقف الوعاظ الآخرين أمام الحكام ·

مجالس القصص والوعظ

هذا القسم فرع من الخطب الدينيــة ، والقاص واعظ يفسر آيات القرآن الكريم والحديث الشـــريف ، ويأمــر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولكنه فى كل ذلك يذكر أخبار الأولين من الأمم والسابقين من الأنبياء ، وعدت هذه المجالس من الخطب الدينية لأنها كانت تلقى على جمع من الناس ، وكانت غالبا فى المسجد ، وربما ألقيت فى مجالس الخلفاء فى قصـــورهم ، وكان القاضى يلقيها غالبا وهو جالس لطوئها ٠

ومجالس القصص وذكر السابقين موجودة منذ العصر الجاهلى ، وكانت موجودة بصـــورة ما فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، والذى جد فى عهـــد بنى أميـــة هو نشاطها واعتماد الحكومة عليها ، وكان معاوية نفســـه يقص على الناس ويستمع للقصاص ٠

والقصاص من الخطباء ، وقد أفرد الجاحظ لمشهوريهم فصلا فى كتابه « البيـــان والتبيين » ذكر فيه أســـماءهم وشيئا من أعمالهم ، وقال ان جعفر بن الحســـن أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة ، وأقرأ القرآن فى مســـجد البصرة (١) ٠ وكان مسلم بن جندب يقص فى مســـجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، وسمى قاص مسجد النبى ،وهو هذلى قارىء كان امام أهل المدينة وقاضيهم ، وكان الناس يحبون قراءته ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول فيه : من سره أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب، وهو معلم عمر بن عبد العزيز ، وكان يقضى بالمدينة ولا يأخذ على قضائه أجرا (٢) ٠

---

(١) هو جعفر بن الحسن البصرى ، وكان لابيه حلقة قبله ولكنها لم تكن خاصة بالوعظ والقصص ٠

(١) توفي سنة ١٠٦ هـ ٠ وتوفى الحسن سنة ١١٠ هـ ٠

ومن ذوى الشهرة الواسعة فى هذه الطبقة موسى بن سيار الأسوارى ، سمى بذلك نسبة الى نهر الأساورة بالبصرة · كان قاضيا يحسن القصص ، ومفسرا يمزج تفسيره بالقصص · وقارئا تهز قراءته قلوب سامعيه · قالوا لم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار ، ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم المعلى · فهم أربعة يكفى أن يكون يونس النحوى بينهم ، وكان موسى يجيد الفارسية اجادته العربية ، وله فيهما فصاحة وبلاغة تعبير ، وكان يجلس فى مجلسه ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها بالفارسية فلا تدرى بأى لسان هو أبين · قال الجاحظ : واللغتان اذا ألقيتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، الا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا ·

وجلس للقصص فى مسجد موسى ومجلسه بعد موته قاص آخر ذو شهرة هو أبو على الأسوارى ، وهو وموسى كانا من ذوى الميول القدرية ، وأبو على هو عمرو بن قائد أخذ عن عمرو بن عبيد الامام المعتزلى المعروف ، وقد تكون النزعة القدرية سرت اليه منه ، وله معه مناظرات ، وقد ظل يقص فى مسجد موسى ستا وثلاثين سنة ، ولم يتم القرآن تفسيرا حتى مات · وكان ربما فسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع ، وكان حافظا للسير ووجوه التأويلات ، وكان يحفظ أحاديث كثيرة يلحقها بتفسيره وقصصه ، وكان فصيح العبارة ، جيد اللغة · وكان يونس بن حبيب النحوى يسمع منه كلام العرب ويحتج به ·

ونذكر من مشهوری القصاص الذين أوردهم الجاحظ : أبا بشر صالحا المری ، وهو ـ كصاحبيه السابقين ، وكالحسن البصری ـ من الموالی ، وهو من معروفی الزهاد ، ومشهوری العباد ، ورواة الحديث البلغاء ٠ واشتغل أيضا بالقضاء ، وكان صحيح الكلام ، حسن التلاوة للقرآن الكريم ، وكانت قصصه ومواعظه تمس قلوب السامعين ٠ سمعه سفيان بن حبيب فقال : هذا ليس قاصا ، هذا نذير ، لأنه رأى بيانا لم يحتسبه ، ومذهبا لم يكن يظنه ٠

هؤلاء قصاص من ذوی الشهرة الذين ذكرهم الجاحظ، وهناك غيرهم كثيرون ٠ والقصاص لم يكونوا حجة ولا موضع ثقة تامة فی كل ما يذكرون ، فقد يتزيدون فی الأخبار ، وقد يذكرون أحاديث ضعيفة ، وقد يضعون أحاديث ؛ وقصص الأنبياء التى يذكرونها مستقاة من مصادر يهودية أو نصرانية ، وقد كان وهب بن منبه (١)، وكعب الأحبار (٢) ، من مصادر هذه الأخبار ، وظهر هذا النوع منذ عهد رسول الله ، ﷺ وقد قال لأصحابه : (اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) ٠ وكان ذوو العلم لا يميلون الى سماع أكثرهم ، وقد كان سفيان ابن حبيب الذى ذكرناه ، قد فر الى البصرة فتوارى عند مرحوم بن عبد العزيز العطار ، فقال له : هل لك أن تأتى

(١) هو ابو عبد الله صاحب الاخبار والقصص ، كان يقص أخبار الاوائل وقيام الدنيا واخبار الانبياء ، كان يقول : قرات من كتاب الله اثنين وسبعين كتابا ، اطلع صاحب الوفيات على تصنيف بعنوان الملوك المتوجة من حمير واخبارهم وقصصهم وقبورهم واشعارهم ، توفى سنة ١١٠ بصنعاء ٠ هـ

(٢) يسمى كعبا الرباني من يهود اليمن ايضا ، لم يسلم الا بعد رسول الله ٠ وعمل لدى معاوية حين كان واليا على الشام من قبل عمر ،وتوفى فی خلافة معاوية بحمص ٠

قاصا عندنا ههنا فتتفرج (١) بالخروج والنظر الى الناس والاستماع منه ؟ فأتاه على تكره ، كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه (٢) ٠

ومهما يكن من شيء ، فقد كان القصص شائعا ، وكان لونا من ألوان الوعظ ، وأشهر القصاصين على الاطلاق هو عبيد بن شربة ، وهو شخصية تحيطها الأساطير حتى اسمه لم يتفق عليه ، وهو من عرب الجنوب استدعاه معاوية الى دمشق أو هو وفد على معاوية ٠ وكان يروى له أخبار ملوك العرب الأولين ، وأمر معاوية أن يكتب عنه ما يقول وينسب اليه ٠ وقد عاش حتى عهد عبد الملك بن مروان ، وله كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك وأخبار الماضين، وكان يحدث أخبار العجم والعرب اليمنيين القدامى خاصة وحدث عن قوم أغرقوا فى القدم مثل الكسير الجرهمى وعبدود الجرهمى ، وتنسب اليه أقوال حكيمة وآراء صائبة ، ولكن يبدو أنها مصنوعة أضيفت اليه ٠ ونحن نميل الى أنه شخصية حقيقية وأنه كان قاصا وأن معاوية رأى فى حديثه وقصصه ما يشغل الناس فأكرم مثواه لديه، ثم أضاف الناس اليه بعد ذلك أخباره التى بولغ فيها ، ولا نظن أنه ترك كتبا ، والا لدون الناس بعده أحداث التاريخ التى هى لديهم أهم مما ذكر ٠

وعبيد ليس قاصا واعظا من نوع القصاص الذين ذكرنا ، وانما كانت تأتى العظات فى كلامه عرضا ، وخلال ما يسأل عنه أو يسرده من أعمال السابقين أو يصوغه حكما ٠ وعمله الاول كان قص التاريخ ٠

وهؤلاء الثلاثة ذوو آثار ضخمة فى أخبار العرب ، والقاصان اليهوديان أدخلا على التفسير الاسلامى ألوانا

(١) تبعد عنك الهدام وتصرفه ٠
(٢) البيان والتبين ٣٦٩/١ ٠

كثيرة من القصص الاسرائيلى ، واليهما يرجع ما حشيت به كتب التفسير والحديث والمغازى ، وربما أضاف اليها الرواة ما ليس من كلامهما ٠

والقصص والأقاصيص ذات صلة بالخطب ، من حيث أنها كلام يلقى على الجمهور فى عبـارات مؤثرة ، وهى ليست خطبا لفقدها عنصر الاقناع ، والاستمالة التى تأتى فيها عرضا وبطريق الايحـــاء ، والخطيب كثيرا ما يذكر قصة أو حادثا يلائم موضوع خطبته للتأثير على سامعيه ٠

وعاظ أمام الحكـــام

يتصل بهذا البـــاب مجابهة الوعاظ والزهاد حكـام المسلمين خلفاء وولاة بأخطائهم ، وربما طلب بعضهم أحد الوعاظ الزهاد ليعظـــه ، وكان هؤلاء الوعاظ فى كلتـــا الحالتين على غاية من الجرأة ، مما يدل على اخلاصـــهم لدعوتهم واستعدادهم للتضحية فى ســـبيلها ، ولكن فى أغلب المواقف كان هؤلاء الحكام يحلمون ويتقبلون ما يوجه اليهم من عظات ، وكان فى حلم الحاكم وتقبله هذه العظات والزواجر على قسوتها وعنفها تثبيت لهم فى نفوس الرعية، واعلان بأنهم يجلون رجال الدين ، ويرغبـون فى ســماع التوجيه والهداية ٠ وقد دخل سفيان الثورى على الخليفة المهدى العباسى ، فسلم عليه تسليم العامة ، ثم أغلظ له القول ، فقال الربيع وزير المهدى : ايذن لى بأن أضـــرب عنقه ٠ فقال المهدى : اسكت ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله الا أن نقتلهم فتشقى بسعادتهم ! ٠

ومن هذه المواقف :

١ ــ دخل أعرابى على سليمان بن عبد الملك فقال : انى مكلمك بكـــلام فاحتمله ان كرهته فان وراءه ما تحت ان قبلته ٠

قال : هات يا أعرابى ٠

قال : انى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن من موعظتك ، تأدية لحق الله تعالى وحق امامتك ، انه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم سلم الدنيا حرب الآخرة ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فانهم لا يألونك خبالا والأمانة تضييعا ، والأمة عسفا وخسفا ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياك بفساد أخرتك ، فان أخسر الناس صفقة وأعظمهم غبنا ، من باع آخرته بدنيا غيره ٠

قال سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك ٠

قال : أجل يا أمير المؤمنين ، ولكن لك لا عليك ٠

٢ ـ قام صالح بن عبد الجليل ، وهو الواعظ الزاهد الجرىء بين يدى الخليفة المهدى العباسى فقال له :

انه لما سهل علينا ما توعر على غيرنا من الوصول اليك ، قمنا مقام الأداء عنهم (١) ، وعن رسول الله ﷺ باظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ، ووعدت الله وحملة كتبه ايثار الحق على ما سواه ، فجمعنا واياك مشهد من مشاهد التمحيص (٢) ، وقد جاء فى

(١) يريد أن غيره من الوعاظ صعب عليهم ان يقابلوه . فحمل هو واجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر نيابة عنهم ، وهى رسالة في اعناقهم بوصفهم مكلفين ببلاغ رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ٠

(٢) احقاق الحق واظهار الباطل . والتمحيص التنقية والتصفية ٠

الأثر : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشـد منه عذابا أقبل اليه العلم فأدبر عنه ، فاقبل يا أمير المؤمنين من أهدى الله اليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل ، لا قبول سمعة ورياء ، فانما هو تنبيه من غفلة ، وتذكير من سهو ، وقد وطن الله نبيه على قبولهما ، فقال تعالى : واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، انه سميع عليم » ٠

٣ ـ حج سليمان بن عبد الملك ، فلمـا قدم المدينـة استدعى أبا حازم الأعرج ، ثم قال له : تكلم يا أبا حازم ٠

قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين ؟ ٠

قال : فى المخرج من هذا الأمر ٠

قال : يسير ان فعلته ٠

قال : وما ذاك ؟ ٠

قال :

ـ لا تأخذ الأشياء الا من حلها ، ولا تضـعها الا فى أهلها ٠

ـ ومن يقوى على ذلك ؟

ـ من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك ٠

ـ عظنى يا أبا حازم ٠

ـ اعلم أن هذا الأمر لم يصل اليك الا بمـوت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار اليك ٠

ـ مالك لا تأتينا يا أبا حازم ؟

ـ وما أصنع باتيانك يا أمـير المؤمنين ؟ ان أدنيتنى فتنتنى ، وان أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له (١) ، وليس عندى ما أخافك عليه (٢) ٠

ـ فارفع الينا حاجتك ٠

---

(١) ليس عندك شيء اريده فاحضر اليك راجيا ان اناله منك ٠

(٢) ليس لدى شيء اخاف أن تأخذه ، فأحضر اليك راجيا الا تأخذه ٠

ـ قد رفعتها الى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت ٠

٤ ـ الأوزاعى يعظ المنصور ٠

دخل الأوزاعى على المنصور فقال له : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : من بلغه عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة من الله سيقت اليه ، فان قبلها من الله بشكر والا فهى حجة من الله عليه ليزداد اثما ويزداد الله عليه غضبا ٠

يا أمير المؤمنين : انك تحملت أمانة هذه الأمة ، وقد عرضت على السموات والأرض (والجبال) فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ٠ وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس فى تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » ٠ أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فما ظنك بالقول والعمل ؟ ٠ أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره ، فقد قال ﷺ : يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوهبا أنفسكما من الله (١) ، فانى لا أغنى عنكما من الله شيئا ٠ وسأل جدك العباس امارة من النبى ﷺ فقال : أى عم نفس تحييها خير لك من امارة لا تحصيها ، (وذلك) نظرا (٢) لعمه وشفقة عليه من أن يلى فيحيد عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا ٠ وقال رسول لله ﷺ : « ما من راع يبيت غاشا لرعيته الا حرم الله عليه رائحة الجنة » ٠ وحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالحق فيهم قائما ، فلا يتخوف (٣) محسنهم رهقا ولا مسيئهم

(١) اسألا الله أن يهبكما انفسكما ويغفر لكما ٠

(٢) رحمة به ٠

(٣) ينتقص ماله ٠

عدوانا ، وقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويردع عنه المشركين بها ، فأتاه جبريل ، فقال : يا محمد ، ما هذه الجريدة ؟ اتركها لا تملأ قلوب قومك رعبا ، فما ظنك بمن سفك دماءهم ، وقطع أستارهم ، ونهب أموالهم (١) ؟ ٠

يا أمير المؤمنين : ان المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر (٢) ، دعا الى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ٠ فقال له جبريل : ان الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك ٠

اعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأهلك الناس رائحته ، فكيف بمن يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الدنيا لأحمه (٣) ، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لاذابته ، فكيف بمن يسلك فيها (٤) ؟ ٠ ويرد فضلها (٥) على عاتقه ؟ ٠

مقامات الوعاظ أمام المنصور

١ ـ عابد لم يعرف :

كان المنصور يطوف بالبيت ليلا فسمع قائلا يقول : « اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ،

(١) يعنى بذلك المنصور نفسه ٠
(٢) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠
(٣) حوله حميما او حمما ٠ (٤) ينظم ويضم فيها ٠
(٥) ما بقى منها ٠

وما يحول بين الحق وأهله من الطمع » فاستدعاه المنصور، فقال له : لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى ، فطلب أمانا فأمنه ٠ فقال :

« يا أمير المؤمنين ان الذى دخله الطمع ، وحال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت ٠٠ ان الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وحراسا معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها ٠٠ ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهو ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير اليك ، ولا أحد الا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك ٠ تجبى الأموال وتجمعها قالوا : هذا خان فمالنا لا نخونه ، فأتمروا ألا يصل اليك من علم أخبار الناس الا ما أرادوا ٠٠ فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ٠٠ وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك ، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت البلاد بالطمع ظلما وبغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل (١) » ٠

وهى عظة طويلة تصور سوء النظام اذ ذاك ، وسوء سلوك المقربين من الخليفة وحجبهم اياه عن الناس كما أن بها توبيخا للخليفة وتخويفا له من سوء حسابه ، وقد تأثر بها المنصور وبكى وقال : ليتنى لم أخلق ، ويحك فكيف

(١) انظر هذه العظة كاملة في عيون الاخبار والعقد الفريد ١٥٩/٣ ، ط لجنة التاليف ٠

أحتال لنفسى ، ولكن عندما قام الخليفة للصـــلاة اختفى الرجل ولم يجده أعوان الخليفة ٠

وربما كانت هذه العظة مصنوعة ، ولكن صنعتها على هذا الوجه تبدى ما كان يشكوه الناس من احتجاب الحكام عن العامة واقامة الوسطاء بينهم وبين الناس ، فهم لذلك لا يشعرون بما يعانيه الناس من ظلم الأعوان والولاة ٠

٢ ـ عمرو بن عبيد والمنصور :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، وعنده ابنه المهدى٠ فقال له أبو جعفر هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ورجائى أن تدعو له ٠ فقال : يا أمير المؤمنين : أراك قـــد رضيت له أمورا يصير اليها وأنت عنه مشغول ٠ فاستعبر أبو جعفر وقال له : عظنى أبا عثمان ؟ ! قال :

يا أمير المؤمنين : ان الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ! هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل اليك ٠ قال : أبا عثمان أعنى بأصحابك؟ قال : ارفع علم الحق يتبعك أهله ٠

ثم خرج فأتبعه أبو جعفر بصرة فلم يقبلها ٠٠ وجعـــل يقول :

كلكم يمشى رويد كلكم خاتل صيد
غير عمرو بن عبيد

٣ ـ مع سفيان الثورى :

لقى أبو جعفر سفيان الثورى فى الطواف ، وسـفيان لا يعرفه ، فضرب أبو جعفر بيده على عاتق ســـفيان وقال :

أتعرفنى ؟ ٠ قال : لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبـــار ، وعرفه ٠ فقال له الخليفة : عظنى أبا عبد الله ٠ قال سفيان: وما عملت فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت ٠ قال : فما يمنعك أن تأتينا ؟ ٠ قال : الله نهى عنكم ، فقـــال تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » ٠ فمسح أبو جعفر يده به ، ثم التفت الى أصحابه فقال ألقينا الحب الى العلماء فلقطوا الا ما كان من سفيان فانه أعيانا فرارا ٠

الاجوبة والمحاورات

يراد بالأجوبة ما يأتى منها على البديهة وبدون روية مع اصابة المعنى وايجاز اللفظ ، وهى تذكر مع الخطب وتلحق بها لأن الخطيب كما ذكرنا قد يقـــاطع من معـــارض له أو متحد ، وقد يكون الموقف ممـــا يحتم أن تكون ثم اجابة ، والسكوت عنها يضيع على المتكلم فرصته أو يســقطه من اعتبار سامعيه أو يضـــيع عليه ما يتطلبه من اقنــاع من يخطبهم ، والاقناع شىء هام فى الخطبة ، وأكثر ما يتعرض لهذا خطباء المحاكم ، ودعاة الانتخابات ، وربما يتعرض له رجل الدين أيضا ولكن ليس كثيرا ٠

وذكر الأجوبة على أى حال فيه تدريب للخطيب ، وفتق للذهن ، وتوجيه الى ما ينبغى أن يقال وما يناسب المواقف المختلفة ، ثم فيما يذكره من أحداث تاريخية ومناســـبات ورد فيها هذا الجواب أو ذاك نوع من الثقـــافة ولون من المتعة والتفكه ٠ والجواب الحاضـــر القاطع يتوقف على الذكاء والجرأة جميعـــا ، ومن فقد الذكاء أرتج عليه ولم يجد ما يقوله ، ومن فقد الجــرأة تلجلج واضطرب ، والى جانب هاتين لابد من المقدرة الكلامية التى تمكن الشخص أن يصوغ كلامه تلقائيا وبدون معاناة فى عبـــارة جذابة طلية ، وبتعبيره الموجز الرصين يؤثر فى سامعيه ويكتسب ميلهم نحوه ، وقد وصف ابن عبد ربه هذه الأجوبة بأنهـــا « أصعب الكلام كله مركبا ، وأعزه مطلبا ، وأغمضه مذهبا ، وأضيقه مسلكا » ٠ والأمر كمـــا ذكر ، وقد وضـــحه بأن المجيب عليه أن ينقض فى لحظة وبكلمات موجزة ما أعده له خصمه ، وحبر عبـــارته ، وأطـــال تفكيره يه ، وهذه الأجابة موقوفة على لحظتها ، فاذا لم توات صـــاحبها فى

حينها عدمت فائدتهـــا ، والعرب يقولون : شـــر الرأى الدبرى (١) ، وهو الذى يأتى بعد فوات الفرصة ٠

وعلى المجيب على أى حال ألا يسرع كل الاسـراع ولا يبطىء ولكن أهم ما يجب له ألا يصدم وألا يرتبك أو يظهر كبير اهتمام ، فاذا عز عليه الجواب السريع أغضى عنـه واستمر فى كلامه ريثما يجد ما يدفعه به ، ثم يعـــرض له بشىء من السخرية والاستخفاف ، وهو فى هذه الحالة لا يؤدى ما يؤديه الجواب السريع ، ولكنه تخلص بوجه ما ٠ والأجوبة الناجحة ، ذات الأثر فى موقفهـا تعين المتدربين على الخطابة لأنها تفيدهم فى بعض مواقفهم أحيانا للتفكهة وأحيانا للتدريب على التخلص من المآزق ، وكثير منها طرف تتفرج بها النفس ، ويستريح لها الخاطر المكدود ، والقلب المهموم ٠ وننقل هنا أطرافا منها لهذه الأغراض ، وبعض هذه الأجوبة تكون اشارة لحادث سبق أو شـعر قيل ، أو نكتة لاذعة ، أو غفلة مخزية ، وفى هذه الحـــالات لا يفهم سامع الاجابة أو المحاورة مغزاها الا اذا عرف ما تشـير اليه من هذه الأشياء ٠

قال ابن عبد ربه : « وأحسن الجواب ما كان حاضرا مع اصابة معنى وايجاز لفظ » ٠ وقيمــة هذه الأجوبة أنهـــا توضح ما يدحض به المجيب على بديهته ما دبره السائل على رويته ، وقد يبهت المتكلم الأول لهذه الاجابة ، وقد يتماسك ويظهر تبلدا حتى لا يخجل أو يضحك السامعين منه ٠

أما اطالة صاحب العقد فى محاورات وأجوبة بنى أمية وبنى هاشم فلأنها صور من التاريخ يجمـــل بالمتأدبين أن يعرفوها ٠

---

(١) الدبرى بسكون الباء ، فتحها ٠

واشتهر فى العرب أشخاص مشهورون بالاجابة المفحمة والرد السريع على البديهة ، وكانت قريش من القبائل المشهورة بالاجابة ، ووصفهم القرآن بأنهم قوم خصمون ، واشتهرمنهم بها أبوالطفيل عامر الكنانى وعثمان بن عفان· وكان يقال : اتقوا جواب عثمان ، واشتهر بالاجابة والفاكهة أبو العيناء ، وبالاجابة الفلسفية أبو الهذيل العلاف · وبالاجابات الجريئة والحكيمة الأحنف بن قيس ، وهاك طرفا من الأجوبة والمحاورات ·

ـ ١ ـ

كان أبو الطفيل عامر بن وائلة الكنانى من المتشيعين الى على بن أبى طالب وكان من شعراء الصحابة المجيدين، وكان من المعمرين · ولد عام أحد ، ومات بمكة سنة مائة ، وهو آخر الصحابة · ومن شعره :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت
على ولكن شيبتنى الوقائع

دخل على معاوية مرة فجرى بينهما هذا الحوار ·

قال له معاوية :

ـ كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟ ·

ـ كوجد أم موسى على موسى · وأشكو الى الله التقصير ·

ـ أكنت فيمن حاصر عثمان ؟ ·

ـ لا ، ولكنى كنت فيمن حضره ·

ـ فما منعك من نصره ؟ ·

ـ وأنت ما منعك من نصره اذ تربصت به ريب المنون ؟ وكنت مع أهل الشام ، وكلهم تابع لك فيما تريد ؟ ·

ـ أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له ؟ ·

ـ بلى ، ولكنك كما قال الشاعر :

لا أعرفنك بعـــد الموت تندبنى
وفى حيـــاتى ما بلغتنى زادى

فسكت معاوية ٠

ـ ٢ ـ

قال معاوية لعمرو بن العاص : ما أعجب الأشياء ؟ ٠

قال عمرو : غلبة من لا حق له ذا الحق على حقه ٠

قال معاوية : أعجب من ذلك أن يعطى من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة ٠

وواضح أن عمرا يعرض بمعاوية أن غلب عليا وعلى صاحب حق ، ومعاوية يعرض بأخذ عمرو مصر طعمة ، وهى ليست حقا له ٠

ـ ٣ ـ

ولى الوليد بن عبد الملك أخاه مســلمة على مصر ، ثم عزله عنها ، فقدم الى دمشـــق ومعه ابل محملة وأمتعة كثيرة ٠ فقال الوليد : أيتها العير انكم لسارقون ٠ فقال مسلمة : ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل ٠

ـ ٤ ـ

دخل عقيل بن أبى طالب على معاوية فقال معـــاوية لأصحابه :

ـ هذا عقيل ، عمه أبو لهب ٠

فقال عقيل : وهذا معـــاوية ، عمته حمـالة الحطب (وكانت جميلة زوج أبى لهب أخت أبى سفيان بن حرب) ٠ ثم قال عقيل له : اذا دخلت النار فاعدل ذات اليســـار ، فانك ستجد عمى أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير : آلفاعل أم المفعول به ٠

— ٥ —

قال معاوية يوما لعقيل :

أنا خير لك من أخيك على ·

فأجاب عقيل : صدقت ، ان أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك ·

— ٦ —

قال رجل من أنصار معاوية لعقيل هذا :

— انك لخائن حيث تركت أخاك ورغبت الى معاوية ·

فأجاب عقيل :

— أخون منى (والله) من سفك دمه بين أخى وابن عمى أن يكون أحدهما أميرا ·

— ٧ —

دخل عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر على رسول الله ﷺ · فقال لعمرو : أخبرنى عن الزبرقان ؟ فقال : شديد العارضة ، مانع لحوزته ، مطاع فى قومه ·

قال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدنى ·

فقال عمرو : أما والله يا رسول الله انه لزمن (١) المروءة ، ضيق العطن (٢) ، أحمق الوالد ، لئيم الخال · فرأى الكراهة فى وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله · فقال : يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية ·

فقال النبى ﷺ : ان من البيان لسحرا ·

(١) الزمن الذى به مرض مزمن لا يصح ، اى هو مريض المروءة لا ينفع الناس بشىء ·

(٢) العطن : مبرك الابل · وضيق العطن : كناية عن البخل ·

ـ ٨ ـ

قال ابن الزبير لابن عباس : قاتلت أم المؤمنين وحوارى رسول الله ﷺ · وأفتيت بتزويج المتعة · فقال ابن عباس: أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخالك (١) · وبنـا سميت أم المؤمنين ، وكنا لها خير بنين فتجاوز الله عنها · وقاتلت أنت وأبوك عليا ، فان كان مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وان كان كافرا فقد بؤتم بسخط الله بفراركم من الزحف · وأما المتعة ، فان عليا رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ رخص فيها فأفتيت بها ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ، وأول مجمر (٢) سطع فى المتعـة مجمر آل الزبير ·

ـ ٩ ـ

ذكر الحسين بن على عند معاوية ، وابن الزبير عنده · فقال معاوية : ان يطلب الحسين هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه ، وان يتركه يتركه لمن هو فوقه ، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا تعطفه قرابة ولا ترده مودة ، يسومكم خسفا ويوردكم تلفا (٣) ·

قال ابن الزبير : اذا والله نطلق عقال الحرب بكتـائب تمور (٤) كرجل الجراد حافاتها الأسل ، لها دوى كدوى الريح ، تتبع غطريفا (٥) من قريش لم تكن أمه براعيـة ثلة (٦) ·

---

(١) يريد الزبير وعبد الرحمن بن ابنبكر ·

(٢) المجمر الاناء : يوضع فيه النار للتدفئة والبخور ونحو ذلك · يريد انكم أول من عمل بالمتعة ·

(٣) تعريض من معاوية بابن الزبير ·

(٤) تضطرب ، ورجل الراد جماعاتها · (٥) الرماح ·

(٦) سيدا ماجدا · واحدها اثلة : شجر ترعاه الماشية ·

قال معاوية : أنا ابن هند أطلقت عقال الحرب ، وشربت عنفوان المكرع (١) ، وليس للآكل الا الفلذة (٢) ، ولا للشارب الا الرنق (٣) ٠

ـ ١٠ ـ

قال الحسن بن على لحبيب بن مسلمة الفهرى (٤) : رب مسير لك فى غير طاعة الله ٠ قال حبيب : أما مسيرى الى أبيك فلا ٠ قال : بلى ، ولكنك أطعت معوية على دنيا قليلة ، فلئن كان قام بك فى دنياك لقد قعد بك فى آخرتك ، ولو كنت اذ فعلت شرا قلت خيرا كنت كما قال الله عز وجل: « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » ٠ ولكنك كما قال الله : « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ٠

ـ ١١ ـ

قدم عبد الله بن جعفر (٥) ، على عبد الملك بن مروان ، فقال له يحيى ابن الحكم : ما فعلت خبثة (٦) ؟ فقال : سبحان الله ! سماها رسول الله (ﷺ) طيبة ، وتسميها أنت خبثة ! لقد اختلفتما فى الدنيا وستختلفان فى الآخرة

---

(١) المكرع : اسم مكان من كرع يكرع اذا شرب بفيه من المساء ، ومعاوية يريد : شربت كثيرا وعلى سعة ٠

(٢) القطعة ٠

(٣) المكدر المخلوط بالطين ٠ يريد تمتعت بالنعم الواسعة حين كان غيرى محروما ٠ وانظر هذه الحادثة فى العقد الفريد ١٠٤/٥ ٠ والبيان والتبين ٩٢/٢ ٠ فهناك اختلاف يسير بينهما ٠

(٤) هو ابو عبد الرحمن حبيب بن مسلمة بن مالك ، كان شجاعا له جهاد كثير ضد الروم حتى سمي حبيب الروم ٠ مات فى خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ ٠ الاصابة ، ط ١٥٩٥ ٠

(٥) هو عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ٠

(٦) يريد طيبة ، وهو اسم المدينة المنورة ٠

قال يحيى : لأن أموت بالشام أحب الى من أن أموت بها ، قال عبد الله : اخترت جوار النصارى على جوار رسـول الله (ﷺ) ٠ قال يحيى : ما تقول فى على وعثمان ، قال أقول ما قاله من هو خير منى (١) فيمن هو شر منهما : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ٠

ـ ١٢ ـ

قال معاوية لابن الزبير : تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى ، قال : لم لا أكون أحق به منك وقد اتبع أبى رسول الله (ﷺ) على الايمان ، واتبع الناس أباك على الكفر ٠

قال معـاوية غلطت يا ابن الزبير ، بعث الله ابن عمى نبيا فدعا أباك فأجابه فمـا أنت الا تابع لى ضالا كنت أو مهـديا (٢) ٠

ـ ١٣ ـ

جلس جماعة من الأمويين عند هشـــام ، وكان فيهم العباس بن الوليد ، فذكروا الوليد بن يزيد (٣) ووصفوه بالحمق ، وكان هشام يكرهه ، فلما دخل الوليد قال له : كيف حبك للروميات ؟ قال ان أباك كان بهن شغوفا ، قال:

(١) يريد نبى الله عيسى عليه السلام ٠

(٢) كان هذا هو الاسلوب الذى يحارب معاوية ابن الزبير به ، اذ يقول له : انهم ليسوا من صميم قريش ٠ واكتسبوا المجد باتصالهم ببني هاشم، السيدة خديجة صارت أم المؤمنين بزواجها من رسول الله ، والزبير شرف بأنه ابن عمته ٠ وهكذا له معه محاورات كثيرة كلها تدور على هذا المحور٠

(٣) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، تولى الخلافة بعد هشام سنة١٢٥ وأمه من ثقيف بنت محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجـاج بن يوسف ، وكانت تدعي أم الحجاج ، وكان هو يكره آل المهلب . وكان ماجنا محبا للهو والطرب والشراب وسماع القيان ٠

انى لا أحبهن · قال : كيف لا يحببن وهن يلدن مثلك (١) ؟ قال العباس : اسكت فلست بالفحل يأتى عسبه (٢) مثلى !

قال له هشام : ما شرابك ياوليد ، قال : شرابك يـ أمير المؤمنين ، ثم خرج فقال هشـــام لجلســـائه : هذا الذى تزعمون أنه أحمق ! ·

ـ ١٤ ـ

قال ثابت بن عبد الله بن الزبير : انى لأبغض أهل الشام، فقال له سعيد ابن عمـــر بن عثمان : تبغضهم لأنهم قتلوا أباك ، قال صدقت : ، لكن المهاجرين والأنصـــار قتلوا أباك ·

ـ ١٥ ـ

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه : مـــا ترون فيها ؟ قالوا : اقتلها ، فقالت له : كان وزراء صاحبك خيرا من وزرائك ؟ قال الحجاج : ومن صـــاحبى ؟ قالت فرعون : استشار وزراءه فى موسى فقالوا : أرجه وأخاه·

ـ ١٦ ـ

أتى زياد برجل من الخوارج فقال له : ما تقول فى وفى أمير المؤمنين قال : أما الذى تسميه أمير المؤمنين فهو أمير

---

(١) كانت أم العباس رومية ·

(٢) العسب : ماء الفحل ·

المشركين ، وأما أنت فما أقول فى رجل أوله لزنية وآخره لدعوة (١) ٠

ـ ١٧ ـ

لقى عثمان بن عفان على بن أبى طالب ، فأخذ يعاتبه فى شىء بلغه عنه ، فسكت على ولم يقل شيئا ٠ فقال له عثمان : مالك لا تجيب ؟ قال على : ليس لك عندى الا ما تحب ، وليس جوابك الا ما تكره ٠

ـ ١٨ ـ

قال معاوية مرة : أيها الناس ٠ ان الله فضل قريشا بثلاث ، قال لنبيه (ﷺ) : وأنذر عشيرتك الأقربين ، فنحن عشيرته ، وقال : وانه لذكر لك ولقومك ، فنحن قومه ، وقال : « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ونحن قريش ! فأجابه رجل من الأنصار : « قائلا على رسلك ، ان الله يقول : وكذب به قومك وهو الحق ٠ وأنتم قومه ٠ ويقول : ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون ، وأنتم قومه ، وقل الرسول (ﷺ) : يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، وأنتم قومه : ثلاث ولو زدتم زدنا » ٠

ـ ١٩ ـ

كن بلال ابن أبى بردة كثير الفخر بجده موسى الأشعرى وكان الفرزدق الشاعر يغيظ بذلك ، فتحدث بلال مرة عن جده فقال الفرزدق :

(١) أوله اتصال أبى سفيان بسمية حراما ، وآخره ادعاء معاوية انه اخوه ٠

ـ يكفيه فخرا أنه حجم رسول الله ٠

ـ لكنه لم يحجم أحدا قبله ولا بعده ٠

ـ لا ، لقد كان أبو موسى أعقل من أن يجرب يده فى رسول الله ٠

فانقطع بلال ولم يفخر أمام الفرزدق ٠

الخاتمة

أخى الداعية الاسلامى :

جمعت لك هذه المعلومات على عجل ، وألفت بينها ورتبتها ترتيبا آمل أن تجد فيه عونا وسهولة لدرس ما كتبت لك ٠

وضعت لك أول الكتاب أطرافا من قواعد الخطابة وأسس تكوينها ، وبصرتك بطريقة تأليف الخطبة وطريق القائها ، ووضعت لك فى هذا من الأمثلة وعرضت من المواقف ما أرجو أن تجد فيه عونا كبيرا على النجاح فى خطبتك ثم النجاح فى مهمتك ، وهى الدعوة الاسلامية ٠ ان مهمتك مهمة شاقة ولا ريب ، ومشقتها تحتم عليك أن تستعد لها عدة كافية ، وألا تغشى ميدانها الا وأنت مسلح بكل الأسلحة التى تخوض بها مثل هذه المعركة ، وأهم أسلحتك طلاقة لسانك ، وحسن تعبيرك ، واصابتك قلب الموضوع الذى تتعرض له ، وما قدمته لك من هذا خليق أن يدربك ويخرجك حتى تكون خطيبا ناجحا ، ان شاء الله تعالى ٠

سئم الناس من زمن بعيد هذه العبارات المكرورة ، والموضوعات المعادة وأصبحوا يطلبون من الخطيب الدينى شيئا جديدا ، يمس حياتهم ولا ينقطع عن ماضيهم ، يردهم الى قواعد الدين فى رفق ، ويعرفهم مزايا هذا الرد فى

الآخرة والأولى جميعا ، وأنت تعلم أن حياة الناس رغم تجدد مظاهرها ومستحدثات آلاتها ، هى صورة واحدة من تصارع الغرائز واضطراب النفوس وغليان الأحقاد .
وأنت تواجه هذا الأتون المضطرم ، لكى تطفىء ناره المتقدة وتعيدها بردا وسلاما ، وسواء فى هذا كسر العصا أو تحطيم المدفع أو خلع أنياب الأسد وقص أظافره ، كل ذلك يرجع الى شىء واحد أساسى ، هو اطفاء ثورة الغريزة ، وتخفيف حدة الأحقاد ، واشاعة روح المودة والاخلاص .

أنت ـ ياخطيب المسجد ـ أشد فاعلية فى نفوس الجماهير من رجل البوليس الحاكم ، ورجل المباحث المستطلع ، والوزير الآمر .. دع عنك رجل المحاماة ووكيل النيابة ومن اليهما .

رجل البوليس فى كثير من الأحيان لا يزيد على شن حرب داخلية بينه وبين المجرمين ، والناس فى أكثر مواقفهم يهابونه ولا يحبونه . أما أنت فانك تقتلع جذور الشر من نفس المجرم ، وتبعث فى نفسه خشية الله وحب الحق والعدل ومعاونة الناس والتخلى عن شىء من حقوقه مرضاة للآخرين ، فأنت توفر على رجل البوليس والقائم على أمن الدولة جهدا كبيرا ، وأعمالا شاقة وان كانوا لا يشعرون ، ان الناس لا يخافونك ولكنهم يجلونك ويحبونك ، ان ميدان عملك هو اصلاح الضمائر وايقاظ العواطف النبيلة فى نفوس الناس ، فعملك هو نفخ الروح فى الأجساد ، وبث الحياة فى الرمم ، وكيف يكون الانسان انسانا متميزا عن عجم الحيوانات الا بروحه وضميره ، وسمو نفسه واستقامة سلوكه ؟

وجهادك فى هذا الميدان يكسوك من البهاء والشرف ما يرفعك فوق الحكام وغير الحكام ، أنت تحاول بناء الضمائر الحية والنفوس العالية · فتبنى بذلك أمتك وترفع مستوى مواطنيك ، فاجعل عملك فى هذا لله وحده وارج منه وحده مثوبتك وجزاءك والله لا يضيع أجر المحسنين ·

ما أردت بهذا اطراءك وانما أردت أن أنبهك الى مشقة عملك وثقل رسالتك ، وما تتطلبه منك من تكوين وحسن استعداد ، ان رسالتك هى رسالة الأنبياء والقديسين ، وما قام أحد بشىء من هذا الا أوذى وعودى ،ولكن حسبك أن تكون مقبولا عند القلة ومرضيا عنك من الله رب العالمين، وبقدر ما تحصل من علم · وتتدبر ما تقرؤه من قواعد وأحداث تسمو نفسك أولا ، وتنجح رسالتك ثانيا · فاحرص بقدر ما تستطيع على سمو النفس ونجاح الرسالة جميعا ، وسبيلك الى هذا هو نيل العلم من شتى معادنه وبكل وسائله ، وأذكرك بالحكمة الغربية « الجهل لعنة الله أما العلم فهو الأجنحة التى تسمو بها اليه » ·

جمعت لك فى هذا الكتاب ــ بعد درس الخطابة ــ فنونا مما يتصل بها ويعين عليها ــ وصايا ومناظرات وأجوبة ومجالس وعظ ··· ولیس شیء منها بعیدا عن الخطابة ولا ضئيل الأثر فى العون عليها ، وأقتطفت لك لمعا من أحداث التاريخ الاسلامى تجد فيها لك مددا وتبصرة وعبرا ·

قلت لك ان حياة الناس صورة معادة ، فان أحداث اليوم هى أحداث الأمس ، وانسان الغابة هو انسان المدينة، غير أن أحدهما يحارب بحجر والثانى يرمى قنبلة ، والأول

يقتل شخصا أو اثنين والثانى يقتل مئـــات من الناس ، والشخص القوى فى الغابة يستولى على مرعى أو بئر ماء أما الشخص القوى المدن فانه يستولى على قطر بأكمله ، ويأكل طعام شعب أو عدد من الشعوب ، ولو نجح الدعاة المصلحون فى تهذيب الغرائز والتســـامى بها كما نجح الماديون فى التسامى بالمبانى واختراع الملكـات لتحولت حياة الناس الى شىء آخر غير ما هم عليه الآن ٠

وأنت اذا رجعت الى تاريخنا الاســـلامى ، وتموجات أحداثه ، وتقدم المسلمين مرة وتراجعهم مرة أخرى وجدت هناك عنصرا واحدا يكاد يكون عاملا مشتركا فى كل هذه الأحداث وبين كل شعوبنا فى مختلف العصور ، ذلك العامل هو صلاح الضمائر تارة وفسادها تارة أخرى ، ودستورنا القرآنى انما يعنى بصلاح الضمائر والقلوب . وأنت حين تقولها كلمة عابرة « انما فسد المســلمون حين تخلوا عن القرآن » ، يعتبرها سامعوك كلمة معادة ، أو عبارة مبتذلة، لكنك اذا أيدتها بأحداث التاريخ وواقع الشعوب وجدت ووجد سامعوك دليلا مقنعا وحجة لا تحتمل الجدال ٠

هذا الكتاب صديقك وسميرك ، ليس من الحتم أن يقرأ كله فى عام دراسى ، ولكن أرى من الختم أن تقــرأة أنت كله ، وستجدك بعد قراءته فى حاجة الى قراءة المراجــع التى اعتمدت أنا عليها وأقتبست منها ٠ وحسبى أن أوقظ فى نفسك رغبة القراءة والمزيد من الاطلاع ، وليست قراءة النماذج التى قدمت لك هينة الأثر فى رفع أسلوبك الأدبى وتفكيرك العقلى ، وامدادك بالرأى والتعبير ، ولكنك بقدر ما تقرأ وتدرس منها تجدك بحــاجة الى المزيد من الدرس والقراءة ، أو بعبارة أخرى تجدك قد تساميت فى نفســك

وأسلوبك وتفكيرك · فاذا انبعث أفراد من قرائى الى هذا الحد فحسبى أن أكون قدمت شــــيئا ما أتقرب به الى الله تعالى ·

اللهم اجعل هذا العمل خالصا لو جهـك الكريم ، فان كان به ما يشوبه من حب الدنيا فتجـاوز عنى بفضــــلك وكرمك ، وكل مثوبة منك ـ ياربى وان قلت هى فيض وبر ورحمة وسعة عطاء ·

اللهم عاملنا بفضلك ورحمتك ، واعف عنا فيما نرتكبه من خطايا وأخطاء ربنـــا عليك توكلت واليك أنبت وأنت حسبى ، منك العون واليك المصير ·

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى خير من دعا الى الله وخير من هدى الى صراط الله المستقيم ·

والحمد لله رب العالمين

العبد الضعيف
عبد الجليل شلبى

الفهـــــــرس

الموضـــوع — الصفحة

رقم الإيداع
٩٩/٧١٠١
I.S.B.N
977 - 5471 - 23 - 0